آن إيدلستام

ثلاث سويديات في القاهرة

رواية

@2Q8

ترجمة: مروة إبراهيم آدم

الدار المصرية اللبنانية

«إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أحَدُكُمْ عَمَلا أنْ يُتْقِنَهُ»

شكر وتقدير للساحر أوز لولا تبرعاته لما أتمت العديد من هذه الاعمال النادرة

مكتبة الكندل العربية

هذا الكتاب رسالة احتجاج للناشر على عدم توفيره الكتب في متجر امازون كندل.

https://t.me/knowledge_transfer

همسة للقارئ/القارئة

اذا اعجبك أي كتاب قراءته اشتريه سواء نسخة الكترونية او رقمية دعماً للمؤلف والناشر.

تنويه

استخدمت الكاتبة في النص الأصلي بعض الكلمات، والتعبيرات المُستقاة من اللهجة العامية المصرية، مثل: «أيوه، سعيدة، اتفضلوا، مفيش مخ.. إلخ»، وقد

أبقت المترجمة على هذه الكلمات، والتعبيرات في النص المترجم حفاظًا على روح النص الأصلي.

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أسرتي وجميع أصدقائي المصريين الذين شاركوني في تلك الرحلة الرائعة.

آن إيديلستام

تقديم

بقلم: بطرس بطرس غالي

يُعد « ثلاث سويديات في القاهرة» عملًا رائعًا، حيث يتسنى لنا من خلال القصص الأصلية لثلاث بطلات من

ثلاثة أجيال لعائلة سويدية أن نتعرف على التطور

والتحول الذي حدث في مصرعلى مدى ثلاثة عقود هامة.

يكشف لنا الكتاب عن ثلاثة مصائر متشابكة: الجدة التي كان زوجها قاضيًا في المحاكم المختلطة، والابنة التي تزوجت من السفير السويدي في القاهرة، وأخيرًا

الحفيدة - كاتبة هذا العمل - التي تلقت تعليمها في القاهرة.

من خلال مصائر السيدات الثلاث تتكشَّف لنا مراحل مهمة في التاريخ المصري المعاصر. ثلاث لقطات خاطفة متناقضة في حراك أمة يتم استعراضها، فمن خلال

الجدة نتعرَّف على نضال مصر ضد الاستعمار، سعيًا للاستقلال، حيث كانت القاهرة مدينة أنيقة كوزموبوليتانية منفتحة على الآخر، وبرغم تعدادها السكاني

الذي بلغ مليوني نسمة، فقد كانت مكانًا ساحرًا.

ومن خلال الأم التي نشأت وسط القصور والمنازل الفاخرة ذات الطراز الأورُبي في القاهرة نتعرف بعمق على الثورة السياسية التي حوَّلت مصر من مَلَكيَّة إلى دولة

اشتراكية تحكمها السلطة، وأخيرًا تصف الكاتبة الثورة السكانية التي حوَّلت مصر إلى ما آلت إليه اليوم من مدينة مكتظة يقطنها عشرون مليون نسمة، تمتلئ

بالصخب والتلوث.

تكمن أصالة هذا العمل، ليس فقط في كونه مكوَّنًا من عدة أجزاء منفصلة تجتمع معًا لتكوِّن رؤية للتاريخ

المصري، إنما أيضًا في التناقض الصارخ بين الواقع المؤلم

الذي تكتشفه مؤلفة الكتاب بعد سنوات من الغياب، وبين عمق الذكريات الساحرة، التي انتقلت عبر الأجيال في عائلتها، فتعطي لنا آن إيديلستام بذلك شهادة

موثقة؛ لنشاركها شغف ثلاث سيدات من السويد بمصر صاحبة الستة آلاف سنة من الحضارة.

بطرس بطرس غالي

(الأمين العام السابق للأمم المتحدة)

الفصل الأول

أسيل الذهب السويدي

كان يوم الخامس والعشرين من يونيوعام 1888 يومًا عاصفًا لا يُنسى، في أعقاب احتفال السويد بمنتصف الصيف.

بدت رانهيلد بشعرها الأشقر المعقود بعناية في ضفيرتين تتموجان خلف أذنيها كثعبانين، وكعادتها دائمًا كانت مشغولة، بينما تصببت من بين نهديها الكبيرين

قطرات العرق.

«لا بد أن أتوقف عن الإرضاع»، تنهَّدت رانهيلد، وبينما كانت ترفع أكمامها، تسللت إلى أنفها رائحة لا يمكن أن تخطئها، رائحة خشب يحترق.

سمعت رانهيلد زوجها يصرخ من بعيد ويقول: «البيت يحترق.. أحضري الأطفال وأسرعي»..

هرولت إلى النافذة لترى ألسنة اللهب الصفراء والبرتقالية تنبعث من كل مكان كقطيع من الغربان

يتدافع في السماء.

«لا أستطيع أن أرى أي شيء، لقد أُصيبت عيني»، صرخت رانهيلد.

سرعان ما ملأت الأدخنة البيت الخشبي الصغير، وأحكمت رانهيلد قبضتها على عربة الأطفال، بينما تعالت صرخات الطفل الرضيع چوناس، وتسمَّرت ألفهيلد،

الابنة الكبرى، في ذهول.

«ثوبي الجديد!»، تركت رانهيلد الأطفال خارج المنزل، ثم أسرعت مرة أخرى صوب الداخل متجاهلة تحذيرات زوجها، وإذا بها ترفع الجونلة الطويلة البيضاء اللون

وتصعد الدرج.

«أين هو؟»

تفحَّصت رانهيلد غرفة نومها بنظرة يكسوها الجنون، حتى رأت ثوبها الحريري، أمسكت به وكانت على وشك البحث عن صندوق مجوهراتها حتى سمعت صوتًا

يشبه الرعد.

«سطح المنزل يتهاوى»، سمعت رانهيلد تحذيرات زوجها، فوثبت في الوقت المناسب لترى النيران تندلع في المنزل بأكمله.

وقف الزوجان بملابسهما المتسخة والمغطاة بالرماد، بينما يلتصق شعرهما بجبينهما؛ ينظران بذهول إلى ما كان يومًا ما سكنهما ومصدر رزقهما. نظر كل منهما

صوب الغرب لا ليرى شيئًا سوى الدمار والحزن. تسارع الناس والألم يمزقهم لينقذوا ما قد فُقد للأبد. بحلول المساء كان الدمار قد حلَّ تمامًا بالبيوت الخشبية

جنوبي المدينة، وأصبح سكان المدينة بأكملها بلا مأوى، وبرغم هذا الدمار الشامل، لم يمُت سوى خمسة أشخاص فقط.

حتى هذا اليوم المشؤوم، كانت حياة رانهيلد وألفريد مليئة بالأمل والتطلع لمستقبل مضيء. سمع ألفريد في الأعوام الماضية عن رواج المدينة الساحلية؛ فقد ذكر كل

مَن انتقل إلى ساندس ڤال أن التجارة هناك تشهد رواجًا حقيقيًّا بفضل الترسانة وموارد الخشب والصلب واستيراد الملح.

قال ألفريد لوالديه وقد ارتسم على ملامح وجهيهما الذهول والقلق: «سوف أنتقل إلى ساندس ڤال».

- ولكن ماذا ستفعل هناك؟

- لا تقلقا. يبدو أنه يوجد هناك العديد من الفرص، وعلى أي حال ساندس ڤال أقرب من أمريكا التي يتجه الجميع إليها.

تنهد والد ألفريد الذي بدَا أقل تفاؤلًا، وبارك سفر ابنه.

كانت رانهيلد تقطن ساندس ڤال آنذاك، حيث نشأت وترعرعت، واعتادت عيناها على رؤية السفن تُبحر أعلى وأسفل الساحل، ولم تكن رائحة نشر الخشب

والنجارة تغادر أنفها حتى يحين موعد العشاء.

تم بناء الترسانة في منتصف القرن التاسع عشر، في مقاطعة ساندس ڤال، وعندما ألغت إنجلترا الرسوم على استيراد الخشب المقطَّع شعر والدا رانهيلد بسعادة

غامرة.

أعرب والد رانهيلد عن سعادته قائلًا: «أخيرًا يمكننا كسب المال هنا»، ثم أضاف لزوجته: «هنالك العديد من غابات شجر الصنوبر حولنا، سأصبح رجلًا غنيًّا.

أستطيع أن أؤكد لكِ هذا»، كان والد رانهيلد متحمسًا للغاية.

قالت والدة رانهيلد مشيرة إلى المكان الذي تعرفه، حيث ينموالكرز تحت أشجار الصنوبر أعلى التل: «المهم ألا يقوموا بقطع كل الأشجار، حيث أذهب لجمع عيش

الغراب.. لا ينبغي قطع كل الأشجار».

«لا نستطيع أن نحصل على جميع الأشجار»، قال والد رانهيلد عابسًا.

أحبَّت رانهيلد أوقات التنزُّه في نهاية الربيع وفي الخريف، حيث تذهب والدتها إلى الغابة لجمع عيش الغراب. كانت صلصة عيش الغراب، والمشروم المصحوب

بفليتو الغزال، ومربى التوت؛ الطبق المفضل لرانهيلد.

في هذا الوقت وصل ألفريد إلى المنطقة التي تشهد رواجًا وتشتهر بتوسعها واحتياجها للعمالة، ولكونه مشغول البال بحياته الجديدة، قلقًا على مستقبله، آثر

الجلوس على المرفأ بجانب شاب آخر وصل حديثًا إلى ساندس ڤال.

سأل ألفريد الشاب الآخر بينما رفع سرواله إلى أعلى: «من أين أنت؟»

- من قرية صغيرة تُدعى هاسيل باي تبعد مئات الكيلومترات عن هنا عانينا من سوء الطقس هذا العام وتعفُّن محصول البطاطس، لي سبعة إخوة ووالدي قد

طاله العجز، فعزمت على المجيء إلى هنا لأكسب المال وأُطعم الآخرين.

تحدث الشابان عن موطنيهما وعائلتيهما، بينما جلسا يحدقان في البحر.

«لم أرَ هذا الكم الهائل من الحطب عائمًا من قبل.. انظر، الماء يمتلئ بالحطب العائم»، قال ألفريد هذا وقفز ليستقر به الحال واقفًا على الحطب العائم.

«انتبه، قد يصيبك الأذى»، صاح كنات، صديق ألفريد الجديد.

استقبل ألفريد هذا التحذير بضحكة صادقة نابعة من القلب، ضحكة دائمًا ما كانت تميزه بالمنزل، ضحكة كانت كافية لدعوة الآخرين لمشاركته الضحك.

«انظر، سفينة بخارية».

قفز ألفريد عائدًا إلى الشاطئ، جلس الاثنان يحدقان بانبهار حيث لم يرَ أي منهما سفينة بخارية طيلة حياته.

قرأ كنات اسم السفينة: «نورلاند».

«لا بد أنها السفينة التي تبحر عبر الشاطئ من ستوكهولم شمالًا حتى هاباراند. لقد قررت وعقدت العزم على الحصول على وظيفة على متن هذه السفينة».

لم يكن ألفريد مهتمًّا بالسفن، لكنه كان يحب الطهي والاختلاط بالناس.

«سوف أفتتح مطعمًا، لكنني سأعمل في البداية بجمع الحطب حتى أحصل على بعض النقود»، لم يكن ألفريد من الأشخاص الذين يقلل العمل الشاق من عزيمتهم.

قال كنات: «ثق أني سأتوقف للحصول على وجبة شهية من مطعمك قبل الإبحار».

رد ألفريد: «ستحصل على وجبة مجانية، أعدك بهذا، لقد جلبت لي الفأل الحسن برفع معنوياتي».

ودَّع ألفريد وكنات بعضهما، وكل منهما يخطو صوب حياة جديدة بتفاؤل شديد شأنهما شأن أي شاب صغير في مقتبل العمر.

صدق ألفريد حيث افتتح مطعمه «كهف البحارة»، وكان المطعم في شكل مبنى خشبي جميل، يقع عند مدخل البوغاز بجانب صف من كبائن الصيادين.

كان والد رانهيلد دائمًا يتناول طعامه في مطعم كهف البحارة بعد أن أصبح رجلًا ثريًّا، وفي يوم من الأيام أحضر ابنته معه منطلقًا من باعث خفي في نفسه، كانت

رانهيلد آنذاك في العشرينيات من عمرها، وخجولة إلى حد كبير.

قال والد رانهيلد لألفريد وهو يرمقه بنظرة لا تخلومن لمعة مضيئة: «يبدو أنكما في نفس العمر، أليس كذلك؟»

همس والد رانهيلد في أذنها بصوت مبحوح لا يستطيع ألفريد سماعه قائلًا: «لا تنظري أسفل إلى الطبق، تحدثي معه».

ترك والد رانهيلد ابنته مع ألفريد لفترة طويلة، أطول مما يجب، حتى يتعرَّفا على بعضهما البعض بدون أي إزعاج. كان الزواج في تلك الأيام في شمال السويد

عبارة عن عقد أو ترتيب تقوم به العائلات. ساور القلق والد رانهيلد حيال مستقبلها، حيث إن معظم الفتيات

اللاتي في عمرها قد تزوجن.

أخذ والد رانهيلد يحثها على الزواج قائلًا: «حان وقت الاستقرار»، إلا أنها أصرت على عدم الاهتمام بفكرة الزواج، معلّلِة ذلك بأنها تريد أن تعمل، لا أن تصبح مجرد زوجة لرجل.

لم تستطع رانهيلد الصمود طويلًا أمام حماس والدها الجارف فرضخت للزواج. أما ألفريد فقد شعر بالدهشة كون فتاة مثل رانهيلد تهتم بشاب مثله ذي أصول اجتماعية متواضعة.

تم زواج رانهيلد من ألفريد في الرابع عشر من شهر أبريل عام 1884 في كنيسة مدينة لوثيران، وبالكاد استطاع ألفريد أن يحتفل مع رانهيلد بزواجهما، حيث تدفق

الزبائن على المطعم ليستمتعوا بأطباق ألفريد الشهية الشهيرة: السلمون المملح الطيب المذاق، مع شرائح البصل المغلفة براقات من ورق الجرائد المبتل؛ لتوضع على النار وتُطهى في السائل الذي يقطر من السلمون. اشتهر ألفريد أيضًا بطبق البطاطس المسلوقة المصحوبة بصلصة «البشَمِل» وكثير من «الشَّبَت».

حذر ألفريد زوجته قائلًا: «منذ الآن، سيكون المطعم جزءًا من حياتك».

كان بيت رانهيلد وألفريد أعلى المطعم.

قال ألفريد: «أن يمتلك المرء مطعمًا يعني أن يتواجد باستمرار للاطمئنان على رضى الزبائن وسعادتهم بالخدمة المقدمة إليهم للتحقق من جودة الوجبات والخدمة».

«ليس لديَّ أي مانع للعمل معك». قالت رانهيلد ذلك وهي تشعر بسعادة وحماس لكونها وجدت الزوج والوظيفة معًا حتى تشعر بذاتها وقيمتها من خلال

العمل، وهكذا أصبحت رانهيلد امرأة مستقلة عاملة بدلًا من كونها مجرد زوجة، ولقد تعلمت رانهيلد الطبخ مما ساعدها كثيرًا.

استقر الزوجان في عملهما، يعملان جنبًا إلى جنب لساعات طويلة مرهقة حتى يستطيعا خدمة وإطعام العدد المتزايد من الزبائن. شاعت سمعة المطعم الطيبة

بين أصحاب السفن والقباطنة.

«يعمل المطعم بشكل جيد، سوف أطلب ترخيصًا للعمل حتى منتصف الليل»، قال ألفريد في بداية عام 1888 ، ذلك العام المصيري.

شعرت رانهيلد بالقلق. «ماذا عن الحركة المناهضة للكحوليات؟ أنت تعرف مدى قوة تلك الحركة».

في أثناء الحروب العديدة التي خاضتها السويد على مدى قرنين من الزمان، خاصة الحرب مع روسيا، تُوفي العديد من الأزواج تاركين زوجاتهم بدون أي عائد مادي

لإطعام الأطفال، وعليه تقرر حينها السماح للزوجات بفتح أكشاك لبيع المشروبات الروحية القوية. نجحت تلك الأكشاك بشكل كبير حتى أصبحت الكحوليات

تمثل مشكلة رئيسية، ومن هنا ظهرت دعوات للمقاطعة، كما ظهرت حركة أخلاقية تدعو إلى مناهضة الكحوليات وما زالت تلك الحركة منتشرة، هذا إضافة إلى

احتكار الحكومة للكحوليات.

قال ألفريد دون التخلي عن ثقته المعهودة بنفسه: «يا لها من سخافة! هناك العديد من الشخصيات الهامة تتردد على المطعم وسوف أطلب مساعدتهم».

وبعد أسابيع قليلة حصل ألفريد على الترخيص.

«سوف أرسل في طلب ثياب جديدة من ستوكهولم لحفلة منتصف الصيف احتفاءً بهذا الإنجاز. أريد أن يكون القماش جميلًا، من الحرير ربما. ثوب أصفر اللون

منقوش عليه ورد الربيع حتى يتماشى مع إكليل الزهور الذي سأعده خصيصًا لنا».

ما زال احتفال منتصف الصيف عادة قائمة في السويد ترجع أصولها إلى القراصنة، ويتم الاحتفال بأقصر ليلة في العام. انطلق الزوجان للاحتفال في هذا العام

المصيري شأنهما شأن العديد من أبناء البلدة.

البعض كان يرتدي الملابس المحلية للرقص والغناء. زُينت أكاليل الزهور على شكل صليب، كما طُعمت بأوراق وفروع الشجر وورد من الحقل. يعشق سكان السويد

الاحتفالات، ولم يكن ألفريد أو رانهيلد باستثناء.

صاح الاثنان في آنٍ واحد والكلمات تتلعثم على شفاههما من فرط السعادة والحماس قائلين: «يا لها من حفلة رائعة! الساعة الآن الثانية صباحًا والشمس تُشرق،

وقريبًا سيستيقظ الأطفال».

لا تغيب الشمس عن ساندس ڤال في شهر يونيورغم شهور الشتاء التي لا تنتهي.

كان الزوجان في قمة السعادة يجهلان ما يخبئه لهما القدر في الأيام القليلة المقبلة. كان اندلاع النيران شائعًا في السويد نظرًا للبيوت الخشبية التي يقطنها السكان،

تلك البيوت التي كان يدفئها الموقد وتضيئها الشموع، إلا أن الحرائق التي شهدتها ساندس ڤال هذه المرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ السويد، حيث انتشرت

بسرعة لا مثيل لها.

بكى ألفريد وسط الدخان المتصاعد وحطام ما كان يومًا منزله قائلًا: «لقد حاولت إنقاذ المطعم لكنني لم أفلح.. لقد قمت بأفضل ما يمكن القيام به، لكنني لم أفلح

في إنقاذ شيء سوى ثيابي!»

بدا الفزع على وجه ألفريد وهو يقول: «ألم يكن باستطاعتك أخذ شيء ذي قيمة؟ المجوهرات مثلًا أو مدخراتنا، لم يتبقَّ لنا شيء ولدينا أربعة أفواه يتوجَّب علينا

إطعامها».

قالت رانهيلد: «كيف سنحيا بدون منزل ومورد رزق؟ أين سننام الليلة؟».

بالرغم من أن رانهيلد دائمًا ما كانت مفعمة بالحيوية، فإنها لم تستطع هذه المرة أن تجد طريقة للخروج بها من هذا الشقاء.

قال ألفريد وهو يعتدل في جلسته: «لا تقلقي، ليست هذه المرة الأولى التي أبدأ فيها من الصفر، سأعيد بناء حياتنا لتعود أفضل مما كانت عليه. انتظري وستري

بنفسك». كان ألفريد ذلك النوع من الرجال الذي نشأ

على الأحزان والشدائد.

«هيا بنا لنبحث عن مأوى». قال ألفريد في محاولة منه ليطمئن هو وزوجته على السواء، وقد تطلَّب منه الأمر عناءً كبيرًا ليقاوم دموعه حتى لا تنهمر على وجنتيه.

بدأ الزوجان السير، ألفهيلد ممسكة بيد أبيها، ورانهيلد تدفع بعربة الأطفال بصعوبة بالغة وسط الشوارع الموحشة، ورماد الحريق الذي لا يزال يُحلِّق في عنان

السماء ليكسوها، وسط الآلاف من سكان ساندس ڤال الذين أصبحوا في ليلة وضحاها بلا مأوى، يبحثون عن الخلاص في مستقبل حائر.

وإذا بصوت ينادي وسط هذا الشقاء. إنه كنات.

«لقد رست سفينتي منذ قليل عندما رأيت الدخان المتصاعد في الميناء. كنت أبحث عن وجبة أخرى في مطعم كهف البحارة».

توقف كنات عن الحديث عندما رأى تعبيرات وجهي الزوجين المتجهمة .

همس ألفريد بنظرة خاوية: «لقد ضاع كل شيء».

سأل كنات: «إلى أين تتجهان الآن؟»

قالت رانهيلد: «سنحاول البحث عن والديَّ».

قال كنات: «سأذهب معكما لأتأكد أن كل شيء على ما يرام. حان الوقت لأرد لكما بعضًا من كرمكما المعهود معي».

ابتسم كنات بحزن مشاركًا الزوجين عناءهما وسط حطام البيوت التي ما زالت تحترق، ثم قال لألفريد: «أتتذكر ماذا حدث بعد أن حرقت القوات الروسية المدينة؟

بعد أن حلَّ الدمار في عام 1721 ، لم يكن هناك مبنى واحد في المدينة سوى الكنيسة وأبراج الأجراس. سترى كيف سنعيد بناء المدينة لتصبح أكثر جمالًا وروعة».

قال ألفريد مساعدًا رانهيلد في دفع عربة الأطفال التي التصقت عجلاتها بالرصيف الساخن والتهب سطحها بسبب النيران الثائرة: «سنرى».

قالت رانهيلد: «حمدًا لله أن والديَّ قد احتفظا بمنزلهما الكبير، لكن

لا يمكننا أن نقيم نحن الأربعة معهما!»

أخيرًا وصل الزوجان وكنات إلى منزل الوالدين الذي يقع في ضواحي المدينة. أسرع الوالدان للترحيب بهما وهما سعداء كون رانهيلد وعائلتها

لا يزالون على قيد الحياة. تبادل الجميع الأحضان والقبلات وسط دموع أبت إلا أن تنهمر على عكس ما هو معهود من تحفظ سكان الشمال، بينما وقف كنات

ساكنًا يشعر بالخجل.

قال والد رانهيلد: «تفضلوا بالدخول. سأطلب من الخادمة وضع الغلاية على الموقد».

وكعادة الإنجليز مع الشاي، يعشق أهل شمال السويد القهوة التي تُعد بالنسبة لهم علاجًا لكل المواقف. جلس الرجال حول مائدة المطبخ وفي يد كل منهم فنجان

من القهوة الساخنة وقطع من الحلوى والبسكويت، أما رانهيلد ووالدتها فقد صعدتا الدرج، ولم تستطع أي منهما أن تتبين شيئًا من الحديث سوى بعض

الكلمات المتفرقة مثل «سلفة» و«إعادة بناء».

قالت والدة رانهيلد: «لا تشعري بالقلق، سوف أعتني بالأطفال لِيتسنى لكِ مساعدة زوجك حتى يقف على قدميه مرةً ثانية».

أصبح والد رانهيلد، كما تعهَّد لها ذات يوم، رجلًا ثريًّا، ذا ثروة متراكمة، جمعها من تصدير الخشب. كانت الفيلَّا التي يقطن بها مثالًا نموذجيًّا للبيت الخشبي

الأنيق المطلي باللون الأصفر الفاتح وأُطر النوافذ المطلية باللون الأخضر الزيتوني الغامق، أما الحديقة فكانت خصبة تتفتح بها الزهور برغم حرارة الطقس. كانت

أشجار التفاح، والكمثرى على وشك النضج في الخريف والبيت بأكمله مُحاط بسور خشبي.

قالت والدة رانهيلد لتطمئِن ابنتها: «كل شيء سيكون على ما يرام».

رويدًا رويدًا بدأت الحياة في الازدهار مرة أخرى، فسرعان ما تنافس المهندسون المعماريون بالسويد وأورُبا لإعادة بناء ساندس ڤال بطراز فاخر، ومن هنا اكتسبت

ساندس ڤال اسمها الجديد «المدينة المكسوة بالحجر»، حيث تم إعداد خطة في عام 1889 لبناء ساحة المدينة ومباني للشقق السكنية لا تتجاوز أربعة طوابق. برغم

فداحة أضرار الحريق، اكتست المدينة بثوب جديد يمزج بين الطراز المعماري القوطي، وطراز عصر النهضة المعماري الجديد، وطراز الباروك.

فقد ألفريد مطعمه، لكنه لم يفقد زبائنه، فبمساعدة زوجته والسلفة السخية التي اقترضها من والد رانهيلد،

استطاع أن يفتتح مطعمًا جديدًا، وسرعان ما أتت هيلدا، الطفلة الثالثة، إلى العالم. وُلدت هيلدا في عام 1889 ، نفس العام الذي أُنشئ فيه برج إيفل بباريس كرمز لأورُبا الحديثة.

قال ألفريد عندما وُلدت هيلدا: «إنها نتاج عملنا وحبنا للحياة، هدية السماء لنا عوضًا عمَّا لاقيناه من شقاء في حياتنا الجديدة التي أعدنا بناءها».

قالت رانهيلد وهي غير متأكدة تمامًا من صحة كلامها: «نعم، هناك حياة جميلة في انتظار هيلدا، فهي تمثل روح المغامرة».

إعادة بناء المدينة خلق مجتمعًا مختلفًا تمامًا عن الذي عرفه كل من ألفريد ورانهيلد. اختطف الأثرياء المنازل الحجرية وسط المدينة ما دفع كثيرًا من الأشخاص

الأقل ثراءً إلى خارج المدينة، وأصبحت المدينة مقسمة إلى جزءين: جزء مُخطَّط له، وجزء غير مُخطط له.

اتبع التنظيم الجديد نفس الطريق القديم الذي أصبح الطريق الرئيسي للمدينة، كما أصبح أيضًا الشارع المفضل لهيلدا.

كانت العائلة تنعم ببيتها الجديد في وسط المدينة عندما حلَّت بها فاجعة أخرى. كان يومًا خريفيًّا مشمسًا جميلًا، والمطعم يعج بالزبائن رغم حلول المساء، وكانت

رانهيلد في منزلها مشغولة بأطفالها عندما سمعت طرقًا قويًّا على الباب.

صاح أحد عمال مطعم زوجها قائلًا: «بسرعة، بسرعة».

أمسكت رانهيلد بشالها وتبعت الرجل، وعندما وصلت إلى المطعم كان الوقت متأخرًا، حيث وقعت عينها على

زوجها الممدد على أرض المطبخ بلا حراك.

«اطلب الطبيب»، أصرت رانهيلد رغم أنها أدركت الحقيقة في قرارة نفسها.

وصل الطبيب ألفستورم على دراجته، وفحص ألفريد من أعلى نظارته. لم يكن أحد يمتلك دراجة في المدينة سوى الطبيب ألفستورم، والطبيب المشرف أتاكسي.

«أممم»، تمتم الطبيب بشفتيه بعد أن مر وقت بدا كدهر بأكمله لرانهيلد.

قال الطبيب بشكل قاطع، وبصوت ناعم، بينما رمق رانهيلد بنظرة عطف: «يبدو أنه كان يعاني من مشكلة في شريان القلب».

«لكن، لكن كيف؟ لقد كان بصحة جيدة عندما تركته!»، لم تستطع رانهيلد استيعاب ما حدث.

قال الطبيب ألفستورم: «لا نعرف الكثير عما حدث. لست واثقًا، لكني أستطيع التخمين أنه عاش طويلًا بهذه الحالة دون حتى أن يدرك. لقد حدث هذا مع شاب صغير من قبل. كم يبلغ زوجك من العمر؟»

« 31 عامًا فقط»، أجابت رانهيلد وهي تبكي بشدة.

حاول الطبيب أن يواسيها فمكث معها فترة أطول مما تتطلبه مهنته كطبيب. كان هذا في عام 1892 ، أي بعد الحريق المدمر بأربعة أعوام. كان من الصعب على رانهيلد أن تواجه مستقبلًا غامضًا للمرة الثانية.

«لن أقوى على مواجهة ذلك، ثلاثة أطفال، ومطعم يحتاج إلى مَن يديره، كما أنني لم أسدد دَيني بعد»، انتحبت رانهيلد وهي جالسة في المساء.

كان يوم الجنازة شديد البرودة، تحولت فيه أوراق الأشجار إلى اللون الأحمر والبرتقالي الجميل، وفي مثل هذا الوقت من العام في الخريف، كانت أشعة الشمس

باهتة لا تبعث الدفء. وقف راعي الكنيسة، الذي تعرفه العائلة حق المعرفة، يستقبل مشيعي الميت خارج الكنيسة، حيث تناقضت وجوه المشيعين الباهتة

وشعرهم الأشقر اللامع مع ملابسهم القاتمة. كانت الكنيسة التي تُجرى فيها المراسم صغيرة، مكتظة بالجمع الذي أتى لمشاطرة العائلة أحزانها، حيث لم تنجُ

كنيسة المدينة الكبرى من الحريق الغاشم. كانت الكنيسة الصغيرة تتبع الطراز المعماري القوطي، وغير مكتملة البناء بعد.

وصلت رانهيلد إلى الكنيسة في ثوبها الأسود الطويل وقبعتها الدائرية المطعمة بطرحة صغيرة تتدلى على وجهها لتغطي نصفه. استقر الكفن الموضوع في الصندوق

الخشبي بجانب مذبح الكنيسة، بينما أحاطته الشموع. وقف راعي الكنيسة خلف الكفن، بينما سارت رانهيلد عبر ممشى الكنيسة، وهي تمسك يد هيلدا الابنة

الصغرى البالغة من العمر ثلاث سنوات، بينما تبعهما الابن والابنة الكبرى؛ ليقف الجميع في الصف الأمامي.

تم غناء بعض الترانيم ووُزعت المزامير ومعها نبذة مختصرة عن المتوفى. وقف جمع من الحاضرين لغناء المزمور الأول، ثم بدأ راعي الكنيسة في التحدث ممتدحًا

شجاعة المتوفى، وحاثّا عائلته على أن تحذو حذوه. قليلون هم الذين تمكنوا من التوقف عن البكاء في ذلك اليوم العصيب.

في نهاية المراسم، ذهب الجميع، وأولهم أسرة المتوفى، لوداعه الوداع الأخير. قام ستة رجال أقوياء بحمل النعش، وكان بينهم كنات، صديق ألفريد المقرب. كانت

الأرض لزجة بفعل أوراق الخريف المتساقطة. بعد الوداع الأخير ومراسم الدفن، شعر الجميع ببرد قارس كعادة الطقس في الخريف.

بعد انتهاء المراسم، تم دعوة المشيعين في الكنيسة لتناول الحساء الدافئ وبعض الشراب وحلوى خاصة بمراسم الدفن مغلفة بورق أسود وأبيض اللون، كما

أصرت رانهيلد على وجود الكعكة المغلفة بالكريمة والمزينة بالشوكولاتة على شكل صليب. لا شك أن رؤية هذا الجمع من الأصدقاء والأقارب كان مصدر راحة

لرانهيلد.

حث الزبائن والأصدقاء رانهيلد على فتح المطعم واستئناف العمل به قائلين: «يجب أن تكملي مسيرة ألفريد في المطعم».

قالت رانهيلد، وقد غلبتها مشاعرها وأعياها التعب: «لا أدري إن كنت أستطيع هذا. أرى ألفريد في كل ركن في المطعم».

رجعت العائلة إلى المنزل بدون الأب والزوج. غاص كل منهما في كرسي المطبخ الخشبي وسبح كلٌّ في أفكاره. سريعًا ما بدأ الأطفال في لعب الاستغماية

وأخذت

رانهيلد ترقب وجوههم البريئة والحزن في عين چوناس وألفهيلد، أما هيلدا فقد كانت صغيرة جدًّا على أن تستوعب ما يحدث حولها. أصبح چوناس رجل البيت

وهو في الخامسة من عمره، أما ألفهيلد فقد كانت ضعيفة. كيف ستتحمل موت والدها؟ دائمًا ما كانت ألفهيلد هشة رقيقة، ما أقلق والدتها كثيرًا.

«يجب أن أعمل. لا يمكنني أن أجلس هكذا وإلا سيزداد الأمر سوءًا»، وماذا عساها أن تفعل غير ذلك؟
استجمعت رانهيلد قواها، وبعد أسابيع قليلة تغيرت

علامة «مغلق» التي وُضعت على باب المطعم لتحل محلها علامة «مفتوح». وقفت رانهيلد ترحب بضيوفها والابتسامة تعلو وجهها. لم يكن ذلك بالأمر اليسير،

فالأطفال ما زالوا صغارًا، إلا أن والدتها تدخلت مرة أخرى لتساعدها، حيث قضى الأطفال معظم أوقات الظهيرة يلعبون في حديقة والدي رانهيلد، ويحتسون

مشروب الشوكولاتة الساخن في المطبخ.

أصرت رانهيلد أن تقدم لأطفالها تعليمًا يليق بهم كأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، على الرغم مما يتطلبه ذلك من عمل شاق، وعليه قررت رانهيلد إرسال الابنة

الصغرى هيلدا إلى فرنسا لتتعلم اللغة الفرنسية وهي في الحادية عشرة من عمرها، حيث أقامت مع عائلة فرنسية في جرينوبل.

قالت رانهيلد لهيلدا: «أريدك أن تصبحي سيدة العالم، وتتحدثي الفرنسية بطلاقة. لا توجد طريقة لتعلُّم أي لغة أفضل من سماع أهلها وهم يتحدثونها».

قالت هيلدا: «ولكني لا أريد أن أذهب بمفردي. أشعر بالخوف الشديد. كيف سأتعرف على العائلة الفرنسية التي سأقيم معها عند وصولي إلى المحطة؟»

ردت رانهيلد: «لا تقلقي، سأتدبر الأمر».

وهكذا ذهبت هيلدا إلى فرنسا، وحول رقبتها ورقة مكتوب عليها عنوان العائلة التي ستقيم معها. لا بد أن الرحلة كانت ناجحة، حيث كانت هيلدا - بعد ذلك -

تتحدث الفرنسية بطلاقة، ولم تدرك وقتها كيف سيكون تعلم اللغة بهذه الأهمية، أثبتت هيلدا جدارة كبيرة حيث كانت سريعة التعلم، مبتهجة، وذات بنية

جسدية قوية ورثتها عن رانهيلد على عكس ألفهيلد التي كانت تقضي أغلب الأوقات في السرير.

سألت هيلدا أمها: «ماذا بها يا أمي؟»

أجابت رانهيلد وهي تحاول أن تخبئ ما يساورها من قلق: «لا أدري.. سأطلب من الطبيب أن يأتي لرؤيتها مرة ثانية».

وصل الطبيب ألفستورم وأكد أن ألفهيلد ضعيفة جدًّا.

- يجب أن تظل بالفراش حتى تتعافى.

- هل تدري ما بها؟

- لست أدري بدقة ما بها، ولكن دقات قلبها سريعة بشكل غريب. قد يكون هذا بسبب الضعف الذي تعاني منه.

- أرجو أن تأتي قريبًا لرؤيتها، فأنا أشعر دائمًا بالراحة عندما تأتي.

في ذلك الوقت كان عمل رانهيلد في ازدهار وتوسع،

حتى إنها فكرت في أن تلحق بالمطعم فندقًا. راودتها الفكرة بعد موت زوجها بفترة قصيرة، حيث أرادت رانهيلد أن تكرم زوجها وأن تحتفظ بالعائلة والعمل معًا، وها هي الفكرة تتحول الآن إلى واقع ملموس بعد أن كانت مجرد حلم غامض. أصبحت ساندس ڤال رويدًا

رويدًا مدينة أنيقة على الطراز الحديث. ذاع صيت رانهيلد كامرأة رائعة تدير عملًا ناجحًا، وتعمل بجد لساعات طويلة، وترعى أولادها. امتدح الزبائن مطبخ رانهيلد

لما يقدمه من أشهى وألذ المأكولات، كما أبدوا رضاهم عن مناخ المطعم المريح الهادئ.

قالت رانهيلد لأولادها: «لديَّ شيء أريد أن أخبركم به».

سأل چوناس: «ماذا؟»

- سأفتتح مطعمًا جديدًا يعلوه فندق. نستطيع أن نعيش فيه، وسأطلق عليه اسم «كهف البحارة»، نفس اسم مطعم والدكم القديم. لقد وجدت المكان أيضًا

وهو قريب من مكان المطعم القديم عند الميناء الجديد.

- لكن كيف ستتدبرين الأمر؟

- أنا ابنة أبي!

أجابت رانهيلد، واعتلى وجهها بريق لامع. أليست رانهيلد ابنة الرجل الذي تعهد بأن يصبح غنيًّا وأصبح هكذا بالفعل؟! لقد مضى وقت الأحزان، وأتى وقت التوسع في العمل.

صرخت ألفهيلد منادية رانهيلد: «آه، آه، آه، أمي».

أسرعت رانهيلد إلى سرير ابنتها، ووجدتها تعاني من ألم حاد في ذراعها اليسرى، وبالكاد تتنفس. طلبت رانهيلد

من چوناس إحضار الطبيب بسرعة، وهي في حالة من الهلع.

أتى ألفستورم بدراجته كالعادة وبأسرع ما يكون، وكان يخشى الأسوأ نظرًا لوهن الطفلة الشديد. كانت ألفهيلد ترتجف وتتمزق من الألم عندما وصل ألفستورم.

«سأعطيها جرعة قوية من المورفين حتى يتوقف الألم».

تضرعت رانهيلد إلى الله وهي جالسة بجوار ابنتها: «إلهي، فلتدعها تحيا».

حاول چوناس أن يُظهر بعضًا من الشجاعة، وخاصة أنه قد أصبح رجلًا شابًّا طويل القامة، وأشقر مثل والده. بدأت هيلدا في البكاء.

على الرغم من مرض ألفهيلد وعدم قدرتها على اللعب مع هيلدا، إلا أنها كانت دائمًا ما تحيط هيلدا برعايتها، فكانت مبعثًا للراحة خاصة في أوقات غياب رانهيلد

عن المنزل وانشغالها بإدارة المطعم. بدأت هيلدا في الدعاء، بينما تعالى صوت بكائها.

قالت رانهيلد بعطف: «خفضي صوتك هيلدا، ألفهيلد تحتاج إلى الراحة».

لم تستطع رانهيلد إيقاف هذا السيل الجارف من الأفكار التي اجتاحتها. ربما تعاني ألفهيلد من نفس المرض الذي قتل أبيها. يعني هذا أن المرض قد يصيب چوناس

وهيلدا أيضًا، إلا أن رانهيلد طردت هذه الأفكار الأليمة من مخيلتها.

«سأذهب إلى عملي، وستصبح ألفهيلد بخير، فلقد تعافت من قبل عدة مرات، وسيستطيع الطبيب أن

يعالجها، فهو رجل عطوف وماهر»، قالت رانهيلد لنفسها.

لم يستطع الطبيب أن يجزم ما إذا كانت ألفهيلد ستقوى على مواجهة أزمة قلبية أخرى، وبالتأكيد لم يكن باستطاعته علاجها. لم تكن جراحات القلب متقدمة في

هذا الوقت. كان من الممكن أن يموت شخص بسبب نزلة برد، كما كانت نسبة الوفاة مرتفعة جدًّا.

شرحت رانهيلد لچوناس وهيلدا قائلة: «يجب أن نتقبل إرادة الله أيًّا ما كانت».

عاشت ألفهيلد لمدة يومين فقط، وفي صباح اليوم الثالث لم تستيقظ. دفنت رانهيلد جثمان ألفهيلد في السابع والعشرين من شهر مايو لعام 1901 . كانت ألفهيلد

تبلغ من العمر آنذاك خمسة عشر عامًا.

قالت رانهيلد لوالدتها: «يجب أن أستمر في العمل لأوفر لچوناس وهيلدا حياة كريمة».

صدقت رانهيلد حيث اشترت منزلًا حجريًّا يحمل رقم خمسة في شارع البحر بمبلغ ثمانين ألف ريال سويدي. كان هذا المبلغ يُعد ثروة في ذلك الوقت. انتقلت

العائلة إلى المنزل الجديد الذي تحول بعد ذلك إلى فندق «كهف البحارة».

قالت رانهيلد لفريق العمل وهي تشعر بالفخر: «لقد طرزت فوط السفرة الكتان بأول حرفين من اسمي: ر. أ».

أصبح الفندق بشرفته المطلة على الميناء من أكثر الأماكن التي يتردد عليها الزبائن في ساندس ڤال، كما أصبح أكثرها أناقة، حيث يأتي في المرتبة الثانية بعد

فندق

نوست. فقد أدولف نوست أيضًا فندقه في خريف عام 1888 ، إلا أنه استطاع أن يقف على قدميه مرة ثانية ليس ما فقد. جلب نوست المهندس المعماري الشهير

سفن ليصمم له الفندق والمطعم. على الرغم من كون رانهيلد ونوست منافسين لبعضهما البعض في مجال العمل، إلا أن رانهيلد كانت تستمتع كثيرًا بصحبة

نوست، وحديثهما عن العمل والحياة. من أشهر نوادر نوست وفندقه تاجر الخشب الثري الذي اعتاد أن يتسلق الدرج ممتطيًا جواده.

قال نوست لهيلدا ضاحكًا عندما ذكرته بتلك الواقعة في إحدى زياراتها: «كان هذا الرجل مستحيلًا، لكنه اعتاد أن يدفع بسخاء، فكيف لي أن أرفض وجوده؟».

بدأت تلك الليلة مبكرًا، وانتهت في وقت متأخر بلعب البلياردو وتدخين السجائر وشرب الكحوليات.

- كان هذا يوم خميس، أليس كذلك؟

- بلى، يوم حساء البسلة.

- السويديون أسوأ من الأجانب في شرب الكحوليات. هل تذكر عندما أقام الملك سيام بفندقك أثناء جولته في أورُبا؟ وهل تذكر سفينة الإبحار الضخمة التي كان يمتلكها؟

- كيف لي أن أنسى تلك الأيام؟ وتلك الحفلة الرائعة التي أُقيمت؟

- لم أقم في حياتي بإعداد هذا الكم الهائل من اللحم، أتمنى ألا يأتي مرة ثانية بصحبة رفاقه من رجال الريف.

قالت ضاحكة، حيث إنها قد ساعدت في إعداد الطعام في تلك الليلة، أكملت رانهيلد حديثها مع نوست قائلة: - لكنني لم آتِ إلى هنا فقط للحديث معك، سوف أذهب للتزحلق على الجليد مع زوجتك، فكلانا تحتاج إلى استنشاق الهواء المنعش، وممارسة بعض التمارين.

عادة ما كانت رانهيلد تذهب للتزحلق على الجليد مع توتان نوست، زوجة أدولف نوست، فوق المنحدرات المجاورة لجبال أريسكوتان، الأمر الذي لم يكن يخلومن المخاطرة، خاصة بارتدائهما للجونلات. لم يبدأ بناتهن في ارتداء البنطلون للانزلاق على الجليد حتى عام 1915 ، الأمر الذي اعتبره البعض جرأة غير عادية في ذلك الوقت.

لم تحظَ رانهيلد بأوقات فراغ كثيرة، فدائمًا ما كانت منشغلة بفندقها «كهف البحارة». رجعت رانهيلد إلى المنزل لتخبرها الخادمة بأن هناك مَن ينتظرها في الشرفة.

جلس الطبيب كارل أوتو ألفستورم محدقًا صوب «فينسكا فايكن»، الخليج الفنلندي، حيث مرسى قوارب المسافرين التي تُبحر عبر المدن والقرى الساحلية.

تفحصت رانهيلد الطبيب خلسة دون أن يلاحظها. كان ألفستورم رجلًا وسيمًا لا يقل وسامة عما كان عليه في أول لقاء لهما. أفاق ألفستورم من شروده ليجد رانهيلد أمامه، فهبَّ واقفًا لتحيتها بابتسامة كبيرة.

«تفضلي بالجلوس، أريد أن أتحدث معك»، قال ألفستورم.

جلست رانهيلد، وما زال اللون الأحمر يكسو وجنتيها

بفعل هواء الجبل المنعش، بينما تناثر الثلج الأبيض على شعرها وجبينها. خلعت رانهيلد قبعتها، وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة تحمل الكثير من الرضى والسرور.

«تبدين جميلة وسعيدة اليوم»، بدأ ألفستورم الحديث، وأضاف: «لقد كنت، لقد كنت أفكر في أمرنا»، تلعثمت الكلمات على شفتيه.

«وماذا بعد؟»، حاولت رانهيلد تشجيعه على مواصلة حديثه، فلقد بدأت معرفتهما منذ سنوات طويلة. قالت رانهيلد: «لقد كنت دائمًا خير عون لي في الأوقات العصيبة».

قال ألفستورم: «لقد أظهرتِ شجاعة كبيرة في مواجهة الصعاب، لكن هناك ما هو أكثر من ذلك. إنني أقدر صحبتك كثيرًا، وأصبح من الصعب أن أبتعد عنكِ».

ثم صرح ألفستورم أخيرًا: «رغم كوني عزبًا ولي عاداتي التي أصبحت جزءًا من حياتي، فإنني قد أدركت أن حياتي بدونكِ وبدون الأولاد خاوية، وأعتقد أنه.. ربما يجب أن نتزوج».

ردت رانهيلد: «أود ذلك، لكنك بالطبع تتفهم حقيقة الأمر. ينبغي أن أفكر مليًّا، كما يجب أن أتحدث مع الأولاد».

كانت رانهيلد في الثالثة والأربعين من عمرها، امرأة مستقلة يصعب أن يقودها رجل، أما ألفستورم فلم يتزوج من قبل. كانت رانهيلد مغرمة بالطبيب، وتحمل له من الحب ما يجعلها تقوى على الاعتراف لنفسها. لم يبدأ الأمر بالهوس والولع، إنما كان حبًّا عميقًا ينمو بجرأة وثبات ليجد طريقه إلى قلبها. كانت رانهيلد تدرك

تمامًا الإجابة عندما بدأت التفكير، إلا أنها لا تستطيع أن تكف عن القلق حيال رد فعل چوناس. هل سيقبل أبًا بديلًا وهو في سن السابعة عشرة؟ لقد كان چوناس

الرجل الوحيد في العائلة منذ موت أبيه وحتى هذه اللحظة بكل ما يحمله هذا من ميزات.

جلست رانهيلد تتفقد صندوق النقود في وقت متأخر من الليل بعد أن غادر آخر زبون. قرأت رانهيلد عن الاختراع الأمريكي الجديد، جهاز يقوم بتسجيل النقود

الواردة وطبع الإيصالات. بدا لها هذا اختراعًا رائعًا، إلا أنها لم ترَه من قبل، ولا تعتقد أنه متاح في السويد. قررت أن ترسل في طلب هذا الجهاز من الولايات المتحدة

الأمريكية.

أتى چوناس لمساعدتها في وضع المقاعد في أماكنها. قالت رانهيلد: «لديَّ شيء أريد إخبارك به». سألها چوناس دون أن يعيرها انتباهًا حقيقيًّا قائلًا: «ماذا؟»، قالت

رانهيلد بسرعة خاطفة: «أفكر في الزواج من شخص أثق أنك ستحبه».

- لا، لا يمكن، لا تقولي إنه هذا الطبيب ألفستورم.

- نعم، إنه الطبيب ألفستورم، رجل محترم، وطبيب، وأخوه عمدة المدينة. ماذا عساك أن تطلب أكثر من هذا؟

- ماذا عن أبي؟

- سأظل دائمًا أحب والدك، لكنه رحل منذ زمن بعيد، ومضى على وفاته أكثر من اثني عشر عامًا. ألفستورم رجل رائع، وعطوف، ويحبك، كما أنني أحببته.

- لن أستطيع التأقلم مع هذا الرجل أبدًا.

ترك چوناس الغرفة وهو يستشيط غضبًا.

على الرغم من اعتراض چوناس، تم التنويه عن الزواج في الثامن والعشرين من شهر نوفمبر 1904 . لم يكن هذا هو التغيير الوحيد الذي يجب على كل من

چوناس وهيلدا مواجهته، فقبل أشهر قليلة من الزواج فاجأت رانهيلد أولادها بإعلان آخر.

بعد فصل صيفي مزدهر عمل فيه المطعم بكل طاقته، صارحت رانهيلد أولادها برغبتها في بيع الفندق والمطعم.

«لكن لا يمكنكِ فعل هذا، إنه مصدر رزقنا»، صاح چوناس.

«وهو مطعم أبي أيضًا»، قالت هيلدا.

«أعلم هذا، لكن لن يكون من اللائق أن تكون زوجة الطبيب الشهير ورئيس القطاع الصحي العام مالكة مطعم».

«أهو مَن قرر هذا؟»، تساءل چوناس، والغضب يشتعل داخله.

«لا، لقد كانت فكرتي، فأنا أعلم طريقة تفكير سيدات علية القوم،

ولا أريد أن أكون مادة للحديث الدائر على الألسنة. في الحقيقة، لقد رفض ألفستورم في بادئ الأمر».

«لكنكِ دائمًا ما كنتِ تؤكدين على أهمية استقلالك»، قالت هيلدا باعتراض.

«أعلم هذا، لكني حظيت بكثير من الاستقلال، وعملت بكد لسنوات طويلة، والآن أريد بعض التغيير، أريد أن

أكون امرأة يُعتنى بها، سترون كيف ستكون حياتنا مليئة بالأصدقاء والحفلات، ولن يكون لديَّ أوقات فراغ».

وهكذا باعت رانهيلد المطعم والفندق عام 1904 بمبلغ 110 آلاف ريال سويدي، وتم إعلان الزواج بعد شهرين من البيع. لم تمثل النقود أي مشكلة، فلقد أصبحت

رانهيلد امرأة ثرية، أما كارل أوتو ألفستورم فكان يربح الكثير من المال من عمله كطبيب، حتى إنه كان يعالج الفقراء بالمجان. انتقلت رانهيلد إلى منزل زوجها

ومعها أولادها. كانت هيلدا آنذاك فتاة في سن الخامسة عشرة، حسنة الخلق، واستطاعت أن تستقر في حياتها الجديدة بسهولة. أحبت هيلدا الأب البديل حتى

إنها اعتبرته بمثابة أب حقيقي لها، وأصبحت تساعده من آنٍ لآخر. لم يكن چوناس سعيدًا، حيث كان يقضي معظم أوقاته خارج المنزل ليرجع في وقت متأخر من

الليل، ورائحة الخمر تفوح من فمه، وعندما واجهته رانهيلد، رفض التحدث إليها وآثر أن يترك الغرفة.

بعد ثلاث سنوات، اشترى ألفستورم أرضًا في وسط المدينة، بالقرب من الميناء؛ ليبني بيتًا مكونًا من أربعة طوابق على الطراز الحديث.

صرح ألفستورم في يوم للعائلة أنه طلب من المهندس المعماري الشهير إيدڤارد بيرن هارد أن يصمم لهم منزلًا حجريًّا أنيقًا، وأضاف أنه ستكون به غرف للجميع،

ولعيادته أيضًا.

«أريد أن أزينه بالخشب، وأن تكون حوائط المنزل مطلية بلمسة لا تخلو من الجمال»، قالت رانهيلد، بحماس جارف.

قالت هيلدا دون خجل: «وأنا أريد مكانًا كافيًا للبيانو الكبير حتى أستطيع أن أعزف كل يوم بدون إزعاج».

«ماذا عنك چوناس؟»، سألت رانهيلد ابنها.

«أنا لا أهتم بأي شيء من هذا».

تم بناء المنزل في شارع ستبورجاتين، وما زال المبنى قائمًا حتى الآن ومدرجًا ضمن المباني المهمة لقدمها وعتاقتها. انتقل ألفستورم سريعًا من حياته كعزب، إلى حياته كزوج محب للحياة الزوجية والمنزل.

«لقد أصبحتِ ماهرة في فن إعداد حفلات الاستقبال»، قال ألفستورم لزوجته التي كانت تعد لحفلة عشاء راقص، حيث يُقدم مشروب الشمبانيا الفاخر، والكافيار الروسي، والجندوفلي.

«بعد سنوات من العمل الشاق، أريد أن أسعد نفسي وأن أسعدك أنت أيضًا يا عزيزي»، قالت رانهيلد بسعادة.

«سأعزف للضيوف إن أردت»، قالت هيلدا حيث كانت تعزف وتغني في الحفلات مزيجًا من الألحان الكلاسيكية والأغاني السويدية الشعبية.

«يبدو أن دروس الغناء في برلين قد أتت بثمارها. لديك أذن موسيقية مثل ابن عمك چين بورلين الذي سيكون له مستقبل رائع كراقص، سترين ذلك»، دار هذا الحديث قبل أن يبدأ چين وحبيبته رولف دي مار الباليه السويدي في باريس بسنوات. لم يحقق ما قدَّماه أي نجاح مادي، أما على الصعيد الفني فقد كان الاثنان ألمع ثنائي راقص في ذلك الوقت.

قال كارل أوتو ألفستورم: «لا يهم من أين ورث هذا

الصوت الجميل، المهم أنها دائمًا ما تسحر ضيوفنا».

قالت هيلدا: «يعجبني الحال عندما يشاركني الضيوف الغناء. ربما أصبح عازفة بيانو عندما أكبر».

اعتادت العائلة على حياتها الجديدة فيما عدا چوناس الذي كان يرفض تقبل ألفستورم كأب بديل.

«فلنذهب جميعًا في رحلة»، اقترح ألفستورم على رانهيلد.

«سيسعد هذا چوناس، ربما يفضل الذهاب إلى إيطاليا».

درس ألفستورم في ألمانيا، وكان يتحدث الألمانية بطلاقة، ويعشق زيارة ألمانيا، كما أنه قد ذهب في رحلات طويلة إلى روسيا التي كانت

لا تزال إمبراطورية في ذلك الوقت.

«هيلدا، أعدي نفسك للذهاب إلى إيطاليا. ستكون رحلة ثقافية، وستتعلمين الكثير عن الإمبراطورية الرومانية»، قالت رانهيلد والابتسامة تعلو وجهها.

تم الإعداد للرحلة، وفي آخر لحظة، أعلن چوناس عدم ذهابه حتى يضايق ألفستورم.

قال ألفستورم: «حسنًا، سنذهب نحن. رانهيلد، أرسلي الحقائب الكبيرة إلى محطة القطار ولا تنسي من فضلك بدلة السهرة لحضور حفلات العشاء».

كانت رانهيلد ممزقة ما بين زوجها وابنها، فهي تحب الاثنين، ولا يوجد في وسعها شيء آخر تستطيع القيام به. ذهبت رانهيلد إلى إيطاليا مع زوجها على أمل أن

تكون هذه الفترة كافية لچوناس لكي يهدأ.

كانت الرحلة رائعة، وكان من الممكن أن تكون أجمل في

حالة ذهاب چوناس، إلا أن الأسوأ كان ينتظر رانهيلد، فعندما رجعت إلى ساندس ڤال عثرت على رسالة

من چوناس وضعها على سريره يقول فيها: «لقد هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لا تحاولي العثور عليَّ - چوناس». كانت رانهيلد في حال لا يُرثى لها.

«لا أصدق أنه فعل هذا بي. لا بد أن أذهب للعثور عليه».

قال ألفستورم: «لكنكِ لا تعرفين عنوانه. كيف سيمكنكِ العثور عليه؟»

ردت رانهيلد: «سآخذ هيلدا معي، كلانا سيقوم بالبحث عنه».

وهكذا وجدت رانهيلد نفسها مع ابنتها هيلدا على متن سفينة تعبر الأطلنطي صوب بلد مترامي الأطراف لا تعرف عنه شيئًا، ولا تجيد لغته، في محاولة يائسة

للعثور على ابنها الذي لا يريدها أن تعثر عليه.

الفصل الثاني

الحب والفقد

شعرت هيلدا بالإثارة والسعادة لسفرها إلى العالم الجديد الذي طالما تحدث أصدقاؤها عنه، لكنها كانت حريصة على ألا تُظهر ذلك لوالدتها التي كان القلق

يعتصرها. شعرت هيلدا ببعض الغيرة من چوناس الذي تمتع بروح المغامرة، إلا أنها استطاعت أن تخبئ مشاعرها.

تساءلت هيلدا وهي جالسة إلى جوار أفضل صديقاتها لينيا: «لا أدري لماذا لم يخبرني بخططه؟!».

قالت لينيا في محاولة لبعث الراحة في نفس هيلدا:

«ربما خشي أن تخبري والدتك».

حاولت هيلدا أن تمنع دموعها وهي تقول: «لكن أن يغادر هكذا دون أن يودعنا. أشعر بالحزن الشديد. ربما لن أستطيع رؤيته مرة ثانية».

قالت لينيا التي لم تذهب أبعد من ضواحي ساندس ڤال: «بالتأكيد ستعثرون عليه، لا يمكن أن تكون نيويورك بهذه المساحة الهائلة».

قالت هيلدا: «أعتقد أنه أراد تكرار نموذج أبي الذي أتى إلى ساندس ڤال بحثًا عن حظ أفضل في الحياة. لقد ذهب العديد من أصدقائنا قبله إلى العالم الجديد».

ردت لينيا: «ربما شجعه چوستاف ليذهب معه، لم أشعر يومًا بارتياح لهذا الشخص، فهوجاف، وغير عطوف».

قالت هيلدا: «يسهل التأثير على چوناس. أتمنى ألا يكون قد أوقع نفسه في أي مشكلة مع چوستاف هذا!»

لم يكن چوناس الوحيد الذي هاجر إلى العالم الجديد، فما بين عامي 1860 و 1929 ، هاجر ما يقرب من نصف مليون سويدي إلى أمريكا الشمالية، وكان أكثرهم

يعاني من الفقر، خاصة أن محصول البطاطس لم يؤتِ ثماره. كان كل منهم يحلم بحياة جديدة أفضل، إلا أن چوناس كانت لديه أسباب أخرى للرحيل نظرًا

للحياة المريحة التي حظي بها في ساندس ڤال. ربما كانت حياته مريحة أكثر مما يجب. هل أراد الهروب من شخص ما أو شيء ما؟ على الرغم من كل شيء، كانت

هيلدا سعيدة بسر چوناس وحياته الخفية الجديدة.

كتب الروائي السويدي العظيم ويلهيلم موبيرج العديد من الروايات عن هؤلاء المهاجرين، كما تم إنتاج أفلام

مبنية على أحداث رواياته، وأخرجها مخرج الأفلام السويدي چان طرويل.

في عام 1893 ، بدأ إنشاء طريق جديد مباشر بين السويد وأمريكا. ذهبت هيلدا مع والدتها إلى شركة السياحة في وسط المدينة، حيث رأت هناك صورة السفينة التي ستبحر بهما لأول مرة.

«انظري، إنها تتكون من عدة طوابق»، صاحت هيلدا.

أجابتها رانهيلد: «نعم عزيزتي».

- أين سنقيم؟

- في الطابق العلوي من السفينة، في الدرجة الأولى، سيعجبك هذا بالتأكيد.

«يجب أن تذهبا قبل السفر بيومين إلى جوهانسبرج، ومن هناك ستأخذكما السفينة مباشرة إلى نيويورك»، قال الموظف.

«ألا توجد طريقة للسفر مباشرة من ساندس ڤال؟»، سألت رانهيلد.

«للأسف، لا توجد طريقة أخرى. يُعد هذا تحسنًا كبيرًا للسفر عبر إنجلترا، كما أن جوهانسبرج تُعد ميناءنا الأكبر. سيتم الاعتناء بحقائب السفر طول الطريق، حيث سيتم تحميلها على القطار، ثم مباشرة على السفينة لتستقر الحقائب في نهاية الأمر في الكابينة الخاصة بكم»، أكد الموظف لرانهيلد.

تم إعداد حقائب السفر الكبيرة. وُضعت بها الملابس اليومية، وملابس السهرة، والقبعات، والأحذية للمناسبات المختلفة مثل حفلات الرقص. أصبحت هيلدا

الآن

فتاة رشيقة في أوائل العشرينيات من عمرها.

قالت هيلدا لصديقتها لينيا: «سوف آخذ معي الفستان المزركش بالدانتيل والشريط الأحمر الوردي».

«فلتعدينني أن تكتبي لي. مَن يدري؟ ربما تقابلين هناك رجل أحلامك الوسيم ليتناسب مع جمال وجهك وشعرك الأسود الكثيف»، قالت لينيا لهيلدا، ونبرات

صوتها تنم عن الإعجاب وهي تنظر إلى ضفائر هيلدا الطويلة التي تصل حتى ردفيها. كانت ملامح هيلدا مختلفة عن الشكل المتعارف عليه في السويد، حيث تمتلئ

السويد بالشقراوات ذوات الأعين الزرقاء.

قال كارل أوتو ألفستورم مودعًا رانهيلد: «أتمنى لكِ رحلة آمنة، كما أتمنى أن تعثري على چوناس، وتأتي به معك».

قالت رانهيلد : «سنقوم بأقصى ما في وسعنا»، وانطلقت مع ابنتها هيلدا.

وصلتا إلى محطة قطار جوهانسبرغ في ظهيرة نفس اليوم، واستقلتا عربة يجرها الخيل أخذتهما إلى الميناء الضخم.

«يوجد العديد من السفن هنا. شيء لا يصدقه عقل»، قالت هيلدا.

«إنه حقًّا ميناء ضخم. يبدو ميناء ساندس ڤال كالقرية الصغيرة إذا ما قُورن بضخامة هذا الميناء، أليس كذلك؟!»، قالت رانهيلد.

بعد بحث قصير استطاعتا أن تجدا سفينتهما التي كانت

تشبه سفينة «تيتانيك» لكنها أصغر حجمًا، ستأخذهما السفينة إلى الجانب الآخر من الأطلنطي في غضون أسبوعين.

«سأساعدك حتى تصعدي إلى متن السفينة»، قال السائق.

ردت رانهيلد وهي تُحكم قبضتها على القبعة الجديدة حتى لا تطير في الهواء: «شكرًا لك، فالأمر ليس سهلًا خاصة في ظل تلك الرياح العاصفة».

حياهما القبطان وبصحبته أحد الضباط قائلًا: «أهلًا بكما».

صعدت هيلدا إلى السفينة برشاقة، وهي تمسك بذيل فستانها المزخرف بالورد.

«أمي، هذه الكابينة رائعة، إنها من الخشب الماهوغاني».

كانت الكابينة مكونة من سريرين تفصلهما منضدة خشبية عليها مصباح من النحاس الأحمر يلقي بظلاله الخضراء، صُنع خصيصًا للقراءة.

قالت رانهيلد: «لقد فكروا مليًّا في كل شيء، فهذه الكابينة الصغيرة تحتوي على كل ما يمكن للمرء أن يحتاجه».

قامتا بتفريغ الحقائب، حيث توجد أدراج أسفل السرير كافية لوضع الملابس المطوية، كما يوجد دولابان لتعليق الثياب.

انطلقت السفينة بمجرد الانتهاء من تفريغ الأمتعة.

قالت هيلدا، وهي تحث رانهيلد على الحركة: «هيا نصعد على ظهر المركب».

قالت رانهيلد، وقد تمكن الحزن من صوتها: «وداعًا للسويد. أمريكا، نحن في الطريق إليك! انظري لهذا الكم الهائل من الأشخاص الذين يلوحون بأيديهم مودعين

أحبابهم. كم أتمنى لوكان كارل أوتو ألفستورم معهم ليودعنا».

هيلدا: «تعلمين كم هو مشغول مع مرضاه».

«نعم، أعلم، وبما أنك في رفقتي فسيفتقد ممرضته المفضلة».

تعودت هيلدا أن تساعد ألفستورم في تمريض مرضاه.

انطلقت السفينة لتشق طريقها في المياه، بينما كانت الأمواج تعلو في صخب.

هيلدا: «يا إلهي، أشعر بالغثيان».

«فلتستريحي قليلًا. سأتوجه للعب الورق مع الآخرين»، خرجت رانهيلد من الكابينة الخانقة.

قالت هيلدا لنفسها وهي تشعر ببعض الضيق: «لا يمكن أن أمرض الآن وأنا في هذه الرحلة المثيرة»، كان للهواء النقي مفعول السحر. هدأت أمواج البحر بعد قليل

وزال تعب هيلدا التي قررت الذهاب للجلوس في ردهة استراحة السفينة.

جلست هيلدا على مقعد المركب الخشبي، غطت ساقيها بالبطانية، وألقت نظرة على المحيط الواسع، حتى وقع نظرها على الضابط الذي حياها عند وصولها. كان

مرتديًا زيه الأبيض المكوي بعناية والبنطلون ذا الثنايا المفرودة بدقة، كأنها تلقي تحية عسكرية، بينما تلمع أكتافه بالميدالية الذهبية، ويتدلى الشريط الموضوع

بعناية عبر صدره ليستقر تحت الحزام الأسود. أبعدت هيلدا عينيها سريعًا وتظاهرت بعدم رؤيته.

خاطب الضابط هيلدا وقد اعتلت وجهه ابتسامة عريضة قائلًا: «مساء الخير، كيف حالك؟»

وهنا أجابته هيلدا على استحياء: «شكرًا لك، لست بخير إلا أن الهواء المنعش قد ساعدني».

«يتطلب الأمر بعضًا من الوقت حتى تعتادي على البحر. ستكون الأمواج هادئة بقية اليوم، كما ستبدو السماء صافية. سيساعدك هذا على التحسن»، أكد الضابط لهيلدا ثم ذهب ليتجول.

جاءت رانهيلد قائلة: «أنتِ هنا إذن. لقد كنت أبحث عنكِ في كل مكان. ظننت أنكِ متعبة».

قالت هيلدا: «إنكِ دائمًا قلقة. أشعر بتحسن كبير. شكرًا لك».

لم تخبر رانهيلد عن الضابط الوسيم الذي تحدث معها، حيث شعرت بالخجل.

«رائع، فلنذهب إلى الكابينة ونبدل ثيابنا استعدادًا للعشاء».

استغرق الأمر بعض الوقت لفحص الثياب الأنيقة التي يمتلئ بها الدولاب.

«لقد هدأت أمواج البحر. ربما نستطيع الرقص. سأرتدي الثوب الأزرق الغامق والحذاء ذا الكعب المنخفض حتى لا أتعثر»، قررت رانهيلد.

«أتمنى ألا يكون الطقس سيئًا حتى أستمتع بوقتي»، علَّقت هيلدا.

«تبدين رائعة في ثوبك الجديد. دعيني أضع لكِ هذه الوردة المصنوعة من الحرير في شعرك لتبدي أكثر جمالًا»، قالت رانهيلد وهي تنظر إلى هيلدا بإعجاب.

بالكاد استطاعت هيلدا أن تخفي سعادتها. كانت تتمنى في قرارة نفسها أن ترى الضابط الوسيم مرة أخرى.

قالت هيلدا وهي لا تقوى على الانتظار: «فلنذهب إلى قاعة الطعام».

قال القبطان لرانهيلد وهيلدا: «تفضلا بالجلوس».

«فلتجلس ابنتك بجانب الضابط»، قرر القبطان قبل أن تنطق رانهيلد بكلمة واحدة.

قال الضابط بصوت عسكري، ثم مدَّ يده ليصافحها بعد أن خلع القفاز الأبيض: «اسمي فابين ليباك».

شعرت هيلدا بوجنتيها تحمرَّان خجلًا. لم تستطع هيلدا في أثناء العشاء أن تتابع المحادثة التي دارت بين رانهيلد والمسافرين الآخرين حول أفراد عائلاتهم الذين هاجروا إلى أمريكا، ونصيبهم من الحظ أو الشقاء. كانت هيلدا تفكر باستمرار في الضابط. تطلب الأمر كثيرًا من الجهد لتركز فيما يدور حولها. أخيرًا انتهت المحادثات والحوارات الجانبية، وبدأ الرقص.

صاحت هيلدا وقد اختفى خجلها مع أول نغمة موسيقية: «أحب الرقص!»

«اسمحي لي!»، أخذ فابين يد هيلدا ورافقها إلى حلقة الرقص، بينما ركزت رانهيلد انتباهها عليهما.

«لا أريد لهذه الرحلة أن تنتهي. أستمتع بوقتي كثيرًا. أرقص بالليل، وأتجول على ظهر السفينة، وأقضي أوقاتًا كثيرة مع فابين، إلا أنني أشعر بدوار البحر الذي

يزول عندما تهدأ الأمواج»، كتبت هيلدا للينيا، إلا أن رفض هيلدا لانتهاء الرحلة قد اختفى باقتراب السفينة من الشاطئ.

«رائع»، اهتز قلب هيلدا عندما رأت تمثال الحرية، وكانت تعرف أن عمر التمثال من عمرها تقريبًا. كم أحبَّت ما يرمز إليه هذا التمثال من معاني الحرية والديمقراطية.

استرجعت رانهيلد ذكرياتها قائلة: «وافقت أباك الرأي عندما قال إنكِ تمثلين أملًا جديدًا في الحياة بعد الحريق المدمر، وها أنا الآن أتذكر هذا مرة أخرى برؤيتي لتمثال الحرية لأول مرة».

كان تمثال الحرية الذي يضيء العالم هدية من الشعب الفرنسي إلى شعب الولايات المتحدة الأمريكية، وكان هذا بعد سنوات قليلة من مولد هيلدا، وسنة واحدة من مولد ﭽوناس.

قالت هيلدا بنغمة لا تخلو من الثقة: «لا بد أن يكون هذا فألًا جيدًا».

قالت رانهيلد لهيلدا وهي تنظر إلى ذلك التجمهر من الناس في الميناء: «لست متأكدة من هذا. ربما يمثل أيضًا بداية جديدة لﭽوناس بعيدًا عنا. لن يكون العثور عليه مهمة يسيرة، خاصة أنه لا أحد منَّا يتحدث الإنجليزية أو حتى الألمانية بطلاقة. دعينا نتفقد الفندق الذي سنقيم فيه أولًا قبل أن نبدأ البحث».

كان من الصعب حقًّا العثور على الابن المفقود، حيث كان البحث عنه أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش في تلك المدينة الواسعة المترامية الأطراف. تسمَّرت

هيلدا

في مكانها، حيث رأت هذا الكم الهائل من العربات التي تجرها الخيول، إلا أنها، بحسِّها الجيد للغة، وبمساعدة قاموس صغير، استطاعت أن تبدأ البحث عن

چوناس.

قررت رانهيلد بعزم : «فلنبدأ بالقنصلية السويدية».

«إنها في وسط مانهاتن»، استطاعت هيلدا العثور على مقر القنصلية السويدية في الخريطة.

استقبل القنصل السويدي رانهيلد وهيلدا بحفاوة. كان القنصل رجلًا أنيق الملبس، يرتدي سترة مقلمة، بينما تتصل ساعة يده بسلسلة ذهبية تتدلى من جيب

معطفه، أما حذاؤه فقد تم تلميعه بعناية. انحنت هيلدا قليلًا لتحية القنصل كعادة كل الفتيات السويديات عندما يقابلن شخصًا أكبر منهن سنًّا.

«لسوء الحظ لم يمر بنا هذا الاسم»، قال القنصل بعد أن تفحصت سكرتيرته اسم چوناس منسوبًا إلى والده ألفريد أندريسون، واسمه منسوبًا إلى والده البديل

ألفستورم، لم يستطع القنصل أن يساعد رانهيلد وابنتها هيلدا.

كانت الثقافة السويدية مبنية على أصول الثقافتين الألمانية والفرنسية، وكانت اللغة الإنجليزية حينها، وخاصة اللكنة الأمريكية، ظاهرة جديدة في المشهد الثقافي

السويدي.

قالت رانهيلد: «أرفض أن أستسلم بهذه السهولة».

كانت هيلدا في قرارة نفسها سعيدة لأن الرحلة ستطول في هذه المدينة الفاتنة.

قالت هيلدا وقد بدأت تشعر بالراحة في نيويورك: «ليس من الصعب أن تستدلي على مقصدك في تلك المدينة، يبدو أنه قد تم بناؤها بالمسطرة».

أضافت هيلدا قائلة: «يا لها من خسارة أن تلك المدينة تبعد كثيرًا عن الوطن، فلنذهب لنبحث في الجانب الشرقي».

«هل تعتقدين حقًّا أن أخاكِ قد يختبئ هناك؟»، قالت رانهيلد وقد أتت بصورة چوناس وأخذت تنظر إليها، بينما هي جالسة على سريرها الناعم المغطى بالحرير في الفندق الذي تقيم فيه.

أخذت رانهيلد تفكر في چوناس وصورته لم تغادر يدها. ما الذي فعلته ليقوده إلى ذلك؟ متى بدأت الأمور تسير في الطريق الخاطئ؟ لماذا لم تلحظ الإشارات التي قادتها إلى ما هي فيه الآن؟

«سنجده»، حاولت هيلدا أن تتحلى بالشجاعة من أجل رانهيلد، ومن أجل نفسها أيضًا.

شعرت هيلدا بغصة وهي تتجول في الجانب الشرقي، حيث رأت المهاجرين في فقر موحل وأماكن قذرة يرتفع فيها معدل الجريمة.

قالت رانهيلد محاولة تعزية نفسها: «يا إلهي، أرجو ألا يكون قد انتهى به الحال هنا».

مرت أسابيع حاولت فيها رانهيلد البحث في كل مكان. في المحلات الفاخرة، وحانات البحارة، والكنائس، والفنادق، وفي مقاطعات نيويورك، وأخيرًا شعرت كل

من

رانهيلد وهيلدا بالإرهاق وقررتا العودة إلى ساندس ڤال.

قالت هيلدا في محاولة لتهدئة رانهيلد التي أصابها اليأس: «سآتي مرة ثانية للبحث عنه».

«والآن عليّ أن أبحث عن رجلين، لكنني استطعت الحصول على عنوان فابين البريدي، كما أني أعطيته عنواني أيضًا»، قالت هيلدا للينيا.

أضافت هيلدا قائلة: «ربما تسافرين معي في المرة القادمة، فهذه المدينة رائعة، وتحتوي على العديد من المحلات الجميلة، والمقاهي، والمطاعم، والأشخاص من كل

الأجناس تملأ الشوارع. نستخدم الحافلات في تحركاتنا، وهي عبارة عن عجلات طويلة تحمل العديد من الأشخاص في وقت واحد، ويجرها على الأقل حصانان، يمكنكِ تخيُّل هذا».

تدفق المرضى على عيادة ألفستورم بمجرد رجوع هيلدا ورانهيلد إلى ساندس ڤال، ما عصف بخطط هيلدا في السفر مرة أخرى إلى العالم الجديد عبر الأطلنطي.

«لولا مساعدة هيلدا ما كنت أستطيع الذهاب إلى المستشفى والاهتمام بأبحاثي»، قال ألفستورم الذي كان سعيدًا بعودة رانهيلد وهيلدا رغم غياب چوناس الدائم.

تخرَّج كارل أوتو ألفستورم في جامعة أبسالا، وهي جامعة مشهورة تبعد بضعة كيلو مترات عن العاصمة، وتم ترقيته بعد عدة سنوات من الممارسة في مستشفى

أبسالا ليصبح الطبيب الأول في مستشفى ساندس ڤال. رحل ألفستورم بعد ذلك إلى ألمانيا والنمسا ليدرس اكتشاف التصوير بالأشعة، وبفضله عرفت ساندس

ڤال جهاز أشعة إكس في عام 1897 بعد سنوات من تطويره في ألمانيا.

قال ألفستورم لهيلدا: «لقد جلبت لكِ ثوبًا وقائيًّا ليحميكِ من أشعة إكس».

في بداية اكتشاف التصوير بالأشعة، كانت طرق الوقاية بدائية. قامت هيلدا بمساعدة ألفستورم في عيادته حتى أصبحت ممرضة متمكنة من أدائها. بالرغم من

عدم تلقيها تعليمًا مسبقًا في فن التمريض، أثبتت هيلدا جدارة في مساعدة ألفستورم، فكانت تقوم بقياس ضغط المرضى، وترعاهم، كما كانت تدوِّن كل

الوصفات الطبية بحرص، فتكتب اسم المريض، وكم نقطة أوحبة دواء أوصى بها ألفستورم وفقًا لسن المريض ونوع المرض؛ لتسجل بذلك كل هذه المعلومات في

مفكرتها الجلدية البنية اللون.

«كل شيء مدون في مفكرتي»، قالت هيلدا لألفستورم لتساعده على تذكر كم الدواء الذي أوصى به، وكم الدواء الذي يحتاجه ليقوم بشرائه..

«كم أنتِ منظمة، وكم أنا محظوظ لوجودك بجانبي. قد يُحدث جهاز أشعة إكس فرقًا كبيرًا إلا أنني ما زلت أشعر بكثرة الأعباء على كاهلي».

امتلأت عيادة ألفستورم في الطابق الأول من البيت

الحجري الأنيق بالمرضى. كانت حوائط الردهة والسلالم التي تقود إلى العيادة مزينة بلوحات فنية للزهور والطيور مرسومة بالأيدي. دوى رنين جرس الباب لتفتح ألفيرا خادمة المنزل ذات الملامح الصارمة.

قالت هيلدا بينما وقعت الطرحة البيضاء التي كانت ترتديها، والخاصة بزي الممرضات: «كم هو جهاز رائع! أتفهم لماذا يحاول كل شخص الحصول عليه». ابتسم ألفستورم، وهز رأسه بالإيجاب.

«يجب أن ننشر خبر وجود هذا الجهاز سريعًا حتى لا أكون الشخص الوحيد الذي يستخدمه بالمدينة».

«ألن يقوم المستشفى بشرائه؟»

«أتمنى هذا بشدة».

في صباح أحد أيام عام 1914 ، حدث ما جذب الناس بعيدًا عن أنشطتهم اليومية المعتادة.

«حدث ما لا تُحمد عقباه»، أسرع ألفستورم إلى عيادته ممسكًا بجريدته ليخبر هيلدا.

«ماذا حدث؟»، تساءلت هيلدا، وقد ظنت أن مكروهًا ما قد أصاب أحد المرضى.

- لقد اندلعت الحرب.

- يا إلهي! أين؟ ليس بالسويد بكل تأكيد.

- لا، حتى الآن على الأقل.

تنهدت هيلدا بارتياح، فلم تكن مهتمة بما يحدث في وسط القارة بعيدًا عن حياتها المريحة.

«لكن هذا يعني عدم استطاعتك السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية»، قال ألفستورم.

لم تفكر هيلدا في هذا، وفجأة تحطمت كل أحلامها في العثور على أخيها، ولم شملها مع فابين الذي أرسل لها خطابًا يملؤه الأمل. لم يعرف أحد حينها إلى متى

ستستمر الحرب. على الرغم من الحياة الطبيعية التي سادت السويد، شعر الجميع بعواقب الحرب خاصة فيما يتعلق بتحديد حصص الطعام. كان لهيلدا حقيبة

مزركشة تمتلئ بالحلوى تأخذها معها كلما دعاها أحدهم إلى الشاي. على عكس معظم السويدين، كانت هيلدا تستطيع التخلي عن القهوة التي خضعت

لحصص التوزيع، لكنها لا تستطيع التخلي عن الحلوى المصنوعة من الزبد.

«الشيء الوحيد الإيجابي هو أن چوناس في مكان بعيد الآن، ولا يمكن استدعاؤه للخدمة العسكرية»، قالت هيلدا، حيث كان يتم استدعاء جميع الشباب

والرجال آنذاك استعدادًا للمعركة الأخيرة.

استمرت هيلدا في مراسلة فابين الذي أصبحت خطاباته أكثر ندرة في السنوات الأخيرة، وفي يوم ربيعي، حدث شيء غير متوقع أدى إلى سلسلة من الأحداث في

حياة هيلدا.

«أريد التأكد من مرضٍ ما. هل يمكنك الذهاب إلى المكتبة؟ هل يمكنك تقديم هذه الخدمة لي؟»، طلب ألفستورم من هيلدا التي سعدت كثيرًا بخروجها من العيادة

ولو لوقت وجيز. انطلقت هيلدا في طريقها إلى مكتبة المدينة لتستعير الكتاب الطبي الذي يحتاجه ألفستورم،

وبمجرد دخولها ودفعها للباب بنشاط وخفة،

اصطدمت بشاب أشقر، يداه محملتان بالكثير من كتب القانون التي وقعت وارتطمت بأرض المكتبة.

قال موظف المكتبة بصوت منخفض: «أرجوالهدوء، هذه مكتبة».

ساعدت هيلدا الشاب في جمع الكتب التي تناثرت على الأرض. قالت هيلدا للشابٍ بينما التقت عيناها بعينيه ليبدو الاضطراب عليهما معًا: «لا تقلق».

ابتسم وهو يمد يده مصافحًا: «اسمي طورشتين سالين».

ردت: «اسمي هيلدا. يسعدني لقاؤك».

قال طورشتين بصوت منخفض، وهو يشير إلى ركام الكتب الذي يحمله بيده: «أنا هنا من أجل دراسة القانون، فأنا أتدرب في ساندس ڤال».

- أنت إذن من ستوكهولم.

- نعم.

قالت هيلدا وقد تذكرت فجأة ما أتت من أجله:

- يجب أن أحضر كتابًا لوالدي.

- سأنتظرك هنا.

أسرعت هيلدا إلى المكتبة، وأمسكت الكتاب بلهفة لكي تعود إلى طورشتين.

سأل طورشتين هيلدا، وقد أدرك أنه قابل امرأة حياته:

- هل يمكنني أن أصحبك إلى المنزل؟

- بالتأكيد.

سأل طورشتين هيلدا العديد من الأسئلة دون أن يعطيها فرصة للإجابة، حتى شعر أنه يتحدث بسرعة بالغة. أجابت هيلدا عن بعض الأسئلة، بينما تجاهلت ما

لا ترغب في إجابته. استمعت لطورشتين وهو يحكي لها عن أحلامه، ومنذ هذا اليوم لم يفترقا أبدًا. كانت هيلدا تقابله كلما سمح لها الوقت ليتجولا في شوارع

ساندس ڤال فتتشابك يداهما، ويتبادلان الضحكات، إلا أنه لم يكن هناك مكان ليتقابلا فيه سرًّا، وفجأة أدركت هيلدا أنها لم تعد تفكر في فابين.

قالت لينيا لهيلدا: «لقد أحببته!»، وهنا احمر وجه هيلدا خجلًا.

وقف الحبيبان على الشاطئ في مساء ليلة من ليالي الربيع، وقد ذاب الجليد، وأخذا يشاهدان القوارب وهي تبحر حتى اقترب طورشتين من هيلدا ممسكًا وجهها

الصغير الناعم بيديه الدافئتين ليقبلها. لم ترغب هيلدا أن تنتهي هذه اللحظة وقد تحرك شيء ما داخلها رغمًا عنها.

أطلق طورشتين على هيلدا بعد هذا اليوم «الفتاة البدوية الصغيرة»، حيث كان الرحالة يقطنون الشمال، وكانوا يتميزون بشعرهم الأسود، وقامتهم القصيرة

مقارنة بأهلِ السويد بقاماتهم الممشوقة، وكانت لغتهم مختلفة أيضًا، واعتادوا الظهور بثيابهم الزرقاء المزركشة باللون الأحمر والقبعات الصغيرة والأحذية

المصنوعة باليد. كانت هيلدا بشعرها الأسود تذكر طورشتين بهؤلاء الرحالة.

بعد عدة أشهر سمح والدا هيلدا لطورشتين بزيارتهم

في منزلهم في الريف.

قالت رانهيلد: «لقد أعددت حفلة مأكولات بحرية في رودفلاچان، لماذا لا تقومين بدعوة صديقك المحامي؟!»

«اسمه طورشتين»، شعرت هيلدا بالسعادة بهذه الدعوة، إلا أنها استاءت من رانهيلد لعدم تذكرها اسم طورشتين.

تُعد رودفلاچان إحدى جزر ساندس ڤال، وتم تسميتها بذلك الاسم نسبة إلى صخرها الأحمر، حيث إن «رود» تعني اللون الأحمر في اللغة السويدية.

أصبحت رودفلاچان في نهاية القرن التاسع عشر منتجعًا شديد الأناقة، تقصده العائلات الثرية لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بعيدًا عن صخب المدينة. تميزت

رودفلاچان بالڤيلات الخشبية الجميلة المطلية باللون الأصفر، والأحمر، والحدائق المُعتنى بها الممتلئة بأشجار الفاكهة، بينما تفصل الأسوار الخشبية الڤيلات عن

بعضها البعض. اختار ألفستورم أن يشتري جزيرة في هذه المنطقة الساحرة لتكون ملاذًا لهم، هذا إضافة إلى قربها من أصدقائهم الذين يمكنهم الإبحار إلى الجزيرة

بسهولة.

«سنقوم بصيد الأسماك أولًا، ثم نذهب لإعداد الطعام في الجزيرة. سيبحر الضيوف في اليوم التالي. أخبريه أن يأتي في موعده»، قالت رانهيلد.

لم تتقبل رانهيلد فكرة أن تقضي ابنتها كثيرًا من الوقت مع شخص لا تعرفه جيدًا، إلا أنها أدركت أن هيلدا عنيدة، ولا يمكن لشيء أن يوقفها، كما أنها قد شعرت

بالفضول حيال ذلك الرجل الرائع الذي أحبته هيلدا.

«يبدو أنه حسن الخلق، أتمنى أن يحصل على وظيفة بمرتب جيد من عمله كمحامٍ»، قال ألفستورم في محاولة لطمأنة رانهيلد، وكان ألفستورم قد تحدث

بالفعل مع طورشتين في مناسبات عديدة.

غمرت السعادة هيلدا لدعوة والدها لطورشتين لحضور الحفلة.

همست هيلدا في أذن لينيا بثقة قائلة: «تخيلي، لقد قام والديَّ بدعوة طورشتين لحفلة المأكولات البحرية، سترينه في الحفل».

قالت رانهيلد: «لقد أبلغت الصياد، وطلبت منه أن يأتي إلى الجزيرة، سنضع المصيدة في الماء في العاشرة مساءً».

انطلقت العائلة صوب الجزيرة والمنزلين المبنيين من الخشب. كان لهيلدا منزل صغير خاص بها مكون من غرفة واحدة فقط يُسمى «مقصورة آن». كان يحتوي على

سرير، ومنضدة، وكرسي بمسند للجلوس والقراءة، وبعض المفروشات، والسجاجيد المصنوعة من بقايا قطع القطن التي غزلتها هيلدا بنفسها.

استيقظت هيلدا في الثالثة صباحًا، وتوجهت مع الصياد، وكارل أوتو ألفستورم؛ ليأخذوا السمك الذي وقع في المصيدة قبل أن يجد طريقه إلى الحرية. كان يومًا

جميلًا من أيام شهر أغسطس. قامت رانهيلد بإضافة الملح والشبت إلى المأكولات البحرية.

قالت هيلدا حاثة والدتها على الحركة: «أسرعي، لدينا

أكثر من مائة ضيف، يا لها من حفلة!»

ردت رانهيلد: «حسنًا. أشعلي النار في الموقد».

قامت هيلدا بإعداد الموقد حيث ملأته بقطع الخشب، والأوراق الجافة، وبعض صفحات الجرائد القديمة، وأتت بعود الكبريت لتشعل النار، أتت هيلدا بعد ذلك

بالغلاية الكبيرة وملأتها بالماء لدرجة يصعب حملها، ثم وضعتها على الموقد.

تُعد حفلة المأكولات البحرية تقليدًا سويديًّا، حيث تُقام تلك الحفلة في شهر أغسطس فقط. تقدم الرنجة المُخمرة مع كثير من الشبت، ويتم تناول البيرة، بينما

يكون الغناء قاسمًا مشتركًا في هذه الحفلة.

قالت رانهيلد لهيلدا: «لقد أعددت الرنجة المُخمرة مع البطاطس المسلوقة وشرائح البصل والخبز إلا أن الرائحة لا تُحتمل، سأضع الرنجة المُخمرة في الخارج حتى

يحين موعد قدوم الضيوف. لا يبدو الطقس باردًا، سنتناول الطعام بالخارج. لا تنسي غناء الأغنيات المفضلة لدى الجميع».

بدأ الضيوف في التوافد على الحفلة مبحرين عبر الجزيرة وصولًا إلى الشاطئ. كانت النساء في أبهى صورهن بثياب الصيف الأنيقة، وألوانها المبهجة، وأمسكت كل

واحدة منهن بالشال، فربما تزداد برودة الطقس في ساعات الليل المتأخرة، أما الرجال فارتدوا البدل السوداء دون القبعات، حيث لم تكن الحفلة رسمية.

رحب ألفستورم ورانهيلد بالضيوف. شدَت هيلدا ببعض

الأغاني السويدية، وهي مرتدية ثوبها التقليدي المحلي، حيث كان لكل منطقة في السويد الزي المحلي

الخاص بها، وبما أن هيلدا من الشمال، فقد ارتدت الثياب البيضاء المصنوعة من الصوف، وبعض المجوهرات، والقبعة، والحزام، والحذاء الأسود.

يمكن ارتداء الثياب المحلية في احتفالات المساء. يوجد حاليًا ثياب محلي يمثل السويد، أما الثياب المحلية القديمة فتتناقلها الأجيال.

وصل الجميع في تمام الساعة السادسة، حيث إنه وفقًا للتقاليد السويدية يُعد تأخر الشخص أكثر من ربع ساعة وقاحة جمة. كست رانهيلد المنضدة الكبيرة

بمفرش أنيق، وزينتها بالزهور، كما قامت بتحضير أواني المأكولات البحرية، وأدوات المائدة.

كم يبدو هذا شهيًّا. توسطت أواني المأكولات البحرية منضدة الطعام، كما وُضعت شرائح الخبز الشهي، والجبنة المتبلة بالكمون، وزجاجات البيرة برغوتها التي غطَّت مفرش المنضدة النظيف.

قالت رانهيلد للضيوف: «فليجد كل رجل امرأته ليجلس إلى جانبها».

وُضعت ورقة بالأسماء على كل كرسي مشبوكة بدبوس. استطاع كل رجل أن يجد مكانه بجانب امرأته، وبالطبع جلست هيلدا جانب طورشتين.

ابتسم طورشتين لهيلدا وأمسك بذراعها وهو يقول: «إذن أنتِ امرأتي اليوم».

جلست رانهيلد أولًا، ثم تبعها الجميع، حيث إنه لا يجب

أن يجلس الضيوف قبل مضيفي الحفلة. رحَّب كارل أوتو ألفستورم بالجميع وبدأت الحفلة.

«مَن سيبدأ بالغناء؟»

عادة ما يصاحب الاحتفال غناء بعض الأغاني السويدية.

بدأ كل ضيف في الحفلة بشرب النخب الخاص به، وعادة ما يصاحب هذه الطقوس ضوضاء وصخب، إلا أن هيلدا آثرت أن تحتفظ بوقارها. استمرت الحفلة

لساعات طويلة حيث الطعام، والغناء، والضحكات العالية، كما أُضيئت الشموع لتضيف رونقًا وجمالًا.

وضع الضيوف الفوط الكتان حول أعناقهم حتى لا تتسخ ملابسهم، وبعد الانتهاء من الطعام أخذ كل ضيف طبقًا نحاسيًّا يحتوي على بعض الماء وشرائح الليمون

لغسيل الأيدي والفم.

«حان وقت الحلوى»، قالت رانهيلد وهي تحمل كعكة القهوة التي كانت دائمًا ما تعدها في الحفلات. علا صياح وهتاف الضيوف معربين عن استحسانهم. بدأ

الضيوف في التجول، وانتهى الأمر بالرجال في أحد الأركان يدخنون السجائر، ويحتسون الكونياك، بينما تجاذبت كل سيدة أطراف الحديث مع الأخريات. هرب

طورشتين وهيلدا بعيدًا عن الأنظار ليجلسا وحدهما على الصخور بجانب الشاطئ.

قال طورشتين لهيلدا عندما أوشكت الحفلة على الانتهاء: «شكرًا على دعوتك لي».

قالت هيلدا لطورشتين وهي تشعر أن هناك شيئًا ما يؤرقه: «كم أنا سعيدة لوجودك هنا في جنتي الصغيرة».

«لديَّ بعض الأخبار السيئة»، بدا الوجوم على وجه طورشتين، وشعرت هيلدا أن قلبها سيتوقف، وهنا تنهد طورشتين قائلًا: «يجب أن أعود إلى ستوكهولم

سريعًا».

- ظننت أنك ستحصل على وظيفة هنا في ساندس ڤال.

- ظننت ذلك أيضًا، لكن الاختيار وقع على رجل من ساندس ڤال بدلًا مني. لا يوجد شيء آخر يمكن عمله هنا.

- لا أستطيع أن أترك والدي أيضًا؛ فهو يتقدم في العمر، ويحتاجني إلى جانبه لأساعده في العيادة. ماذا سنفعل إذن؟

بدأت الليلة بسعادة، وانتهت بحزن. لم تدرِ هيلدا وقتها ما إذا كانت سترى حبيبها مرة أخرى، كما أنها لم تقوَ على وداعه أيضًا.

قالت هيلدا في نفسها: «كان كل شيء مبشرًا، والآن تحالفت الأقدار ضدي».

ودَّع طورشتين عائلة ألفستورم تاركًا هيلدا مع أحزانها.

«لن أتزوج أبدًا»، بكت هيلدا على ذراع لينيا.

مرَّ عامان، وما زالت عيادة ألفستورم ممتلئة بالمرضى. أقامت رانهيلد الحفلات، وغنَّت هيلدا أغاني الضيوف المفضلة، وعزفت على البيانو، إلا أن قلبها ظل هناك في

ستوكهولم مع طورشتين.

توقفت هيلدا عن البكاء على وسادتها في الليل، إلا أنها لم تكن سعيدة، وظل طورشتين يرسل لها الخطابات، ويحثها على أن تأتي إلى ستوكهولم لمقابلته.

«إنها فتاة جميلة جدًّا، فلتدعيها تذهب قبل فوات الآوان»، سمعت هيلدا حديث رانهيلد مع إحدى صديقاتها.

«أنا لم أحاول منعها، هي التي أصرت على البقاء لمساعدتنا. تملك هيلدا قلبًا من ذهب»، أجابت رانهيلد صديقتها.

اشتد المرض على كارل أوتو ألفستورم ما اضطره إلى غلق عيادته، وفي صباح يوم، استيقظت هيلدا لتجد رانهيلد إلى جانبها وقد امتلأت عيناها بالدموع، وأدركت هيلدا على الفور ما حدث.

- لقد وافتة المنية، أليس كذلك؟

- نعم، انتقل والدكِ إلى العالم الآخر.

دُفن كارل أوتو ألفستورم إلى جانب أخيه، عمدة المدينة الأسبق، في القبر الذي يقع على الجانب الأيسر من مدخل المقبرة.

قالت رانهيلد لهيلدا: «لقد عشنا عصرًا ذهبيًّا في ساندس ڤال، والآن تغير كل شيء، ولكن ليس للأفضل».

«دائمًا ما تتمتعين بحدس لا يخطئ. لم تعد الأمور كما كانت عليه»، أجابت هيلدا، وعلى الرغم من خسارتها، فكرت في أن الوقت قد حان لتجتمع مع طورشتين.

«أعلم أن طورشتين قد حصل على وظيفة في ستوكهولم، وأعلم أنكِ ما زلتِ مفتونة به، أليس كذلك؟»، قالت رانهيلد وكأنها تقرأ ما يدور بخَلَد هيلدا.

«نعم، لكنه لم يتقدم لخطبتي. لا أعلم إذا كان ما زال على حبه لي».

«حسنًا، هناك طريقة واحدة لكي نعرف».

«أن أراه مجددًا»، أسرعت هيلدا بالإجابة.

انتقلت هيلدا مع رانهيلد إلى ستوكهولم في نفس العام الذي تُوفي فيه ألفستورم، عام 1923 . باعت رانهيلد كل شيء قد سبق وقامت بشرائه في ساندس ڤال.

«لا أريد أن أُبقي شيئًا هنا، فالذكريات تحتل المكان».

باعت رانهيلد المنزل الحجري الأنيق، وهو موجود حتى الآن، ومُدرج في قائمة المباني المهمة في السويد، كما باعت عيادة ألفستورم بسعر جيد، وحتى الجزيرة التي

طالما حظيت بأوقاتهم السعيدة تم بيعها أيضًا. شعرت هيلدا بالحزن على فراق حياتها السابقة التي اعتادت عليها، وبسعادة لاستقبال الحياة الجديدة التي

تنتظرها حتى تذكرت فجأة أخاها چوناس.

«كيف سيعثر علينا إذا جاء مرة أخرى؟»

«سيعثر علينا. لقد تركت عنواننا الجديد مع أصدقائنا هنا، كما أرسلت خطابًا للقنصلية السويدية في نيويورك، سيستطيع العثور علينا إن أراد، وإن كان ما زال

على قيد الحياة»، أجابت رانهيلد في حزن. كانت رانهيلد تعتقد أن چوناس يشعر بالخزي مما فعله، وأنه قد يفضل الانفصال عنهما خشية المواجهة، لكنها لم

تخبر هيلدا أبدًا بما يدور في ذهنها.

سيطر طورشتين على كل حواس هيلدا. هل ستقابله مرة أخرى؟ هل ما زال يحبها أم أنه قد أحب فتاة أخرى؟

استقرت رانهيلد مع هيلدا في بيت أنيق في وسط المدينة يطل على حديقة. أحبت هيلدا ستوكهولم على

الفور.

«المكان هنا جميل في ظل وجود كل هذه الجزر، والكباري، والمطاعم»، قالت هيلدا.

«نعم، ستوكهولم لها مذاق خاص»، ردت رانهيلد.

بعد مرور أسابيع من وصولهما، هرولت هيلدا في أحد الأيام إلى رانهيلد، قائلة بسعادة: «لقد رأيته».

«مَن؟»، تظاهرت رانهيلد بعدم معرفة الأمر.

«طورشتين، لقد كان ينتظرني».

صارح طورشتين هيلدا بمشاعره نحوها، وكيف أنه كان يحلم بلقائهما، وأنهما لن يفترقا بعد الآن.

قال طورشتين : «فلنتجول إذن لتري هذه المدينة الجميلة التي نطلق عليها بندقية الشمال».

تجوَّل الاثنان في شوارع المدينة يدًا بيدٍ مرورًا بساحة المدينة ومبانيها الفاخرة. قال طورشتين مشيرًا إلى برج حديث البناء: «لقد تم بناؤه حديثًا في شهر يونيو، نفس وقت وصولك».

قالت هيلدا بانبهار: «ياله من عملاق!»

كان ارتفاع البرج مائة وستة أمتار. كان هذا الارتفاع أمرًا غير عادي في تلك السنوات. اعتلى الشعار السويدي قمة البرج.

أطلت المدينة على بحيرة المالارين التي تتدفق عبر مدينة الألف جزيرة ومنها إلى البحر.

أُعجبت هيلدا بالصيادين ومحاولاتهم المضنية لصيد الأسماك حتى إن بعضهم يتناول العشاء من صيد الأسماك.

مر الاثنان بعد ذلك بعدد لا حصر له من الكباري المطلة على مدينة جاملاستان العتيقة التي بُنيت في القرن السابع عشر، ثم شاهدا بعد ذلك مبنى مجلس الأعيان

والكنيسة الخاصة به بساحتها الرائعة التي تتوسط البرج.

«هل يمكننا الدخول؟ كم أتشوق لرؤية هذا».

«يمكننا المحاولة»، طرق طورشتين الباب الثقيل الذي تم تزيينه بمهارة.

«نعم»، فتح أحدهم الباب، ولكن لم يُسمح لطورشتين وهيلدا بالدخول، حيث إنهما ليسا من أفراد العائلة المالكة.

«هل يمكننا إلقاء نظرة؟»

استطاع طورشتين وهيلدا أن يلقيا نظرة فاحصة على المدخل، حيث الحوائط المطلية بالألوان السويدية المفضلة والشعار السويدي. استكمل طورشتين جولته مع

هيلدا في شوارع ومنعطفات جاملاستان.

قال طورشتين: «إذا أكملنا السير في هذا الطريق، سنجد مسطحات مائية أخرى».

«فلنأخذ العبَّارة إذن»، اقترحت هيلدا.

وصل الاثنان إلى ﭼور جاردين، وهي الحديقة المترامية الأطراف التي يقضي فيها أهل ستوكهولم عطلاتهم الأسبوعية. توجَّه الاثنان بعد ذلك إلى أراضي الأمير يوﭼين

الذي كان مولعًا بالفنون، فشاهدا الحديقة والتماثيل التي نحتها الفنانون السويديون.

قال طورشتين: «هذا هو مكاني المفضل في ستوكهولم».

ردت هيلدا: «إنه فاتن حقًّا، لكنني أشعر بالتعب ولا أقوى على الوقوف».

قال طورشتين: «فلنسترح قليلًا إذن، ونتناول الشاي والكعك».

صاحت هيلدا: «رائع! أحب الكعك بمربى التوت والكريمة المخفوقة».

جلس الاثنان في مكان ساحر تحيطه المياه، يستمتعان بأشعة الشمس الدافئة. خلعت هيلدا حذاءها لتلاعب أصابعها العشب الأخضر.

«هذا المكان أقرب إلى الجنة»، قالت هيلدا.

في هذه اللحظة تقدم طورشتين لخطبة هيلدا التي وافقت على الفور.

على عكس هيلدا، لم تكن رانهيلد سعيدة في حياتها الجديدة التي لم تستطع التأقلم معها، حيث كانت تحن إلى زوجها ألفستورم التي فقدته، وبدأت صحتها في التدهور.

قالت رانهيلد: «الشتاء قاتم هنا. يبدأ الثلج في الانهمار متأخرًا. نحن الآن في شهر نوفمبر، ولم يبدأ الثلج في التساقط بعد. كنا نمارس التزلج على الجليد في مثل هذا الوقت في ساندس ڤال».

«لكن هناك ميزات أخرى هنا»، حاولت هيلدا أن تبعث الراحة في نفس رانهيلد.

كانت هيلدا سعيدة بالمدينة، وصحبة طورشتين، حتى

حدث شيء آخر غير متوقع.

أتى طورشتين ليأخذ هيلدا إلى أحد أشهر مطاعم السمك في ستوكهولم. جلس الاثنان على طاولة مربعة الشكل مغطاة بمفرش أبيض اللون ويزينها الشمع المُضاء.

تناولا وجبة المأكولات البحرية، والبطاطس، وصلصة الزبدة.

«هل تريدين بعض النبيذ الفرنسي الأبيض أم تفضلين تناول البيرة؟»

قالت هيلدا مبتسمة: «كوب من النبيذ سيكون رائعًا، شكرًا لك».

بدا طورشتين متجهمًا وهو يقول: «سأنتقل مرة ثانية إلى مكان آخر، ولكن هذه المرة سأنتقل إلى مكان بعيد. لقد تم تعييني في المحاكم المختلطة في مصر. سأنتقل في

غضون بضعة أشهر».

قالت هيلدا لطورشتين، وقد اتسعت حدقتا عينيها من الدهشة: «يا إلهي!»

قال طورشتين مبتسمًا: «أعلم أن مكان عملي الجديد بعيد جدًّا، لكني أصر على قدومك معي كزوجة لي».

- لكني لا أستطيع الآن؛ فحالة والدتي الصحية لا تسمح.

- أعلم هذا، سأقوم بتأجيل رحيلنا بقدر المستطاع.

قالت رانهيلد: «اتركيني هنا، واذهبي معه».

ردت هيلدا: «لا أستطيع».

قالت رانهيلد، وقد خبا صوت الحياة داخلها: «لا أشعر

بالرغبة في الحياة. أريد أن أذهب إلى كارل أوتو ألفستورم، وأريدك أن تحظي بالسعادة مع رجل أحلامك».

قالت هيلدا لرانهيلد، وهي في الحقيقة تحاول أن تطمئن نفسها: «لا تقولي هذا، ستكونين على ما يرام، وسترين هذا بنفسك».

أسلمت رانهيلد الروح بعد ثلاثة أشهر، قبل رحيل طورشتين إلى مصر، وبهذا جنَّبت هيلدا الاختيار الصعب بين البقاء إلى جانب والدتها، والرحيل مع طورشتين.

تم اعتماد طورشتين كقاضٍ في المحاكم المختلطة في مصر في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام 1926 . دُفنت رانهيلد بجانب زوجها كارل أوتو ألفستورم في

ساندس ڤال، بينما اضطر طورشتين للرحيل مبكرًا. انتظرت هيلدا بعض الوقت حتى تتدبر أمر بيع ممتلكاتها في ستوكهولم، وتحضر أمتعة السفر، وتودع

أصدقاءها، وما تبقى من أقاربها على قيد الحياة. استطاعت هيلدا أن تشحن كل متعلقاتها بما في ذلك البيانو الكبير.

قالت هيلدا لطورشتين في البرقية التي أرسلتها له: «سأتزوجك الآن. أعدك بهذا. سآتي إليك في أول سفينة قادمة إلى الإسكندرية».

قالت لينيا لهيلدا: «هل تعرفين أي شيء عن مصر؟»

«لا، ولكن الرجل الذي أحبه هناك، وهذا يكفي. لا يوجد شيء هنا أبقى لأجله. أخيرًا سألحق بركاب أبي وأخي، وأمشي على خطاهم».

قالت لينيا: «تسري روح المغامرة في دمك بلا شك».

قررت كل من هيلدا ولينيا اكتشاف الدولة التي ستذهب إليها هيلدا، فحاولتا العثور على خريطة لمصر، وقادهما ذلك إلى هولويلسكا بالاتسيت، وهو منزل كبير

لعائلة سويدية ثرية تحول بعد ذلك إلى متحف.

قالت لينيا: «ربما نستطيع أن نكوِّن فكرة عمَّا أنتِ مقدمة عليه».

ركب الاثنان العربة التي يجرها الحصان للوصول إلى وسط المدينة. كان يومًا شتويًّا باردًا. ارتدت كل منهما المعطف المصنوع من الفرو، والقبعة، كما ارتدت هيلدا

القفاز الفرو لتحافظ على دفء يديها، بينما تغطت الاثنتان ببطانية داخل العربة، وفجأة خيم الحزن على هيلدا. «سأفتقدكِ حقًّا».

قالت لينيا: «سيكون الأمر أسوأ كثيرًا بالنسبة لي. سأترك هنا لحالي وحيدة».

انطلقت العربة عبر المنحدرات وصولًا إلى الشارع. تألق لون الجليد الأبيض الذي غطَّى بحيرة المالارين. ذهبت النساء للتزلج على الجليد بثيابهن الطويلة، وأمسك

بعضهن بالرجال الذين ارتدوا البنطلونات القصيرة، والقبعات المصنوعة من الصوف، وأغطية للآذان.

نظرت إليهم هيلدا، وشعرت بالغيرة قائلة: «لن يمكنني التزلج على الجليد بعد الآن».

قالت لينيا: «لكنكِ قد تحظين ببعض الرحلات إلى الصحراء».

«فلنستكشف ما في جعبة ويلهيلمينا».

كانت ويلهيلمينا فون هالوي ابنة أحد الأثرياء العاملين بالصناعة، وقد عاشت من عام 1844 حتى عام 1930 ،

وأثبتت جدارة كبيرة في جمع كل ما يخص الشرق.

كانت مجموعة مقتنياتها ساحرة، كما أنها قامت بفهرسة كل صغيرة وكبيرة. قامت ويلهيلمينا بمساعدة زوجها ببناء منزل في وسط المدينة، أربعة هامنجاتان

شارع الميناء، أمام الميناء الذي كانت تتردد عليه باستمرار لتضيف المزيد إلى مجموعة مقتنياتها. استطاعت ويلهيلمينا خلال رحلاتها العديدة إلى الشرق، والتي

يصعب حصرها، أن تقتني كل ما هو قيم، حتى تم التبرع بمنزلها إلى الدولة في عام 1920 ، وتحول المنزل بذلك إلى متحف.

«انظري! اعتادت السيدات في ذلك الوقت ارتداء القبعات النسائية»، استكشفت لينيا المتحف، وأخذت تنظر إلى اللوحات الفنية، وتوصلت إلى أن الموضة الشرقية

قد تغلغلت في الأرستقراطية السويدية.

«يا له من مكان ساحر!»، انبهرت الاثنتان بالمتحف خاصة بعد رؤية السجاجيد، والمجوهرات، والأنتيكات.

قالت لينيا: «أشعر بالجوع، كما أنها آخر ليلة لنا سويًّا. سأدعوكِ إلى العشاء الليلة».

«فلنسِر حتى المطعم، فهو قريب من هنا».

ذهبت لينيا بصحبة هيلدا التي شعرت بسعادة كبيرة.

قالت هيلدا، وهي تصارع الثلج الذي بدأ في الانهمار ليغطي وجهها: «يا لها من عاصفة ثلجية شديدة!»

«فلنسرع».

اندفعتا بسرعة صوب الأرصفة التي غطتها الثلوج، مرورًا بالمسرح الملكي، حتى وصلتا إلى طريق الشاطئ، وهوأحد أكثر الشوارع أناقة في ستوكهولم، وأخيرًا وصلتا

إلى المطعم.

قالت هيلدا عند دخولها المطعم: «الطقس هنا دافئ».

سأل النادل: «هل تناسبكِ هذه المنضدة بجوار النافذة؟»

«نعم، أشكرك رغم أننا لن نستطيع رؤية شيء بسبب الثلوج المتساقطة».

«ماذا تفضلين على العشاء؟»

«كالدومار من فضلك»، اكتشفت هيلدا بعد زيارتها للمتحف أن الطبق السويدي المفضل ذو جذور شرقية. عرفت السويد هذا الطبق - الذي أصبح الطبق المفضل

فيها - من خلال الملك تشارلز الثاني عشر، بعد إحدى زياراته للشرق؛ ليتحول بذلك ورق العنب، والكرنب إلى «الكالدومار السويدي».

«سأتناول طعامًا شرقيًّا مثلك.. قطع اللحم المفروم».

ضحكتا بسعادة، حيث إن قطع اللحم الشهية المصنوعة من اللحم المفروم، والتي كان من المعتقد أنها طعام سويدي، هي في حقيقة الأمر طبق طعام تركي؛ إذ

يتم طهيها مع التوابل الشرقية مثل الكمون. تعلم طباخ الملك تشارلز الثاني عشر طهيها في أثناء إحدى رحلات الملك التفقدية، وبذلك قُدمت هذه الوجبة إلى

السويد وشعبها.

انتهت الليلة الرائعة بدموع هيلدا ولينيا لحظة الوداع.

ذهبت هيلدا إلى المنزل لتحزم أمتعتها. لم تدرك هيلدا إن كانت آلام المعدة التي داهمتها سببها الخوف، أم القلق، أم الترقب، أم مزيج من كل هذا. مصر، وطورشتين ينتظران هيلدا.

الفصل الثالث

من المنحدرات الشمالية إلى صحراء الشرق

أسرعت لينيا لتقرأ خطاب هيلدا الأول لها من القاهرة، والذي كان يحمل طابعًا أنيقًا لرجل يرتدي الطربوش.

عزيزتي لينيا:

إليك بعض الانطباعات السريعة التي كوَّنتها منذ أن غادرت السويد. في الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر، في تمام الساعة الثامنة والنصف وخمس دقائق،

تركت نيس، ووصلت إلى مارسيليا، ثم توجَّهت إلى القنصلية المصرية للحصول على التأشيرة. تركت ميناء مارسيليا في تمام الساعة السادسة، وفي المساء شاهدت

عملية تحميل الأمتعة. اتبع العاملون طريقة بسيطة لعدِّ الحقائب، حيث يعطي العاملون الحمَّال عصا لكل حقيبة، وفي نهاية الأمر يقوم الموظف المختص بعدِّ

العصي حتى يتعرف على عدد الحقائب. يبدو أن العرب غير بارعين في الرياضيات، ولهذا يتبعون هذه الطريقة البسيطة في العد. غادرت السفينة رازماك لندن في

اليوم الرابع والعشرين، وعلى متنها ما يقرب من مائتي مسافر أغلبهم من الإنجليز، وبعضهم يعمل بالجيش البريطاني، والجيش الهندي. كانت الكابينة أكثر من

رائعة، إلا أنني لم أستطع رؤية الكثير، حيث كان الظلام يهيمن على المشهد فقضيت معظم الوقت في الرقص على ظهر السفينة.

توقفنا عند سترومبولي يوم الأحد في تمام الساعة الرابعة. تصاعدت الأدخنة من منتصف الجزيرة الصخرية، ورأينا الحمم البركانية المتقاذفة من أعلى السفح

لتصبغه باللون الأسود، بينما اصطفت البيوت البيضاء على جانب واحد. وفقًا للمعلومات التي استطعت الحصول عليها تُعد سترومبولي من أفضل الأماكن التي

تنمو بها أشجار الزيتون. لا بد أن الحياة صعبة بحق في هذا المكان المُهدد دائمًا بالحمم البركانية. استطعت رؤية الجزر الليبية في المساء، تلك الجزر ذات التكوين

الصخري الجميل، والتي تقف ببهاء في وقت الغروب. يا له من منظر ساحر! بحلول الظلام، مررنا ببوغاز ميسينيا المُضاء بالأنوار في مشهد جعله أشبه بالعقد

الماسي.

جلست أشاهد رجلًا ترك ًيا، وآخر فرنسيًّا يلعبان البوكر وكلاهما يعيش بمصر، كما جلست أرقب الرجل الأرمني الذي يعمل بتجارة الملابس وزوجته الإيطالية في

طريقهما إلى القاهرة في محاولة للحفاظ على ثلاثمائة ألف فرانك يدين بهما أحد زبائنه الذي تعرض للإفلاس. كان جل ٍّيا كم تتحكم الزوجة الإيطالية في زوجها

الأرمني.

دعيني أصف لكِ الآن مسار يومي. يوقظني رئيس الخدم في تمام السادسة صباحًا، وقد أعدَّ لي فنجان الشاي وثلاث قطع بسكويت. أذهب لأستحم في المياه

المالحة

في السابعة، ثم أصعد إلى ظهر السفينة في الثامنة والنصف لأتناول فطوري الإنجليزي: خبز، وزبدة، ومربى الفواكه، والحساء، والسمك، واللحم، ولحم

الخنزير، والبيض، والقهوة وغيرها من أصناف الطعام المُعدة بعناية. يُقدم الغداء في الساعة الواحدة ظهرًا، وهومكوَّن من: الزبد، والخبز، والحساء، والسمك،

واللحم، والخضراوات، والحلويات «بودينج»، والفاكهة والقهوة. في تمام الساعة الرابعة عصرًا، يُقدَّم الشاي، والزبد، والكعك، وفي السادسة والنصف يُقدَّم

العشاء بنفس أصناف الغداء، وفي العاشرة مساءً تُقدم بعض الشطائر.

تعرفت على كل المسافرين، وتجاذبت معهم أطراف الحديث باللغتين الإنجليزية، والفرنسية. لم تظهر أي مساحات أرضية في الأفق في اليومين الثالث، والرابع،

استطعت رؤية البحر فقط، وبعض سفن صيد الأسماك بالشباك إضافة إلى بعض السفن التي تحمل الركاب. كانت الشمس ساطعة، والسحب البيضاء تركض

في السماء في لوحة بديعة لا تُنسى. وصلنا إلى كريت في مساء اليوم الثالث. كان البحر هائجًا في اليوم الرابع ما بين الإسكندرية وبورسعيد في الوقت الذي كان فيه

الركاب نيامًا.

وصلت إلى بورسعيد في الساعة الثامنة صباحًا، حيث احتلَّ السفينة حشد من الناس، ورأيت بعض القوارب الصغيرة في الميناء، ورجالًا يصيحون بصوت مرتفع،

وكان هذا الانطباع الأول لي. تم أخذ جوازات السفر

لنتسلمها بعد ختمها، وبدأنا الاستعداد لترك السفينة الكبيرة، والانتقال إلى سفينة أصغر.

أخذتنا العربة في جولة في المدينة. أدهشتني الحياة في الشرق: الشوارع الضيقة المتسخة، وأشجار النخيل المغطاة بالغبار. تحرَّك القطار في تمام الثانية عشرة

والنصف، ووصل إلى القاهرة في تمام الثالثة والنصف ظهرًا. نعمت بسعادة لحظة اللقاء مع طورشتين. أمضينا الليلة في منزل القاضي دي وي الذي سمح لنا

بقضاء تلك الليلة في منزله. قمت بزيارة الوزير هارولد بيلدت، ودرست إجراءات الزواج.

في ذلك الوقت كان يُطلق على مَن يتقلَّد منصب السفير «وزير».

وصفت هيلدا أيضًا كيف قامت بشراء الأسِرَّة والمصابيح، وأدوات الطهي، كما وصفت لحظات الندم على فراق وطنها، والذهاب إلى بلدٍ آخر لا يوجد فيه أي أقارب

سوى زوجها. أثبتت هيلدا بهذا التحدي كيف أنها تتمتع بروح المغامرة.

سرعان ما واجهت هيلدا تحديات جديدة كامرأة متزوجة في مجتمع شرقي بعيدًا عن حياتها الماضية كامرأة مستقلة في أورُبا تفعل ما يحلو لها، فالقواعد التي

تحكم المرأة في مصر كانت مختلفة تمامًا عن نظيرتها في أورُبا، كما أن هيلدا كانت تجهل تمامًا الكود الاجتماعي الذي يحكم، وينظم الحياة في مصر. تزوجت هيلدا

ألفستورم من القاضي طورشتين سالين في القاهرة

في الثامن والعشرين من يناير عام 1927 في السفارة السويدية.

«أخيرًا تزوَّجت من الرجل الذي كان دائمًا حلم حياتي. لم يكن الاحتفال كبيرًا. فقط أنا وطورشتين. كم أفتقدك!»، كتبت هيلدا في أحد خطاباتها إلى لينيا.

انتقل العروسان إلى شقتهما الجديدة التي تم إعادة طلائها حديثًا في مدينة المنصورة في الدلتا. بدأ طورشتين عمله كقاضٍ في المحاكم المختلطة في تلك المدينة

الصغيرة، أما القضاة الذين أتوا من بلاد ذات تأثير أقوى في المشهد السياسي العالمي، فكان يتم تعيينهم مباشرة في القاهرة أو الإسكندرية.

قال طورشتين لهيلدا: «المدينة صغيرة، لكنها غنية. أثق تمامًا في أنكِ ستعجبين بها».

كانت شقة طورشتين وهيلدا مُحاطة بحقول القطن، وبعض المباني الأنيقة الحديثة البناء. كتب القاضي النرويجي الذي سبق طورشتين في منصبه، في وصف

المنصورة يقول: «تُعد المنصورة عاصمة الدقهلية، كانت الشمس ساطعة يوم وصولي في بداية الشهر، وبدت المدينة مبهجة تمتد بها المآذن عبر شاطئ النيل، أما

المقاطعات التي حول المنصورة، فقد امتازت بغنى الطبيعة، حيث حقول القمح المتماوجة، وحقول البرسيم التي تطل عليك، بينما تبحر القوارب في صمت عبر نهر

النيل. تُعد أوقات الشروق في مصر لوحة فنية تفيض جمالًا. الشعب المصري شعب طيب. تستطيع التجول

في أي مكان سواء كان مأهولًا بالسكان أومعزولًا في أي
وقت».

قالت هيلدا وهي ترقب «الفلوكة» تبحر ببطء: «كم أعشق مشاهدة تلك القوارب الشراعية المبحرة عبر المسافات، إنها تذكرني بوطني».

حاولت هيلدا أن تتمسك بكل ما تستطيع التعرف عليه في محاولة منها للتأقلم مع البيئة الجديدة التي تحيا فيها.

قال طورشتين، وهو يمسح جبينه بالمنديل الأبيض القطني المزين بأول حرفين من اسمه: «آه لو لم يكن الطقس بهذه الحرارة».

«إننا ما زلنا في شهر يناير. يا له من تناقض إذا ما قارنَّا الطقس هنا بنظيره في السويد. سأكتب إلى لينيا، لا بد أن الفتاة المسكينة تشعر بالبرد الآن»، قالت هيلدا،
وقد بدت أكثر حماسًا مما كانت عليه.

قال طورشتين: «لا يحق لنا الشكوى، فالطقس هنا جاف، ومشمس. لقد أخبروني أن هناك رياحًا ساخنة تهب من الجنوب، وقد تستمر لمدة خمسين يومًا، تُسمَّى
تلك الرياح بالخماسين، وعادة ما تثير الأتربة، وتغطي كل شيء بالتراب الأحمر».

ردت هيلدا: «سأذهب لأتجول للاستمتاع بالطقس. سآخذ الكاميرا معي».

وضعت هيلدا قبعتها، وأخذت الكاميرا تحت إبطها، وسارت بعزم لتتجوَّل في شوارع المنصورة. لطالما

عشقت هيلدا الكاميرا والتصوير. كانت مغرمة بتصوير مشاهد من الحياة اليومية، وكانت الكاميرا الخاصة بها هي الرفيق الأمثل في كل جولاتها بشوارع المدينة لتصيغ بذلك علاقتها بالأشياء والأمكنة.

قالت هيلدا في محاولة لتهدئة زوجها الذي كان يقف في شرفة المنزل منتظرًا عودتها: «يجعلني التصوير قريبة من أناس لم أقابلهم في حياتي».

أول ما جذب انتباه هيلدا، كان رجلًا يرتدي «جلابية» قطنية طويلة، وممتطيًا حماره. لامست أرجله الأرض، وكان يضع على حِجره عصا خشبية طويلة بوضع أفقي، وقد التقطت هيلدا صورة للرجل دون أن يشعر.

مرت هيلدا بعد ذلك بامرأتين ترتديان جلبابين أسودين، وتغطيان رأسيهما. فكرت هيلدا كيف يمكن أن يكون هذا الجلباب خانقًا لمَن يرتديه، وأراحتها حقيقة أنها قد وُلدت في السويد.

«يجب أن ترى لينيا هذه الصور»، قالت هيلدا في نفسها، وهي تفكر في صديقتها لينيا.

اقتربت أكثر من الشاطئ حتى ميزت أنفها رائحة كريهة.

«لا بد أن القمامة تُجمع في هذا المكان».

أسرعت هيلدا لتعود إلى المنزل، ولاحظت في طريقها فتاة ملونة العينين فالتقطت لها صورة، وابتسمت الفتاة ابتسامة تكشف عن أسنانها البيضاء التي لم يكتمل نموها بعد.

قالت هيلدا: «دُهشت عندما رأيت فتاة ذات عينين زرقاوين».

رد طورشتين: «المنصورة مشهورة ببناتها الجميلات. يبدو أن سبب جينات الأعين الملونة يرجع إلى زواج جنود نابليون من فتيات المنصورة، وربما ترجع تلك الأعين

الجميلة الملونة إلى ما قبل نابليون، أعني حقبة الملك لويس».

ثم قال لهيلدا وصوته يفيض بالحنان، والشعور بالامتنان: «كم أنا سعيد لموافقتكِ على القدوم معي إلى هذا البلد البعيد عن موطننا».

«لا يسعني إلا أن أذهب معك إلى أي مكان يا عزيزي».

استرجعت هيلدا السنوات الطويلة التي انتظرت فيها طورشتين، وهي غير واثقة مما قد تحمله لهما الأيام، والآن وقد أصبحا معًا، فهي مصممة أن تنظر إلى

الجانب الجميل في كل شيء حتى لا تشعره بقلقها.

استقر العروسان في شقة رحبة واسعة في الطابق الثالث، الأخير. زُينت الشقة بما يتناسب مع ذوق أهل الشمال بالخشب الفاتح اللون، والكراسي ذات المساند،

والستائر المصنوعة من الحرير الأصفر اللون لتشيع دفئًا على المنزل بأكمله.

قالت هيلدا: «سأقوم بحياكة ستائر جديدة من الحرير المصري، وأغطية من القطن للأثاث».

سمعت هيلدا، وهي في طريقها إلى مصر على ظهر المركب، عن جودة الحرير والقطن المصريين. جلبت هيلدا معظم الأثاث من ساندس فال، بما في ذلك البيانو

الكبير.

«إنه أعز قطعة عندي في الأثاث»، أخبرت هيلدا زوجها.

«لقد رأيت البيانو يصعد الدرج وحده اليوم»، قال طورشتين ضاحكًا حيث قام رجل ضئيل الجسد بحمل البيانو. اختفي جسد الرجل الضئيل وراء البيانو الضخم حتى خُيل للناظرين أن البيانو يتحرك وحده.

«فلنضع البيانو تحت النافذة في الصالون، وسأعمل على توفير إضاءة جيدة».

«يمكن أن نستغل جزءًا من هذه الغرفة كقاعة لتناول الطعام»، اقترحت هيلدا حيث كانت الغرفة واسعة يفصلها عمودان من المرمر.

«فكرة ممتازة».

كان السقف مُحلى بالديكور إلا أن هيلدا كادت تدفع حياتها ثمنًا لهذا السقف.

دوى صراخ هيلدا في منتصف الليل وهي تقول: «يا إلهي، طورشتين، أسرع لمساعدتي».

أسرع طورشتين لإنقاذ هيلدا مرتديًا بيجامته المقلمة باللون الأزرق والأبيض . وجد هيلدا جالسة على أحد أركان السرير ترتعش من الخوف، بينما أحاط ركام التراب السرير من كل جانب.

حذر طورشتين هيلدا قائلًا: «لا تتحركي».

وقع الأسمنت على ما يبدو بينما أنقذت الناموسية المعلقة فوق السرير، والمحاطة بإطار حديدي، هيلدا من أن يقع السقف عليها. جلبت هيلدا الناموسية حتى لا

تتعرض للدغات الناموس الذي كان ينقل مرض الملاريا

الذي كان منتشرًا في مصر في تلك الأيام. أنقذت خبرة هيلدا كممرضة الزوجين من الإصابة بالمرض.

«فلتأتي إلى سريري لتستريحي بقية الليل. البرد يسري في قدمك»، حاول طورشتين تهدئة زوجته، وقادها إلى غرفته.

كان الليل شديد البرودة حيث تصل درجة الحرارة إلى الصفر أو تحت الصفر، ولم تكن هناك تدفئة في المنازل. كانت الحوائط السميكة تطرد الحرارة في الصيف، أما أشهر الشتاء القصيرة فكانت قارسة البرودة.

انتهت الليلة بهيلدا في أحضان طورشتين، وربما يكون هذا هو اليوم الذي دبت فيه روح إنجريد في أحشاء هيلدا.

بمرور الوقت، استقر طورشتين وهيلدا في حياتهما الجديدة. اعتادت هيلدا العزف على البيانو كل يوم لمدة ساعة أواثنتين ليصحب العزف صوتها العذب وهي تغني. كان طورشتين يعشق صوت هيلدا .

«غني لي»، دائمًا ما كان يطلب طورشتين من هيلدا الغناء بعد العشاء فكان يغوص في مقعده الجلدي المفضل بعد عناء يوم طويل. كان صوت هيلدا مبعثًا للدفء والراحة.

كتب طورشتين انطباعاته عن مصر قائلًا:

مصر دولة تتميز بالثنائية والتناقض. أتمنى أن أقدم فكرة واضحة باستعراض شتى الجوانب المختلفة. بنظرة أولية على الخريطة، تجد أن مصر تقع في الركن الجنوبي الغربي ما بين قارة إفريقيا وقارة آسيا، ولكنها أيضًا ترتبط بأوربا بشكل غير مباشر عبر البحر الذي

يجمع أكثر مما يفرق، فمنذ ما قبل التاريخ تمر تجارة

إفريقيا، وآسيا، وأوربا بهذا البرزخ. قويت الصلة مع حفر قناة السويس. لا يجب أن ننسى أيضًا القناة التي تواجدت أثناء الفراعنة بين البحر المتوسط والبحر

الأحمر، حيث كانت القناة تربط بين البحرين عبر الصحراء والقاهرة.

لقد ذكرت توًّا قناة السويس، ذلك الشريان الذي يسود الحياة المصرية، أما المصدر الآخر فهو نهر النيل العظيم، ويمكننا أن نلاحظ على الخريطة كيف يصل نهر

النيل من بحيرات إفريقيا في فرعين : النيل الأبيض، والنيل الأزرق اللذان يتحدان في السودان ليشق نهر النيل بذلك طريقه مثل الحبل السري عبر هذه الدولة.

يفصل تدفق المياه على الضفتين الصحراء الشاسعة: الصحراء العربية شرقًا، والصحراء الليبية غربًا . ينقسم النيل نفسه في شمال القاهرة إلى ذراعين في الشرق

والغرب لتحضنهما الدلتا.

يبدو المنظر ساحرًا من أعلى قمم الجبال حيث ترى الانقسام الحاد بين الصحراء المجدبة، والأرض الخصبة. يزيد جمال المنظر عندما تتطلع إليه من قمة هرم خوفو

على بعد مائة وستة وثلاثين مترًا حيث ترى النهر يتدفق في هدوء عبر البلد الذي يحيا بهذا النهر، وبذلك تتضح لنا التناقضات الجلية في مصر.

استمتع طورشتين بوظيفته الجديدة في المحاكم المختلطة. كانت مؤسسة المحاكم المختلطة في حد ذاتها فريدة النوع. اتفق طورشتين تمامًا مع چاسبير

ياتس

برينتون في وصفه للمحاكم المختلطة قائلًا:

«أحد أهم المؤسسات في مصر الحديثة . ساهمت خمسون دولة عبر أكثر من نصف قرن في خلق هذا التجانس المذهل للحفاظ على آلية القضاء الذي أثبت نجاح

التجربة عبر التاريخ بعيدًا عن الكنيسة الرومانية المقدسة».

انطلق طورشتين إلى عمله صباحٍ كل يوم. على الرغم من أن بعض الأيام تكون أكثر إمتاعًا إلا أنه دائمًا ما كان يشعر بوجود ما هو جديد كل يوم في وظيفته. في

إحدى المرات، وهو في سراي المحكمة، وضع طورشتين ثوبه الأسود (زي القضاة)، والطربوش، وأخذ يفكر كم هو محظوظ للعمل بالمحاكم المختلطة في مصر، وكم

هو محظوظ أيضًا لقدوم هيلدا معه.

«لم أكن أعلم شيئًا عن كل هذا. يا لها من تجربة! ترى، ماذا كنت سأفعل إن لم تأتِ هيلدا معي؟ كم أنا رجل محظوظ»، ابتسم طورشتين لنفسه، وهوغارق في

أفكاره.

بدأت المحاكم المختلطة في عهد الحاكم المصري توفيق الذي وقع في عام 1880 مرسومًا نهائيًّا مع بريطانيا لتنتهي بمقتضاه استقلالية الحكومة المصرية. انتقلت

مالية الدولة إلى الأوربيين، وسيطرت بريطانيا على قناة السويس حيث استطاع رئيس الوزراء البريطاني

ديزرالي الماكر أن يؤمن الطريق البحري إلى الهند، وأن يحكم
سيطرة بريطانيا على مصر.

قالت هيلدا بعد استماعها إلى حديث طورشتين: «لقد استطعت أن أفهم بعضًا مما تقول الآن من خلال حديثي مع المسافرين إلى الهند، فلقد كانوا على نفس
السفينة التي أخذتني إلى الإسكندرية».

شعرت هيلدا بالتوتر لجهلها بطبيعة وظيفة زوجها.

«أنا زوجة قاضٍ»، فكرت هيلدا في تلك الحقيقة مرارًا دون أن تدرك ماً يعنيه هذا.

أكمل طورشتين حديثه قائلًا: «لقد بدأ الأمر بالامتيازات الأجنبية حيث حصل الأوربيون على مزيد من القوة. كانت الامتيازات الأجنبية عبارة عن تنازلات للأوربيين
من قبل السلاطين العثمانيين في القرن السادس عشر، هذا إضافة إلى الحقوق التجارية التي حصلوا عليها من الإمبراطورية. كان المقصود بذلك أن يحاكم
الأوربيون أبناء بلدهم وفقًا لقوانينهم الخاصة بينما يحاكم العثمانيون المسلمين وفقًا للقوانين العثمانية».

سألت هيلدا: «يبدو هذا منطقيًّا. من أين أتت المشكلة إذن؟»

« أتت المشكلة من كون البعض مجرمين». رد طورشتين على هيلدا، وهو يشعر أن لديه مهمة تتطلب الإنجاز، نفس الشعور الذي انتابه عندما قرر دراسة القانون.

كان شعار طورشتين: «أستطيع، وأريد أن أحدث فرقًا» .

شرح طورشتين لهيلدا كيف استخدم الأوربيون

الامتيازات الأجنبية لصالحهم للتهرب من الضرائب، حيث كان لكل الأجانب حصانة دبلوماسية. كان العقاب

الوحيد للمجرمين الأوربيين هو ترحيلهم على سفينة خارج البلد ليعودوا مرة ثانية على متن سفينة أخرى، حيث أصبح التهريب طريقة سهلة لجني الثروات.

قالت هيلدا: «إذن، فلقد استمروا في عمل ما يحلو لهم».

- بالضبط، لعلك الآن تدركين لماذا تطلب الأمر وجود المحاكم المختلطة.

-نعم، لإصلاح الموقف. أفهم من حديثك أن المحاكم المختلطة قد بدأت عملها في مصر منذ فترة، أليس كذلك؟

- نعم، منذ عام 1875 . إنها لمحكمة فريدة تلك التي عُينت بها. كم أتمنى أن أساهم بشيء في هذا المكان العظيم. أضاف طورشتين بلهجة امتازت بالوقار.

سألت هيلدا: «مَن الذي أتى بتلك الفكرة إذن؟ مصري أم أجنبي؟»

- مصري بالطبع، نوبار باشا. كان نوبار باشا أول رجل مصري يتحدث عن حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية في القرن التاسع عشر. كان مبدعًا بحق في هذا

المجال، وقد خاطر كثيرًا من أجل تحقيق آماله. كان نوبار باشا يرى أن النظام القضائي قبل المحاكم المختلطة عار، وقد أوضح في إحدى خطاباته ما يلي: أترغب في معرفة رأيي في القضاء القنصلي في مصر؟ إنه مبجل كعدالة السماء. تمثل القنصلية اليونانية في مصر محكمة جبريل، أما ميكائيل رئيس الملائكة فتمثله

القنصلية الإيطالية. قام القديس بول بتعيين نفسه في القنصلية البريطانية، أما القديس بيتير فمفاتيحه في يده حيث يقيم العدل في قنصلية فرنسا. هل رأيت

مفهومًا أكثر سموًّا من هذا للقضاء؟! العيب الوحيد هو أن كل رئيس ملائكة وكل قديس من هؤلاء له قانونه الخاص، وعليه لا يدرك الشيطان الفقير أمام أي

قضاء يمتثل، ووفقًا لأي قانون سيُحاسب وبالتالي أصبح لا يكترث بطاعة القوانين فهو يحضر للتحقيق أمام القديس بيتير، بينما كان يظن أنه سيمتثل أمام

القديس بول. هو إذن مشوش، ومرتبك فهوعلى حق، وقضيته عادلة، ولكن دون جدوى فلقد حوله القديسون إلى شيطان.

تم تأسيس ثلاث محاكم وفقًا لما اتخذه نوبار باشا من إجراءات: واحدة في الإسكندرية، وثانية في القاهرة، وثالثة في المنصورة. أُختيرت الإسكندرية كمكان لمحكمة

الاستئناف لتجنب ضغوط الحكام والدبلوماسيين من القاهرة. تم وضع القوانين وفقًا لقانون نابليون، وسُميت بالمحاكم المختلطة لوجود رؤساء محاكم وقضاة

أجانب مع مئات من العاملين المصريين.

أضاف طورشين: «أتمنى أن أخدم هنا لبضع سنوات ثم أنتقل إلى القاهرة. سيكون من الأفضل بالطبع أن أترشح للمنصب في الإسكندرية إلا أن هذا احتمال بعيد».

قالت هيلدا: «أثق أن هذا سيحدث، ولكن هذا يعني أننا سنقيم في مصر لبعض الوقت».

«نعم، على الأرجح. سأذهب للعمل الآن. سألقاك عندما يحين موعد الغداء»، قبَّل طورشتين هيلدا على جبينها وذهب لعمله.

تستمر راحة الغداء لمدة ثلاث ساعات، وهي فترة كافية لتناول وجبة كاملة، ولوقت القيلولة ما بين الثانية والخامسة كما هو معتاد في الدول الجنوبية. تنهدت

هيلدا بعد ذهاب زوجها. كانت سعيدة وفخورة بزوجها إلا أنها شعرت فجأة بارتباك وبعض الألم في معدتها بمجرد التفكير في حياتها الفارغة التي تبدأ بعد ذهاب

طورشتين للعمل. لقد تعودت هيلدا منذ أن كانت ممرضة، ومن بعدها تولي مسئولية رعاية والدتها، أن تنشغل بشيء ما حتى يصير هناك مغزى ومعنى

لحياتها، أما الآن فعليها أن تتعلم أن تكون زوجة. «ماذا سأفعل في أثناء تواجد طورشتين بالعمل؟»، كان هذا هوالسؤال الذي شغل بال هيلدا.

على الرغم من وجه طورشتين الواثق من نفسه، وحديثه مع هيلدا إلا أنه كان يشعر بالتوتر في يوم عمله الأول في المحاكم المختلطة، وهو في طريقه إلى داخل مبنى

حجري كبير حيث الأرض المغطاة بالمرمر الأبيض. ألقى القاضي المصري عادل حميد التحية على طورشتين. كان عادل حميد رجلًا قصير القامة، سمينًا، ويتميز

بسرعة البديهة، والذهن الحاضر. تحدث الاثنان بالفرنسية، وهي اللغة التي شاع استخدامها في المحاكم آنذاك.

قال عادل: «اسمح لي أن أقودك إلى مكتبك».

انبهر طورشتين بحجم ساحة المحكمة على الرغم من أنها لم تكن أهم محكمة في مصر. تعرف طورشتين على بعض القضاة المصريين، ومعظم القضاة الممثلين للدول الأجنبية.

راجع طورشتين التعليمات الموجهة إليه، وهو في طريقه إلى القاعة في أول قضية له كقاضٍ في المحاكم المختلطة. يحق للمحكمة النظر في القضايا ما بين المصريين

والمواطنين من الدول الأخرى في الحالات المدنية، أما في القضايا الجنائية فكانت المحاكم المختلطة تبت في القضايا التي يواجه فيها الأجانب مشاكل مع الشرطة أو في

الجرائم المرتكبة ضد المحاكم المختلطة أو في القرارات التي اتخذتها المحاكم المختلطة.

سرعان ما أزاح طورشتين قلقه بعيدًا، وجلس على مكتبه الكبير. دخل رجل ضخم البنية يرتدي «الجلابية»، ويتحدث بلغة عربية غير مفهومة.

«اذهب وأحضر المترجم»، طلب طورشتين من الموظف المصري المختص.

ساد الشغب الغرفة حيث رفض المتهم الجلوس، وكان يحمل معه كيسًا بني اللون يحتوي على شيء متحرك. حضر المترجم على وجه السرعة، وكذلك المحامي.

أشار طورشتين إلى الرجل القروي ليقف.

«ماذا حدث مع أكياس الغلة المفقودة؟»

أقسم الرجل القروي قائلًا: «لم آخذ أي شيء، ثق فيما أقول».

قرر طورشتين استدعاء الشاهد.

أكد الشاهد، وهو يشير بإصبعه إلى الرجل القروي: «لقد رأيته يحمل الأكياس، ويضعها خلف صخرة كبيرة».

قال المالك بغضب: «كان عندي مائة وخمسون كيسًا. كان من المفترض أن يحملها هذا الرجل من السفينة إلى الشاطئ، والآن عندي مائة وثلاثون كيسًا».

«أقسم إنني قمت بنقل مائة وخمسين كيسًا ثقيلًا، ولقد قمت بعدِّ كل الأكياس»، قال القروي بصوت مرتفع.

«حسنًا، فلتعد لنا من واحد إلى مائة»، اقترح القاضي طورشتين الذي كان سعيدًا بفكرته الرائعة التي ربما تقوده إلى شيء يساعده في حسم القضية.

«واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة»، ثم بدأ القروي يتلعثم، ولم يستطع المضي في العد.

تجهم وجه طورشتين، وأدرك الرجل القروي أنه في مأزق، وإذ به يفتح الكيس الذي معه ليخرج منه الحيوان الذي كان حبيسًا.

«هذا لك»، قال القروي وهو يشير بفخر إلى الديك الرومي، وأعطاه لطورشتين.

لم يسعف التفكير طورشتين ليمسك بالديك الرومي الذي تبعثر ريشه في قاعة المحكمة التي تحولت فجأة إلى ساحة لمطاردة الديك الرومي حيث أسرع الموجودون

وراء الطائر الذي حاول الفرار. اضطر طورشتين لضرب المطرقة بشدة على مكتبه في محاولة منه لاستعادة النظام، وضبط إيقاع المحكمة.

كانت هذه أول واقعة فساد يشهدها طورشتين، ولكنها لم تكن الأخيرة، ولقد سبق وحذره أصدقاؤه من مثل هذه المواقف. تسببت هذه الواقعة في عدم اتزان

طورشتين بقية اليوم حيث ظل يتساءل ما الذي تخبؤه له مهنته في جعبتها في الأيام القادمة. ما حدث كان أسوأ من أي شيء تخيل طورشتين احتمال وقوعه، فما

حدث كان بعيدًا كل البعد عن العادات السويدية.

تم استدعاء العديد من القضاة للتحقيق في قضية «المومياء». كان طورشتين واحدًا من ثلاثة قضاة أُوكل إليهم التحقيق في قضية التهريب. شعر طورشتين بالراحة

كونه لن يكون وحده هذه المرة. جلس القضاة الثلاثة، وأعلنوا بدء المحاكمة.

«بدأت ألحظ تحركات في أوقات غريبة، كما انتشرت رائحة كريهة مميزة تثير الغثيان، ولم تزل منذ الحين».

سأل طورشتين الرجل المريب الذي يرتدي سترة لا تناسبه: «ماذا لديك لتدافع به عن نفسك؟»

قال الشخص المتهم: «إنها مومياء قديمة. يبدو أن أجدادي قد نسوها».

«ماذا عن الرائحة إذن؟ المومياء القديمة لا تصدر منها رائحة».

«لا بد أن هذه الرائحة تنبعث من شيء آخر».

«وماذا عن كوم الذهب الذي اكتشفه البوليس تحت سريرك؟ أهو أيضًا شيء قد خبأه أجدادك ونسوه؟»

تم استدعاء شخص آخر كشاهد، امرأة رفيعة ذات شعر أسود مصبوغ باللون الأشقر، وتضع أحمر الشفاه الذي

قد لون أسنانها الصفراء الأمامية . أتت المرأة للإدلاء بشهادتها، وقد ارتدت ثوبًا ضيقًا، وكعبًا عاليًا.

«ماذا تعرفين عن المتهم؟»

«أعرفه جيدًا»، أصرت الشاهدة على ما تقول، ونظرت إلى المتهم، والابتسامة الماكرة تعلو وجهها.

«لقد كان كريمًا معك، وأعطاك مجوهرات ثمينة، أليس كذلك؟» سأل المدعي.

- نعم، كان لطيفًا للغاية.

- هل تدركين أنه لا يملك شيئًا سوى مقهى؟

- لا بد أن هناك الكثير من الزبائن يرتادون المقهى.

استدار المدعي ووجه سؤاله إلى المتهم قائلًا: «كيف استطعت الحصول على كل تلك الأموال لتنفقها على عشيقتك؟»

«لقد ورثت بعض الأموال»، تمتم المتهم ببعض الكلمات بشكل غير مفهوم.

«لقد تُوفي والده، ولم يكن معه قرش واحد»، أكد شاهد آخر للقضاة.

«تهريب الجثث المحنطة عمل مربح بحق، أليس كذلك؟» سأل المدعي المتهم.

«لا توجد موميا أخرى عندي يمكن العثور عليها»، قال المتهم.

وهذا يقودنا لسؤال آخر: «لمن تنتمي الجثث التي عثرنا عليها عندك؟»

قال المتهم بصوت مرتبك: «أنا لم أقتل أحدًا».

قال أحد القضاة: «أخبرنا بالحقيقة وإلا ستُوجه إليك

تهمة القتل».

كانت المومیا في ذلك الوقت سلعة قيمة. استخدم المصريون القدماء مزيجًا من الزيوت والراتينج في التحنيط. اكتُشف أنه عند طحن الجثث المحنطة، تنتج مادة

تُباع بسهولة إلى التجار الأوربيين، وتُستخدم هذه المادة في الطب. في ذلك الوقت، كان يتم في مصر تحنيط الجثث المجهولة الهوية، وتركها في الشمس لتجف.

«إذن فلديك عمل آخر غير المقهى.. بيع الجثث الحديثة الوفاة للتجار الأوربيين على أنها موميا قديمة محنطة. إذا أخبرتنا عن أسماء هؤلاء التجار، سنخفف

العقوبة».

بدا المتهم على استعداد للمصارحة قائلًا: «سيخفف الحكم إلى كم سنة؟»

القاضي: «هذا سيتوقف على مدى تعاونك».

تم البت في القضية، وتم وقف هذه الأعمال المشبوهة التي كانت رائجة آنذاك.

«لا يوجد العديد من القضاة في المنصورة. سيكون من السهل التعرف عليهم سريعًا»، قال طورشتين لهيلدا التي لم تكن واثقة من ماهية واجباتها كزوجة لقاضٍ.

«لقد دعانا القاضي بيك مان إلى العشاء هذا الأسبوع»، قال طورشتين.

«هذا لطف منه».

كان القاضي بيك مان أحد أصدقاء طورشتين، وكانت هيلدا تعرفه جيدًا.

قالت هيلدا: «أستمتع كثيرًا بصحبة جيردا، كما أني أستطيع أن أفهم لغتها الدانيمركية جيدًا».

- وأنا أيضًا أستطيع أن أفهم هانز بسهولة على عكس بعض الزملاء الذين لا أستطيع فهمهم.

- أعتقد أنه قد قام بدعوة قضاة آخرين.

- مؤكد. أعتقد أنه دعا أيضًا المدعي الإنجليزي الذي قابلته مؤخرًا، ولكني لا أتذكر اسمه الآن.

كان لرافعي الدعاوى ارتباطاتهم الخاصة مع الأجانب والمحامين الذين كان لهم اتحاد خاص بهم، وكان عليهم إجادة الفرنسية بطلاقة. كانت اللغة الفرنسية هي

الأكثر شيوعًا واستخدامًا على الرغم من الاعتراف بأربع لغات في المحكمة: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية. كانت اللغة العربية تُستخدم فقط في

حالة إذا ما كان المدعي أوالشاهد مصريًّا، وفي هذه الحالة يتم الاستعانة بمترجم، وقد كان هناك الكثير من المترجمين المُعينين بالمحكمة.

قالت هيلدا، وهي تستعد لحضور حفلة العشاء التي دُعيت إليها مع طورشتين: «أشعر بالارتباك . أتمنى أن لا أبدو كالحمقاء».

«ستكونين رائعة، أثق في ذلك»، قال طورشتين، وهو يقبِّل هيلدا على وجنتيها.

كانت هيلدا سعيدة لدعوتها إلى أول عشاء لها.

«سيكون العشاء القادم في منزلي. لا بد أن أتعلم أصول الإتيكيت»، قالت هيلدا في قرارة نفسها.

اقترحت هيلدا الذهاب إلى النادي الإنجليزي بعد القيلولة اليومية لتناول شاي الظهيرة. كانت هيلدا

متشوقة للتعرف على أصدقاء جدد، ولكنها في نفس الوقت لم

تكن واثقة من أنه باستطاعتها الاندماج مع الإنجليز، فكثيرًا ما سمعت عن تعاليهم. «ربما سينظرون إليَّ كفتاة من العامة خاصة أني

لا أجيد الإنجليزية بطلاقة» .

قال طورشتين: «هل تحبين لعب التنس؟»

«نعم، بالتأكيد، سأرتدي الجونلة المخصصة للعب التنس»، قالت هيلدا، ورجعت بعد قليل وهي مرتدية الجونلة البيضاء الطويلة الواسعة التي تمتد حتى أعلى الرسغ.

شعرت هيلدا بالسعادة كونها تستطيع القيام بشيء تجيده، وما إن دخلت النادي حتى لاحظت أن الجميع مستعد لممارسة الرياضة: النساء في الثياب القطنية الطويلة، والقبعات القش، أما الرجال فقد ارتدوا السراويل الرياضية، والصديري الأبيض أعلى القميص، وقبعات لحمايتهم من أشعة الشمس.

لم يكن مسموحًا للمصريين بدخول النادي الإنجليزي. كان النادي الإنجليزي بالمنصورة صغيرًا مقارنة بنظيريه في القاهرة والإسكندرية.

قال ويلز سميث لهيلدا وطورشتين: «مجتمعنا الأجنبي هنا محدود. يوجد بالنادي لعبة البريدج».

شعرت هيلدا بالراحة حيث سيسهل هذا اندماجها في المجتمع الأجنبي. توجه طورشتين وهيلدا إلى ملعب التنس ومعهما المضارب الخشبية. دائمًا ما كان ينتهي الأمر بتعادل الاثنين، ولكن هذه المرة استطاع

طورشتين أن يحرز تقدمًا على هيلدا بعد ساعة واحدة فقط من اللعب. شعرت هيلدا بالتعب وأرادت الحصول على

قسط من الراحة فتركت نفسها تغوص في الكرسي ذي المسند المريح ثم حضر رجل نوبي أنيق يرتدي «جلابية» بيضاء، وحزام أحمر، وطربوش.

«ماذا أقدم لكما؟» سأل الرجل النوبي طورشتين وهيلدا باللغة العربية، وعلى وجهه ابتسامة. شعر الاثنان بالحيرة حتى أنقذهما ويلز قائلًا: «إنه يسألكما عما

تريدان تناوله».

أجاب طورشتين: «عصير ليمون».

أضافت هيلدا: «وبعض الفول السوداني المصري».

كان الفول السوداني يأتي من صعيد مصر محمصًا، ومالحًا، وشهيًّا.

بمجرد أن وُضع الفول السوداني، أتت قبيلة من الطيور. تساءلت هيلدا إن كانت الطيور تحمل أمراضًا غير معروفة، وشعرت بعدم الراحة وهي تأكل إلا أنها لم

تستطع مقاومة الجوع والعطش بعد مباراة التنس. أخيرًا جاء الرجل النوبي مرتديًا القفاز الأبيض ليقدم العصائر التي كادت تسقط منه لولا طورشتين الذي أنقذ

الموقف في آخر لحظة، وابتسم للرجل النوبي في محاولة لطمأنته.

«يبدو أنه غير معتاد على ارتداء القفاز»، قالت هيلدا، وقد تذكرت العاملين بمطعم والدتها رانهيلد، وكفاءتهم العالية، وتساءلت: « تُرى ماذا كانت ستقول

رانهيلد، وابنتها تحيا في مكان بعيد». شعرت هيلدا في

تلك اللحظة بمدى اشتياقها لوالدتها.

قالت سيدة شابة إنجليزية أو ربما أسكتلندية، لم تستطع هيلدا التمييز: «إنهم همج».

لم تكن هيلدا معتادة على استخدام الألفاظ الحادة من قبل الأجانب عند التحدث عن أهل البلد .

«ليس في استطاعتهم تقديم خدمة جيدة»، أضافت السيدة.

«مع مَن لي شرف الحديث؟» سأل طورشتين السيدة، وقد وقف ليقبل يدها في محاولة منه لتغيير مجرى الحديث إلى موضوع أكثر لطفًا.

«آه، معذرة. اسمي روزالين».

تعرف طورشتين وهيلدا على السيدة، وعلما أنها تحيا في المنصورة منذ عشرة أعوام. ربما يكون هذا هو سبب تذمرها. احتسوا جميعًا الشاي، ثم تجولوا مشيًا على

الأقدام حتى وصل طورشتين وهيلدا المنزل. ظلت صورة روزالين، وحديثها العدائي عالقًا بذهن هيلدا مسببًا لها كثيرًا من التوتر والقلق. كيف ستتعامل مع

المحيطين؟ لم تكن هيلدا قلقة بشأن التعامل مع المصريين، إنما كانت قلقة بشأن التعامل مع الأجانب. ماذا لوكان جميعهم مثل روزالين؟!

اقتربت هيلدا من طورشتين الذي ابتسم لها، وهمس في أذنها: «أحبك». كانت هيلدا تستمد الراحة والسكينة من طورشتين وكلماته الطيبة الصادقة، إلا أنها

وجدت صعوبة في النوم طوال الليل، خاصة وقد لازمها شعور بالغثيان.

«هل أنت مستعدة؟»

كان طورشتين دائمًا منضبطًا في مواعيده، أما هيلدا، فلم تكن في أحسن حالاتها، حيث شعرت بالتعب مجددًا إلا أنها لم ترغب في أن تسبب أي قلق لطورشتين.

لم تبدُ هيلدا ممشوقة القوام في ثوبها الأخضر الحريري فاختارت ثوبًا آخر قديمًا، لكنه أنيق، ثوب أرجواني قطيفة أوسع قليلًا من الثوب الأخضر، كما تزينت بمجوهرات والدتها.

«أنا الآن مستعدة»، قالت هيلدا.

- وجميلة كعادتك.

- أتمنى أن لا يكون الحديث عن السياسة فمزاجي العام اليوم لا يحتمل أي مناقشات سياسية.

- تبدين شاحبة هذه الأيام. أتمنى أن لا تكوني متعبة.

لم تدر هيلدا لماذا تشعر بالتعب طوال الوقت. تناست تعبها بمجرد وصولهما. قام بيك مان بتقديمهما إلى العديد من الأشخاص، وحاولت هيلدا أن تخزن في ذاكرتها جميع الأسماء. بعد تناول الشراب، جلس الضيوف حول منضدة مضاءة بالشموع، ومزينة بالورد الجميل وأوراق النخيل.

«يجب أن أسألها من أين اشترت هذا الورود».

لاحظت هيلدا أن الخدم قد اصطفوا عند الباب مرتدين القفازات على مسافة ليست قريبة من الضيوف، وليست بعيدة أيضًا في انتظار اللحظة المناسبة لتقديم الخدمة.

دارت المناقشات حول الوضع في أورُبا .حاولت هيلدا أن

تركز فيما يقال، وبحثت بعينيها عن طورشتين لتتلاقى به، وبابتسامته المشجعة.

سألت هيلدا بشكل مهذب الرجل الجالس إلى جوارها قائلة: «ماذا حدث أثناء الحرب إذن؟»

شرح عادل وهو محامٍ مصري بشوش لا تفارق الابتسامة وجهه قائلًا: «صدرت أوامر للمصريين بالتنازل عن محصول القمح، والآلاف من الجمال والحمير بمجرد

بدء الحرب، وتم إعلان مصر دولة تحت الحماية البريطانية لحماية مصر وقناة السويس من الألمان الذين تحالف معهم الخديوِ».

- إذن فلقد قدمتم مساعدات كثيرة رغم أنكم لم تكونوا طرفًا في هذه الحرب.

- نعم، ولقد أثار هذا حفيظة المصريين.

أكمل عادل قائلًا: «بعد أربع سنوات حدث كثير من التحول في الشرق الأوسط حيث سقطت الإمبراطورية العثمانية، وسعت بريطانيا لتوسيع نفوذها خاصة

بإحكام السيطرة على قناة السويس، وبالطبع تصاعدت موجة جديدة من القومية بقيادة سعد زغلول».

رنت كلمات روزالين في أذن هيلدا التي شعرت أنه لا غرابة في كره المصريين للإنجليز إذا كانوا يعاملونهم بهذه الطريقة.

«كان سعد زغلول محاميًا ووزيرًا للتعليم ثم وزيرًا للعدل. أنشأ سعد زغلول حزبًا جديدًا اسمه الوفد، وكان حزبًا ليبراليًّا انضمت إليه كثير من العائلات القبطية

ذات المكانة المهمة في المجتمع المصري. سطع نجم حزب الوفد مع أول انتخابات يتم إجراؤها ليتقلد سعد

زغلول بعدها منصب رئاسة الوزراء»، شرح عادل لهيلدا بشكل مفصل.

هزت هيلدا رأسها، وهي تفكر في حقيقة أن روزالين لا تفقه شيئًا عن مستوى ثقافة هؤلاء الذين أطلقت عليهم وصف «همج». شعرت هيلدا بحاجتها لمعرفة المزيد

عن مصر وأهلها بينما شعر عادل بالسعادة لحواره مع هيلدا، وأجاب عن كل أسئلتها.

علمت هيلدا من خلال حوارها مع عادل أن سعد زغلول قد حاول السفر إلى لندن مع الوفد المرافق له لمناقشة مستقبل مصر، إلا أن بريطانيا رفضت استقباله،

ولم يتم حتى تمثيل مصر في مؤتمر السلام عقب الحرب التي شاركت فيها مصر بوصفها دولة تحت الحماية البريطانية مما أدى إلى إحتقان المصريين واحتشادهم

في مظاهرات عارمة عام 1919 . انتشرت المظاهرات كالنار في الهشيم. سحق الإنجليز المظاهرات سحقًا، وقاموا بنفي سعد زغلول خارج مصر.

«يبدو أنكم تتمتعون بالشجاعة. ما زال هناك الكثير لأتعلمه عن مصر. يوجد العديد من الاختلافات بين مصر والسويد»، قالت هيلدا وهي تشعر أن هناك فجوة

هائلة في المعرفة، وأنها لديها قناعات مسبقة عن مصر. ربما هي نفسها لا تختلف كثيرًا عن روزالين.

«أخبريني إذن عن موطنك، فأنا لا أعرف الكثير عن السويد»، طلب عادل من هيلدا التي شعرت بالحماس للحديث عن شيء تعرفه حق المعرفة.

«إذا كان هذا العشاء مُقامًا في السويد، كنت سآتي

إليك على مزلج الجليد حيث يغطي الجليد شوارع ساندس ڤال»، قالت هيلدا لعادل ثم بدأت تحكي له عن ستوكهولم.

شعرت هيلدا بالرغبة في العودة إلى المنزل بعد العشاء. كانت تعشق حضور الحفلات إلا أن شعورها بالغثيان أزعجها كثيرًا. شعر طورشتين بالدهشة لرغبة هيلدا

في ترك الحفلة قبل أن يبدأ الرقص، إلا إنه أجاب طلبها.

«فلنترك الحفلة إذا كنتِ متعبة».

كانت هيلدا في الثامنة والثلاثين من عمرها آنذاك. لم تشك لحظة أن الحمل هو سبب الغثيان، فكونها ممرضة كانت تدرك أن الحمل في سن متأخرة شديد

الندرة، واستقرت قناعاتها على أنها وطورشتين لن يكون لهما أطفال.

«سعادتي مع طورشتين كزوجة تجعلني لا أنزعج من عدم وجود أطفال، ثم كيف سأستطيع تربية طفل هنا؟» قالت هيلدا لجيردا.

بدأت هيلدا تشعر بالغثيان كل صباح، وليس فقط عند تناول الطعام، حتى أصبح من الصعب تجاهل الأمر.

أخيرًا سألت صديقتها جيردا: «هل تعرفين طبيبًا ماهرًا؟»

- أتعنين طبيب نساء؟ نعم، أعرف طبيبًا ممتازًا.

انطلقت هيلدا في طريقها للطبيب في محاولة للتعرف على مبنى العيادة. كانت المباني تشبه بعضها كثيرًا، وتمتاز باللون البيج من فعل الأتربة والغبار. بحثت عيناها

عن اسم الشارع، وتتبعت عناوين الشوارع المكتوبة

باللغتين العربية، والإنجليزية، حتى وجدت عيادة الدكتور محفوظ في الدور الأول. دقت الجرس، وتذكرت

عيادة والدها، وهي في طريقها إلى عيادة طبيب النساء التي كانت في حالة يُرثى لها. امتلأت العيادة بنساء يتحدثن بصوت مرتفع، وسيطرت كلمات روزالين على

حواس هيلدا، إلا أنها حاولت أن تطرد هذه الأفكار السلبية بعيدًا عن خاطرها.

لم يكن هناك متسع لها حتى انتهى بها الأمر لتجلس بين امرأتين. أخيرًا دخلت هيلدا للطبيب.

قال الطبيب مبتسمًا: « إنك حامل، ألست كبيرة في السن بعض الشيء. تحدثي مع زوجك، ولتأتي إلى العيادة إن كنت في حاجة إلى أي شيء».

قالت هيلدا وهي شاردة الذهن: «شكرًا».

كانت هيلدا مدركة تمامًا لمخاطر الحمل في السن المتأخرة. هل سيكون المولود بخير؟ هل ستضع مولودها في هذه العيادة؟ دارت كل هذه الهواجس في رأس هيلدا،

وفجأة تمنت لو أن والدتها كانت بجانبها لتسدي إليها النصيحة. شعرت هيلدا بوخز في معدتها أشبه باللكم!

«لقد نسيت الروشتة»، أفاقت هيلدا على صوت الممرضة تلهث وراءها لتعطيها الروشتة. هزت هيلدا رأسها، فلطالما سجلت الوصفات الطبية في مفكرتها الأنيقة في

عيادة والدها، وها هي الآن تنسى الروشتة الخاصة بها.

قالت هيلدا لطورشتين بمجرد قدومه للمنزل، وهي لا تدري ماذا سيكون رد فعله، حيث لم يتبادر إلى ذهنها

مطلقًا فكرة الحمل: «لدي ما أخبرك به، ستتسع عائلتنا قريبًا».

«هذا رائع»، فرح طورشتين كثيرًا بالخبر حتى إنه أسقط نظارة العين الواحدة التي كان يرتديها دائمًا في حجره.

«إذن فقد كان هذا سبب الغثيان!»

قالت هيلدا وقد شعرت بالراحة لفرحة طورشتين بخبر الحمل: «نعم، ظننت أن فكرة الحمل غير واردة نظرًا لتقدم السن، ولكن لا يوجد مستشفيات جيدة هنا.

أين سأضع المولود؟»

- يجب أن نفكر في هذا. إنها مشكلة حقًّا.

في هذا الوقت، لم تكن الأوضاع الصحية في مصر على المستوى اللائق المطلوب، وكانت هذه هي المرة الأولى التي فكرت فيها هيلدا في وضع النساء في مصر قبل أن

تقابل هدى شعراوي التي ستصبح صديقتها بعد ذلك.

قالت هيلدا: «لقد قابلت العديد من النساء المصريات من أبناء الطبقة الراقية، لكني لم أملك الشجاعة لأسألهن في هذا الأمر».

تعددت أوضاع الأسر الأرستقراطية المسلمة ، ففي بعض العائلات، كانت الحياة تسير وفقًا للأعراف والتقاليد، حيث تجد أن المرأة غير مرئية بينما كان الوضع

مختلفًا في عدد قليل من العائلات الأخرى، حيث يصطحب الرجال زوجاتهم لحفلات الاستقبال، وبالرغم من هذا لم تستطع هيلدا أن تسأل أي امرأة عن مثل

هذه الأمور الدقيقة.

«أعتقد أنه من الأفضل أن تبحري بالسفينة إلى ستوكهولم لتضعي مولودك هناك، فالأوضاع الصحية هنا ليست على مستوى المعايير الأوربية»، قال طورشتين.

«لقد وصلت توًّا إلى مصر، والآن يجب أن أسافر إلى السويد مرة ثانية! لكنك على حق»، تنهدت هيلدا وعقدت العزم.

انتظرت بضعة أشهر ثم سافرت إلى السويد في شتاء عام 1927 .

وعدت هيلدا طورشتين: «سأعود على الفور، وسأكتب إليك».

بمجرد أن استقرت هيلدا في كابينتها على متن السفينة، نظرت إلى بطنها المستدير، وتساءلت: «كيف ستقوم بتنشئة الطفل في مصر؟»، إلا أن تركيزها كله كان على

وضع المولود، وصحته. صلت من أجل المولود الذي أرادته سليمًا معافى.

أبحرت إلى أورُبا وكل ما فكرت فيه هو ذهابها إلى موطنها لاستقبال مولودها الذي أوشك على القدوم إلى هذه الحياة، إلا أن هناك مغامرة أخرى كانت في انتظارها.

الفصل الرابع

عضوجديد في العائلة

وصلت هيلدا إلى ستوكهولم بعد بضعة أسابيع. توجهت مباشرة إلى صوفيا هيميت، وهي عيادة خاصة أنيقة تقع بالقرب من غابات ليچانسكوجين على أطراف

المدينة. كانت هيلدا قوية رابطة الجأش على الرغم من كونها وحدها. صعدت الدرج ببطء حتى لا تنزلق من أثر الجليد الذي تناثر هنا وهناك.

سرعان ما تسلم طورشتين برقية: «ابنة جميلة وبصحة جيدة. أتت إنجريد إلى عالمنا في اليوم الأول من ديسمبر 1927 . كل شيء على ما يرام ».

اتفق الزوجان على أن يمثل اسم ابنتهما الجذور الشمالية، ومن هنا أتى اسم إنجريد. كان الاسم الأصلي إنجريد ألفريد، وهو اسم أحد الآلهة الأسكندنافية،

ومعناه: جميل، ومحبوب. شعرت هيلدا أن قدوم إنجريد معجزة حقيقية ما غمرها بالشعور بالامتنان.

أمعنت هيلدا النظر في الطفلة الرضيعة بيديها الصغيرتين،وأصابعها المتناهية الصغر، وأنفها الصغير، وفمها القرمزي اللون، والأذن التي تشبه قوقعة البحر،

والرجلين اللتين تتحركان بلطف بدون انقطاع، إلا أن أكثر ما أثار إعجاب هيلدا كان قدم إنجريد التي كانت أصابعها الدقيقة تشبه البلحة الكاملة النمو. نظرت

هيلدا إلى عيني إنجريد الزرقاوين، ثم همست في أذنها: «لقد بدأنا رحلة طويلة معًا».

استمتعت هيلدا بالعناية الفائقة التي وُفرت لها في العيادة من قبل الممرضات والطبيب س ف ينسون الذي

كان يدندن في أثناء جولاته التفقدية دائمًا، وسرعان ما عرفت هيلدا أنه مطرب أوبرا متميز، وكثيرًا ما تجاذبت معه أطراف الحديث حول القاسم المشترك بينهما: الموسيقى.

قالت هيلدا لصديقتها لينيا التي أتت من ساندس ڤال: «إنه يغني لي كل صباح في أثناء تجوله في المستشفى. يا له من طبيب ساحر!»

أحضرت لينيا معها حقيبة الأطفال المألوفة التي تحوي الكثير من الحلويات واللوز المغلف بورق الحلوى. جلس الاثنان معًا على السرير يأكلان الحلوى.

أتت المرضة آن مرتدية ثوبها الأزرق الفاتح، والمريلة البيضاء، ومعها إنجريد.

قالت لينيا: «إنها أجمل مولودة رأتها عيني».

«إنها جائعة بالتأكيد»، أعطت الممرضة إنجريد لهيلدا لترضعها.

«سأمر بعد ساعة لأغير لها ملابسها، وأضعها في سريرها».

كان شائعًا آنذاك أن تظل الأم في العيادة لمدة أسبوع على الأقل حتى تتعافى، بينما تتولى الممرضات رعاية المولود والأم.

وفرت العيادة حفاضات قطنية، فكانت الممرضات يتولين تغيير الحفاضات للأطفال الرضَّع، وتثبيتها بمشبك آمن، كما كن يعتنين بأية مشكلة طارئة مثل الطفح

الجلدي، وغيرها من المشاكل المحتملة. لم ترغب هيلدا في البقاء في ستوكهولم، فكانت لا تطيق صبرًا للعودة إلى مصر للقاء زوجها طورشتين. في نهاية العام

توجهت هيلدا وإنجريد إلى السفينة للإبحار إلى الإسكندرية، حيث كان طورشتين في انتظارهما. لمح طورشتين إنجريد في الحال فقال بسعادة: «إنها صغيرة

الحجم، وتشبهني، كما أن الاسم يناسبها تمامًا».

تميزت إنجريد بالشعر الأشقر، والبشرة البيضاء، والعينين الزرقاوين اللتين يملؤهما الفضول، وتشبهان لون السماء.

قالت هيلدا ضاحكة: «بالتأكيد بشرتها تختلف عن بشرتي».

لم يجرؤ طورشتين على حمل إنجريد، فهو غير معتاد على حمل الأطفال الرُّضع، كما كان يخشى عليها من الوقوع.

«لا بد أن نبحث عن مربية بسرعة».

كانت العناية بطفل رضيع، والحفاظ عليه نظيفًا طوال الوقت، وحمايته من الجراثيم في إفريقيا مهمة شاقة للغاية. أدركت هيلدا المشكلة التي تواجهها، وحرصت

على حلها بأقصى سرعة، فقامت بتعيين الطباخ، والخادم الخاص بالقاضي السابق، كما جلبت خادمة لتنظيف المنزل، إلا أنه لم يكن لدى كل هؤلاء أية فكرة عن

مفهوم النظافة الذي كانت تعنيه هيلدا كممرضة سابقة. كانت هيلدا مدركة تمامًا أخطار البكتيريا، وتعلمت من والدها كيف أن الوقاية، والنظافة من أهم

العناصر، لا سيما في ذلك الوقت الذي كان الناس فيه يدفعون حياتهم ثمنًا لنزلات البرد.

تسارعت المشكلات الواحدة تلوالأخرى بمجرد بدء

إنجريد في تناول الوجبات بعد انتهاء فترة الرضاعة.

«يجب أن تطهوالأرز مع الخضراوات، ثم تقوم بهرسها بشوكة نظيفة».

أوضحت هيلدا للطباخ كيفية غسيل الأطباق بالصابون، لكن ما إن تدير ظهرها له، حتى يقوم بوضع الأواني في ماء بارد، ثم يمسحها بالمريلة غير النظيفة التي

يرتديها. كان الصابون يُباع في السوق السوداء بثمن باهظ، وكان الطباخ من عائلة فقيرة، ولذلك لم يكن معتادًا على استخدام الصابون. عانت إنجريد من

الإسهال، وفقدان الوزن نتيجة لسوء معايير النظافة لدى الطباخ.

عندما اتهمت هيلدا الطباخ بالتقصير، ما كان منه إلا أن اعتذر مستخدمًا الكلمة الشهيرة: «معلش»، والجملة المعتادة : «إنها إرادة الله» ما جعلها تستشيط

غضبًا.

كان العديد من الأطفال الرضع يموتون قبل أن يبلغوا الحول، ولذلك كانت العائلة الواحدة تنجب عشرة أطفال، حتى إذا مات بعض الأطفال تظل العائلة كبيرة.

فكرت هيلدا : «يجب أن أطهو بنفسي لإنجريد. لا يمكنني أن أرضعها أبد الدهر».

أدرك طورشتين أنه إذا أراد أن تخصص هيلدا بعض الوقت له، فيجب أن يتغير الوضع.

قال طورشتين: «لقد سمعت عن شخص ربما يكون مناسبًا لتولي مهمة رعاية إنجريد، سأسأل زميلي عنه».

سأل طورشتين القاضي النرويجي هانسون الذي قال

له: «لقد كبر الأولاد، والمربية متاحة الآن، ولكن من الأفضل أن تسألها بنفسك».

سرعان ما تعرف طورشتين وهيلدا على المربية النرويجية التي كانت ممتلئة الجسم، وغير متزوجة.

قالت المربية النرويجية التي كان شعرها على شكل الكعكة: «يسعدني أن أعتني بابنتك الصغيرة».

كان من السهل التواصل مع المربية بلهجتها النرويجية التي تشبه اللهجة السويدية كثيرًا، كما أن النرويج كانت جزءًا من السويد لعقود طويلة؛ لذلك كان أهل

البلدين بمثابة إخوة من نفس الأب، لكن بشخصيات، وسمات مختلفة.

وهكذا انضم عضو جديد لعائلة طورشتين سالين: الآنسة آنا ثون التي لم تتزوج ولم تنجب أطفالًا. سرعان ما اندمجت آنا ثون مع إنجريد، ولم يفترقا منذ هذا

الحين.

عُرفت الآنسة ثون باسم نان، وأقامت مع عائلة طورشتين لبقية حياتها. بدأت نان بالتدريج في تقديم الأطباق النرويجية لعائلة طورشتين. كان أحد هذه الأطباق

يُسمى «ميسوست»، وهو عبارة عن جبن الماعز الصلب. كانت نان تأتي بكيلو من هذا الجبن من النرويج كل صيف، وكان من المفروض أن تكفي هذه الكمية العام

بأكمله؛ لذلك حرصت نان على تقطيع رقائقٍ من الجبن على خبز الصباح حتى لا تنفد الكمية سريعًا. استقرت نان مع إنجريد في ركنهما المخصص في شقة

المنصورة، وحظيت إنجريد بلقب «الفتاة الشقراء»، كما حظيت العائلة بحياة مثالية، ولم يؤرق صفوهم سوى آلام المعدة التي داهمت طورشتين.

«شيء غريب، أشعر بألم في المعدة حتى في أوقات عدم تناول الطعام».

كان طورشتين ذا شخصية مثالية. منعته طبيعته من التحدث عمَّا يقلقه مع زوجته، ما أثر على أعصابه، وأصابه بآلام في المعدة ولكونه قاضيًا ألقي بمسئوليات

ثقيلة على عاتقه، لم يكن ينام إلاَّ فترات صغيرة، فيقضي الليل في محاولة لإعادة تقييم حكمه: «هل كان حكمًا عادلًا؟ هل أغفلت شيئًا ما؟»، وهكذا كان يقضي

طورشتين الليل غارقًا في أفكاره.

قالت هيلدا بإصرار: «يجب أن نذهب للطبيب».

أمسكت هيلدا بذراع طورشتين، وذهبت به إلى العيادة التي تم ترشيحها من قبل أحد الأصدقاء. كانت العيادة في منزل الطبيب، فيلا رائعة بها حديقة خصبة

بالقرب من شقة هيلدا وطورشتين. كانت زوجة الطبيب امرأة حانية، فتحت لهما الباب، وابتسمت بدفء قائلة: «تفضلا، الطبيب في انتظاركما».

كان الطبيب رجلًا كبير السن، أنيقًا، يتحدث الفرنسية بطلاقة. لم يتطلب الأمر منه كثيرًا ليشخص حالة طورشتين.

« أنت تعاني من قرحة في المعدة، وسأضطر لوضع نظام غذائي صارم لك».

قالت هيلدا: «سأبحث عن نظام غذائي جيد في مفكرتي».

رد طورشتين: «أحمد اللّه أن معي ممرضة ممتازة».

أضافت هيلدا: «فلتستمع إذن إلى ما تقوله لك الممرضة».

تعين على طورشتين أن يتبع نظامًا غذائيًّا طيلة حياته. كان شيئًا جيدًا أن هناك من يعتني بإنجريد الطفلة الشقراء التي يصعب مقاومة سحرها.

«لا تستغلي هذا»، نهرت هيلدا إنجريد التي امتازت بالشقاوة، بينما أسرعت نان إليها.

قالت نان، وهي مبتسمة ابتسامة تكشف عن اعوجاج أسنانها: «سأعتني بها».

شعرت هيلدا بالامتنان لرعاية نان لإنجريد.

قال طورشتين لهيلدا في أثناء تناول الغداء: «أريد أن أصطحبك في نزهة».

- إلى أين؟

- سرعان ما ستعرفين.

وعد طورشتين أن يري هيلدا الدلتا، ومدينة يكسوها الغموض، إلا أنه لم يرد أن يفسد المفاجأة.

«فلنذهب يوم الجمعة القادم. لا تنسي قبعتك».

كان يوما الجمعة والأحد هما يوما العطلة الرسمية للمحكمة. يوم الجمعة : اليوم المقدس للمسلمين، ويوم الأحد: اليوم المقدس للمسيحيين، أما يوم السبت

فكان يوم عمل بالمحكمة.

قالت هيلدا لنان: «أعتقد أني سأترك إنجريد هنا معك، بينما سأذهب في رحلة مع طورشتين».

كانت هيلدا تثق في نان ثقة كاملة، وشعرت بالامتنان

لها، فالآن لديها قسط من الحرية لتذهب مع طورشتين، بينما تتولى نان رعاية إنجريد.

«لقد أمضيت أعوامًا عديدة أرعى الآخرين»، دار بخلد هيلدا، وهي تتذكر السنوات التي كانت تعتني فيها بوالديها. لم تندم هيلدا للحظة على تلك السنوات التي

قضتها في رعايتهم، لكنها الآن تريد أن تتذوق طعم الحرية التي تنعم بها.

قالت نان : «فكرة جيدة، سنكون بخير هنا، فما زالت إنجريد صغيرة على الذهاب إلى رحلات الصحراء».

«ليس من المفترض أن يتعرض الأطفال لشمس الصحراء الحارقة، والأمراض التي تختبئ في رمال الصحراء، ناهيك عن الحيوانات المفترسة، فالعقارب، والثعابين

السامة، خاصة الحية، والكوبرا المصرية التي تعيش في المناخ الحار».

مجرد فكرة الثعابين أصابت نان بالذعر، فقد قرأت من قبل أن الكوبرا تستطيع قتل فيل ضخم في غضون ثلاث ساعات. شعرت نان بالسعادة لأنها ستظل في

المنزل بعيدًا عن مخاطر تلك الرحلة.

قالت نان محذرة هيلدا: «تعيش تلك الثعابين البشعة في المنطقة التي ستقومين بزيارتها».

ثم أضافت «هل تعلمين أن كليوباترا قد استخدمت الكوبرا المصرية لتنتحر؟»

اقشعر بدن هيلدا لمجرد تخيل الفكرة، ما زاد من مخاوف نان. اعتادت كل من نان، وهيلدا إحاطة إنجريد بحماية زائدة.

انطلق الزوجان في الصباح الباكر. كانت الشمس ساطعة، وقطرات الندى تلقي ببريقها على السيارة السوداء. أحب طورشتين فكرة أن يأخذ زوجته الحبيبة في

مغامرة وحدهما.

قال طورشتين: «للسويديين العديد من القواسم المشتركة مع هذه المنطقة أكثر مما تتخيلين».

- كيف هذا؟

- سأخبرك عندما نصل، لا تتعجلي الأمر.

قاد طورشتين السيارة صوب الغرب. استمتعت هيلدا بكونها مع زوجها وحدهما في السيارة الجديدة . أغمضت عينيها، واستنشقت رائحة مقاعد السيارة الجلدية،

وأسندت رأسها على زجاج النافذة المغلقة لتستمتع بالمناظر الساحرة. كانت الدلتا خضراء، وخصبة. بدت أشجار النخيل وهي تصطف بانحناء على قنوات المياه التي

امتلأت بالأسماك، بينما ترفرف الطيور حولها لتعزف ملحمة رائعة الجمال. استطاعت هيلدا التعرف على حيوانات مثل البط، والإوز، أما أبو قردان بمنقاره، فكان

شيئًا لم ترَ مثله أبدًا. كان أبوقردان، وفقًا لمعلوماتها، يمثل إله المعرفة في الأساطير المصرية القديمة، وكان القلب بالنسبة للقدماء المصريين هو منبع الذكاء.

«بالطبع يكمن الذكاء في القلب. كم تميز القدماء المصريون بالحكمة!»، غرقت هيلدا في أفكارها إلى أن أفاقت على صوت طورشتين.

قال طورشتين بعد وصولهما لميناء صغير يدُعى رشيد: «الآن، سأخبرك بالاكتشاف العبقري. هنا تم اكتشاف حجر رشيد».

- ماذا؟.

- وجد مهندس بالجيش الفرنسي بلاطة قديمة عليها نقوش أثرية. كانت البلاطة داكنة اللون، فظن الجميع أنها من الجرانيت أو البازلت إلا أنها كانت من

الديوريت، وهو صخر ناري جوفي كبير الحبيبات أشد صلابة من الأحجار، يصعب تدميره، ولم يتم مسح الكتابة التي عليه».

- ماذا تقول الكتابة؟

- هذا هو ما يميز حجر رشيد، ففيه مفتاح لغز عميق.

بنظرة واحدة إلى هيلدا التي اتسعت حدقتا عينيها، أدرك طورشتين أنه يحظى باهتمامها الكامل.

- منقوش على الحجر نص مكتوب بثلاث لغات، من بينهما اللغة الهيروغليفية، والتي لم يستطع أحد من قبل فك شفرتها. أدرك الفرنسيون سريعًا أهمية هذا

الحجر كمفتاح للشفرة، وأعطوه إلى المؤسسة المصرية، وعندما جاء البريطانيون، وجدوا حجر رشيد، والعديد من المخطوطات المهمة. بعد ذلك بستة أشهر، وصل

الحجر إلى لندن، حيث استقر في المتحف البريطاني حتى يومنا هذا، وهنا دخل چوهان ديفيد أكير بلاد القصة.

قالت هيلدا: «لم أسمع عنه من قبل!»

- إنه ليس معروفًا، إلا أنه يجب أن يكون معروفًا.

- كيف ترجم إذن الهيروغليفية التي لم يستطع أحد فك شفرتها؟

- لقد استطاع فهم إحدى اللغات، وبعضًا من الأخرى.

- إذا لم يستطع أحد قراءتها، كيف تأكد أن نفس النص مكتوب بثلاث لغات؟

- في الحقيقة، لم يتأكد أحد من هذا، لكن أكير بلاد وضع افتراضًا، وكان صحيحًا بالفعل. لقد توصل إلى أن اللغة القبطية المكتوبة على الحجر مشتقة من كتابة

الشعب المصري القديم، وهي إحدى اللغات المكتوبة على الحجر، وهي مشتقة في الأصل من اللغة الهيروغليفية القديمة. استطاع شامبليون الفرنسي في النهاية

فك شفرة الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على الحجر، وقام بجمع الأبجدية، وتأليفها.

قالت هيلدا، وهي تشعر بالفخر: «يا له من شيء رائع! إذن، فالفضل يرجع في أساس الأمر إلى الرجل السويدي. الصلة التي تربطنا بمصر أكبر كثيرًا مما تخيلت».

استفاض طورشتين في الشرح، وهو سعيد باهتمام هيلدا: «أمضى شامبليون عامين ليكمل العمل الذي بدأه أكير بلاد حتى أنهى مهمته منذ مائة عام».

- ولم يستطع أحد قراءة الهيروغليفية قبل ذلك الوقت؟

- بالضبط، ولكن ما إن استطاع الناس قراءتها، حتى بدأ الأوربيون الأثرياء في قنص الأنتيكات المصرية، وأحيانًا كان يساعدهم قناصل الدول الأوربية انفسهم.

- من هنا إذن ظهرت المشكلات الخاصة بسرقة

الأنتيكات، والآثار، التي تنتهي في قاعة المحكمة.

- نعم، ولأكون صادقًا، ليس من العدل سرقة هذه الآثار، إلا أن سرقة الأجداد عادة مصرية قديمة، فالفراعنة، سرقوا الأحجار التي وضعها أجدادهم لبناء

آثارهم، ثم وصل الروم، ثم اليونانيون، ثم العرب، وجميعهم انتهجوا نفس النهج.

- أتذكر عندما ذهبت إلى روما مع والديَّ. لقد رأيت بالفعل بعض المسلات المصرية هناك.

- نعم، فالمسلات الموجودة في روما أكثر من المسلات الموجودة في أي مدينة مصرية.

تجول الزوجان في الميناء وأكملا محادثتهما، وهما ينظران إلى البحر. أدرك الزوجان عمق المعرفة التي يتعين عليهما الوصول إليها فيما يخص مصر التي بدا ماضيها

مصدرًا خصبًا لا ينضب، وكلما ازداد التنقيب، كلما شعرا أن هناك المزيد، والمزيد ليتوصلا إليه.

«أعتقد أني لن أستطيع الإلمام بكل شيء عن مصر».

تناول الزوجان مشروب الكركديه، ثم غادرا رشيد.

قاد طورشتين السيارة عائدًا إلى المنزل، وبدا هو وهيلدا سعيدين بالوقت الذي أمضياه معًا. استغرق الاثنان كلٌّ في أفكاره عن مصر، وسحر الغموض الذي يحيط

بماضيها العريق.

ظلت أشياء كثيرة عن مصر غامضة للزوجين، وانتابهما الفضول، فقررا اكتساب أكبر قدر ممكن من المعرفة، وخاصة طورشتين بحكم وظيفته، أما هيلدا، فكانت

تتبع قلبها أكثر من اتباعها عقلها، وكانت الموسيقى هي الأقرب إلى قلبها.

«الموسيقى نعمة إلهية»، هكذا كانت تردد هيلدا دائمًا.

كلٌّ من الزوجين كان يكمل الآخر، فكانت هيلدا عاشقة للموسيقى على عكس طورشتين الذي لم يتمتع بأذن موسيقية، وكان شغوفًا بمعرفة كل ما يخص

السياسة، ومجريات الأمور في العالم.

قال طورشتين في أحد الأيام، وهو يطالع الصحف اليومية في ذلك العام الفاصل، عام 1929 : «يبدوأن الاقتصاد في أزمة».

سألت هيلدا :«هل ستؤثر تلك الأزمة على مصر؟»

- أتمنى أن لا تؤثر على مصر، لكنها قطعًا ستؤثر على السويد. يجب أن تعودي إلى ساندس ڤال، وتبيعي كل ممتلكاتك هناك، فقد تمتد الأزمة الاقتصادية لتصل

إلى السويد، وحينها ستخسرين كل الممتلكات التي ورثتيها».

كان لطورشتين دائمًا وجهة نظر صائبة، خاصة فيما يتعلق بالمال والاقتصاد.

قالت هيلدا: «كم سيكره والديَّ أن أبيع ما قضيا حياتهما في جمعه، لكن من الأفضل أن أبيع ممتلكاتي».

قررت هيلدا أن تكون واقعية في قراءتها للمشهد، وانطلقت للمرة الثانية إلى ساندس ڤال، التي عاشت هيلدا فيها ذلك العصر الذهبي، حيث ترعرت مع عائلتها

التي جمعت ثروة لا بأس بها.

قالت هيلدا لصديقتها لينيا، وقد بدأت تستشعر خطورة

الموقف: «إنه لمحزن حقّا ما يحدث هنا، كما أن المناخ العام قاتم وكئيب على عكس مصر التي يتطلع فيها الناس إلى أشياء أفضل في المستقبل القريب».

في عام 1932 ، أي بعد مرور عامين، تلقت هيلدا خطابًا من لينيا:

«يؤسفني إبلاغك تلك الأخبار السيئة: إفلاس كريوجر حقيقة مؤكدة. أشعر بالقلق على السويد. لن ترجع الأمور إلى سابق عهدها. لقد كان طورشتين على حق».

نظر العديد من السويدين إلى ما حدث لإي ڤ ار كريوجر على أنه إفلاس عالمي. كان إي ڤ ار كريوجر مهندسًا سابقًا، وفي 1917 ، أصبح رئيسًا لشركة الكبريت السويدية، وفي عام 1920 ، أنشأ العديد من الشركات الفرعية والبنوك في دول متعددة، ولقد كون العديد من العلاقات في الولايات المتحدة الأمريكية، ما سمح له في المستقبل أن يكون أحد المفاوضين الرئيسيين لأمريكا في أوربا. غطت ثروة إي ڤ ار جزءًا من سلفياته، لكنها لم تغطها تمامًا، وعلى الرغم من تغير الوضع الاقتصادي، استمر إي ڤ ار في توسعاته، وعندما علقت أمريكا قروضها لأوربا، كان إي ڤ ار قد اقترض بالفعل ملايين الدولارات. انتحر إي ڤ ار في الثاني عشر من شهر مارس من عام 1932 ، عندما أدرك خطورة الموقف، وعلى الرغم من كونه مالكًا لستين في المائة من إنتاج الكبريت في العالم، اتضح أن كل أعماله كانت نصبًا واحتيالًا.

قالت هيلدا: «لقد تركنا السويد في الوقت المناسب. لقد صُدمت مما سمعته عن إي ڤ ار كريوجر».

رد طورشتين: «أنا أيضًا. لا يوجد ما نندم عليه فأنتِ على وشك اكتشاف الحقبة الذهبية. لقد تم ترقيتي».

أعلن طورشتين الخبر، واعتلت وجهه ابتسامة عريضة.

- هذا رائع، ولكن هذا يعني أننا سننتقل إلى القاهرة، أليس كذلك؟

- نعم، لقد تم تعييني قاضيًا للمحاكم المختلطة في العاصمة المصرية. إنها وظيفة يسعى الكثيرون إليها، سأحل محل القاضي إيميل ساندستروم.

- ولكننا بالكاد رتبنا شئوننا هنا.

- أعلم يا عزيزتي.

- حسنًا، أنا سعيدة بالانتقال إلى القاهرة. بالرغم من أن المكان هنا لطيف، فإن المنصورة بلدة صغيرة.

كانت هيلدا ترى دائمًا الجانب الإيجابي في الأشياء، كما كانت شخصية عملية، وتتوق دائمًا إلى المغامرة.

«على أية حال لن ننتقل الآن. لدينا متسع من الوقت، وسوف ننتقل بعد الإجازة».

كان طورشتين يحظى كل عام بأربعة شهور إجازة، وهي فترة كافية للإبحار إلى السويد، وقضاء شهرين هناك ليبحر بعدها إلى القاهرة. كانت العائلة على أهبة

الاستعداد للإجازة، فالأمر يتطلب عدة أسابيع لحزم الأمتعة. كان على نان وهيلدا إعداد كل ما تحتاجه إنجريد.

قالت نان: «إنجريد تعاني من الطفح الجلدي».

ردت هيلدا: «لا تقلقي، إنه من أثر الحرارة، سأعطيك كريمًا لمعالجته، سريعًا ما سيزول هذا الطفح بمجرد وصولنا إلى السويد، حيث إن الطقس هناك أقل

حرارة، سترين بنفسك».

استقرت العائلة على متن السفينة.. هيلدا وطورشتين في كابينة، ونان وإنجريد في كابينة أخرى. قام القبطان بتثبيت الأرجوحة بحبلين سميكين من أجل إنجريد.

تمرجحت إنجريد ومعها عروستها، كما كانت تجري على متن السفينة بينما تلهث نان وراءها في محاولة بائسة للحاق بها نظرًا لسن نان ووزنها. رنت ضحكات

إنجريد في أروقة السفينة بأسرها.

في هذا العام قرر آل طورشتين سالين التجول في أنحاء السويد بدلًا من الإقامة في نفس الفندق الذي اعتادوا الإقامة فيه خلال إجازات الصيف السابقة. في هذه

الرحلة ذهبوا إلى منطقة دالارنا على بعد ثلاث ساعات شرق شمال العاصمة. كان عبق التاريخ يهيمن على هذه المنطقة، وذات صلة بالشرق الذي يثير فضول هيلدا

وطورشتين. مر الزوجان بسالا، مسقط رأس الرسام السويدي أوجيلي الذي كان يهتم بالمذهب الصوفي. دائمًا ما حاول أوجيلي أن يرمز في رسومه إلى العادات

الصوفية، والوحدة، والضوء «عين القلب»، كما شعر طورشتين وهيلدا برغبة في التعرف على أعمال الفنان السويدي أنديرز زورن.

قال طورشتين، وقد بدأ يشعر بآلام القرحة مرة أخرى:

«فلنتوقف هنا لتناول فنجان قهوة، فأنا أحتاج إلى أن أريح قدمي بعض الوقت».

لم يرغب طورشتين في أن يثير قلقهم، ولكنه لم يتحكم في نفسه، فتجهم وجهه من الألم. شعرت هيلدا أن شيئًا ما لا يسير على ما يرام، لكنها فضلت الانتظار

والصمت. كانت صحة طورشتين دائمًا ما تأتي في المقام الأول عند هيلدا.

صاحت إنجريد، وهي غير مدركة تمامًا للقلق الذي سيطر على هيلدا: «أريد حلوى».

استند طورشتين على سور منزل خشبي مكتوب عليه «بيت القهوة». يطل المنزل على بحيرة منثور على صفحة مياهها الأزهار البيضاء والصفراء، بينما يفصل سور

خشبي بين المنزل والحقول، وتتدلى على السور أغصان الأشجار غير المستوية.

وُضعت الكراسي، والمناضد في المساحة الخضراء أمام «بيت القهوة».

قالت هيلدا، وقد لاحظت شحوب وجه طورشتين، الذي بدا خاليًا من أية حياة: «يبدو الطقس باردًا هنا، فلنجلس في الداخل».

أدركت هيلدا أن طورشتين يحتاج لبعض الراحة والهدوء، هذا إذا لم يسقط مغشيًا عليه. تساءلت هيلدا في قرارة نفسها عما إذا كان بإمكان طورشتين أن يكمل

الرحلة.

عنفت هيلدا نفسها في صمت: «لماذا لم أتعلم القيادة؟ كان هذا سيساعد كثيرًا».

دخل الجميع إلى بيت القهوة الذي انبعثت منه رائحة الخبز الطازج لتجد طريقها سريعًا إلى أنفهم مُذكرة إياهم أن الفطور قد مضى عليه ساعات.

أشارت إنجريد إلى فطيرة بالكريمة وقطع الفراولة المقطعة والمزينة بالمكسرات والشوكولاتة: «أريد فطيرة كهذه».

قالت هيلدا لإنجريد: «اسمها كعكة الأميرة».

قال طورشتين مبتسمًا رغم الألم الذي يعتصره: «تناسب أميرتي الصغيرة».

«فلتجلس هنا»، أمسكت هيلدا بذراع طورشتين، وساعدته على الجلوس، ووضعت وسادة خلف ظهره.

استقرت العائلة في جلستها حول منضدة مغطاة بمفرش سفرة أبيض مطرز. نظرت هيلدا حولها. كانت الحوائط بيضاء ناصعة، وقد عُلقت عليها لوحات زيتية

مرسوم عليها بعض المناظر الطبيعية للزهور والطيور، كما كُتب عليها بلون مختلف بعض الأبيات من قصائد الشعر.

قالت هيلدا: «يعجبنى هذا الديكور التقليدي».

«أحب الفطائر»، قالت إنجريد، وقد وصلت النادلة الشقراء ومعها الطعام.

استمتعت إنجريد ونان وهيلدا بالطعام الشهي.

قالت نان: «هذا ما أشتاق إليه وأنا في مصر».

لم يستطع طورشتين تناول الطعام، لكنه شعر بتحسن بعد تناول فنجان القهوة، وعليه ملعقة سكر، وقسط من اللبن لإنعاشه.

قال طورشتين بثقة: «فلننطلق الآن».

رمقته هيلدا بنظرة، وأدركت أن الألم قد زال. بدأ الاثنان في استكمال جولاتهم.

تكون الانطباع الأول عن الشرق عند زورن من خلال تانجيار، واستمر في جولاته التفقدية في قنسطنطين، والجزائر، ومصر. هيمنت صورة زوجته السويدية على كل

لوحاته عن النساء «الحريم» إلا أنه أيضًا قد قام برسم نساء، وغانيات من الدول التي زارها. عُرف بلوحاته المتميزة للماء، وانعكاساته، ولقد ترك عددًا من

اللوحات التي تُظهر ألوان المياه في أماكن متعددة ومنها بوغاز البوسفور.

توقف الزوجان عند إحدى لوحاته: امرأتان من الشرق بحجاب أبيض، وجوارب، وثياب بيضاء في تناقض صارخ مع الأحذية السوداء. تقف واحدة منهما في اللوحة،

وقد غطت وجهها بينما بدا على الأخرى الدهشة، ونظرة واهنة موجهة إلى مَن يشاهد اللوحة. صورت بقية اللوحات مشاهد مختلفة للمياه، ورجلًا يجدف قاربه.

قالت هيلدا: «انظر إلى الطريقة التي يرسم بها الماء».

اقترب طورشتين من اللوحة مرتديًا نظارته الذهبية ذات العين الواحدة (عينه اليسرى) ودرس اللوحة بعناية.

قال طورشتين ضاحكًا: «تبدو حقيقية. أود أن أسبح في مياه اللوحة».

قالت هيلدا: «لقد وجدت العديد من الفنانين السويديين المفتونين بالشرق، إلا أن زورن يسحقهم جميعًا بإبداعه الفني. كم يشجعني هذا على التقاط العديد من

الصور».

كانت إنجريد تجري هنا وهناك، بينما تحاول نان المسكينة اللحاق بها. كان من الواضح أن نان تحتاج لبعض الراحة، وإلا ستُصاب بأزمة قلبية من فرط التعب.

درست هيلدا اللوحات بعناية، وقررت مساعدة نان.

قالت إنجريد، وقد رأت صور القراصنة: «أريد أن أرى الأشخاص ذوي القرون».

قالت نان، وقد كسا اللون الأحمر وجنتيها من فرط الإجهاد: «لقد أخبرتها أنهم سافروا أيضًا إلى مصر».

قال طورشتين مبتسمًا: «يجب أن نذهب إلى بيركا».

كانت بيركا العاصمة القديمة للقراصنة في مالارين، فرع البحر الذي يحيط بستوكهولم حتى الشرق الجنوبي. على الرغم من أن بيركا كانت معقلًا قويًّا للقراصنة

فإن علماء الآثار اكتشفوا أربع عشرة عملة عربية، كما وجدوا أيضًا خواتم فضية ذات نقوش عربية يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر، وبلور صخري،

ومرجان، ولؤلؤ، وأساور، وعقود ذهبية، وأطباق زجاجية، وأباريق نحاسية. كان القراصنة يقايضون السيوف، والشمع مقابل تلك البضائع.

وعليه قررت العائلة التوجه لبيركا فانطلقوا على متن السفينة.

طلبت هيلدا الخبز البني قائلة: «كم أتوق إلى سندوتش الجمبري السويدي الشهي».

قال طورشتين: «سأتناول سندوتش السالمون والبيرة المثلجة».

كانت إنجريد تفضل قطع اللحم، والبطاطس المهروسة، أما نان فبدت مترددة بعض الشيء، ثم استقرت على فخذ الخنزير المملح.

أبحرت السفينة بينما تناولت الأسرة غذاءها، واستراح الجميع لمدة ساعتين حتى وصلوا إلى مقصدهم. كانت إنجريد كعادتها غير صبورة، فقفزت قبل الجميع

باحثة عن ذوي القرون.

قالت هيلدا: «كفاك صراخًا. لا يوجد ذوو قرون هنا. لقد ذهبوا جميعًا».

أكدت اكتشافات عالمي الآثار علاقة العرب بالقراصنة، ولكن الفضل يرجع إلى العرب الذين تناقلوا كثيرًا من الحكايات عن التجار القراصنة. وفقًا لعالم الجغرافيا

والكاتب العربي أحمد بن فضلان الذي عاش في القرن التاسع، فإن القراصنة كانوا في منتهى القذارة.

تصل فتاة كل صباح، ومعها طبق كبير من الماء، وتمر على كل قاطني المنزل، فيبدأ كل منهم في غسيل الوجه، والشعر، والبصق، جميعًا في نفس المياه، كما وجد

ابن فضلان أن القراصنة يكثرون من شرب الخمر، ويتسمون بالحرية الجنسية.

يأتون بالعبيد إلى سوق العبيد، وغالبًا ما يمارسون الجنس مع العبيد، بينما يشاهدهم الآخرون، وفي أغلب الأحيان، كان يتشارك العديد في جارية واحدة، ومع

ذلك كان ابن فضلان يرى القراصنة شديدي الجمال، حيث ذكر الآتي:

«لم أرَ قط مثل هذه الأجساد الشقراء الرائعة الجمال

التي تشبه شجر النخيل. إنهم لا يرتدون الجاكت أو القفطان، بل يرتدي الرجال ملابس تغطي أجسادهم، وتُترك الأيادي عارية بدون غطاء».

قالت نان وهي تقارن بضائع القراصنة بتلك التي أتوا بها من العرب: « يبدو أن العرب كانوا أكثر ثقافة، وتهذيبًا من الغربيين آنذاك».

ردت هيلدا: «بالتأكيد، لقد كان العرب أطباء، وعلماء، ورياضيين، وبفضلهم استطعنا الوصول إلى أمريكا».

كان للعرب الكثير من الأدوات، والآلات التي أثارت إعجاب الأوربيين، مثل الآلة الفلكية القديمة التي اختُرعت في الأساس لقياس مدى النجوم، واستطاع العرب

تحديد الوقت من خلال ارتفاع، وانخفاض الشمس، والنجوم، ثم تم استخدام هذه الآلة في البحر بشكل مبسط، وبفضل هذه الآلة استطاع ڤ اسكودا جاما

الإبحار إلى الهند، ومن بعده كريستوفر كولمبوس الذي عبر الأطلنطي.

«ولكن كما تعلمين يرجع الفضل إلى القراصنة في أنهم أول مَن اكتشفوا أمريكا قبل أي أحد، فنحن مميزون أيضًا ».

شعرت إنجريد بإحباط لعدم رؤيتها أي من القراصنة.

مر الصيف سريعًا، وحان وقت الرجوع إلى القاهرة، حيث ينتظرهم العديد من التحديات.. هذه المرة في العاصمة.

قالت هيلدا: «تبدو القاهرة أكثر حداثة من مدن الدلتا، ستكون الحياة فيها تقريبًا مثل الحياة في أوربا».

قال طورشتين: «ستكون أفضل من الحياة في أوربا، حيث سنتجنب التدهور الاقتصادي الذي يعاني منه

الناس في بلدنا. إلى جانب الأوضاع الاقتصادية السيئة، تشهد أوربا موجة رهيبة من معاداة السامية، حيث يُلام اليهود على كل المشكلات المادية التي تعاني منها أوربا».

- يبدو أن الناس قد فقدوا عقولهم.

- على عكس الأمر في مصر، فمعظم مستشاري الملوك من اليهود.

- حمدًا لله أننا نحيا في مصر الآن.

ومع ذلك لم تكن الحياة وردية، فكان هناك العديد من المشكلات، منها أوضاع النساء في مصر.لم يكن جميع أصدقاء هيلدا من عائلات ثرية. أدركت هيلدا أن النساء في مصر عليهن مواجهة مشكلات لا تُذلل، وعليهن التأقلم مع أوضاع في غاية الصعوبة. اهتمت بعض النساء بالشئون السياسية مثل هدى شعراوي التي حاربت من أجل تنمية أخواتها غير المتعلمات. أصبحت هدى شعراوي واحدة من أهم الشخصيات النسائية المصرية في مطلع القرن العشرين. أُعجبت هيلدا كثيرًا بهدى شعراوي، وشجاعتها، وأمانتها، هذا إلى جانب سلوكها الراقي، وابتسامتها الساحرة.

قابلت هيلدا هدى شعراوي أول مرة في حفلة عشاء مع بعض زملاء طورشتين، حيث أعجبت كل منهما بالأخرى، وأمضيتا وقتًا طويلًا معًا بعد تلك المقابلة. كل منهما كانت محبة للحرية. تأثرت هيلدا كثيرًا بعمق معرفة هدى شعراوي، وبصيرتها الثاقبة.

قبل بضعة أعوام، كانت هدى شعراوي امرأة أنيقة

تنتمي إلى الأرستقراطية المصرية، وكانت هي نفسها جزءًا من عالم الحريم في مصر. وصلت هيلدا إلى محطة قطار القاهرة، حيث كانت عائدة من مؤتمر عالمي للمرأة في روما. حياها الجميع فور وصولها، حيث كانت هدى شخصية نسائية شهيرة.

تصارعت الأفكار في رأس هدى: «إما الآن، وإما فلا، فلتفعليها يا هدى. بإمكانك فعل هذا الآن».

وقفت هدى أمام الجميع عند محطة القطار، وإذ بها ترفع الحجاب الذي غطى وجهها، وشعرت بنظرات المتفرجين، إلا أن الوقت كان قد فات. لقد فعلتها هدى، وتبعتها بعض النساء وهن يهتفن «كفاية، كفاية»، وكانت تلك اللحظة هي بداية نهاية عصر الحريم في مصر.

قالت هيلدا: «بعض النساء محجبات، وأخريات غير محجبات بغض النظر عن ديانتهن. يبدو هذا لغزًا بالنسبة لي».

ردت هدى: «لطالما ساعدت النساء أزواجهن في الريف منذ فجر التاريخ، ولم تكن النساء محجبات، ولكن بعض النساء في الأحياء الفقيرة يرتدين الحجاب، وأحيانًا يرتبط الأمر بالطبقة الاجتماعية، فالنساء الأرستقراطيات محجبات حتى يتميزن عن العبيد غير المحجبات».

بدأت الحركة النسائية في مصر كجزء من حركة الثورة ضد المستعمر، فكانت النساء تحارب الاستعمار مع الرجال، فالعدو واضح جلي، ومن هنا بدأ تحرير النساء في مصر، وكانت البداية على يد صفوة النساء.

قالت هدى: «كان من الشياكة أن تكون السيدة بيضاء

البشرة بقدر المستطاع، فهذا يثبت أن زوجها يعمل بجد من أجل راحتها، وبالطبع كان الحجاب، وتغطية

الوجه الطريقة المثلى للحفاظ على لون البشرة الفاتح».

قالت هيلدا: «لا نعاني من تلك المشكلة في السويد، فشهور الشتاء الطويلة، واختفاء الشمس خير دليل».

- كان الحريم عالمًا غامضًا بالنسبة للغرب. كان الحريم بالنسبة للغرب يعني «ركن النساء»، حيث كانت النساء المنتميات للطبقة العليا يجلسن في ركن منفصل

عن الرجال، وكان يُطلق على الزوجات لقب الحريم، وهو لقب يبعث على الاحترام. تخبئة النساء عن العالم كان أمرًا مكلفًا، حيث كان يتطلب ذلك منزلًا كبيرًا،

وتصميمًا معماريًّا خاصًّا، كما كان يتوجب على الزوج شراء العبيد من السودان ليساعدوا الزوجات، وليكونوا بمثابة الصلة التي تربط النساء بالعالم الخارجي.

بالتدريج أصبح العبيد أعضاء في العائلة، كما اكتسبوا ثقة النساء.

سألت هيلدا، وقد بدا عليها الفزع: «لكن المرأة لم تعد حبيسة المنزل الآن، أليس كذلك؟»

ردت هدى: «ليس تمامًا، لكن الأوضاع تتغير».

لم تكن إجابة هدى مرضية تمامًا لهيلدا.

أضافت هدى قائلة: «لكن هذه التقاليد القديمة لها الفضل في وجود المشربيات التي تعشقينها».

أقرت هيلدا بإعجابها بالمشربيات: «نعم، كم أعشق تلك اللوحات البديعة الصنع».

تلك اللوحات الخشبية المثقوبة التي تستطيع النساء من خلالها رؤية كل شيء دون أن يراهن أحد. إذن، فلقد كان الحجاب، وتغطية الوجه، والحريم عادة

اجتماعية لا علاقة لها بالدين، حيث كان على الرجل أن يحفظ امرأته داخل المنزل، ويكون هذا بمثابة الحفاظ على شرفه. في القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين، كانت النساء محجبات سواء كن من اليهود، أوالمسيحيين، أوالمسلمين. كان الأمر لا يمت بصلة للدين، وقد أشارت هدى إلى أن غطاء الرأس لم يكن

حتى مذكورًا في القرآن.

قالت هدى: «يجب أن نشكر محمد علي على انفتاح الدولة على الغرب، وعاداته».

بدأ الأمر بتقديم التكنولوجيا الحديثة إلى مصر لتحديثها، وبالتالي بدأ الأوربيون في التدفق إلى مصر بدءًا من الرجال، والخبراء في كافة المجالات، ليلحق بهم فيما

بعد زوجاتهم والمعلمات، والمعلمون، ومن هنا بدأت أفكار المرأة الأوربية عن التحرر في الانتشار تدريجيًّا بين نساء مصر.

قالت هدى: «تسافر النساء المنتميات إلى صفوة المجتمع المصري إلى أوربا، وهناك نتصرف مثلكم، فنخلع غطاء الرأس، والوجه، ونحادث الرجال، ولكن بمجرد

عودتنا إلى مصر، نرتدي الحجاب مرة أخرى، ونعود إلى التقاليد القديمة».

- لا بد أن هذا شيء محبط.

- نعم، بالضبط، ولهذا فعلت ما فعلت، ورفعت الغطاء عن

وجهي.

ما فعلته هدى كان البداية، حيث إن تحرر المرأة كان قضية مهمة مثارة بين أوساط الإسلاميين الليبراليين.

قال الشيخ محمد عبده من جامعة الأزهر الشريف: «يجب أن يكون للنساء كلمة، وكيان في المجتمع».

في القرن العشرين كتب قاسم أمين، وهومحام مسلم، كتابه «تحرير المرأة» للدفاع عن حقوق المرأة، كما انتهج رجال عظام نفس النهج ضد العادات القديمة

مستلهمين أفكارهم من المفكرين، والفلاسفة الفرنسيين. كانت هدى تمثل استمرارية هذا النهج الذي عظم حقوق المرأة، بل وذهبت هدى بشجاعتها إلى أبعد من

ذلك.

قالت هدى: «أصبحت مهتمة بحزب الوفد، وهوحزب سياسي أُسس من أجل محاربة المستعمر. كان تحديًا حقيقيًّا أن تعمل المرأة بالسياسة، لكننا سئمنا من أن

يملي أحد علينا أوامره. في البداية كنا نساعد الرجال على التخلص من المستعمر، لكن بعد ذلك أدركنا أننا نستمتع بشعورنا بقوة التمكين».

منذ عام 1924 وحتى موتها في عام 1947 ، ترأست هدى شعراوي الاتحاد النسائي، وهوحركة نسائية مصرية قامت هدى بتمويلها. في البداية استقطبت تلك

الحركة صفوة النساء من الطبقة العليا، ثم سرعان ما توالى انضمام نساء الطبقة الوسطى. أصدر الاتحاد النسائي مجلتين شهريتين، واحدة بالفرنسية، وأخرى

بالعربية، كما أسس الاتحاد عيادة للأمهات الفقيرات،

وأطفالهن الرضُع، هذا إلى جانب ورش عمل، ومراكز رعاية لأطفال الأمهات العاملات. افتتحت هدى

شعراوي أيضًا مدرسة ثانوية عام 1924 ، وقبل نهاية العقد كانت المرأة المصرية قد التحقت بالفعل بالجامعة.

قالت هدى: «إنها ظاهرة جديدة في مصر بالقطع».

ردت هيلدا: «بالتأكيد، كان عليك تخطي عقبات كثيرة للوصول إلى ما أنت عليه الآن».

كان على هيلدا أن تدير أمورها، وتتخطى العوائق الخاصة بها. علمت هيلدا أن طورشتين مشغول بقضية معقدة، وأنهم في حاجة إلى شقة في القاهرة، فقررت أن

تذهب وحدها إلى العاصمة.

أعدت هيلدا حقيبة صغيرة، وذهبت إلى القطار المتجه إلى القاهرة استعدادًا لمغامرة أخرى. شعرت هيلدا ببعض القلق. يجب أن تكون المنطقة التي ستسكن بها بيئة

مناسبة لإنجريد. القاهرة مدينة مزدحمة، فهي العاصمة، ويسكنها أكثر من مليون نسمة، ولكن ما إن تذكرت هيلدا حديثها مع هدى شعراوي حتى ارتفعت

معنوياتها، واستعادت ثقتها بنفسها.

دار بخلد هيلدا: «إن كفاحي للتأقلم مع ثقافة مختلفة لا يُعد شيئًا مقارنة بما تمر به هدى شعراوي والنساء في مصر».

وصل القطار إلى القاهرة. عقدت هيلدا العزم، ومضت في طريقها غير مكترثة بالنظرات التي تحيط بها. نظرت إلى السماء، إلى الله قائلة: «ستكون فخورًا بي».

ساعدها العامل في حمل الحقيبة حتى أخذت عربة إلى فندق سميراميس، وهو فندق غاية في الروعة على الطراز الإنجليزي، وبه حديقة جميلة مطلة على النيل.

ومن هنا انطلقت هيلدا لتتفحص بعض الشقق التي عُرضت عليها. كانت تنظر إلى الشقة، والمنطقة المحيطة بها لتقييم الأمر برمته.

أخيرًا، استقرت هيلدا على شقة في منطقة جاردن سيتي، واستقلت القطار إلى المنصورة لتعلن للعائلة قرارها، وما توصلت إليه.

غرقت هيلدا في أفكارها، وهي جالسة وحدها في ديوان عربة القطار: «لست بشجاعة النساء المصريات، لكني أبلي بلاءً حسنًا كأجنبية لا تجيد لغة أهل البلد».

الفصل الخامس

جاردن سيتي

رجعت هيلدا إلى المنصورة، والحماس يفيض من كلماتها: «لقد وجدت المكان المناسب لنا».

قال طورشتين: «أخبريني إذن!»

كانت إنجريد صغيرة على أن تفهم ما يدور حولها، أما نان فاستمعت لهيلدا، والفضول يتملكها.

- شقة بالمنطقة الخضراء بجاردن سيتي بالقرب من النيل. توجد السفارة الإنجليزية في نفس المنطقة، وتطل حديقتها الضخمة على النيل. جاردن سيتي مكان

ساحر للإقامة به، حيث الفيلات، والحدائق المزدهرة. إنه مكان مثالي بحق لإنجريد، ويُعرف المكان ب «إنجلترا

الصغيرة» في منتصف القاهرة.

قال طورشتين، وهوسعيد: «يبدو هذا رائعًا، كما أن المكان ليس ببعيد عن المحكمة، فلننتقل إلى هناك إذن».

بدأت هيلدا ونان في حزم الأمتعة في طريقهما إلى حياة جديدة في العاصمة، حيث يوجد نمط مختلف من الحياة أكثر انفتاحًا من المنصورة، إلا أنه ينطوي على

بعض المخاطر غير المعروفة لهم. كبرت إنجريد، وبدأت هيلدا في القلق على مستقبل ابنتها الصغيرة، وتعليمها.

سردت هيلدا مخاوفها لطورشتين بالتفصيل: «ماذا سنفعل مع إنجريد؟ نحن نقطعها عن جذورها السويدية. هل ستصبح فتاة مصرية؟»

قال طورشتين: «إنها لمشكلة حقًّا. أتفق معك، لكن ماذا سنفعل؟ أنا أعمل هنا».

كانت شقة طورشتين في الطابق الثاني في مبنى صُمم على الطراز الفرنسي الباريسي كحال معظم المباني في وسط المدينة، حيث كانت المباني أنيقة، والشوارع

ممهدة، فالمشهد برمته منقول عن باريس التي صمم طراز مبانيها المهندس المعماري الخاص بنابليون الثالث؛ البارون هوسمان.

قال طورشتين وهوسعيد بشراء سيارة أمريكية جديدة: « ويوجد جراج أيضًا، سأذهب إلى عملي بالسيارة».

رغم غلو ثمن السيارة، كانت جوهرة حقيقية. كان القاضي طورشتين من القلائل الذين يمتلكون سيارة

في هذه المدينة الشرقية وسط الجِمال، والعربات التي تجرها الحمير. كان التناقض بين الأجانب، والأثرياء المصريين من جهة، والمواطن المصري البسيط من جهة أخرى، تناقضًا صارخًا. بدا لطورشتين أن البسطاء من

الناس قد رضوا بقدرهم، ولكن ربما لم يرضوا. ماذا يعرف طورشتين عن هذا الأمر؟ لقد عرف أنه كان هناك شيء من عدم الاستقرار في الماضي بسبب هذا التناقض.

نادت هيلدا على طورشتين، والحماس يغمرها: «فلتأتِ إلى الشرفة».

لم يشأ طورشتين أن يفسد عليها فرحتها بأفكاره القاتمة. أطلت الشرفة علي الحدائق التي امتدت حتى النيل في بانوراما ساحرة. عُرف الإنجليز بحبهم للنباتات، ولذلك اهتموا بالحدائق، وساعد على ذلك طقس القاهرة، وشمسها الدافئة، ومياه نيلها المتدفقة، فنمت الأشجار، والزهور في الحدائق، وعلى أرصفة المدن المصرية.

قالت هيلدا، وقد سحرتها رائحة الياسمين: «أرى أننا سنقضي الكثير من الوقت في هذه الشرفة الرائعة».

بدأت هيلدا ونان في فض الأمتعة. وُضع الأثاث.. كل قطعة في مكانها وفقًا لتعليمات هيلدا، ولكن كان على هيلدا أن تعيد ترتيب بعض قطع الأثاث بشكل يتناسب مع الشقة الجديدة. كانت إنجريد تجري هنا وهناك كعادتها.

قال طورشتين، وهو يمسك بعصاه في يد، والقبعة في اليد الأخرى: «سأذهب للتجول حول البيت».

قالت هيلدا: «فلتأخذ إنجريد معك إذن».

تجولت إنجريد مع أبيها الذي أمسك بيدها الصغيرة الدافئة بقوة، فلم يكن طورشتين معتادًا على رعاية الأطفال. تركت إنجريد يد طورشتين، وأخذت تجري أمامه.

«لا تذهبي بعيدًا».

لم تصغِ إنجريد، حيث انشغلت بحيوان صغير، وخزته، فلم يحرك ساكنًا. اقترب طورشتين، ونظر إلى الحيوان بنظارة العين الواحدة التي يرتديها دائمًا، ثم قال: «إنها حرباء. يبدو أنها ميتة».

قالت إنجريد: «لا، إنها تتحرك، انظر، سأعتني بها».

نظر طورشتين جيدًا، وأدرك أن الحرباء حية، وفكر كم تشبه إنجريد هيلدا التي طالما اعتنت بالآخرين بحكم مهنتها كممرضة.

أخذت إنجريد الحرباء، ووضعتها في جونلتها، وأمسكت الجونلة من الطرفين حتى لا تقع الحرباء.

«اتركيها هنا، قد يحمل هذا الحيوان مرضًا خطيرًا».

بدأت إنجريد في البكاء، والصياح بصوت مرتفع، مما لفت أنظار المارة، فاستسلم طورشتين في النهاية وقال: «حسنًا، ولكن يجب أن تسألي والدتك أيضًا». ابتسمت إنجريد، ونظرت نظرة حانية إلى الحيوان الصغير.

شعر طورشتين بالإرهاق، فهو غير معتاد على التعامل مع رغبات الأطفال، فأخذ إنجريد، ورجع إلى البيت.

قالت إنجريد بمجرد دخولها المنزل: «انظروا ماذا وجدت؟»

صرخت نان: «ما هذا؟»

هدأت هيلدا من روع نان، وأنهت تفريغ الصندوق الصغير الذي بيدها قائلة: «خذى هذا».

قالت إنجريد: «سأعتني أنا بالحيوان».

أخذت إنجريد الصندوق الصغير، ووضعت قطعة من القماش فيه، ثم وضعت الحرباء. سرعان ما بدأت الحرباء في الحركة والتعافي.

قالت هيلدا، وقد قررت رعاية الحرباء: «إنه الحيوان الأليف الأول في منزلنا. سيجلب لنا الحظ».

صفقت إنجريد بيدها، وأخذت تقفز حول الحرباء في سعادة.

«فلنذهب لغسيل اليد»، قالت نان، وهي تعتقد أنه من الجنون أخذ حيوان من الشارع لرعايته.

تذكرت نان أولسونز الذي فقد طفله، وهو في عمر إنجريد، حيث أخذ كلبًا من الشارع لرعايته، وانتقل مرض خطير من الكلب إلى الطفل الذي دفع حياته ثمنًا

لرعاية الكلب الضال. ماذا لوحدث شيء لإنجريد، ابنتهم الوحيدة ؟! لم تجرؤ نان على الحديث عما يدور بفكرها، وبدا لها أن آل طورشتين لم يفكروا في عيوب

تواجد الأجانب في مصر، وإنما فكروا في الميزات فقط.

قال طورشتين: «أحتاج إلى تهدئة أعصابي».

ردت هيلدا: «يمكننا أن نتجول بالسيارة بعد العشاء إذا أردت».

قال طورشتين: «فكرة ممتازة عزيزتي».

شعر الزوجان بالسعادة بالوقت الذي يقضيانه معًا

وحدهما بعد الاضطراب الذي عم اليوم. ذهبا إلى الجراج، حيث كانت السيارة في انتظارهما: سيارة كبيرة

فارهة. شعر طورشتين وهو يقودها أنه ملك في مقاطعته. تذكر الزوجان أوقاتهما في ستوكهولم والتجول في شوارعها يدًا في يد. الفصل بين الجنسين صارم جدًّا في

مصر، حتى الأزواج لا بد أن تكون هناك مسافة بينهما عند التجول في الشارع. تطلب الأمر كثيرًا من الوقت حتى يتعود كل من طورشتين وهيلدا على ذلك الوضع.

سرعان ما اكتشف الزوجان أنه لا توجد إشارات حمراء في القاهرة، فحركة المرور كانت نادرة. كان هناك فقط شرطي مرور يمسك بعمود خشبي ذي وجهين، وجه

يحمل اللون الأخضر، والآخر يحمل اللون الأحمر.

قال طورشتين وقد عقد عزمه: «سأتجول حول قصر عابدين».

صاحت هيلدا عندما رأت القصر: «يا له من قصر فخم!»

قال طورشتين ضاحكًا: « نعم، لقد بناه الخديوِ إسماعيل منذ قرن مضى».

صمم القصر المهندس المعماري الفرنسي روسو. كان قصر عابدين أحد أكثر القصور فخامة في العالم، ويرجع هذا إلى الزخرفة، واللوحات الفنية، والعدد الهائل

من الساعات المنتشرة في الأجنحة الذهبية، هذا إلى جانب العدد الهائل من الغرف المتسعة الذي يصل عددها إلى خمسمائة غرفة.

أخذت هيلدا تفكر في صمت: «يصعب تنشئة أمير في هذا القصر دون أن يفسده التدليل، خاصة في هذا

المجتمع الذكوري الذي تأتي فيه المرأة دائمًا في المرتبة الثانية،

وتساءلت في قرارة نفسها إن كان تربية طفلة في هذا البلد فكرة جيدة.

قال طورشتين مشيرًا بإصبعه: «انظري إلى الحديقة الواسعة، لقد أضافها الملك فؤاد منذ فترة ليست ببعيدة».

قالت هيلدا، وقد أخذت نفسًا عميقًا : «أستطيع أن أشم رائحة الزهور من هنا. لا بد أن هذا قد كلفه ثروة».

رد طورشتين: «وفقًا لما سمعته، لقد كلف إنشاء هذا القصر مليون جنيه مصري بدون الأثاث».

لم تكن هيلدا ضد الترف، لكنها لم تستطع منع نفسها من التفكير في البسطاء.

قالت هيلدا: «هذا الثمن يكفي لبناء الكثير من العيادات، والمدارس».

لم تكن تلك القضايا ذات أهمية للعائلة المالكة أو الصفوة.

قالت هيلدا: «لا بد أن رعاية مثل هذا القصر تتطلب العديد من الأشخاص».

- هل يمكنكِ تخيل مثل هذا الترف في السويد؟

- لا، وإلا ستكون هناك ثورة، أو على الأقل سينتقد الإعلام الوضع.

صمتت هيلدا، وقد غرقت في أفكارها. ماذا لو اندلع الوضع في القاهرة، وتظاهر الفقراء؟ تذكرت هيلدا كيف كافحت والدتها لإعادة ترتيب حياتهم بعد الحريق

المريع الذي شب في ساندس ڤال.

مرت السيارة بالمتجر الإيطالي صيدناوي بتصميمه الفني الرائع، وواجهته الأنيقة، فأفاقت هيلدا من أفكارها.

«كم أعشق استخدام المصاعد بدلًا من صعود الدرج». جربت هيلدا هذه الوسيلة المرفهة عندما جاءت إلى القاهرة. كان صيدناوي أول متجر في مصر يستخدم

المصاعد، وهو اختراع حاز على إعجاب السيدات اللاتي يعشقن التسوق.

قاد طورشتين سيارته ببطء وسط الظلام الذي حل على العاصمة النائمة في مثل هذا الوقت فيما عدا بعض اللوحات الإعلانية المضاءة التي صُممت في عهد محمد

علي الذي شهد نهضة وحداثة.

شعرت هيلدا بقلبها يخفق: «أخيرًا أتيت للعيش في العاصمة».

استنشقت هواء المدينة حتى أفاقت من أفكارها على رجة السيارة، وقد وقفت بشكل مفاجئ.

- ماذا حدث؟

- يبدو أنني كنت سأصطدم بالعربة التي يجرها الحمار.

على الرغم من أن القاهرة هي عاصمة مصر، إلا أن بعض المناطق الريفية والفقيرة كانت تقع في منتصف المدينة لتبرز التناقض الصارخ بين صفوة الأغنياء،

والبسطاء.

كان الأمير فاروق مدللًا كونه ولدًا وحيدًا وسط أخواته البنات، وكان الملك فؤاد والده على دراية بهذا؛ لذلك

أصر على أن يدرس ولده طوال اليوم. كان الملك فؤاد نفسه يتحدث الفرنسية بطلاقة، هذا فضلًا عن اللغة التركية، واللغة الإيطالية إلا أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة في اللغة العربية، ويبدو أنه ندم على ذلك فأصر على أن يتقن ابنه اللغة العربية. لسوء الحظ لم يكن الأمير فاروق طالبًا مجتهدًا، وسرعان ما استخدم تدليل والدته الملكة نازلي له، واستطاع أن يجذب الخدم لصالحه ضد النظام الصارم الذي وضعه والده ومعلموه.

كان الأمير فاروق دائمًا ما يشتكي لوالدته: «إن أبي شديد الصرامة».

كان وزن الأمير فاروق زائدًا عن الطبيعي رغم كونه صغير السن، ويرجع هذا إلى الحلوى الزائدة التي كانت والدته تمده بها، وكذلك الخدم. كان والده يضع له نظامًا غذائيًّا إلا أن شهية فاروق للطعام كانت قوية حتى إنه كان يأكل طعام القطة. هذا ما كان يُحكى، وتردده الألسنة. لم يكن حول الأمير فاروق في قصر القبة سوى أخواته البنات: فوزية، وفايزة، وفايقة، وفتحية. جميع أسماء أبناء الملك فؤاد كانت تبدأ بحرف الفاء، حيث أخبر أحد قارئي الغيب الملك فؤاد، والملكة نازلي ذات يوم أن هذا الحرف يجلب الحظ السعيد.

عندما بلغ الأمير فاروق الخامسة عشرة بعثه والده إلى إنجلترا لمواصلة دراسته.

فزع الأمير فاروق عندما خضع في إنجلترا لمعايير الطلبة الذين يأتون من سائر البلاد لتلقي العلم في المملكة المتحدة.

فشل الأمير فاروق، لكن سُمح له بحضور بعض الدروس

يومين أسبوعيًّا، أما باقي الوقت فقضاه في المقاهي، ومحلات المجوهرات. لم يدم هذا الوضع كثيرًا، فبعد ستة أشهر وصلته برقية: «لقد مات الملك».

كان وصول الأمير فاروق للحكم، وهو في هذه السن الصغيرة من سوء حظه، فكان يتلقى النصائح فقط، حيث لم يجرؤ أحد على إعطاء أوامر للملك الجديد. أدت عزلته، وانعدام ثقته بنفسه، إلى غرقه في تمجيد الذات. في الثامنة عشرة أُعلن عن خطبته لصافيناز ذو الفقار التي أصبحت فيما بعد الملكة فريدة، وسرعان ما أصبحت شخصية شهيرة، ومحبوبة من قبل المصريين الذين أحبوا الملك وخطيبته كثيرًا.

قال طورشتين بعد أن قرأ خبر الخطبة في الصحف اليومية: «أعرف والدها جيدًا، إنه نائب رئيس المحاكم المختلطة في الإسكندرية».

قالت هيلدا: «لقد رأيت صورها في المجلات النسائية التي أتصفحها عند مصفف الشعر. إنها بارعة الجمال».

- أدرك أنك تقضين وقتًا طويلًا عند مصفف الشعر، وقتًا يكفي لتصفح العديد من المجلات.

- ولكن لا تنكر أن النتيجة دائمًا ما تكون رائعة.

غرق طورشتين في أفكاره، وأخيرًا قال: «ليس الجميع متيمين بالعائلة المالكة».

كان هناك اثنان مقربان من الملك فاروق: رقيبه السياسى، الرجل الطموح جدًّا علي ماهر، والسفير البريطاني مايلز لامبسون. لم يحترم مايلز الملك الصغير، وكان يطلق عليه اسم «الولد»، وفي المقابل كان يطلق

الملك فاروق على مايلز اسم «الجاموسة باشا»، أما النحاس باشا، فكان قلقًا من شعبية الملك فاروق، ومكائد علي

ماهر، الأمر الذي أسهم في استبعاد حزب الوفد.

قالت هيلدا: «قد يؤدي الزفاف إلى بداية جديدة أفضل لمصر».

- وقد يكون الثنائي الملكي الجديد أكثر تعاطفًا مع الفقراء، وقد يبدآن معًا في تحديث الريف.

- يعمل الفقراء هنا في مهن بسيطة.

- أعلم، وبالرغم من ذلك كيف كنت سأتدبر أموري بدون مساعدتهم لي في الأعمال المنزلية؟!

كانت هيلدا امرأة عملية تدرك أن الأغنياء يحتاجون إلى الفقراء تمامًا كاحتياج الفقراء للأغنياء. لقد صعدت والدتها رانهيلد درجات الترقي الاجتماعي، وكافحت

كثيرًا؛ لذلك كانت هيلدا دائمًا لديها أمل أن أشد الفقراء فقرًا لديه فرصة في تحسين أوضاعه، بدا لهيلدا أن مصر على وشك دخول عصر الصناعة مشبهة الوضع

في مصر بقدمين: قدم لا تزال في النظام الزراعي، والأخرى في فترة الحداثة.

قال طورشتين، وهو يحدوه التفاؤل: «لو استثمر الأشخاص ذوو الغنى الفاحش أموالهم أكثر لصالح الفقراء، ستصبح مصر دولة رائعة».

كانت الحياة في القاهرة غير ممكنة بدون المساعدة المنزلية سواء بالنسبة للأجانب أو المصريين الأغنياء. كان تنظيف المنزل من الأتربة عمل يحتاج لساعات طويلة،

حيث تهب الأتربة بينما يتراكم النمل كل يوم بين غرفة المعيشة، وغرفة الطعام، أما الصراصير فتجد سعادتها في التكاثر في المطبخ.

لم يستطع آل طورشتين جلب موظفين المنزل من المنصورة مما اضطرهم إلى إيجاد فريق عمل جديد في القاهرة. تم ترشيح محمد الطباخ من مالك الشقة السابق،

وقد رشح محمد بدوره السفرجي.

أتى محمد ذات يوم، ومعه رجل طويل القامة نحيل يرتدي «الجلابية»، ويتحدث العربية فقط، وأصر قائلًا: «إنه جيد حقًّا في تقديم الطعام».

قالت هيلدا: «لكن يجب عليه أن يرتدي حذاءه. لا يمكن أن يأتي إلى هنا بدون حذاء».

أخذت هيلدا تفكر كيف أنه يتعين عليها تعليم الخدم أبسط الأشياء مثل ارتداء الحذاء، وبدأت تفهم المشاكل التي يعاني منها الفقراء في مصر.

أتى أحمد من الريف مباشرةً إلى منزل هيلدا للعمل، ولم تكن لديه خبرة سابقة، كما لم يكن معتادًا على عادات الأجانب. اشترت له هيلدا حذاءً وساعدته في

ارتدائه. في اليوم التالي ارتدى أحمد الحذاء بدون رباط، وبدون جوارب، وكان يبدو تعسًا متجهم الوجه.

قالت هيلدا: «ماذا حدث للرباط؟»

«معلش»، كانت تلك هي إجابة أحمد.

أعطته هيلدا أحد جوارب طورشتين القديمة، وطلبت منه ارتداءه. بعد ساعة وجدته حافي القدمين بينما وُضع الحذاء وفيه الجورب بشكل منظم في ركن بعيد.

قالت هيلدا، وقد بدأ ينفد صبرها: «لقد أخبرتك أنه يتعين عليك ارتداء الحذاء».

منذ الحين بدأ أحمد في ارتداء الحذاء معظم الوقت، وبعدها بفترة انتشرت رائحة كريهة في المنزل، واكتشفت هيلدا سريعًا أنها رائحة قدم أحمد.

قالت هيلدا: «متى كانت آخر مرة قمت فيها بغسيل الجوارب؟»

أجاب أحمد، وقد ظهرت أسنانه البيضاء: «مفيش صابون».

أحضرت له هيلدا صابونة كبيرة تكفي لفترة من الزمن، إلا أن أحمد لم يجد أية راحة في ارتداء حذائه. قررت هيلدا في نهاية الأمر أن يرتدي أحمد الحذاء في الأوقات التي تستقبل فيها الضيوف على أن يلمع الحذاء جيدًا، وفيما عدا ذلك بدا أحمد سعيدًا بارتداء الشبشب، وهكذا شعر الجميع بالراحة.

كان القفاز الأبيض أمرًا هامًّا لهيلدا، وبدأت نضالها مع أحمد حتى يعتاد على ارتداء القفاز. اشترت هيلدا لأحمد القفاز الأبيض من محل في وسط المدينة مختص بلوازم الخدم. شعر أحمد بالارتباك، وهو يرتدي القفاز حتى إنه كسر الكثير من الأكواب الكريستال التي كانت تستخدمها والدتها رانهيلد في الفندق الخاص بها.

قالت هيلدا وقد اتخذت قرارها: «سأدربه أولًا على ارتداء القفاز باستخدام أكواب مصرية رخيصة الثمن حتى يعتاد عليه».

كان للخدم في البيوت عادة استبدال الأشياء فيما بينهم بدون إذن من أصحاب المنزل، ولم يكن الأمر لينجح دائمًا،

حيث حدثت واقعة في احتفال آل طورشتين

سالين بالكريسماس في جاردن سيتي. وفقًا للعادات السويدية يحتفل آل طورشتين سالين بالكريسماس في الرابع والعشرين من ديسمبر، وكان الغذاء المخطط له

كالآتي: رنجة، وفخد الخنزير المملح، والبطاطس، وقطع اللحم، والفاكهة، والكعكة المزينة بالشوكولاتة، والمكسرات. قضت هيلدا ونان أيامًا في الإعداد للاحتفال

ليبدو كما لوكان في السويد.

بعد تناول هذا الغذاء الدسم لم يشعر أحد بأية شهية لتناول العشاء.

قال أحمد، وقد جلب معه ديكًا روميًّا لم تستطع هيلدا تمييزه: «هذا هو العشاء يا باشا».

سألته هيلدا باندهاش: «أين السمك الذي أعددته للعشاء؟»

لم تنتظر هيلدا الإجابة طويلًا، فلقد دق جرس الباب، وسرعان ما سمعت هيلدا أصوات مرتفعة. جرت إنجريد الصغيرة بدافع الفضول بينما هبَّ طورشتين واقفًا،

وأسرع لمعرفة ما يحدث بمنزله. أتى طورشتين بعد وهلة، وقد بدا عليه الإحراج بشكل واضح.

قال طورشتين: «إنه طارق، خادم الجيران في الدور الأعلى. يبدو أنه سكب بعضًا من العشاء الذي أعددتيه وهو يتحدث مع أحمد، فأبدله بالديك الرومي الخاص

بمُلَّاك الشقة التي يعمل بها مما أزعجهم فطلبوا استعادة الديك الرومي، حيث إنهم لا يؤيدون مبدأ

المبادلة».

قال أحمد: «يبدو أن السمك الذي أعدته المدام للعشاء لم يبدُ شهيًّا للجيران».

علَّق طورشتين: «ليس نحن فقط الذين نرى عاداتهم غريبة، ولكن هم أيضًا لهم نفس المنطق تجاه عاداتنا».

أقرت هيلدا: «بالطبع. كم كنت مغرورة!»

قرر الزوجان أن يكونا أكثر انفتاحًا على مصر وعاداتها.

في مناسبة أخرى خطر للخدم تلك الفكرة البراقة لاستخدام الجرائد المصرية والإنجليزية في التزيين، فقاموا بتقطيع ورق الجرائد بشكل فني ليضعوا قصاقيص

الجرائد على كل مصباح في الشقة.

قالت هيلدا للضيوف في محاولة لتبرير وضع قصاقيص الجرائد على المصابيح: «لم أستطع تعنيف محمد، وقد رأيت الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على وجهه».

في بداية عام 1930 كانت القاهرة مدينة ساحرة ذات زخم ثقافي، كما كانت خالية من التلوث، وغير مكدسة بالسكان. كانت الحياة فيها رائعة، على الأقل

للصفوة، مما عوض هيلدا عن كل المتاعب التي مرت بها حتى بدأت مرة أخرى في قلقها على إنجريد.

اعتاد آل طورشتين قضاء معظم الأوقات في الشرفة يحتسون الشاي، ويستنشقون الهواء المنعش المحمل برائحة زهور الحدائق المحيطة، والرياح الهادئة التي تهب

من النيل، والتي كان يُطلق عليها «شم النسيم».

«حان وقت الشاي».

كانت هيلدا تترك الشاي قليلًا حتى يتخلص من سخونته، ثم تغلق عينيها لتحتسيه رشفة تلو الأخرى. كانت تُقدم الحلوى المنزلية المحلاة بعسل النحل المصري مع

الشاي. كانت الحياة جميلة، ولكن هل هي الحياة المناسبة لإنجريد؟!

قالت نان: «إنجريد، فلتأتي إلى هنا».

اعتادت نان أخذ إنجريد كل يوم إلى الحديقة المجاورة لمنزل جارهم ڤ كتور سيمايكا. صار شعر إنجريد أطول، وكانت نان تجدله في شكل ضفيرتين، واحدة أسمك

من الآخرى. لم تأبه هيلدا بذلك، حيث لم تُرد جرح مشاعر نان. كانت إنجريد لا تسير على الأرض، بل تجري مرحًا، وأحيانًا كانت تمر إنجريد مع نان بجانب قصر

الخديوِ الملكي، فيعطي الحارس لإنجريد وردة حمراء.

قال طورشتين، وهو ينظر صوب نان وإنجريد من شرفة المنزل : «كم نحن محظوظون بكون ڤ يكتور جارنا».

اقترحت هيلدا: «فلنقم بدعوته للعشاء هذا الأسبوع، ونسمع آخر الأخبار الدائرة على الألسنة تلك الأيام».

أضاف طورشتين: «فكرة جيدة، فلنفكر في قائمة المدعوين. تكون الحفلة أجمل عندما يكون المدعوون من خلفيات وجنسيات مختلفة».

في القاهرة الكوزموبوليتانية المنفتحة على الآخر لم يكن ذلك بالأمر العسير. ضمت القائمة مدعوين من المصريين، والفرنسيين، والأرمن، واليونانيين، والإيطاليين،

والأسكندنافيين. كانت اللغة التي يتحدث بها المدعوون هي اللغة الفرنسية. ازدهرت مدرسة الچيزويت، وربما يرجع هذا إلى رغبة المصريين في التمرد على

المستعمر، فآثر الأرستقراطيون استخدام اللغة الفرنسية في الحديث، وبالطبع كان المصريون يستخدمون اللغة العربية عند إعطاء الأوامر للخدم ممزوجة ببعض

الكلمات الفرنسية.

قسم الأرستقراطيون المصريون أوقاتهم بين الفيلل التي يمتلونكها في القاهرة أوالإسكندرية، وسفرهم إلى أوربا أثناء شهور الصيف الحارة، وبالتحديد إلى باريس،

وچنيف مثل آل طورشتين الذين كانوا يبحرون كل صيف إلى السويد.

قال طورشتين: «أعتقد أنه سيتعين علينا إقامة العديد من حفلات العشاء. سأترك لك هذا الأمر هيلدا».

كان ڤ يكتور سيمايكا ابن أخ مؤسس المتحف القبطي، من عائلة قبطية عريقة، ولقد أحاط نفسه بأفراد من العائلة المالكة، والدبلوماسيين الأجانب، وكان يجيد

لعب البولو.

قال ڤ يكتور لهيلدا: «كثيرًا ما أقابل الأغاخان الذي تزوج الممثلة ريتا هيوارث، وكانت أول مقابلة في إحدى مباريات البولو».

كانت هيلدا على علم بعلاقة ڤ يكتور بنجمة الأفلام باربرا هوتون، إلا أنها احتفظت بتلك المعلومة لنفسها.

لم يكن سيمايكا رجلًا غنيًّا، ولم يكن في حاجة لذلك،

فقلد كان شخصًا ساحرًا، وأنيقًا، قادرًا على جذب الجميع، رجالًا أو نساءً، لشخصيته. تناقلت الإشاعات

أنه حتى وهو على سرير المرض في المستشفى قال لرجل شاب قد أتى لزيارته: «لا يمكن أن تكون رجلًا أنيقًا، وأنت ترتدي حذاء بني اللون مع بدلة سوداء. اذهب فورًا

لتصلح من مظهرك».

قال طورشتين لهيلدا التي اعتراها الفضول: «شقة العزوبية الخاصة به تمتلئ بمضارب البولو. هذا إلى جانب الكئوس التي حصل عليها بفوزه في كثير من المباريات،

وصور أبيض وأسود يظهر فيها مع المشاهير، فضلًا عن السيوف الهندية التي أتى بها من رحلاته في الهند مع المهراجا حتى أني رأيت رمحًا إفريقيًّا أتى به من رحلته

لكينيا».

سألت هيلدا: «بالتأكيد لا تتناسب هذه الأشياء مع ذوقنا، ولكن هل دعوته إلى العشاء؟»

- نعم، وكان سعيدًا بالدعوة.

- يمكننا أيضًا دعوة آل ويصة واصف.

كانت عائلة ويصة واصف من العائلات القبطية التي تعرف عليها طورشتين. بدأ ويصة واصف أعماله بمدرسة الحرانية، وهي مدرسة غزل شهيرة بالقاهرة على

طريق الهرم المؤدي إلى سقارة. عملت فتيات من فئات عمرية مختلفة بالحرانية، كما أنشأت العائلة مصنعًا صغيرًا للسيراميك. كانت هيلدا تشتري منه كل الأوعية

المنزلية الخاصة بها من أطباق، وأوانٍ، وأباريق صغيرة للملح والفلفل على شكل طيور، وجِمال، إلى آخره..

«فكرة ممتازة، أحتاج إذن لمزيد من الأطباق».

طلبت هيلدا من آمي، صديقتها القبطية، أن تأخذها إلى المنطقة القبطية القديمة. كانت الفسطاط أيضًا منطقة تتوافر فيها الأطباق التي تحتاجها هيلدا لحفلة

العشاء. أحضرت هيلدا معها الكاميرا الخاصة بها لالتقاط بعض الصور.

من خلال آمي عرفت هيلدا الكثير عن التاريخ القبطي الحزين، حيث تقلص عدد الأقباط بعد أن كانت مصر قبطية.

قالت هيلدا: «في السويد يعتنق معظم السكان نفس الديانة، إنها ديانة الدولة».

قالت آمي وقد اعتلت وجهها ابتسامة ساحرة: «هكذا كان الوضع هنا. لقد كان جميع المصريين مسيحيين حتى قبل أن تعتنقوا أنتم المسيحية».

شعرت هيلدا بالإحراج: «معذرة، لقد نسيت أن كل شيء بدأ من هنا».

كعادة كل الأطفال في السويد تربت هيلدا على أن المسيح أشقر، وبالطبع لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، حيث إن السيد المسيح قد وُلد في الشرق الأوسط.

كانت آمي تعيش في شقة واسعة مليئة بأثاث لويس السادس عشر. كان معظم الأثاث مُذهبًا، ومحكم الصنعة، وكان يُطلق عليه طراز «لويس فاروق».

تميزت آمي بأناقتها الشديدة، حيث كانت ترتدي دائمًا أبهى الثياب، ولا تغادر المنزل دون وضع مساحيق التجميل، أما شعرها فكان دائمًا مصففًا بعناية.

قالت آمي لهيلدا التي استشعرت مرارة حقيقية في

حديثها آمي: «نحن الأقباط نؤمن أننا أحفاد الفراعنة الحقيقيين، فلقد عشنا على هذه الأرض منذ البداية، قبل

المسلمين بالتأكيد».

- ولكن لا يرى أغلبية الناس هذا.

- نعم، إنه من المحزن حقًّا أنه لا يوجد مَن يتحدث القبطية، فلا نسمع سوى اللغة العربية في هذه المنطقة القبطية العتيقة.

عندما أصبحت اللغة العربية هي اللغة التي يُعتد بها في المصالح الحكومية اضطر الأقباط إلى تعلم اللغة العربية للحفاظ على وظائفهم، كما تغيرت العملات

لتصبح إسلامية، وكانت تُصك في دمشق. تحولت القاهرة من بلد قبطي يتحدث اللغة القبطية كلغة رئيسية إلى بلد عربي إسلامي له أهمية خاصة. انكمش عدد

الأقباط ليصبحوا أقلية.

أضافت آمي: «لقد اختفت اللغة القبطية تمامًا، فلم يعد يستخدمها أحد إلا الكهنة والرهبان في أثناء الطقوس، والاحتفالات الدينية. يعتقد الجميع أن الشرق

الأوسط عربية إسلامية غافلين عن أن الشرق الأوسط هو مهد المسيحية».

قالت هيلدا، وقد أخذت آمي من ذراعها ليتجها صوب كنيسة قديمة: «فلندخل هنا. يبدو أن هناك ما يدور بالداخل».

ما إن دخلت هيلدا الكنيسة حتى باغتتها رائحة قوية جعلتها ترجع بضع خطوات للوراء، وشعرت بصعوبة بالغة

في التنفس.

قالت آمي لهيلدا التي شعرت بالاختناق: «البخور ينقل الصلوات، والدعاء مباشرة إلى الله».

استطاعت هيلدا أن تميز جمعًا من الناس وسط دخان البخور الكثيف، ثم سمعت نواح طفل. أمسك الكاهن الطفل المبتل المرتعش. دُهشت هيلدا عندما تم تغطيس الطفل في الماء ثلاث مرات.

همست آمي في أذن هيلدا: «إنه التعميد. نحن نلتزم كثيرًا بديننا، ربما أكثر من المسلمين، فعلى سبيل المثال لا يوجد طلاق في المسيحية».

رفعت هيلدا حاجبها، وهي تفكر: «ربما لهذا السبب انتقل الكثيرون من المسيحية إلى الإسلام».

انتقل الاثنان بعد ذلك للبحث عن الأطباق التي تحتاجها هيلدا. كانت أطباق هيلدا مصنوعة من الزجاج الأزرق الذي يتم تصنيعه في أفران ضخمة في المكان الذي كان يومًا مقلبًا لقمامة الفسطاط.

رفعت كل من هيلدا، وآمي الجونلات، وشقتا طريقهما وسط ركام من الأتربة، بينما تصاعدت الأدخنة من الأفران، ولسوء الحظ لم تجد هيلدا سوى الأطباق المصنوعة من الزجاج الأخضر.

خرجت هيلدا وآمي من المكان الذي كانت تنبعث منه رائحة غريبة حتى وصلتا إلى شارع ضيق.

قالت هيلدا: «انظري، لديهم ما أريد».

رأت هيلدا عائلة، وقد جلس أفرادها على الرصيف، ووضعوا أطباق العشاء في نفس نوع الأطباق الذي

تبحث عنه هيلدا. اقتربت هيلدا منهم، وتحدثت بلغة عربية

ركيكة في محاولة منها لشرح أهمية الأطباق الزرقاء لها.

«ربما يكونون جائعين»، قالت السيدة السمينة لزوجها، وقد أخذتها الشفقة بهما، حيث كانت هيلدا وآمي في منتهى النحافة، وظنت السيدة السمينة أن

زوجيهما ليس عندهما المقدرة المالية لإطعامهما.

اقترح الرجل الذي كان يقل سمنة عن زوجته، ويرتدي «جلابية مرقعة» بالية: «فلنعطِ الفقراء بعض الطعام».

وضعت السيدة الملعقة في زيت الطعام لتخرج من الزيت بعض القطع البنية الساخنة غير المعروفة لهيلدا، ثم وضعتها على رغيف من الخبز، وأعطت الطعام

لهيلدا وآمي اللتين وقفتا في ذهول تام.

حاولت آمي إقناع الزوجين بالعدول عن الفكرة: «شكرًا لكما، لسنا بجائعتين».

أصر الزوجان ورضخت هيلدا وآمي، حيث لم يكن من اللائق رفض كرم الزوجين وضيافتهما. جلست هيلدا وآمي على صندوقين من الكرتون المقوى.

قالت آمي مبتسمة: «حاولي أن تتجنبي أكل السلطة».

ردت هيلدا: «فلتخبريهما أنني أريد شراء أطباقهما، وسليهما إن كان هناك المزيد».

على الفور تم غسيل الأطباق، كما أتوا بالمزيد من الجيران، وقدموا جميع الأطباق لهيلدا. أعطتهم هيلدا مبلغًا من المال، وأدركت أنها دفعت مبلغًا جيدًا حين رأت

الابتسامة التي ارتسمت على وجه الزوجين. رجعت هيلدا إلى جاردن سيتي متعبة، والتراب يلتصق بجسدها، إلا أنها شعرت بالسعادة لأنها أخيرًا أكملت الأطباق

التي تحتاجها لحفل العشاء.

قالت هيلدا لنان، وهي تُخرج الأطباق التي اشترتها من الأكياس: «يمكن إصلاح كل شيء في مصر، حيث يساعد أهلها بعضهم البعض».

كان كل تركيز هيلدا موجهًا إلى مفرش السفرة الأزرق المزركش، وفوط السفرة التي تتماشى مع المفرش. قامت هيلدا بشرائها من سوريا. تخيلت هيلدا المشهد كاملًا: طاولة الطعام، والملاعق، والسكاكين الفضية، والنجف الفخم، وشعرت بالثقة: «سيبدو كل شيء أنيقًا»، ثم نظرت إلى السماء قائلة: «أرجو أن تريني ماما الآن».

قال طورشتين: «ربما نستطيع دعوة عدد آخر من الضيوف. ماذا عن عائلة الخياط؟ دائمًا ما ينظم آل الخياط حفلات كريسماس رائعة، حيث يستمر الرقص

طوال الليل».

في أثناء الحروب كانت القاهرة مدينة الحفلات التي كانت تُقام في بيوت أشبه بالقصور.

سألت هيلدا: «هل تذكر اسم الزوجين اللذين قابلناهما في منزل ويصة واصف يوم الجمعة؟»

أجاب طورشتين: «لا أتذكرهما، لكني أتذكر الغذاء الرائع».

لم تستطع هيلدا أن تمنع نفسها من تأنيب طورشتين:

«لقد أسرفت يومها في تناول الطعام بشكل يضر معدتك».

قال طورشتين: «تعلمين كم أحب الملوخية».

كانت الملوخية عبارة عن حساء أخضر، وجبة محلية تقدم على الموائد في الريف، ومعها الأرز، ولحم الدجاج.

ابتسمت هيلدا عندما تذكرت ساعات القيلولة الطويلة لطورشتين بعد الوجبة: «لقد جعلك الطعام تشعر بالنعاس».

رد طورشتين: «إنها طريقة مثلى للتخلص من الضيوف، كما أن أصناف الحلوى المصرية رائعة».

كان طورشتين مولعًا بالحلوى المصرية المحلاة بالعسل، والمحشوة بالعجوة، والفستق مما يجعل مقاومتها أمرًا مستحيلًا.

قالت هيلدا: «أفضل الالتزام بالفاكهة».

قال طورشتين: «على أية حال، من الجيد أننا لا نتناول هذا الطعام كل يوم. نحن حتى لا نتذكر أسماء الضيوف الآخرين».

انفجر الاثنان ضحكًا.

أضاف طورشتين: «لا بد أن ندعو بعضًا من أصدقائنا اليهود أيضًا. لا بد أنهم قلقون على أصدقائهم، وأقاربهم الأوربيين».

بالرغم من انشغال هيلدا بحفلات العشاء، والعائلة، والأصدقاء لا زال عليها اتخاذ قرار بخصوص إنجريد، وتعليمها. شعرت هيلدا أنها بحاجة للحديث مع امرأة بخصوص هذا الشأن، وقررت أن تسأل هدى شعراوي.

سألت هيلدا هدى شعراوي: «كيف تكونين مدافعة عن حقوق المرأة، ومسلمة في ذات الوقت؟»

في هذا الوقت كانت هيلدا تدافع عن حقوق المرأة، بل وكانت تساعد النساء الفرنسيات اللاتي يسعين لتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الانتخابية. كان

من الصعب على هيلدا رؤية هدى التي كانت دائمة التنقل من مكان لآخر. عُينت هدى نائبة رئيس التحالف النسائي الدولي، وأصبحت شخصية معروفة في الدول

العربية، خاصة فلسطين. أسست هدى شعراوي بعدها الاتحاد النسائي العربي. آمنت هدى، مثلها مثل العديد من المسلمين الحقوقيين، أن الرسول محمدًا أراد

تحرير النساء.

قالت هدى شعراوي: «لا يوجد تناقض».

غرقت هيلدا في أفكارها، لكنها علمت أن الوضع كان أسوأ للنساء العرب قبل الإسلام.

انتشر تعدد الآلهة قبل ظهور الإسلام، فكانت الناس تعبد الآلهة، وتذهب إلى الحج في مكة حتى قبل الاختيار الإبراهيمي للكعبة. كان رؤساء العشائر بمثابة

الحكام، يفعلون ما يحلو لهم، فلهم الحق في أكثر من محظية، وجارية، ويمتلكون من النساء ما يشاءون. سيطرت العشائر، والقبائل على مجريات الأمور، وكان

الأخذ بالثأر شيئًا متعارفًا عليه.

قالت هدى: «ما زالت القبائل، والعشائر تلعب دورًا مهمًّا في العالم العربي خاصة في القرى النائية، حيث تنتشر جرائم القتل من أجل الحفاظ على الشرف».

قالت هيلدا: «يبدو الأمر بشعًا. هل قام النبي محمد بتغيير كل هذا إذن؟»

ردت هدى: «نوعًا ما. بدأ النبي محمد بعد نزول جبريل بالوحي عليه في تشجيع أتباعه على التوقف عن عبادة الآلهة المتعددة، والعودة إلى الديانة الإبراهيمية،

وعبادة إله واحد. بدأ محمد وعظه بأركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وصوم رمضان، والزكاة، وحج البيت لمَن استطاع

إليه سبيلًا. أعطى النبي محمد أيضًا حقوقًا للمرأة لم تكن تمتلكها من قبل، حيث كان يُنظر للنساء آنذاك على أنهن سلعة تُباع وتُشترى. أما الأطفال الرُّضع من

البنات، فكان آباؤهن يتركونهن في الصحراء حتى الموت، كما كانت تُباع النساء في الأسواق كالعبيد. قلة من النساء استطعن تحديد مصيرهن.

أتى النبي نفسه من عائلة فقيرة، فكان يتيمًا منذ صغره. تقدمت خديجة للزواج منه، وكانت تاجرة ثرية، وتكبره بعشرين عامًا، وبفضلها حصل محمد علي على

المكانة، والنفوذ، وأربع بنات. كانت خديجة من أول أتباعه، حيث كانت أول من أسلم. ساندت خديجة النبي، وشجعته في الوقت الذي قوبل فيه بالإساءة. استمر

زواج محمد وخديجة أربعة وعشرين عامًا، وكانت السيدة خديجة خلال هذه الفترة هي زوجته الوحيدة، ولم ترتدِ الحجاب، ولم تعش في عزلة».

سألت هيلدا بعدم اقتناع: «لماذا يتزوج المسلمون أربع زوجات إذن؟!»

شرحت لها هدى أنه بعد موت خديجة، قيل إنه رأى

العديد من الرؤى حول دور النساء في المجتمع. كان يُسمح بتعدد الزوجات قبل الإسلام، وكان الرجل

يستطيع أن يتزوج أي عدد من النساء. سمح الإسلام للرجل بزواج أربع نساء في ظل شروط محددة: أن تُعامل جميع الزوجات سواسية، وأن يكون للنساء الحق

في الحفاظ على ممتلكاتهن، وأن يتكفل الرجل بالبيت، كما أقر حق المرأة في الميراث (للمرأة نصف نصيب الرجل). كانت هذه الميزات ثورة في ذلك الوقت الذي كانت

تُعامل فيه النساء كالمواشي.

أضافت هدى: «أعطى القرآن للمرأة حقوقًا في القرن الثامن لم تستطع المرأة الأوربية الحصول عليها لقرون عديدة من بعد».

قالت هيلدا وقد تذكرت ما تعلمته في بيركا: «قطعًا لم يعامل القراصنة عندنا زوجاتهم باحترام».

- عندما بدأت المكائد تُحاك ضد محمد والإسلام نزل عليه الإلهام بضرورة حماية زوجاته بالحجاب، ولكنه لم يقترح أبدًا أن تحيا زوجاته في عزلة، ولم يقترح أن

يتم حماية النساء الأخريات بارتداء الحجاب. على الرغم من ذلك، تم تفسير النصوص فيما بعد بطريقة غير مرضية فيما يخص المرأة. كان للنساء المحيطات

بمحمد أدوار مهمة. وفقًا لما ذُكر في القرآن لا تتزوج امرأة رغمًا عنها، ولا تتزوج فتاة بكر على غير رغبتها.

- إذن فلقد أتى الإسلام مخلصًا للمرأة لعتقها وتحريرها، فالزواج عنوة لم يكن مستمدًّا من الإسلام، بل من التقاليد الذكورية التي سادت قبل الإسلام. دائمًا ما

أجد متعة في الحديث معك.

- لا تنسي أننا لسنا عربًا.

- كيف هذا؟

- نحن مصريون، أحفاد الفراعنة.

- هل كانت المرأة تحت حكم الفراعنة تُعامل بشكل مختلف عما تُعامل به المرأة تحت حكم العرب؟

- نعم، لقد كانت المرأة حرة ذات كبرياء.

استطاعت هيلدا أن تستشعر في هدى نفس عناد والدتها رانهيلد. ربما لا يوجد اختلاف بين مصر والسويد، فموقف المرأة، واحتواؤها لأطفالها، وعنايتها بهم

موقف واحد لا يختلف في كل أركان العالم. شعرت هيلدا بالارتباك بعد حديثها مع هدى شعراوي، فدائمًا ما شعرت هيلدا أنها الأعلى شأنًا منذ إقامتها في مصر،

أما الآن فلقد استشعرت هيلدا قوة وصلابة في حديث هدى رغم الاختلاف بين البلدين. لقد أعطتها هدى درسًا في التواضع بلا شك. ربما تكون تنشئة إنجريد في

مصر ليست بالفكرة السيئة.

الفصل السادس

من الفراعنة إلى أناقة وسط المدينة

على الرغم من ثقة هيلدا فإنها ما زالت تريد التحدث بشكل ملح مع أحد من أبناء الوطن ليستطيع أن يتفهم مخاوفها، وعليه قررت التواصل مع ف ي ف ي

لورينت تاكهولم: «لنرى ما إذا كانت ف ي ف ي لديها اقتراح بشأن تعليم إنجريد، فهي على علم بطبيعة المجتمع المصري، والسويدي بالقطع». تعرفت هيلدا

على
أعمال ڤ ي ڤ ي من خلال كتب الأطفال التي قرأتها لإنجريد أكثر من مرة. كان هناك كتاب يخاطب الأطفال مباشرةً من خلال طرح سؤال بعينه، وقد عكس هذا

الكتاب تحديدًا ولع ڤ ي ڤ ي بالنباتات: «هل ذهبت مرة إلى الأدغال، حيث تصطف أشجار الصنوبر بينما تغطي الطحالب جذعها؟»

قام أحد أشهر مصوري السويد إي ڤ ا أندريسون بتفسير هذا الكتاب ودعمه بالصور. عشقت إنجريد هذا الكتاب الذي أطلق العنان لخيالها، فهي لم ترَ غير

أشجار النخيل والصحراء بحكم إقامتها في مصر.

شعرت هيلدا بالسعادة لوصولها إلى فكرة تساعدها على التحدث مع ڤ ي ڤ ي: «سأطلب من ڤ ي ڤ ي أن تصحبني إلى متحف الآثار المصري، فهي تعشقه،

وهناك سأحدثها بخصوص إنجريد».

قبلت هيلدا إنجريد ولوحت لنان وهي تقول: «سأخرج الآن لتناول الغداء مع ڤ ي ڤ ي خارج المنزل».

أخذت هيلدا الكاميرا، وانطلقت مرتدية ثوبها الكريمي اللون المصنوع من القطن الذي يصل طوله حتى الرسغ، و«چاكت» قصيرًا من الصوف الأزرق الداكن، وحذاءً

مصنوعًا من الجلد بكعب قصير مريح، وبالطبع لم تنسَ القبعة. كان يومًا لطيفًا من أيام شهر ديسمبر، حيث كانت السماء صافية بلا غيوم بينما تحلق الطيور في

السماء في شكل دائري.

«لا أتذكر آخر مرة هطلت فيها الأمطار. ربما في فصل

الشتاء الماضي!»

ترددت هيلدا: «هل تستقل العربة التي يجرها الخيل أم تتجول حتى تصل لمكان المقابلة». لم يكن المكان بعيدًا، ففضلت السير على قدميها في ذلك الطقس الرائع

في ظل أشجار جاردن سيتي. توجهت صوب وسط المدينة في اتجاه المتحف.

وصفت ڤ ي ڤ ي في إحدى كتاباتها الطقس والطبيعة بأسلوب شعري ساحر: «تُعد شجرة الجميز إحدى عناصر لوحة الطبيعة المصرية، حيث تمتد ساق شجرة

الجميز الغليظة بقمتها الهائلة وأوراقها الدائرية كأميرة متوجة. هناك شيء ما ينبعث من تلك الشجرة، شيء كالوقار الذي يحيط بالأجداد. أجري صوب هذه

الشجرة التي هي أشبه بالواحة الخضراء وسط الطبيعة التي قد غمرتها أشعة الشمس.

اختارت الإلهة المصرية هاتور شجرة الجميز، حيث وجدت فيها الملاذ الذي تبحث عنه. في حمى هاتور، أنس المحبون بالشجرة، وتبادلوا وعود الهوى، فيا أيتها

الشجرة ما الذي لم تريه من حب وحماقات عبر آلاف السنوات، وقد كنتِ شاهد عيان على عصور بأكملها».

كانت ڤ ي ڤ ي تصغر هيلدا بتسع سنوات. وصلت ڤ ي ڤ ي إلى مصر عام 6291 ، وهو نفس عام وصول آل طورشتين سالين، وتزوجت من عالم النباتات

المشهور چونار تاكهولم الذي ركز أبحاثه على نباتات الفلورة، حيث حذا حذو عالم نباتات آخر ذائع الصيت هو كارل ڤ ون لينيه. تُوفي چونار بعدها بسنوات قليلة

لتكمل أرملته ڤ ي ڤ ي ما بدأه. كان على ڤ ي ڤ ي

أن تتعلم اللغة العربية، وقد كتبت في هذا الشأن تقول: «كيف لي أن أتعلم لغة تُكتب من اليمين إلى

الشمال، وتحتوي على حروف ساكنة فقط، وكيف لي أن أفرق بين الدال والضاد، وبين التاء والطاء، ناهيك عن حرف العين الذي يشبه صوت الجمل».

تم تعيين ڤ ي ڤ ي في نهاية الأمر في المتحف الزراعي بالقاهرة، وتعاون معها علماء النباتات المصريون.

وصلت هيلدا إلى المتحف قبل صديقتها، وتجولت في المبنى الذي حاكى الطراز الإنجليزي. قرأت هيلدا على الركن الأيسر العلوي اسمًا ليس غريبًا عليها «أكيربلاد».

ابتسمت هيلدا، وتذكرت خروجها مع طورشتين في السنوات السابقة بعد وصولهما لمصر مباشرة. ذُكر اسم ڤ ي ڤ ي في المتحف أيضًا، حيث طلب منها بعض

الصيادلة مساعدتهم في التعرف على الأدوية التي وُجدت في مقابر الأجداد. يبدو أن الأبحاث السويدية كانت تُقدر خير تقدير في مصر.

تساءلت هيلدا في قرارة نفسها: «كيف أستطيع أن أدرك وأستوعب هذا الزخم من التنوع الثقافي الذي يتواجد في بلد واحد: مصر»

أتت ڤ ي ڤ ي متأخرة تسرع الخطى في الجونلة البنية التي تتماشى تمامًا مع لون القبعة، إلا أن ابتسامتها الساحرة هي مفتاح العفو عن تلك المرأة الرائعة التي يستحيل أن يغضب منها أحد.

قالت ڤ ي ڤ ي: «أعتذر كثيرًا عن التأخير، فقد انشغلت

بأحد النباتات الذي لم أره من قبل، وكان عليَّ أن أبحث في ذلك الأمر».

هيلدا: «لا داعي للقلق. لقد انتهزت الفرصة لأتجول».

دخلت هيلدا المتحف ذا الحوائط السميكة. على الرغم من قصر فصل الشتاء في مصر فإن الطقس يكون شديد البرودة ليلًا.

نظرت هيلدا إلى سقف المتحف وقالت: « يا إلهي، إنه شديد الارتفاع. لا عجب أن يكون الطقس شديد البرودة هنا». مثل كل الأبنية التي شيدها الإيطاليون في مصر،

كان المتحف مستلهمًا من عصر نهضة إيطاليا، فترى السقف المرتفع، والأحجار السميكة، والنوافذ التي صُممت وفقًا للطراز الإيطالي. أول ما وقعت عليه عين

هيلدا، و ڤ ي ڤ ي كان حجر رشيد. شعرت هيلدا بالفخر لكونها ملمة بخلفية تاريخية عن حجر رشيد.أُعجبت هيلدا كثيرًا بالأعمدة، حيث وقفت تماثيل

الفراعنة، وغيرها من التماثيل المصنوعة من الجرانيت، بشموخ تنظر إلى الزائرين نظرة فاحصة.

قالت ڤ ي ڤ ي وهي تنظر حولها: «هناك أشياء كثيرة أريدك أن تريها هنا، فمن أين نبدأ؟»

قالت هيلدا: «في الحقيقة أريد أن أتحدث معك عن وضع النساء في مصر».

ردت ڤ ي ڤ ي وقد بدت عليها خيبة الأمل: «إذن فما الذي نفعله هنا؟!»

قالت هيلدا: «حسنًا، فلتعطيني فكرة عن النساء في عهد الفراعنة ».

رأت هيلدا الحماس يدب مرة أخرى في نفس ڤ ي ڤ ي

التي أمسكت بأكمام ثياب هيلدا لتقودها إلى ذلك الكم الهائل من الغرف المتواجدة في المتحف.

قالت ف ي ف ي: «بدايةً، انظري إلى آلهة قدماء المصريين من النساء. بالطبع تُعد إيزيس أشهر الآلهة المصرية على الإطلاق. تقول الأسطورة إن إيزيس قد قامت

بجمع أشلاء زوجها أوزوريس الذي تم اغتياله، وتقطيع أجزاء جسده ونشرها في كافة أنحاء الدولة، وبذلك عادت الروح إليه بعد جمع أشلائه. دافعت إيزيس

أيضًا عن صغار السن، والمرضى، أما أختها فدافعت عن الموتى، وكان وجودهما معًا ضروريًّا في أي جنازة، فواحدة تمثل الموت، والأخرى تمثل البعث».

قالت هيلدا: «إذن فلقد كان للمرأة دور مهم، حيث يشير العدد الهائل من آلهة المصريين من النساء إلى الدور البارز لهؤلاء النساء».

ردت ف ي ف ي وقد أضاءت وجهها ابتسامتها المعهودة: «لا يتعين عليك حفظ كافة أسماء الآلهة».

عرفت هيلدا أيضًا أن زوجة الفرعون كان عليها التزامات تجاه الدولة، ولم تكن تلك الالتزامات مفروضة على النساء الأخريات من عامة الشعب. لم تكن زوجة

الفرعون تُرضع أولادها كما هومتعارف عليه، وكان لديها ممرضة تساعدها. في العادة كانت النساء يرضعن أولادهن لمدة ثلاثة أعوام لتجنب الحمل على فترات

متقاربة، أما إذا شعرت المرأة بالتعب لأي سبب، واحتاجت لتجنب الحمل، فكانت هناك وصفة العسل، والاختيار الآخر الأقل إقبالًا عليه هو سد المهبل بروث

التمساح.

امتعضت هيلدا وتجهم وجهها.

قالت ف ي ف ي: «كانت وظيفة المرأة إنجاب الأطفال، وكان هذا بمثابة مهمة كونية مقدسة. كانت المدارس مخصصة للصبية فقط. لم تذهب الفتيات إلى المدارس

في مصر إلا حديثًا. ما زالت الأمية في مصر مشكلة رئيسية، وخاصة عند المرأة. كان والد الفتاة يقرر مَن هوالزوج المنتظر، وبمجرد إدراك سن البلوغ يتم الزواج على

الفور. جاءت عقود الزواج في مرحلة متأخرة إلا أن الزواج كان دائمًا حدثًا اجتماعيًّا مهمًّا، ويكون الاحتفال مصحوبًا بالرقص الشرقي والتصفيق والأصوات التي

تصدرها النساء بتحريك الألسنة وتسمى «الزغرودة».

قالت هيلدا: «لم يتغير هذا كثيرًا».

واصلت ف ي ف ي حديثها: «كان الزواج من أبناء وبنات العم شائعًا وقت الفراعنة، وحتى عام 1930 كان الزواج من الأخوة والأبناء عادة عند الصفوة، وبالطبع

تم منعه فيما بعد. لم يكن غريبًا وقت الفراعنة أن يتزوج الفرعون من شقيقته أو ابنته، فرمسيس الثاني مثلًا تزوج العديد من بناته، واستمر زواج المحارم حتى

اختفى تمامًا من العالم بأسره. يبدو أن زواج الفرعون بأخته أو ابنته كان طريقة للحفاظ على ممتلكاته الخاصة.

لم يكن زواج الأجانب شائعًا. إذا لم يستطع الرجل إنجاب ولد من زوجته، كان يتخذ إحدى جواريه محظية له، وإذا أثمر هذا عن ابن كان الأب يتبناه ليرفعه إلى

نفس مرتبته الاجتماعية، وعلى عكس هذا تمامًا حرم الإسلام التبني.

في مصر القديمة كان باستطاعة الرجل الزواج من مئات السيدات ليعشن في ركن خاص بهن يسمى إيبيت، حيث تقوم الزوجات بالغناء والرقص لإسعاد الفرعون الذي يتكفل بكل مصاريف نساء بيته. في هذا الجزء المسمى إيبيت كانت تعيش جميع نساء الفرعون من الزوجات، والعاشقات، والمحظيات، وبالطبع يعيش أبناء الفرعون أيضًا في هذا الجزء، إلا أن النساء كن يعملن أيضًا بالغزل وإعداد الخبز وصناعة الخمر».

قالت هيلدا وقد شعرت بالاستياء لمجرد سماع الفكرة: «لوكنت مكان هؤلاء لما راق لي هذا».

- ليس الأمر بهذا السوء دائمًا. تختلف الثقافات فيما بينها ولتعدد الزوجات جوانب إيجابية أيضًا.

- حقًّا؟!

- انتقلت كثير من الفتيات الجميلات إلى مرتبة اجتماعية أعلى من خلال الزواج. تنتقل الفتاة إلى منزل زوجها حيث تتولى رعاية المنزل، وتعليم الأطفال، كما تكون مسئولة عن طحن القمح، وصنع البيرة، وزرع نبات الكتان، وعمل منسوجات منه، وإذا كانت غنية تقوم فقط بالإشراف على كل هذا للتأكد من أن مَن يعمل لديها يعمل بجد، كما كانت الزوجة تذهب أيضًا للصيد مع زوجها. في هذه الأيام، تجدين أن للمرأة أنشطتها سواء في الحقول أو المنازل، أما الريف فلم يتغير فيه شيء عبر القرون.

- هل بإمكانهن التخلص من هذا الوضع إن أردن؟

- نعم، فعلى عكس الأقباط، الطلاق مسموح به.

استمرت ڤ ي ڤ ي في الحديث : «هجر الرجال للنساء أكثر شيوعًا من هجر النساء للرجال. الزنى أوعقم الزوجة أحد الأسباب، فإذا ثبت عدم إخلاص الزوجة،

يمكن للزوج ترك زوجته، أما فيما عدا ذلك فيتوجب عليه إعادة المهر لها، وثلث ممتلكاته، ومبلغ من المال كتعويض. الزوجة التي تترك زوجها غير مدينة له

بشيء، ويُسمح لهما أن يتزوجا مرة أخرى إن أرادا ذلك. وحتى هذا اليوم ترك الزوج للزوجة أكثر شيوعًا، الأمر سهل بما فيه الكفاية. يكفي أن يقول الزوج

لزوجته: أنت طالق، ثلاث مرات لتجد الزوجة نفسها خارج المنزل، وإذا كان الأبناء في سن النضج يأخذ الزوج الأطفال أيضًا، ولا تستطيع الزوجة الاعتماد على أي

تعويض مالي فتضطر إلى الاعتماد على كرم والديها وتحمل هذه المهانة. على عكس هذا، كانت المرأة في مصر القديمة مساوية للرجل في القوانين. استطاعت المرأة في

هذه الحقبة أن تمتلك الأراضي، وتعقد الصفقات التجارية، ليس فقط من أجل تحسين وضع العائلة، بل من أجلها هي أيضًا. كان الأطفال يرثون الأرض والبضائع

بغض النظر عن نوع الجنس، حيث كانت المرأة مساوية للرجل أمام القانون، وكانت في مركز القوة، كما كانت مسئولة عن تصرفاتها أيضًا فتُعاقب أمام القانون

إذا ارتكبت جريمة ما. في المعابد تجدين غالبية النساء يعزفن الموسيقى، ويرقصن، وكان هناك كهنة من النساء إلا أن الغالبية العظمى من الكهنة كانوا من

الرجال. احترفت النساء أيضًا تشييع الموتى، فاعتدن البكاء، والنحيب، وشد الشعر، واللطم، وما زالت تلك العادات موجودة حتى اليوم في الريف، ولكن لم يعد هناك الكهنة والأئمة من النساء».

قالت هيلدا بحزن: «يبدو لي أن الوضع كان أفضل فيما مضى».

ردت ڤ ي ڤ ي: «نعم، لقد تدهور وضع النساء في مصر».

فكرت هيلدا في صديقتها الحقوقية الشجاعة هدى شعراوي: «لا بد أن دماء الفراعنة تسري في عروق هدى شعراوي».

قالت هيلدا ضاحكة : «حسنًا، فلنجلس الآن لتناول فنجان من الشاي وإلا سأبدأ في الصراخ واللطم».

قالت ڤ ي ڤ ي وهي تقود هيلدا عبر الأروقة المتعرجة حتى وصلتا إلى باب الخروج: «أنتِ على حق تمامًا، فلنذهب الآن لتناول الشاي».

قالت هيلدا: «من الجميل حقًّا أن أرى أشعة الشمس مرة أخرى».

ردت ڤ ي ڤ ي: «نعم، لقد كان الطقس شديد البرودة بالداخل، فلنأخذ عربة لتقلنا، فلقد تورمت قدماي».

قالت هيلدا للسائق: «جروبي من فضلك».

مضى الجواد العربي الرشيق الأنيق في طريقه إلى ميدان الإسماعيلية الذي أصبح يُعرف فيما بعد بميدان التحرير، ثم انعطف الجواد إلى شارع قصر النيل الذي يمتاز بالبيوت المشيدة على الطراز الأوربي. استمتع الاثنان بالهواء المنعش الدافئ بعد طقس المتحف

الشديد البرودة.

قالت هيلدا وقد انطلق الجواد عبر الطرق الممهدة مارًّا بالأبنية الأنيقة الواحدة تلو الأخرى: «لا عجب أن توصف القاهرة بأنها باريس على ضفاف النيل».

رأت هيلدا و ڤ ي ڤ ي مكتبة خارازلي الفرنسية الشهيرة. أعجبت هيلدا بطراز الباروك الفرنسي الذي تصدر التصميمات المعمارية، حيث الشرفات الأنيقة، والمزينة

بالحديد المطروق، والكمر البارز المزخرف، ومداخل الأبنية المرمر، والنوافذ المصبوبة في قوالب، والأبواب التي لا تخلو من لمسة المعمار الفرنسي.

صاحت هيلدا فجأة مشيرة من مقعدها إلى إحدى واجهات المحلات: «يا لها من قبعة ساحرة! لا بد أن آتي مرة أخرى لأرى كيف سأبدو وأنا أرتديها».

قالت ڤ ي ڤ ي: «أنت أنيقة دائمًا».

كانت ڤ ي ڤ ي تدرك أنها تهتم بالنباتات أكثر من اهتمامها بملابسها. أعجبت ڤ ي ڤ ي بذوق هيلدا، ذلك الذوق الذي تفتقده هي نفسها.

- أشكرك، أحاول دائمًا أن أبدو أنيقة إلا أن صديقاتي المصريات دائمًا ما يتفوقن عليَّ.

- خاصة في المجوهرات.

- نعم، على الرغم من أنها لا تتناسب مع ذوقي الخاص.

- إنه الذوق الشرقي. هل تعلمين أنهن يتباهين بالمجوهرات ليرى العالم قيمتهن؟

- لم تكن لديَّ أدنى فكرة.

- كلما زادت مجوهراتهن، أشار ذلك إلى مقدرة أزواجهن، وزاد من اعتدادهن بأنفسهن.

- لقد رأيت بعض النساء الفقيرات يرتدين أساور ذهبية رفيعة.

- عادة ما تحتفظ المرأة بالمجوهرات حتى لو تركها زوجها.

- كحساب البنك الخاص؟!

ابتسمت ف ي ف ي، وهي تستمع إلى آراء هيلدا، ونظرتها العملية في الحياة.

توقفتا أمام مكان في غاية الأناقة لاحتساء الشاي. نظرت هيلدا إلى الشعار الملكي فوق اللافتة المعلقة على المدخل «حلويات البيت الملكي». كانت المخبوزات

السويسرية، وطراز المبنى الأنيق من أفضل الأماكن التي يرى المرء فيها صفوة المجتمع من نساء، وكتاب، وصحفيين، وفنانين، ونجوم السينما، إلا أن جروبي لم

يكن مجرد مكان يتواجد فيه الأمراء، والباشوات، والبكوات، والوجهاء في الوقت الذي فاقت فيه قيمة الجنيه المصري قيمة الدولار والجنيه الإسترليني، بل كان

جروبي أيضًا مكانًا تُحاك فيه المكائد السياسية، وتُعقد فيه الصفقات التاريخية.

هزت كل من هيلدا و ف ي ف ي رأسها لتحية بعض المعارف، ثم جلستا في صمت للاستجمام بعد الساعات الطويلة التي قضتاها في المتحف. تفحصت كل منهما

قائمة الطعام والمشروبات من معجنات، وشوكولاتة، ومارون جلاسيه، ومربى، جميع الأصناف من مصنع

جروبي. كانت عملية إعداد المأكولات تُحاط بالسرية الكاملة، فلم يُسمح لأي موظف أن يعرف كل المقادير التي يحتوي عليها المنتج النهائي.

سرعان ما طلبتا ما تشتهيانه ليُقدم لهما في أطباق مصنوعة من البورسلين مزخرفة بالورد من صنع اليد.

أتى الجرسون بالمعجنات المغطاة بالكريمة المخفوقة، والمحشوة بالمانجو. وضع الجرسون الأطباق، وفوط السفرة البيضاء المصنوعة من الكتان بعناية لتظهر أزرار كم

قميصه الإفرنجية الذهبية.

«شكرًا لك. تبدو شهية».

سألت ڤ ي ڤ ي بعد وهلة: «هل زودتك زيارة المتحف بالمعرفة؟»

أجابتها هيلدا: «نعم، شكرًا لك. يبدو لي أن هناك إرثًا ممتدًّا من المرأة القوية في مصر».

أضافت ڤ ي ڤ ي : «والحرة أيضًا».

قالت هيلدا: «هناك ما يؤرقني. أريد أن أتحدث معك عن إنجريد».

- كلي آذان صاغية.

حاولت هيلدا أن تعبر عن مخاوفها ل ڤ ي ڤ ي: «أنا وأنت من السويد و..».

سألت ڤ ي ڤ ي : «تعنين أن طريقة تنشئتها مختلفة عن الفتيات المصريات؟!»

- نعم، يبدو لي أن الفتيات لا يتمتعن بنفس الحقوق التي نتمتع بها في السويد.

- هذا حقيقي، ولكن ما تتحدثين عنه يكون بعد إدراك سن البلوغ، فهم ينظرون للزواج من زاوية مختلفة.

- كيف هذا؟!

- الزواج عندهم أشبه بعقد بين الأباء.

قالت هيلدا وقد اتسعت حدقة عينها: «إذن فالمصريون لا يختارون أزواجهن وزوجاتهم».

- لا، عادةً ما يختار الآباء لهم.

- إنه لشيء فظيع.

قالت ڤ ي ڤ ي، وهي تفكر في زواجها الذي لم يكن ناجحًا: «أحيانًا تسير الأمور بشكل أفضل من زيجاتنا».

ردت هيلدا: «لديك كل الحق في ظل فشل العديد من الزيجات في السويد، ولكن ماذا عن عمل المرأة؟»

ضحكت ڤ ي ڤ ي من قلبها: «انظري إليَّ. أنا مثال أمامك».

قالت هيلدا وقد شاركت ڤ ي ڤ ي الضحك: «نعم، أنت ناجحة حقًّا هنا إلا أن هذا ليس حال غالبية المصريين».

قالت ڤ ي ڤ ي: «لا بد أن أعترف أن هناك العديد من الاختلافات بين الدولتين إذا ما تحدثنا عن وضع المرأة».

قالت هيلدا: «لا أريد لإنجريد أن تكبر وهي تشعر أنها مواطنة درجة ثانية لمجرد أنها وُلدت فتاة».

قالت ڤ ي ڤ ي بعد أن فكرت مليًّا: «أتفهم ذلك».

صمتت كل منهما ونظرتا إلى الحشد الأنيق حولهما، حيث جلس زبائن جروبي يتبادلون الحديث بسعادة، جاهلين تمامًا بمدى جدية حديث السيدتين

السويديتين. أنهتا طعامهما، وطلبت هيلدا مزيدًا من

الماء الساخن لصبه في إبريق الشاي.

قالت ف ي ف ي أخيرًا: «ما زلت أعتقد أن مصر بلد جيد لفتاة مثل إنجريد لتكبر فيه».

وافقتها هيلدا الرأي على الرغم مما جال بخاطرها وهو أن ف ي ف ي نفسها ليس لديها أطفال: «بالتأكيد مصر أغنى من السويد ثقافيًّا».

- هل تتحدثين إليها بالسويدية في المنزل؟

- نعم، كما أنها تتحدث السويدية مع مربيتها نان. لا يُعد هذا الأمر مشكلة على الإطلاق.

- هل يمكنك إعطاءها مزيدًا من الدروس في الأدب السويدي؟

- يمكن تدبر هذا.

- هل يقلقك شأن نظرات الرجال المصريين لها في المستقبل لكونها فتاة شقراء؟!

- نعم، كما يقلقني أيضًا أن تفقد إنجريد هويتها وجذورها.

أقرت ف ي ف ي: «هذا صحيح».

أضافت هيلدا: «نحن نسافر كل صيف إلى السويد، وتستطيع إنجريد أن تتعرف على بلدها إلا أن قلقي الأكبر هو السؤال الملح: هل من الأفضل أن تتربى فتاة سويدية هنا أم في السويد؟»

قالت ف ي ف ي في إشارة إلى أن هيلدا تصدر بعض الأحكام دون التعرف بشكل أعمق على المجتمع الذي تعيش فيه: «لا تكون الأشياء دائمًا كما يبدو لنا في الظاهر».

ردت هيلدا: «على أية حال، نحن لسنا بمصريين، كما أننا

نحيا في شرنقة خاصة بنا، فلا يمكن أن يكون الحال كما لو كنا فعلًا جزءًا من نسيج المجتمع المصري».

قالت ف ي ف ي في محاولة لتهدئة مخاوف هيلدا: «يوجد بعض المدارس الممتازة للأجانب».

قالت هيلدا: «ربما يجدر بي أن أبدأ في الاستعلام عن المدارس من الآن».

أكدت ف ي ف ي : «أعتقد هذا. لا يجب أن تقلقي على كل شيء من الآن، فإنجريد ما زالت طفلة».

قالت هيلدا وقد شعرت ببعض الراحة رغم أن مخاوفها لم تزل نهائيًّا: «نعم، ربما يجب أن أنظر للأمور بشكل تدريجي: خطوة خطوة».

- حسنًا، لديك احتمالان: احتمال ترك إنجريد هنا في مصر، أو تربيتها بعيدًا عن مصر. هل أنا محقة؟

- نعم. أعتقد هذا. لقد كنت أفكر في أن الوضع هنا ليس جيدًا لتنشئة فتاة، إلا أن الأمور قد بدأت تختلف في مصر بالنسبة للنساء، وهناك احتمال أن يحدث المزيد

من التغيرات، والمزيد من التحسن.

- لماذا لا تتركينها هنا لوهلة حتى تري ماذا ستؤول إليه الأمور.

انتماء هيلدا لبلد شمالي مثل السويد، حيث يتوجب على النساء الاعتماد على النفس بينما يبحر الأزواج شهورًا بعيدًا عن الوطن، جعلها لا تشك في أن قيمة المرأة

تعادل قيمة الرجل، ولقد كانت والدتها رانهيلد خير دليل على ذلك. تتساوى النساء المصريات أيضًا مع الرجال، على الأقل النساء اللاتي يعملن في الحقل جنبًا إلى

جنب مع الرجل، إلا أن الأمور تختلف بعض الشيء في الأوساط الأرستقراطية. لقد أقنعت هدى شعراوي هيلدا بأن أوضاع النساء في مصر تتحسن بمعدل سريع، وأن المراة المصرية في طريقها للحاق بركب المرأة الأوربية المتحررة. لم تكن هيلدا على دراية بالعوائق التي على النساء تخطيها في هذه البقعة من بقاع العالم.

تنهدت هيلدا بقوة، وهي تحدق حولها. جلس إلى جوارها زوجان يتحدثان الفرنسية. كانت الزوجة ترتدي ثوبًا أحمر حريريًّا، وفروًا، ما ذكر هيلدا بخروجها في المساء مع طورشتين.

انتفضت هيلدا، وقالت لصديقتها، وهي في عجلة من أمرها: «يا إلهي! لقد نسيت. سأذهب الليلة مع طورشتين إلى الأوبرا. يجب أن أذهب لأبدل ثيابي».

على الرغم من السعادة التي بدت على ق ي ق ي وهي تتحدث مع هيلدا إلا أنها لم تتأثر بسهولة بالمجتمع المصري، فلقد كتبت في وقت لاحق تقول: «أجد هذه المدينة غريبة، المدينة ذات الوجهين. وجه ذو مرآة أوربية حافل بكافة مظاهر الرفاهية التي قد يصبو إليها المرء، فوسط مدينة القاهرة أوربي الهوى بما فيه من مطاعم فاخرة، وبنوك، وقصور، وبيوت على الطراز الأوربي، وقاعات السينما الكبرى. هذا إلى جانب الترام، وضجيج السيارات، والمحلات التي تعج بالأجانب من مختلف الجنسيات: إنجليز، وفرنسيين، وإيطاليين. لكن يظل هناك الوجه الآخر الذي يرقبك على بعد أمتار قليلة، حيث يختلف المشهد لتجد مدينة

أخرى قد تسير فيها لساعات طويلة دون أن ترى أجنبيًّا واحدًا، إنه قلب القاهرة الثاني، وهوقلب أكبر، تعدو دقاته مسرعة لتسبق وتفوق القلب الآخر الأوربي الطلعة، إنه الشرق الحقيقي».

عشق الزوجان هيلدا وطورشتين الأوبرا، وقررا التردد عليها بشكل منتظم بعد انتقالهما إلى القاهرة.

قال طورشتين: «لقد تغيبت عن المنزل كثيرًا».

كان طورشتين قد بدل ثيابه بالفعل، وارتدى سترة السهرة، والحذاء اللامع، ونظارة العين الواحدة التي لا تفارقه، بينما صفف شعره الأشقر بعناية إلى الوراء ليبدو أصغر من سنه.

قالت هيلدا، وهي تقبله بشكل خاطف: «سأسرع. تبدو رائعًا».

نفضت هيلدا بسرعة غبار الطريق، وارتدت ثوبًا حريريًّا أزرق داكن اللون، كما وضعت فرو الثعلب الشمالي حول رقبتها تحسبًا لبرودة الطقس في المساء. قاد طورشتين سيارته صوب دار الأوبرا.

قالت هيلدا، وهي تنظر إلى دار الأوبرا الإيطالية الطراز: «يا له من مكان رائع يشبه لاسكالا!»

قال طورشتين باسمًا: «كم أنا سعيد بمشاهدة ريجوليتو معك عزيزتي».

ضغطت هيلدا على ذراع طورشتين لتعبر عن سعادتها بوجودها معه. سعدت هيلدا بالاستمتاع إلى الموسيقى: عشق حياتها. التقت هيلدا في الفاصل بآمال،

وسعد. تناول الجميع كأسًا من الشمبانيا، وتحدثوا بالفرنسية كعادة غالبية أصدقاء هيلدا من المصريين.

اقترح أحد الموجودين قائلًا: «فلنذهب إلى فندق شبرد للرقص».

سار الجميع في الشوارع المضاءة في طريقهم إلى فندق شبرد الذي لا يبعد كثيرًا عن دار الأوبرا.

قالت هيلدا بعد ساعة ونصف من مغادرتها دار الأوبرا: «تبدو السماء رائعة وهي تتلألا بالنجوم».

جلست هيلدا إلى جوار تجمع كبير من الضباط الإنجليز وزوجاتهم.

قال طورشتين وقد لاحظ أصواتهم المرتفعة وضحكات زوجاتهم: «يبدو أنهم أسرفوا في تناول الكحوليات».

قالت هيلدا: «ها هم قد وصلوا».

وصل سعد وآمال، وسرعان ما توجهت هيلدا إلى حلقة الرقص ذات الأرضية المرمرية لتنسى في لحظة كل مخاوفها فيما يخص إنجريد. امتلأت حلقة الرقص بصدى اللغات المختلفة التي لم تكن جميعها مألوفة لهيلدا. تمايلت هيلدا بشكل دائري في ثوبها الطويل، بينما تلألأت مجوهراتها في ظلمة الليل.

همست هيلدا في أذن زوجها: «يا له من تجمع راق!».

قال طورشتين: «نعم، تجمع ليس شرقيًّا».

ردت هيلدا: «فلنقل تجمعًا شرقيًّا من نوع آخر».

كانت هيلدا تدرك أنها على وشك الدخول في عالم الشرق، حيث رتبت لزيارة خان الخليلي، وبازار القاهرة في اليوم التالي، وهناك ستتعرف على قلب القاهرة

الآخر

الذي وصفته ف ي ف ي بصورة شعرية بليغة، لكن الليل ما زال حديث العهد، ولقد بدأ الأصدقاء الأربعة لتوهم في الرقص، فساعات الرقص والمرح في انتظارهم.

في صباح اليوم التالي، استقلت هيلدا العربة التي يجرها الحصان لتتوجه إلى منطقة البازار. كانت رائحة المكان مختلفة عن وسط المدينة، إنها رائحة الشرق كما

أطلقت عليها هيلدا. كانت الأصوات تعلو من حولها، بينما تضيق الشوارع ويزداد ضجيج الزحام. ارتدى الناس الثياب المحلية، ولا يوجد أثر لأوربي واحد. صارعت

هيلدا لتجد طريقها وسط أزقة خان الخليلي الضيقة، بينما التفَّ حولها بعض الأطفال بثياب متسخة ممسكين بأكمام ملابسها بينما وأيديهم الصغيرة تمتد

نحوها. أفاقت هيلدا على صوت أحد أصحاب المحلات التجارية مشجعًا إياها على الدخول: «يا مدام».

كانت المحلات التجارية ضيقة ملتصقة ببعضها البعض. بدأت هيلدا جولتها بشارع الذهب، حيث تُباع المجوهرات الذهبية بالجرام، كما مرت بنوافذ المحلات التي

تقلد بإبداعٍ مجوهرات كارتييه و ف ان كليف. أعجبت هيلدا كثيرًا بالمعروضات، ثم توجهت إلى شارع الفضة حيث يوجد محل الفضة للأرمني الشهير جيراجوسيان.

تطلب الأمر منها بعض الوقت للوصول إليه حتى رأت اللافتة المكتوب عليها اسم المحل الشهير ودخلت.

سأل الرجل المهذب: «مدام، ما هو طلبك؟» ثم دعاها للجلوس: «تفضلي، هل تفضلين فنجانًا من القهوة، أم

فنجانًا من الشاي؟»

«أشكرك، قهوة تركي مضبوط».

قالت هيلدا وقد تسللت إلى أنفها رائحة البخار المتصاعد من القهوة: «رائحتها جميلة».

غالبًا ما يُضاف الحبهان إلى القهوة في مصر ليعطي نكهة غنية منعشة. احتست هيلدا القهوة على مهل، وبحرص حتى لا تبلع بقايا البن الذي يترسب في قاع الفنجان الصغير.

تحدثت هيلدا مع البائع عن العائلة، والأطفال لمدة ساعة أو ما شابه، فلقد اعتادت هيلدا التحدث مع الباعة عند ذهابها للتسوق، الأمر الذي يختلف كثيرًا عن السويد. أخيرًا، بدأت البحث عن الأواني الفضية التي تريد شراءها. عرض عليها صاحب المحل مجموعة من مختلف الأنواع، إلا أنها اختارت نوعًا بسيطًا، وأنيقًا في ذات الوقت، فهي لا تميل إلى الزخرفة المبالغ فيها، فما زالت هيلدا أسكندنافية الذوق.

قال التاجر لهيلدا: «مع السلامة».

غادرت وهي تحمل ما اشترته في رزمة مغلفة بعناية بأوراق صحف الأمس تحت إبطها .

قادتها حاسة الشم بعد ذلك إلى الزقاق التالي، حيث تُباع مئات من التوابل، والبهارات بمختلف الألوان، والروائح. لم تستطع هيلدا التعرف على هذا الكم الهائل من البهارات، فبدأت بتذوق، وشم، ولمس بعضها.

قالت هيلدا التي لم تستطع التعرف على أي نوع آخر غير الكمون: «أريد كمون من فضلك».

رددت هيلدا في قرارة نفسها: «ما زال هناك الكثير لأتعلمه».

قررت بعد ذلك التوجه إلى ف ي ف ي للتعرف على تركيبات بعض الأدوية. تذكرت هيلدا أباها الطبيب، وتمنت أن يكون معها، وسرعان ما تداعى إلى ذاكرتها

ساندس ڤال لتجد نفسها في ثوانٍ قد انتقلت إلى مكان آخر، وحقبة زمنية أخرى. عادت هيلدا سريعًا إلى لحظتها الحالية، وقد أفاقت على صوت العديد من

الأطفال الفقراء في سن إنجريد يطلبون المساعدة لتعود مرة أخرى إلى انشغالها على إنجريد، ومستقبلها، ما أوقظ مخاوفها مرةً ثانية.

ماذا ستفعل مع إنجريد؟ إلى أي مدرسة سترسلها، وأي لغة ستتعلمها؟ أم من الأجدر أن ترسلها إلى مدرسة داخلية في السويد كما يفعل معظم أصدقائها

الإنجليز مع أطفالهم؟ كيف ستقوى على فراق ابنتها الوحيدة؟ إلا أن مصلحة إنجريد يجب أن تأتي في المقام الأول.

تصارعت الأفكار المتناقضة في ذهن هيلدا، وهي تبحث عن السائق الذي أقلها، إلا أن السائق استطاع أن يميزها بسهولة، فلقد كانت هيلدا السيدة الأجنبية

الوحيدة هناك.

تزاحمت الأفكار في ذهن هيلدا، وجلست تفكر في الفرق الكبير بين أغنياء مصر وفقرائها، وشعرت بالامتنان لانتمائها إلى حزب الأغنياء.

توصل طورشتين إلى نتائج مشابهة في هذا الشأن، حيث كتب عن أغنياء مصر وفقرائها يقول: « من الخطأ

القول إن المصريين ليسوا سعداء، فالمصري سعيد، ولا ينظر بسوء إلى الفرق الكبير بين أصحاب الأراضي الأثرياء، والقرويين الفقراء. من الصعب تخيل

التفاوت الكبير بين الثراء الفاحش والبؤس الذي يحيا فيه فقراء مصر.

القرى محرومة من أغلب الخدمات الصحية الأولية. تتكون القرى من حظائر مصنوعة من قوالب الطوب اللبن، حيث تعيش العائلات الكبيرة العدد في غرفة

واحدة مع البقرة أو الجاموسة، وبعض الحيوانات الصغيرة الأخرى التي يستقر بها الحال في ملحق مجاور. تصطف البيوت بجانب بعضها البعض لتكون أزقة

ضيقة غير ممهدة، ولا تحتوي على نظام صرف لائق.

يتم إلقاء القمامة، والمخلفات في الأزقة لتحتشد قبائل من الذباب، وتتصاعد الروائح الكريهة ليصبح المكان غير آدمي للعيش بالنسبة لأي أوربي حتى ولو لفترة

زمنية قصيرة. صاحب الدكان اليوناني الحاضر دائمًا هو الاستثناء الوحيد، حيث يبيع كل البضائع البدائية، ويجني الفائدة. عادةً ما يأخد عشرة قروش في الشهر

ليقرض شخصًا ما جنيهًا واحدًا، فتكون الفائدة 120 بالمائة في العام، وسرعان ما يتوسع صاحب الدكان في أعماله، وينتقل إلى المدينة ليستأنف نشاطه التجاري،

وكانت هذه هي بداية معظم أصحاب المال.

تساءلت هيلدا عن سر اختفاء الجميع: «مرحبًا، لقد عدت».

استشعرت الماء البارد، وهي تغسل يدها المتسخة من

الأتربة ليتحول لون الصابون الأبيض إلى الرمادي.
جففت يدها بإحدى الفوط المكتوب عليها أول حرف من اسم والدتها رانهيلد، وأول حرف من اسم والدها أندرسون. من الغريب أنها لا تتذكر أي شيء عن والدها الذي أنجبها، فهو دائمًا هذا الشخص المجهول الذي يبدأ اسمه بحرف ال «أ». دخلت إنجريد بينما كانت هيلدا مستغرقة في أفكارها.

قالت إنجريد: «لقد كنت نائمة يا ماما».

كانت إنجريد دافئة من فعل أغطية الفراش. أحاطت إنجريد رقبة هيلدا بذراعيها، وقفزت لتحملها.

قالت هيلدا: «لقد أصبحت ثقيلة الوزن، لا أستطيع حملك».

جاءت نان ومعها صينية محملة بالشاي الساخن، والحلوى المخبوزة بالمنزل.

جلست هيلدا في الشرفة تحتسي الشاي الذي وُضع في إناء فضي ومعها نان، قالت هيلدا: «يجب أن نفكر في المدرسة التي ستذهب إليها إنجريد. ربما من الأفضل أن

أرسلها إلى السويد».

ما إن بدأت الاثنتان في مناقشة الأمر حتى انهمرت الدموع من عين إنجريد الزرقاء لتغطي وجنتيها النضرتين. نظرت كل منهما للأخرى بينما احتضنت نان إنجريد

لتهدئتها .

قال طورشتين الذي جاء وقد عقد حاجبيه، وخلع نظارة العين الواحدة: «ما الذي يحدث هنا؟»

بمجرد أن فهم طورشتين حقيقة الأمر، ورأى الحزن على وجه هيلدا ونان، اتخذ قراره: «مصر هي بيت إنجريد. بالرغم من تحدثها اللغة السويدية، وبالرغم من ذهابها كل صيف إلى السويد، إلا أنها لا تكاد تذكر شيئًا عن تلك الإجازات الصيفية. إنجريد تتحدث العربية باللهجة المصرية مع الخدم: عائلتها التي لا تعرف سواها».

أخيرًا صرح طورشتين بلهجة لا تخلو من الوقار والهيبة: «فلتذهب إنجريد إلى مدرسة فرنسية هنا في مصر».

جففت إنجريد دموعها، وأضاء وجه السيدتين. أخذت نان إنجريد إلى غرفتها، وتحدثت هيلدا مع طورشتين حول تفاصيل تعليم إنجريد، والمدرسة التي ستلتحق بها، واللغة التي ستتعلمها. لفترة طويلة، كان التعليم العالي في يد الفرنسيين، وخاصة مدارس الرهبان والراهبات حتى بعد بناء الحكومة للمدارس الثانوية، ولهذا تغلغلت الثقافة الفرنسية في المجتمع المصري، حيث تحدث كل السياسيين، وموظفي المصالح الحكومية اللغة الفرنسية، وكذلك طورشتين وهيلدا من حسن الحظ.

قالت هيلدا وهي ما زالت مترددة بعض الشيء: «هناك مدرسة ممتازة. أستطيع أيضًا أن أساعدها في أداء واجبها المنزلي».

قالت نان: «لكنها لا تتحدث الفرنسية».

تدخل طورشتين: «ستتعلم، الأطفال يتعلمون سريعًا».

قالت هيلدا: «لكن المدرسة بعيدة، كيف ستذهب كل صباح؟»

أضاف طورشتين: «إذن سيتعين علينا الانتقال إلى منزل آخر، أما فيما يخص عملي، أستطيع أن أذهب بسيارتي».

قالت هيلدا: «أريد أن أتفقد مدرسة داجمار أولًا، سأذهب غدًا».

أتت إنجريد حيث يجلس الجميع مرة أخرى، وقالت لوالدتها بصوت معسول يصعب مقاومته: «هل من الممكن أن آتي معك؟»

ردت هيلدا: «حسنًا، ستأتين معي، ولكن بشرط: أن تذهبي إلى الفراش الآن، وستأتي معنا نان أيضًا».

كانت نصيحة نان تعني الكثير لهيلدا.

قالت نان، وهي تشعر بسعادة لخروجها عن نمط الروتين اليومي: «ستكون نزهة جيدة».

لم تدرِ أي من هيلدا ونان شيئًا عن الاضطراب والشغب الذي يحدث في المدينة. في تلك الليلة، ذهبت هيلدا وهي متوترة للنوم على الرغم من شعورها بالراحة لقرار

طورشتين.

رأت هيلدا في المنام كابوسًا، حيث تسعى الحيوانات البرية وراء إنجريد. حاولت هيلدا تحذيرها، ولكنها كانت تتحدث بالفرنسية، ولم تستطع إنجريد أن تفهم

شيئًا. في اللحظة التي كاد الوحش بشعره الطويل المتسخ أن يفترس إنجريد، استيقظت هيلدا وهي تلهث.

الفصل السابع

إلى الشارع

استيقظت إنجريد، والحماس يملؤها لرؤية مدرسة داجمار، وهي غير مدركة لما يحدث وراء أسوار البيت الآمن.

حثت هيلدا نان على التحرك سريعًا بدلًا من تناول الفطور ببطء: «هيا بنا».

قال طورشتين وهو يتصفح صحف الصباح: «ربما يكون هناك شغب اليوم أيضًا».

قالت إنجريد وقد تأهبت للذهاب: «بابا، أنت دائمًا قلق».

قالت هيلدا لإنجريد: «إنك حقًّا عجولة».

أخيرًا انطلق الجميع لرؤية المدرسة التي أسستها سيدة سويدية تُدعى داجمار بيرج على طريق الأهرام. وصلوا إلى المدرسة في غضون ساعة.

قالت هيلدا في قرارة نفسها: «إنها بعيدة عن وسط المدينة»، ثم قالت بصوت مسموع: «من غير المعتاد أن تأتي سيدة سويدية إلى مصر لبناء مدرسة».

وافقتها نان: «أوافقك الرأي».

وصلوا إلى المدرسة المحاطة بأسوار عالية. استقبلهم رجل مصري أنيق يتحدث الفرنسية بطلاقة، واصطحبهم إلى الداخل.

قالت هيلدا بإعجاب : «إنه قصر لا مدرسة».

قالت نان بصوت يملؤه الحماس: «يا لها من حديقة رائعة!».

جرت إنجريد حول هيلدا ونان غير مكترثة بطراز المدرسة المعماري، فقد كانت مهتمة أكثر بالتعرف على أطفال

المدرسة.

سمعت إنجريد حديث أحد الموظفين مع هيلدا: «توجد فتيات فقط في مدرستنا».

نزلت سيدة طويلة شقراء مبتسمة على الدرج المرمري متجهة صوب هيلدا. رحبت داجمار بهيلدا: «ها أنت هنا أخيرًا».

بعد الأحضان والتحيات، بدأت هيلدا في التحدث عن المدرسة مع داجمار، أما إنجريد فقد بدا لها وقت الأحضان والترحيب كعصور بأكملها.

قالت هيلدا: «هل تستمتع الفتيات بالمدرسة؟»

ردت داجمار: «أعتقد هذا. دعيني أطلعك على آخر الأخبار. أتت إليَّ واحدة من فتيات المدرسة البارحة لتطلب مني إجازة، وعندما سألتها عن السبب عرفت أنها

ستتقدم لاختبار الملاحة الجوية، ولقد نجحت لتصبح بذلك ثاني فتاة مصرية تحصل على شهادة الطيران».

قالت هيلدا: «هذا يظهر نجاحك».

أضافت داجمار: «إنه ليس بالأمر الهين، فأنا صارمة جدًّا في المدرسة».

امتعضت إنجريد عند سماعها ذلك إلا أنها أحبت فكرة أن تذهب إلى المدرسة بالطيارة بدلًا من الحافلة، فلقد غرقت إنجريد سريعًا في عالمها التخيلي.

قالت داجمار: «تقف الفتيات في طابور عند وصولهن إلى المدرسة للتأكد من أن كل فتاة ترتدي زيها المدرسي، ولا تضع طلاء الأظافر، ولا مساحيق التجميل، ولا

ترتدي أية مجوهرات».

سألت هيلدا، حيث لم ترَ غير فتيات مصريات منذ قدومها: «هل يتردد الأجانب على المدرسة؟»

أكدت داجمار: «لا، فهذه المدرسة مؤسسة حكومية للفتيات المصريات من الطبقة الأرستقراطية».

- إذن، فهي لا تناسب إنجريد.

- باستطاعتي أن أقدم لك استثناءً.

- ما هي المراحل العمرية لطلبة المدرسة؟

- جميع الأعمار بدءًا من الحضانة، وحتى المدرسة الثانوية.

قالت إنجريد: «أرى فتاة شقراء مثلي».

ردت داجمار: «إنها من أصول تركية».

سألت هيلدا: «هل يدرسون العربية؟».

قالت داجمار: «يدرس الجميع اللغة العربية الفصحى كمادة أساسية، وتجد الفتيات صعوبة كبيرة في هذا على الرغم من كون اللغة العربية هي اللغة الأم،

تمامًا كما يجد الطلبة في السويد صعوبة بالغة في تعلم اللاتينية. يرجع هذا إلى حقيقة أن اللغة العربية الفصحى تختلف كثيرًا عن اللهجة التي يتحدثون بها.

يتوجب على الطلبة أيضًا دراسة التاريخ، والعلوم الطبيعية باللغة العربية».

سألت هيلدا: «هل يدرسون لغات أخرى؟»

أجابت داجمار: «نعم، بالطبع. هناك اللغة الإنجليزية، والفرنسية، حيث يقوم بتدريس تلك اللغات أساتذة من أوربا، وهم حقًّا بارعون».

سألت إنجريد فتاة مرت بجانبها عن أكثر شيء تحبه في

المدرسة، فأجابتها الفتاة ضاحكة: «الطهي، فبعد انتهاء الدروس نقوم بطهي بعض المأكولات».

قالت داجمار: «كما ترين، إنهم يحبون المدرسة حتى إنهم يبكون عند انتهاء العام الدراسي».

علقت نان: «إذن فالأمر لا يتعلق بالدراسة فقط».

قالت داجمار: «لا، ففي أيام الجمعة يتم تنظيم بعض الرحلات للتنزه سواء في الصحراء أو على متن سفينة تأخذهن في جولة على ضفاف النيل، وهناك أيضًا الحفلة السنوية للمدرسة».

تركت إنجريد حديث الكبار، وأخذت تلعب بالبالون مع الفتيات.

قالت هيلدا على الرغم من أنها كانت قد اتخذت بالفعل قرارها: «حسنًا، يبدو هذا لطيفًا جدًّا، لكن يجب أن أتحدث مع زوجي أولًا».

وجدت هيلدا أن المكان لا يتناسب مع إنجريد، حيث إن الدروس باللغة العربية، ولن تستطيع هيلدا أو نان مساعدة إنجريد في أداء واجباتها المدرسية، كما أن الفتيات مسلمات، ولم ترغب هيلدا في أن تذهب ابنتها إلى مدرسة ذات طابع ديني مختلف.

شكرت هيلدا داجمار على جولتها معهم في المدرسة، وعلى شرحها المفصل، وتمنت لها حظًّا سعيدًا في العمل.

همست هيلدا في أذن نان: «نحن مسيحيون».

- وما الفرق الذي يمكن أن يحدثه ذلك ما دامت إنجريد لن تدرس القرآن؟

- ربما لن يتعين على إنجريد دراسة الدين، لكن لا تنسي أن وجهة نظرهم عن المرأة تختلف، فالرجل يمكنه أن يتزوج أربع سيدات.

- هل تخشين أن تعتنق إنجريد الإسلام فيما بعد؟

- لا أحد يعلم. مجرد الفكرة تصيبني بالرعب.

لم تستطع نان أن تكف عن التفكير في حقيقة أنها قد ترتضي بكونها زوجة ضمن زوجات أخريات. على الأقل كانت ستصبح زوجة، وتنجب أطفالًا، إلا أنها قررت

عدم البوح بتلك الأفكار لهيلدا التي كانت حتمًا ستعارض هذا التفكير.

ركب الجميع السيارة التي كانت ساخنة من أثر أشعة الشمس القوية، وانطلق السائق حتى فوجئ بحشد من الناس في الطريق الرئيسي يهتفون ببعض

الشعارات.

قالت نان: «ما هذا الشغب؟!»

ردت هيلدا: «يبدو أن الطريق مسدود».

صاحت إنجريد بحماس، وهي تجلس في الخلف، وقد فتحت النافذة للحصول على رؤية أفضل: «انظري، إنهم أطفال».

أمرت هيلدا إنجريد، وقد أدركت سريعًا أن الطلاب متجهون لمدرسة داجمار: «أغلقي النافذة».

أحاط مئات من الطلبة بالسيارة، وهم يهتفون: «يسقط الإنجليز»، ورفعوا صورة أحد التلاميذ الذي سقط صريعًا في أحداث الشغب السابقة. تصاعدت الأدخنة

من أتوبيس محترق، وتم تحطيم كشافات الإنارة في

الشوارع، وأخذ الجميع في الصياح ما أصاب هيلدا بالفزع.

قالت هيلدا لنان متمنية أن يبعث صوتها بعض الثقة: «حاولي أن تهدئي من روع إنجريد، هل يمكنك ذلك؟»

تصبب عرق السائق بغزارة، وهو يحاول أن يجد مخرجًا ليهرب. رأى السائق بعض الشباب الصغير المهندم، وقرر أن يتحدث معهم. فتح زجاج النافذة، وأشار على

الطفلة التي تبكي، والسيدتين اللتين انتابهما الذعر.

قال السائق: «انظر إلى الطفلة، لا ذنب لها في شيء. أفسح لنا الطريق».

رمق الشباب السيارة بطرف العين، ورأوا إنجريد تبكي بشدة، وهيلدا ونان في حالة ذعر. لوح أحد الشباب بزجاجة محترقة، وفجأة سُمع دوي طلقات رصاص،

وانفض الحشد.

قاد أحد الشباب السائق إلى ممر على الجانب الأيمن، وقال له: «أسرع الآن».

انعطف السائق بالسيارة إلى الجانب الآخر بسرعة شديدة حتى إنه كاد يصدم أحد الطلبة الهاربين، ثم مضى بالسيارة في شوارع ضيقة وعرة. لم يكن يدري إلى أين

يقوده هذا الطريق، ولكنه أراد أن يبعد عن مكان الشغب والمتظاهرين بقدر المستطاع. رأى السائق الأدخنة المتصاعدة من مرآة السيارة، وأدرك أنه حتمًا يقودهم إلى

الهاوية.

صرخت هيلدا: «ماذا سنفعل الآن؟»

قال رجل كبير السن، وقد رأى السائق: «فلتأتِ إلى هنا».

صعد السائق بالسيارة فوق الرصيف، ومنه إلى جراچ الرجل المسن.

سأل السائق هيلدا: «هل أنت بخير؟»

قالت، وقد بدأت تسترد وعيها: «أشكرك، نحن جميعًا بخير».

قال الرجل المسن: «فلتأتوا إلى منزلي لتعد لكم زوجتي الشاي».

نزل الجميع من السيارة، وقد بدأت إنجريد في التحسن، بينما صافحت هيلدا الرجل.

قال الرجل المسن وهو يقودهم إلى منزله: «أنا علي».

نادى علي زوجته نعمات لتأتي مرتدية الجلابية والشبشب.

وقفت نعمات عند الباب: «يا إلهي! ماذا حدث؟»

قال علي: «أحداث الشغب، أحضري لهم شيئًا».

قادهم علي إلى غرفة بها أريكة كبيرة. جلس الجميع على الأريكة ملتصقين ببعضهم البعض، بينما قبضت إنجريد على يد نان رافضة أن تتركها.

اقترح علي: «فلتنتظروا هنا حتى يتشتت جمع المتظاهرين».

قالت نعمات، وهي تهز رأسها: «يا له من شباب أحمق!».

ذهب علي، ومعه السائق لتفقد الموقف بالخارج. مضى بعض الوقت، وخُيل لهيلدا أنه دهر بأكمله حتى أتى

علي والسائق مؤكدين أن الطريق قد أصبح خاليًا الآن.

فكرت هيلدا كيف سيكون طورشتين في قمة قلقه الآن. شكرت علي من قلبها، وانطلق الجميع. قاد السائق السيارة ببطء متفاديًا إطارات السيارات المحترقة،

والزجاج المكسور، وأخذ يقود السيارة بشكل متعرج وسط الحطام. لم ينطق أحد بكلمة . كان الجميع في حالة تأهب خوفًا من أن يتكرر ما حدث، وفي تلك اللحظة

فكرت هيلدا بشكل جدي في الرجوع إلى السويد مع طفلتها.

أسرع طورشتين إليهم بمجرد سماع صوت السيارة: «أين كنتم؟»

أدركت هيلدا حينها أنها لا تستطيع ترك طورشتين وحده. ألقت برأسها على كتفه، وأجهشت بالبكاء، أما نان، فقد أخذت إنجريد، وغنت لها بعض الأغاني حتى

نامت الطفلة من فرط الإرهاق.

وصفت هيلدا فيما بعد ما حدث في خطاب إلى لينيا في أعقاب أحداث الشغب قائلة: «تعرض شارع قصر النيل لتلفيات خطيرة. انقلبت الدنيا رأسًا على عقب يوم الأحد في منزل داجمار بيرج. مدرسة داجمار بيرج هي المدرسة الوحيدة التي لم يصبها

أذى، ولذلك حاولت الفتيات اقتحام منزل داجمار، حيث دمروا بعض الأشياء، وقطعوا الستائر إلا أن الخدم قاموا بمنعهم من دخول غرفة المعيشة. هل يمكنك

تخيل هذا؟ أخذت داجمار الأمر كله بهدوء، وذهبت إلى النادي للاستجمام والتعافي.

هناك الكثير من الأحداث. آخر الأخبار وفقًا لما ورد في

الجرائد: اجتمع النحاس، ومحمد محمود، وصدقي باشا لتأسيس حزب. من غير المقبول أن يسمح هؤلاء

الساسة للشباب بالحديث بدلًا منهم، والتصرف بهذا الشكل. أُصيب ضابط إنجليزي بإصابات بالغة حتى نُقل إلى المستشفى بينما أُصيبت بشدة سيدة إنجليزية في

البارحة إثر إلقاء الطوب على سيارتها. في الاجتماع الأول للأطباء، توحد الجميع كأعضاء الكونجرس مرددين: يسقط الإنجليز».

تم حصار سيارة رئيس الوزراء نسيم باشا. طالب الحشد بالإفراج عن المتظاهرين الذين تم إلقاء القبض عليهم، وعندما رد عليهم قائلًا إنه لا يمكن أن يتحقق

مطلبهم بهذه الطريقة بدون الرجوع إلى قرار مجلس الوزراء تزايد الغضب، واضطر نسيم باشا إلى التراجع بسيارته، أما المندوب السامي البريطاني مايلز فلم يكن

موجودًا.

في نفس الوقت وقفت فتيات مدرسة داجمار في الشرفة يصحن، ثم قمن باقتحام غرفة الطعام وتدمير الأثاث».

قالت هيلدا: «كم أنا سعيدة بقرار عدم التحاق إنجريد بهذه المدرسة».

رد طورشتين: «نحن قريبون جدًّا من أحداث الشغب، فلننتقل إلى منزل آخر».

سعدت هيلدا بالعثور على منزل بعيدًا عن مركز أحداث الشغب، فلقد وجدت منزلًا أعجبها على الجانب الآخر من

الكوبري.

ذهبت هيلدا بعيدًا مع أفكارها، وهي ترى طورشتين يوقع إيجار منزلهم الجديد: «تأخذنا الحياة بعيدًا بعيدًا في هذا البلد الغامض».

كان المنزل الجديد في الريف المصري، في ضواحي القاهرة. توسط المنزل حقول البرسيم الخضراء التي تُزرع أربع مرات في السنة لإطعام الحيوانات المنزلية.

كان البدو يرعون الغنم والماعز في نفس المنطقة. انتقل آل طورشتين سالين إلى منطقة أقرب منها للطابع الشرقي، حيث توجد مصر الحقيقية، أو على الأقل الجزء

الذي لم يتأثر بالغرب، وشعرت هيلدا كأنها قد انتقلت إلى مدينة أخرى.

ابتسم طورشتين بثقة: «سترين كيف سنكون بأمان هنا».

صاحت إنجريد بسعادة: «حديقة».

ابتسمت هيلدا وهي تشعر بحماس إنجريد: «نعم عزيزتي، لقد انتقلنا إلى منزل بحديقة».

ف يلا الأسعف، كما كان يُطلق على المنزل الذي انتقل إليه آل طورشتين، كانت مُحاطة بريف خصيب، وعدد قليل من ال ف يلل المجاورة. كان المنزل على الجانب

الآخر من النيل على نقيض جاردن سيتي التي تحمل بيوتها بصمة الطراز الأوربي.

استقرت العائلة في منزلها الجديد. كانت الحديقة مُحاطة بالسياج، وأشجار النخيل، والتين، ونبات السنط لتلقي جميعها بظلالها على الحديقة. استطاعت هيلدا

مع نان تحديد المكان المثالي لاحتساء شاي الظهيرة في الجانب الشمالي من الحديقة.

قالت هيلدا بسعادة، وهي ترتب الأثاث وتضعه هنا وهناك حتى تستقر كل قطعة في مكانها المناسب: «سنستمتع حقًّا بهذا المكان».

قالت نان: «هذا المكان فيه ظل وفير».

ردت هيلدا: «أريد المزيد من الزهور، ستحتاج الحديقة إلى بعض التنظيم».

كان الجنايني يُدعى فتحي، وأحيانًا كان يحضر معه ابنه لمساعدته. زوج فتحي ابنته لرجل كان يعمل ببسط القطران لتمهيد الطرق.

قالت هيلدا لطورشتين: «هناك ضوضاء عالية بالخارج، فلتذهب لترى ما يحدث».

كاد الضجيج يصيب هيلدا بالصمم.

سرعان ما أتى طورشتين إلى غرفة المعيشة ضاحكًا: «لا بد أن تأتي بنفسك لتري ما يحدث بالخارج».

خرجت هيلدا، وإذ بها ترى ابنة فتحي في ثياب الزفاف، وزوجها في المرصاف بصوته المزعج.

قال طورشتين وهو يحاول أن يمنع نفسه من الضحك أمام العروسين: «لقد أتوا ليظهروا لنا أهمية وظيفة زوج فاطمة في حالة إن كنا نجهلها».

دخلت هيلدا لتحضر هدية الزواج، لكنها لم تعثر على شيء مناسب في حينها فوضعت مبلغًا من المال في ظرف، وأعطته لفاطمة وزوجها.

شكر زوج فاطمة هيلدا، وقاد المرصاف ذا الموتور المزعج الصوت ولوح بيديه لهيلدا مودعًا: « شكرًا يا

مدام».

سألت هيلدا فتحي فيما بعد عن الزفاف. أخبرها أنه وجد هو وزوجته، وبعض الخالات الزوج المناسب لابنته من قرية مجاورة.

قالت هيلدا: «إذن، فلقد قابلته، ووقعت في حبه في سن صغيرة».

أكد فتحي لهيلدا: «لا، لم تقابله قبل الزواج أيضًا».

بدهشة قالت هيلدا: «إذن، فلقد قمت أنت باتخاذ القرار».

قال فتحي، وقد ظهر الارتباك عليه: « نعم، لقد جرت العادة هنا أن يزوج الآباء أبناءهم. ماذا عنك؟ لديك ابنة، وأنت تدرين ما هو أفضل لها. أليس كذلك؟!»

حاولت هيلدا التملص من الإجابة: «ليس الأمر بهذه الطريقة».

قال فتحي وهو يشعر بالفخر: « لقد دفعت مبلغًا كبيرًا من المال لفاطمة، ولكن كما ترين لقد حصلت على زوج رائع».

مضى فتحي للاعتناء بالحديقة، وهو سعيد بنفسه لتجلس هيلدا لحالها تفكر في إنجريد مرةً أخرى، فهي لا تمانع في أن تزوج إنجريد لابنة صديقة أو صديق.

أفاقت هيلدا من أفكارها على صوت إنجريد، وقد أتت لهيلدا بفكرة جديدة : تربية كلب في المنزل.

توسلت إنجريد: «أريد أن يكون عندي كلب خاصة أنه يوجد حديقة في المنزل».

قالت هيلدا: «لا أحد يربي كلابًا في هذا البلد».

سألت إنجريد: «لماذا؟»

ردت هيلدا: «إنهم يعتبرون أن تربية الكلب نوع من القذارة، خاصةً في ظل وجود ما يُعرف بسعار الكلاب، هل تريدين أن ينتقل إليك المرض؟!»

قالت إنجريد: «لا».

كانت هيلدا مهتمة بعلاج الأمراض المختلفة، وخصوصًا العلاج المستمد من النباتات والأعشاب، ما قادها إلى طلب مساعدة لينيا في البحث عن علاج لبعض

الأمراض في المكتبة الطبية في ساندس ڤال، حيث اعتادت أن تذهب بغرض البحث وقت أن كانت تساعد أباها في عيادته.

كتبت هيلدا في أحد خطاباتها إلى لينيا عن الأمراض المختلفة التي مرض بها أصدقاؤها في مصر: الدفتيريا، والتيفود، والأميبا، والبلهارسيا، بالإضافة إلى الزحار

الأميبي، والقرحة التي عانى منها طورشتين:

« أتى الجنايني في اليوم التالي مع أحد أبنائه، وكان يعاني من البلهارسيا. انتقلت إليه العدوى من إحدى الترع التي تحيا فيها تلك الديدان المرعبة، وبالطبع يلعب

الأطفال في هذه الترع، وتنتقل إليهم العدوى. هل يمكنك أن تبحثي لي عن علاج للبلهارسيا في مكتبة ساندس ڤال الطبية؟

أُصيب طفل آخر من أبنائه بعدوى في عينه، ما تسبب في فقدان بصره. يا له من طفل مسكين! لا يمكن أن تتخيلي كم الأطفال التي أُصيبت بالعمى. إن البيئة التي

يحيا فيها هؤلاء الأطفال متسخة جدًّا حتى إنني أحيانًا أتساءل: كيف يحيون في ظل كل هذا؟! يشعر أصدقاؤنا

بالتعب من آن لآخر، ويعانون بالأخص من

الدوسنطاريا. ذات يوم، لم يستطع آل هانسين القدوم إلى حفلة العشاء التي أقمتها بمنزلي، حيث أُصيب الزوج بإسهال حاد، وشعرت زوجته بالقلق البالغ عليه

خاصةً أنه فقد الكثير من وزنه».

كانت إنجريد تُعنف دائمًا بسبب عدم غسيل الأيدي بشكل كافٍ، وبسبب لمسها لأي حيوان تراه حتى لو كان حيوانًا ضالًّا.

ترددت هيلدا من الحين والآخر على السيدة إيسا بيرجستراند التي كانت تدير منزلًا لرعاية ضحايا مرض السل، وكان يتم تدريبهم على بعض الحرف مثل النجارة،

والخياطة. اعتادت هيلدا الذهاب من آن لآخر لتزور المرضى، وتحضر بعض الأدوية الطبيعية لهم.

قالت هيلدا لإنجريد التي ما زالت مصرة على تربية كلب بحديقة المنزل: «الأمر هنا يختلف عن السويد. في السويد، البرد يقتل الجراثيم، أما هنا فالجراثيم تحيا».

ردت إنجريد: « لكني سأقوم برعاية الكلب ليكون نظيفًا دائمًا. أعدك بهذا».

ساعد القدر هيلدا في الخروج من هذا المأزق . كانت هناك امرأة دانيمركية تحيا في المطرية في المكان الذي مرت به العائلة المقدسة. امتلأت حديقة منزل السيدة جيردا

بالفواكه المصرية كالمشمش، والجوافة، والبرتقال، واليوسفي. أخذت هيلدا ذات يوم إنجريد في جولة بحديقة جيردا لتقطف بعض الفواكه، وإذا بكلب شيبرد

ألماني يأتي مسرعًا صوب إنجريد، ويخمش كتفها.

صرخت إنجريد من الفزع.

قالت جيردا: «لا تقلقي، إنه فقط يريد اللعب معك».

أخذت جيردا الكلب بعيدًا إلا أن هذه الحادثة قد تركت أثرًا دام كثيرًا، حيث أصبحت إنجريد تخشى الكلاب، وكفَّت عن إلحاحها في شأن تربية كلب في حديقة

المنزل.

أخيرًا، سُمح لإنجريد أن تربي سلحفاة في الحديقة، اثنان: لوتا، وبيتير. خصصت لهما إنجريد مأوى في الحديقة، وكانت تطعمهما السلاطة والبرسيم،

وتشاهدهما وهما يتناولان الطعام.

عندما أتت إنجريد من إجازة الصيف الطويلة بالسويد وجدت مفاجأة سارة في انتظارها.

صاحت إنجريد بسعادة: «لقد أنجبت بيتير سلحفاة صغيرة».

قالت نان ضاحكة: «يبدو لي أنه يتعين عليك تغيير أسمائهم».

وجدت إنجريد أيضًا حرباء في الحديقة، حملتها على كتفيها بينما كانت تحرك عينيها البارزتين بحثًا عن فريسة. أطلقت إنجريد على الحرباء اسم إيزميرالدا.

قالت إنجريد، وهي ترقب الحرباء التي تخرج لسانها الطويل الممتد لتلتقط الحشرات: «إن لسانها جيد بحق».

رفض طورشتين وجود قطة بالمنزل إلا أن هيلدا وإنجريد قامتا بتهريب قطة صغيرة إلى غرفة المكتب. لم يستطع طورشتين أن يقاوم سحر القطة الصغيرة التي أتت

لتجلس على رجليه. لم يكن لإنجريد أي إخوة أو أخوات أو أقارب لذلك كان والداها سريعي الاستجابة لطلباتها، وأكثر صبرًا معها.

قال طورشتين: «يأتي الصبر مع تقدم العمر، فهو علامة من علامات الحكمة».

كان دائمًا هناك من المفاجآت ما يقتحم سكون وسكينة آل طورشتين، ومن خلال تلك المفاجآت تعرفت العائلة على بعض العادات التي لم يكن لها مكان في

السويد، أو الدول الشمالية.

كان محمد طباخ العائلة من النوبة.

قالت هيلدا: «وجهه أسود كالليل، وعلى وجهه تعلو الندبات والنتوءات التي تشبه خريطة أوربا».

لم يكن الطبخ هو مسئولية الطباخ الوحيدة، فهناك أيضًا مهمة الذهاب إلى السوق، وهي مهمة مستحيل أن تقوم بها امرأة أوربية.

قال محمد الطباخ لهيلدا عندما طلبت الذهاب معه إلى السوق: «لا يوجد مكان لأصحاب البشرة البيضاء في السوق».

يختلف سكان النوبة عن غيرهم، ويتميز معظم النوبيين بندبات الوجه.

في أحد الأيام سمعت هيلدا الطباخ يصرخ قائلًا : «توقفي»، ثم سمعت صوت وقوع الكراسي. هرعت هيلدا إلى المطبخ لترى الطباخ يلوح بسكينة كبيرة، ويجري

كالمجنون.

سألت هيلدا، وقد احمر وجهها: «مذا تفعل؟!»

رأت هيلدا الدجاجة التي كان من المفترض أن تكون مُعدة لطعام العشاء مختبئة تحت المنضدة. كان الدجاج يُشترى حيًّا دائمًا، ويتم ذبحه في المطبخ على عكس الأسماك.

كانت هيلدا دقيقة دائمًا فيما يتعلق بسلامة الطعام.

قالت هيلدا لمحمد الطباخ: «يجب أن تتحقق دائمًا من عين السمكة لتعرف ما إذا كانت طازجة أم لا. هذه السمكة غير صالحة».

كانت الأسماك هي طعام هيلدا المفضل بعكس طورشتين الذي كان يفضل لحم الخروف.

مر رجل من أمام المنزل وهو يردد: «ثلج، ثلج»، حيث كان يبيع قوالب الثلج، وكان يغطيها بالحشائش المجففة.

في شهور الصيف، كانت المياه تغمر الحقول بسبب فيضان النيل، حتى بيت آل طورشتين بالدقي، كان يتأثر بفيضان النيل، ولقد علقت هيلدا على ذلك في أحد

خطاباتها لصديقتها لينيا بعد عودتها من السويد في الخريف قائلة:

«ها هو فيضان النيل مرة أخرى. لقد غمرت المياه بلاط المنزل ما أدى إلى انحلاله عن بعضه، واضطررت إلى وضع كم هائل من الجرائد تحت السجاد. أصبح لون

بلاط غرفة النوم أحمر، وليس باستطاعة أي مسحوق في العالم إعادته إلى ما كان عليه، أما غرفة الطعام، وغرفة المعيشة، فلقد تعرجت وتماوجت أرض البلاط فيهما.

كانت المياه دائمًا ترشح في الشقة، وفي تلك المرة تطلَّب الأمر قضاء فصل الخريف بأكمله لإعادة المنزل

إلى ما كان عليه. سرعان ما طرق الكريسماس الأبواب».

قالت هيلدا لمحمد: « أريد أن أرى الديك الرومي قبل أن تذبحه».

قام محمد بشراء الديك الرومي قبل الكريسماس بأسبوع حتى يقوم بإطعامه ليزداد وزنه.

قالت هيلدا لمحمد: «أمسكه جيدًا».

وقف محمد مذهولًا، وهو يرى هيلدا تعطي الديك الرومي ملعقة من الويسكي ثم تقول له: « يمكنك ذبحه الآن».

شرحت هيلدا الأمر لنان التي كانت تنظر إليها، وهي في حيرة من أمرها: «الآن سيُذبح الديك وهو في حالة استرخاء، ويصبح لحمه طريًّا».

كانت هيلدا، ونان تقضيان أيامًا لطهو الطعام قبل الاحتفالات، وخصوصًا احتفال الكريسماس، وغالبًا ما كانت تتعدد الأصناف من قطع اللحم إلى العجائن،

والحلوى، وبسكويت الزنجبيل، وغيرها من أصناف المائدة السويدية.

قالت نان لإنجريد: « تعالي لتخبزي معنا».

أخذت نان إنجريد إلى المطبخ. وقفت إنجريد على الكرسي، واختارت بعض الأشكال مثل بابا نويل، والنجمة، والقلب، وشجرة الكريسماس، ووضعت كلًّا منها

على العجين الطري. قضت كل من هيلدا، ونان، وإنجريد اليوم في إعداد الحلوى. غطى الدقيق وجوههن، وأخذت هيلدا تغني بصوتها الناعم بينما دندنت نان

بعض الأغاني النرويجية.

قالت هيلدا لإنجريد: «بالتأكيد لم ترثي مني أذني الموسيقية، فأذنك مثل طورشتين تخلو من الموسيقى».

بحلول المساء كان العجين قد نفد، ووُضعت الحلوى بأشكالها المختلفة بأناقة في صاج العجين.

قالت هيلدا: «لقد انتهينا. هل يمكنك حمله محمد؟»

وضعت هيلدا صاج العين الضخم فوق رأس محمد الذي حمله وسار به حوالي كيلو حتى وصل إلى مخبز كبير، وانتهى من الأمر كله بحلول المساء.

قالت هيلدا وهي سعيدة بيوم العمل الذي أنجزت فيه كل ما تريد: «رائع، ستكفينا هذه الحلوى حتى الصيف، سيكون هناك ما يكفي للجميع».

تم تحضير الأطباق التقليدية بكميات كافية لدعوة الجالية الإسكندنافية، حيث تم دعوة الفنلنديين، والنرويجيين والسويديين للاحتفال في ڤ يلا الأسعف.

قالت نان لإنجريد: «فلنزين شجرة الميلاد».

ردت إنجريد: «أريد أن أعلق اليوسفي».

غالبًا ما كانت تُزين شجرة الميلاد بأشياء صالحة للأكل، وبما أن مصر لم يكن يتوافر فيها شجرة الصنوبر فلقد استقر آل طورشتين على شجرة أسترالية الأصل

بغصون رفيعة، وأوراق تشبه في شكلها حزمة نباتات ذات ثمار مخروطية.

بعد العشاء الأسكندنافي، تمت دعوة الضيوف للرقص، كما عزفت هيلدا أيضًا على البيانو لضيوفها.

الظهور في المجتمعات كان إحدى مهام هيلدا إلى جانب الإشراف على الخدم، وتنظيم قوائم الطعام، وحفلات الشاي، وحضور الحفلات الخيرية التي كانت تشغل

أوقات هيلدا. دائمًا ما كانت هيلدا تحاول التعرف على العادات المصرية، ورعاية عائلتها في ذات الوقت، وهي مهمة ليست سهلة.

كانت أم عزيز، سيدة مصرية ممتلئة الجسم، مسئولة عن غسيل الملابس مرة كل شهر، وكانت تغسل الملابس في «طشت» كبير فوق سطح المنزل. كانت تمشي

ببطء، ويتحرك جسدها مع كل خطوة حتى يُخيل إليك أنها تتدحرج من ثقل وزنها، بينما تتدلى قدماها من الشبشب الذي بدا أصغر كثيرًا من قدميها. كان أحمد

يساعدها دائمًا في حمل الغسيل إلى سطح المنزل، حيث تجلس القرفصاء أمام الطشت الكبير لتدعك الملابس بالصابون، ثم تلقي بالماء في الحديقة، ثم تملأ

الطشت بالماء النظيف، وتقوم بشطف الملابس، ثم نشرها لتجففها أشعة الشمس.

أما كي الملابس فكان يتم من خلال أسطوانة كبيرة تم شراؤها من السويد. تطلب الأمر ثلاثة أيام لإتمام عملية الغسيل والكي إلا أن أم عزيز كانت ترفض كي

الملابس.

بررت أم عزيز لهيلدا: «هذا عمل الرجال».

تنهدت هيلدا: «إذن يجب أن أجد شخصًا آخر».

أتى رجل رفيع، كبير السن في أحد الأيام مقدمًا نفسه

على أنه «رجل المكواة»، وفي جعبته مكواة ثقيلة.
قادته نان إلى الحمام، حيث وضعت لوحًا خشبيًّا ليتم الكي

عليه.

قال الرجل، وهو يهز رأسه: «لا، لا».

توجه الرجل إلى منضدة المطبخ الكبيرة، وصعد أعلاها بينما وضع المكواة على موقد الجاز لتسخينها، ثم ملأ فمه ليرشه بالماء وينثره على الملابس. كان كي الملابس

يتم بشكل رائع بواسطة قدم الرجل «مكواة رِجل».

ذُهلت نان مما رأته إلا أنها عرفت بعد ذلك أن هذه هي الطريقة المصرية لكي الملابس.

«مفيش مخ»، تعبير مصري استخدمته هيلدا، وهي ترى الرجل يرش الماء على الملابس. لم توافق هيلدا مطلقًا على تلك الطريقة غير الصحية في كي الملابس إلا أن

هذا لم يناسب المكوجي الذي ما إن تدير هيلدا ظهرها حتى يكمل الكي بطريقته المعتادة. كان هناك صراع لا ينتهي بين هيلدا، والخدم حول طريقة عمل الأشياء.

قالت هيلدا في قرارة نفسها: «هناك اختلافات كبيرة بين مصر والسويد في كيفية عمل الأشياء».

غلف الليل المنطقة بأسرها بحلول المساء. في كل ليلة يأتي رجل ليضيء مصابيح الإضاءة، هذا بالإضافة إلى العسكري الذي يصيح دائمًا بالليل بصوت مسموع.

وبالرغم من ذلك، لم تشعر هيلدا بالأمان الكامل. كانت هيلدا بلا شك تنتمي لعائلة السيدات القويات، فكانت تستطيع أن تواجه كل المواقف بشجاعة إلا أن أمن

إنجريد وسلامتها كانا أكثر ما يؤرقها. بدأت هيلدا تتشكك في القرار الذي أخذته ببقائها في مصر، ومع ذلك فلقد تم تسجيل أوراق إنجريد في مدرسة فرنسية

صغيرة ليست بعيدة عن المنزل ما أزعج إنجريد كثيرًا، حيث إنها سمعت قصصًا مرعبة من أبناء أصدقاء هيلدا عن صرامة النظام التعليمي في المدارس الفرنسية.

قالت إنجريد: «لا أريد الذهاب إلى المدرسة. أريد البقاء في المنزل واللعب».

حالف الحظ إنجريد.

قال طورشتين: «المدرسة في عطلة اليوم بسبب أحداث الشغب».

قفزت إنجريد من الفرح، وقد شعرت براحة كبيرة.

سألت هيلدا: «إلى متى ستستمر هذه العطلة؟»

رد طورشتين: «لا أعلم. علينا الانتظار هنا حتى يتضح الأمر».

في الظهيرة أتى هانز، أحد أصدقاء طورشتين ليخبره أن الموقف حرج، وأنه من الأفضل أن يغادر المدينة لفترة مع عائلته حتى تستقر الأمور.

اقترح طورشتين، وهو شغوف بأن يقوم بعمل شيء بدلًا من الانتظار: «فلنذهب في رحلة إلى الصحراء».

قالت هيلدا لطورشتين في محاولة لطمأنته أو بالأحرى طمأنة نفسها: «حاول أن تهدأ».

استطاع آل طورشتين رؤية الأدخنة المتصاعدة من شرفة منزلهم. خلت السماء من السحب، وبدا أن الأدخنة المتصاعدة تأتي من وسط المدينة، وعليه تقرر أن

يتحرك الجميع صوب الصحراء.

قال طورشتين: «يجب أن تكون الشرطة أكثر تأثيرًا الآن».

ردت هيلدا: «بالتأكيد. لقد تدربت الشرطة خاصةً بعد أحداث الشغب السابقة، فلنذهب إلى رحلة قصيرة لبضعة أيام».

قال طورشتين: «فليكن، فلنذهب إلى تل العمارنة، ويمكنك جلب الكاميرا معك».

قالت هيلدا لنان: «لا يوجد الكثير لمشاهدته هناك إلا أنها العاصمة السابقة لفرعوني المفضل».

استقل الجميع السيارة، وأحضرت نان مؤن الرحلة من ماء، وحلوى. بعد ساعات طويلة من القيادة، قالت إنجريد بضيق: «متى سنصل؟»

وعد طورشتين إنجريد: «قريبًا جدًّا».

كان تل العمارنة في أقصى جنوب القاهرة، واستغرقت الرحلة ساعات طويلة. مر آل طورشتين في طريقهم بعربة تجرها الحمير والجمال، ولم يقابلوا أي شغب في طريقهم.

قالت إنجريد: « انظروا إلى الجمل الصغير، وهو يسير خلف والدته، فلنقف لنرى».

رد طورشتين: «لا وقت لدينا الآن».

قالت هيلدا لتشتت انتباه إنجريد بعيدًا عن الجمل: «سأحكي لك عن أجمل امرأة عاشت هنا».

بدأت هيلدا تحكي لإنجريد عن نفرتيتي زوجة إخناتون (1330 - 1370 قبل الميلاد). كانت نفرتيتي مشهورة في الع كله بجمالها. أجمل تمثال نصفي لها موجود

في برلين، وبفضلها صارت اللوحات التي تعبر عن الفرعون وأتباعه أكثر جمالًا، وأكثر تدفقًا بالحياة. كما عُرف عن نفرتيتي شجاعتها، حيث كانت تقف بجوار زوجها جنبًا إلى جنب في الحروب لمواجهة الأعداء، ووفقًا للمؤرخين كان لنفرتيتي دور كبير في المجتمع.

قالت هيلدا: «كان وجهها بارع الجمال.. الأنف المستقيم، والعين الجميلة المزينة بالكحل، والشفاه المرسومة والرقبة النحيفة».

أوقف طورشتين سيارته في الصحراء، وقفزت إنجريد من السعادة، وتبعتها نان.

قالت نان محذرة إنجريد: «فلتحذري العقارب. إنها تختبئ تحت الصخور».

وقفت هيلدا تنظر إلى النقوش التي يقف فيها الفرعون إخناتون مع الملكة، وابنته الكبرى أمام إله الشمس بينما تضيء وجهه أشعة الشمس، وتعيد الشباب إلى جسده. وفقًا للمؤرخين، آمن إخناتون بإله واحد، وكان هذا بمثابة منشأ فكرة التوحيد. كان إخناتون تقيًّا ورعًا، ولقد حزن كثيرًا لما آل إليه حال الكهنة الذين كونوا ثروات من القرابين التي تُقدم للآلهة.

قالت هيلدا: «لقد غير إخناتون العاصمة من طيبة إلى هنا تكريمًا لإله الشمس. لقد كره فساد الكهنة».

أضاف طورشتين: «مثل لوثر».

استطردت هيلدا: «ربما كان إخناتون ملهم لوثر. أراد إخناتون أيضًا أن يحد من قوة الكهنة، ولذلك جعل له عاصمة خاصة به، بها مركز ديني ثقافي بعيدًا عن نفوذ الكهنة».

قالت نان: «لم يبقَ الكثير من تلك العاصمة».

قال طورشتين وقد شعر بالإحباط: «نعم، نحن الآن نقف على حطامها، فما تبقى منها أغلبه صحراء».

قالت هيلدا: «سأريكم كيف أدخل إخناتون تغييرات على الفن، سأصحبكم إلى المتحف عندما نعود».

قال طورشتين: «هذا يعتمد على ماهية الموقف، فالشغب ليس ببعيد عن المتحف. الآن، علينا الاستعداد للرجوع».

علقت هيلدا: «أتمنى أن لا يصل الشغب للمتحف».

استقل الجميع السيارة. رجع طورشتين بسيارته للوراء، وإذا بالسيارة تلتصق بكثيب رملي. دار العجل، ولكن السيارة لم تتزحزح من مكانها، وأصدر محركها

ضوضاء بشعة.

اقترحت هيلدا: «حاول مرة أخرى».

قال طورشتين: «مستحيل أن تتحرك، فليخرج الجميع من السيارة».

اتجه طورشتين صوب العجل ليرى أن سيارته قد انغمست تمامًا في الرمال. حاول أن يبحث عن جاروف في سيارته، لكنه لم يعثر على شيء.

طمأنهم طورشتين: «لا تنزعجوا».

بدأت دقات قلب طورشتين في التزايد بينما ذكرته آلام القرحة التي داهمته بتوتره البالغ.

قالت هيلدا: «لا توجد معنا مؤن لقضاء ليلة في الصحراء».

رد طورشتين: «أعلم، كما أن الطقس سيكون شديد

البرودة في الصحراء».

ناولت هيلدا بطانية لطورشتين وقالت له: «ضع هذه تحت السيارة».

تجولت إنجريد وهي سعيدة بعدم عودتها للمنزل، وتبعتها نان أينما ذهبت.

قال طورشتين: «إنها تدور، فلتأتوا جميعًا».

قالت هيلدا وقد ثنت القطعة البالية من البطانية، وهي سعيدة أنها استطاعت أن تتجنب كارثة محققة: «سنحتفظ بهذه القطعة الممزقة من البطانية».

حدثت هيلدا نفسها: «إذا حدث شيء آخر سأُصاب أنا شخصيًّا بالقرحة».

استجابت إنجريد سريعًا للنوم، وهم في طريقهم للقاهرة. أدار طورشتين المذياع بمجرد رجوعهم إلى المنزل، وأدرك أن الشرطة استطاعت أن تسيطر على الأمر،

وطلبت من المواطنين الرجوع لأعمالهم، كما أُعلن عن استئناف نشاط المدارس في غضون يومين.

وفت هيلدا بوعدها، واصطحبتهم إلي المتحف في اليوم التالي، حيث رأوا تمثالًا طويلًا مصنوعًا من الجرانيت بجمجمة غريبة الشكل، وأرداف بارزة، وشفاه ضخمة.

كان التمثال ينطق بالحياة، فلقد ألغى إخناتون القواعد الروتينية المتعارف عليها آنذاك في الفن.

قالت هيلدا: «هذا هوالفرعون إخناتون».

قالت نان: «إنه يشبه النساء».

أشارت إنجريد: «هؤلاء هن بناته، إنهن مثلي تمامًا».

أعجبت إنجريد بمشهد الفرعون مع عائلته المكونة من ست بنات دون أي صبية.

هذا الوصف للحب والسعادة لم يكن له مثيل في التاريخ القديم،

ولا في الفترة التي أعقبت إخناتون، حتى القبلات تم وصفها وتصويرها في الرسم. من المؤسف حقًّا أن فن إخناتون وديانته قد ماتا معه.

أخذ الكهنة توت عنخ آتون إلى طيبة، وقاموا بتغيير اسمه ليصبح توت عنخ آمون، وتحت ضغط من الكهنة كان عليه أن يستعيد الطقوس الدينية الخاصة بآمون

والآلهة الأقل شأنًا، أما مقبرة إخناتون، فقد أُنتهكت حرمتها لتتحول إلى أشلاء.

قالت إنجريد: «تعجبني الحيوانات».

علقت هيلدا: «هناك أيضًا بعض الورد».

قالت نان: «من المؤسف أنه لم يستمر».

قالت هيلدا، وقد وافقت نان الرأي: «نعم، في مثل هذه الأوقات الصعبة كانت مصر لتنجو مع شخص محب للفن والسلام».

علقت نان: «لو استمر إخناتون، لكانت المرأة احتلت مكانة كبرى».

علقت هيلدا ضاحكة: «نعم، ولما شكلت تربية إنجريد في مصر أية مشكلة».

قال طورشتين وقد نفد صبره: «يجب أن نعود إلى المنزل الآن استعدادًا للمدرسة».

سألت هيلدا: « أليس الوقت مبكرًا على استئناف

الدراسة في ظل أحداث الشغب الراهنة؟!»

أجاب طورشتين مطمئنًا هيلدا: «لقد هدأت الأوضاع كثيرًا».

ذهبت إنجريد للنوم يملؤها الحماس، ودعت الله أن يكون أصدقاؤها في المدرسة أصدقاء طيبين.

الفصل الثامن

الحرباء وسلحفاة البر

كانت إنجريد مستيقظة عندما سمعت خطوات نان الثقيلة في الردهة خارج غرفة نومها. كان قلبها يخفق بشدة في انتظار الحدث الكبير. فتحت نان باب الغرفة ببطء بينما تظاهرت إنجريد بالنوم.

قالت نان وهي تقبل جبين إنجريد: «حان وقت الاستيقاظ».

فتحت نان النافذة لتغمر أشعة الشمس الغرفة. تسللت إلى أنف إنجريد رائحة شجر الكافور، وفتحت عينيها.

قالت نان وهي تبتسم: «ها أنت قد استيقظتِ».

قفزت إنجريد لتحضن نان، وقد تشابك شعرها الأشقر الطويل من جراء النوم ليغطي جزءًا من وجهها.

قالت إنجريد: «هل سرت في أثناء النوم؟»

ردت نان: «لا، لم يتعين عليَّ إنقاذك من أعلى الشرفة أو الحديقة. أشكر الرب».

ابتسمت نان وهي تتذكر اليوم الذي وجدت فيه إنجريد تسير على حافة درابزين الشرفة في منتصف الليل، وهي غير مدركة على الإطلاق للخطر الذي يحيط بها.

أخبرت هيلدا نان سابقًا أنه لا يجب إيقاظ أحد وهو يمشي نائمًا، فقد يصيبه هذا بصدمة أو أذى. أخذت نان إنجريد بهدوء من أعلى الدرابزين لتضعها في سريرها،

ومنذ ذلك الحين، لم تنم نان بعمق خوفًا على الطفلة الشقراء التي قد يصيبها أذى في أثناء الليل.

قالت إنجريد لنان التي كانت تمشط لها شعرها: «كم أنا متحمسة وسعيدة».

قالت نان: «قفي بثبات إنجريد».

أضافت إنجريد: «لا أريد أية ضفائر عند الذهاب إلى المدرسة».

أخذت نان تضفر لإنجريد شعرها كالمعتاد، ثم قامت بربط كل ضفيرة بشريط حريري قرمزي على شكل فيونكة جميلة الشكل.

ابتسمت نان غير عابئة بإنجريد التي تجهم وجهها وتحدثت إلى نفسها قائلة: «إنها حقًّا تمتلك شخصية قوية رغم صغر سنها».

تخلت إنجريد عن عبوس وجهها، حيث كانت سعيدة باليوم الأول في المدرسة. قطعًا عبوس الوجه لا يتماشى مع مزاجها الجيد. كانت إنجريد طفلة سعيدة خالية

من الهموم، وكانت تحظى باهتمام بالغ كابنة وحيدة لوالدين تقدم بهما السن إلا أن نان استطاعت أن تتعامل معها بشكل جيد.

ساعدت نان إنجريد في ارتداء زيها المدرسي.. الجونلة الزرقاء، والقميص الأبيض.

قالت نان: «كم يناسبك هذا الزي البديع!»

تأملت إنجريد نفسها في المرآة ثم توجهت أسفل الدرج. كانت هيلدا مع طورشتين يتناولان الإفطار في الحديقة، حيث وُضع إبريق الشاي الفضي، وإبريق الماء الفضي

الكبير، والبورسلين المزين برسوم الزهور بينما تدلى المفرش الأبيض ليغطي المنضدة.

قالت هيلدا: «فلتأخذي بعض الخبز عزيزتي. يجب أن تتناولي طعام الإفطار».

نظر طورشتين من أعلى الجريدة، ونظارة العين الواحدة لا تفارقه كالعادة وابتسم قبل أن يقول: «بما أن هذا هو اليوم الأول لك سأقلك إلى المدرسة، وبعد ذلك

ستأتي حافلة المدرسة لأخذك كل صباح، وعندما تكبرين ستذهبين بنفسك إلى المدرسة على دراجتك».

كرجل سويدي الجذور شجع طورشتين ركوب الدراجة، والتمرينات الرياضية كنشاط ممتاز، وغير مكلف.

قالت إنجريد: «لست جائعة، أشعر بألم في معدتي».

اقترحت هيلدا: «يمكنك أن تحتسي الشاي».

صبت هيلدا الشاي لإنجريد، وحلَّته بملعقة عسل مصري كبيرة.

شعرت إنجريد بالشاي الدافئ يتسلل إلى معدتها: «هذا جيد».

قالت نان: «وهذا الخبز الدافئ أيضًا».

ناولت نان إنجريد قطعة من الخبز عليها شريحة من الجبن النرويجي التي لا تستطيع إنجريد مقاومته.

قدم أحمد لإنجريد بعضًا من قطع المانجوالطازج: «تفضلي».

سرعان ما أكلت إنجريد المانجو.

قال طورشتين: «الآن، اذهبي لغسيل أسنانك. هل تريدين التأخر عن المدرسة في يومك الأول؟»

قفزت إنجريد من مكانها، وذهبت لتغسل أسنانها، ثم نظرت نظرة سريعة على نفسها في المرآة، وأخذت حقيبة المدرسة، وتوجهت أسفل الدرج.

قالت إنجريد: «أنا مستعدة الآن».

رد طورشتين: «فلتدخلي السيارة إذن».

قبَّلت إنجريد هيلدا ونان، ثم جلست في السيارة ولوحت لهما بيديها بينما انطلق طورشتين بالسيارة.

قالت نان: «كان قرارًا جيدًا أن نبقيها هنا».

ردت هيلدا: «على الأقل في الوقت الراهن».

جلست إنجريد في الكرسي الأمامي بجانب طورشتين تنظر إلى ضفاف النيل بينما عبر طورشتين ما يُسمى بالكوبري الإنجليزي متجهًا إلى الزمالك.. الجزيرة التي

توجد فيها المدرسة الفرنسية التي التحقت بها إنجريد.

قالت إنجريد: «انظر، هناك قارب ضخم ممتلئ بالجِمال».

كان النيل مزدحمًا بالقوارب التي امتلأت بالبضائع.

رد طورشتين: «نعم، أرى ذلك. يجب أن ننتظر».

أطفأ طورشتين المحرك، حيث فُتح الكوبري حتى تعبر البضائع. غالبًا ما كان الكوبري يُفتح للقوارب المصرية فقط «الفلوكة».

قال طورشتين بعد أن نفد صبر إنجريد: «ها نحن سننطلق مرة أخرى».

سرعان ما عبرت السيارة الكوبري لتمر بأشجار النخيل

المزروعة على ضفاف النيل، ثم اتجه طورشتين شمالًا، وأوقف السيارة أمام فيللا تتميز بشجرة التين المزروعة أمامها، والتي تضرب بجذورها في منتصف الحديقة. كان مكتوبًا على بوابة المدرسة: «كورمورين».

فتح طورشتين الباب لإنجريد: «لقد وصلنا».

قالت المديرة ومالكة المدرسة، وقد وقفت تحيي الطالبات: «لا بد أنك الطفلة السويدية».

كانت مورين سيدة قوية في منتصف العمر ذات عينين بنيتين داكنتين.

وقف طورشتين حائرًا بينما أخذت السيدة مورين إنجريد.

قالت السيدة مورين لطورشتين: «سأتولى الأمر من هنا». ثم استدارت لإنجريد وابتسمت لها ابتسامة تكشف عن أسنانها الصفراء المعوجة: «إذن فأنت إنجريد».

أجابت إنجريد بالفرنسية بفضل بعض الممارسة مع هيلدا: «نعم».

قدمت السيدة مورين إنجريد إلى مدرستها الآنسة ديزور، وهي امرأة فرنسية شقراء نحيلة. سرعان ما أُعجبت إنجريد بالآنسة ديزور.

قالت الآنسة ديزور وهي تساعد إنجريد للجلوس في الصف الأمامي في الفصل الدراسي الصغير: «ستتعلمين بسرعة. اجلسي هنا بالقرب مني».

أخيرًا أتت الفرصة لإنجريد لتلقي نظرة على أصدقائها في الفصل الدراسي. كان هناك اثنا عشر طالبًا وطالبة، وكانت إنجريد أصغرهم، بل وكانت الطفلة الشقراء الوحيدة. أخيرًا دق الجرس. التف الجميع حول إنجريد

التي سرعان ما أحيطت بالطلاب الذين تملكهم الفضول لمعرفة عمرها، ومن أي بلد قد أتت.

قالت ليلى: «أنا مصرية أسكن بالقرب من هنا. ماذا عنك؟»

ردت إنجريد: «أنا سويدية، أسكن على الجانب الآخر من الكوبري».

قالت ليلى للطلبة: «إنها من السويد».

قالت آمال، فتاة مصرية مسيحية: «السويد، أين هذا البلد؟»

قالت إنجريد، وهي تفكر في رحلات السفينة الطويلة كل صيف مع والديها: «لا أدري، إنها بعيدة جدًّا».

قال بالاسان، صبي أرمني، وهو يعتلي شجرة التين: «تعالي لنلعب».

ردت إنجريد: «سآتي».

كانت إنجريد فتاة رياضية حتى في هذه السن المبكرة، وكانت تعشق تسلق الأشجار. في البداية تزحلقت إنجريد بصندلها الأحمر المصنوع من الجلد إلا أنها سرعان ما

استعادت توازنها، وتسلقت الشجرة.

قال أدريان، وهو ولد فرنسي أشقر نحيل: «وأنا أيضًا».

وتبعهم وليد، وهو ولد سوري ممتلئ الجسم ذو وجه جميل، جبينه مُغطى بشعره الأسود.

حاول أصدقاء وليد غيظه: «لن تستطيع تسلق الشجرة».

دق الجرس ليجنب وليد عار فشل المحاولة.

قالت السيدة مورين: «فلتصطفوا هنا».

قامت السيدة مورين بتنظيم الأطفال في الطابور. وقفت إنجريد بجوار ليلى، وسعدت كثيرًا بصديقتها الجديدة.

قررت الآنسة ديزور معاقبة ديميتريس لحديثه في أثناء الدرس مع زميلته الإيطالية التي كان مغرمًا بها: «ديميتريس، فلتقف في هذا الركن. كارلا، أستطيع أن أراك

جيدًا».

سرعان ما توقفت الفتاة الإيطالية ذات العينين اللوزيتين عن الرسم في الحال، وجلست تستمع إلى الدرس بيقظة.

كان نظام التعليم في المدارس الفرنسية شديد الصرامة. كان الأطفال يقضون ساعات في عمل الواجب المدرسي بعد انتهاء اليوم الدراسي، وكان على إنجريد أن تذاكر

بالمنزل بعد الغداء، وتستمر حتى بعد راحة شاي الظهيرة.

قال طورشتين لإنجريد بمجرد وصولها: «كيف كان يومك الأول بالمدرسة؟»

ردت إنجريد: «لديَّ صديقة جديدة اسمها ليلى».

ابتسم طورشتين قائلًا: «سرعان ما ستتعرفين عليهم، يبدو أنهم صحبة مرحة بحق».

قالت إنجريد: «نعم، لقد استمتعت كثيرًا إلا أن الآنسة ديزور صارمة جدًّا، فلا تسمح لنا أن نتحدث على الإطلاق».

ذهبت إنجريد إلى المدرسة بالحافلة كل يوم، واستمر هذا لسنوات عديدة حتى استطاعت أن تقود دراجتها

عبر الكوبري، فكانت تسرع إذا ما رأت قاربًا شراعيًّا يقترب حتى تصل إلى الكوبري قبل أن يفتح، وفي يوم لا يُنسى، ذهبت إنجريد كالمعتاد إلى المدرسة.

قالت نان: «لا تنسي الساندويتش».

لم يكن بالمدرسة أي مطبخ، ولذلك كان الأطفال يحضرون طعامهم ليتناولوه في فترة راحة الغذاء. جلست إنجريد لتتناول غذاءها في الحديقة دون أدنى فكرة عما

يحدث فوقها.

صرخت إنجريد، وقد شعرت بشيء يصطدم برأسها: «آه».

بدأت الدماء تتدفق من الجرح ليتحول شعر إنجريد الأشقر إلى اللون القرمزي، بينما امتلأت عيناها بالدموع لتنهمر على وجنتيها مختلطة بدمائها.

قالت ليلى: «لا بد أنها حِدَّاية، فالكثير منها يحلق في سماء المدينة».

قالت السيدة مورين في محاولة لتهدئة إنجريد: «لا بد أنها أخطأت فظنت أن الشريط الأحمر بشعرك قطعة من اللحم. تعالي معي، وليتوجه الجميع إلى الألعاب

الرياضية».

أخذت السيدة مورين إنجريد من يدها، وتوجهت بها إلى المكتب، حيث سحبت صندوقًا صغيرًا عليه علامة الصليب الأحمر. أخذت المطهر لتنظف جرح إنجريد بينما

اصطف في الخارج بقية الطلبة والطالبات في انتظار المُدرسة الإنجليزية الممشوقة القامة التي كانت

تتظاهر بالصرامة على عكس قلبها الطيب خاصة مع الفتيات.

كانت الألعاب الرياضية تُمارس في الحديقة في الهواء الطل، ما كان يسعد الطلبة كثيرًا. لم تكن هناك صالة للألعاب الرياضية في المدرسة، ونادرًا ما كانت تمطر.

وضعت السيدة مورين الضمادة حول رأس إنجريد، بينما أطلت إنجريد من النافذة على الطلبة، وهم يمارسون الرياضة. تراجع الألم، وشعرت إنجريد بالسعادة

لاعتناء السيدة مورين بها.

قالت السيدة مورين : «فلتستريحي هنا حتى تأتي الحافلة».

لم تركب إنجريد دراجتها في ذلك اليوم. بمجرد قدوم الحافلة، كانت إنجريد قد تحسنت كثيرًا بالفعل إلا أنها تظاهرت بالألم بمجرد دخولها المنزل، وقد أفلح

الأمر.

صرخت نان عندما رأت إنجريد برأسها المربوط: «يا إلهي، ماذا حدث؟!»

أخبرتهم إنجريد بما حدث، وصورت الأمر لهم وكأن نسرًا قد هاجمها. حظيت إنجريد برعاية الكبار الكاملة، حتى الخدم أتوا ليروا ماذا حدث. أزاحت هيلدا

الضمادة، ونظفت الجرح كله.

بدأت إنجريد في البكاء مرة أخرى: «آه».

قالت هيلدا، وقد بدا على وجهها الانزعاج: «لقد التصق الشعر بالجرح».

أدركت هيلدا على الفور أهمية تنظيف الجروح

المفتوحة، خاصة في الطقس الحار. تطلب الأمر أسابيع عديدة حتى تُشفى إنجريد. تيقنت إنجريد أنه يمكنها

الحصول على ميزات أكثر من التي تُمنح لها في ظل هذا الاهتمام البالغ من قبل الجميع خاصةً والدها الذي أطلق عليها «الأميرة المجروحة«. بمرور الوقت، كبرت

إنجريد، وعرفت كيف تحصل على كل ما تريد من والدها. كان الأمر أصعب بعض الشيء مع هيلدا، وأسهل مع نان، أما الخدم فكانوا يلبون كل ما تطلبه منهم.

كان وقت إنجريد مقسمًا بين المدرسة، ودراستها، والحيوانات الأليفة التي تربيها بالمنزل، وبعض الرحلات القصيرة الموسمية مع والديها إلى الصحراء، أو إلى الريف

في منازل صديقاتها، هذا إلى جانب إجازات الصيف في السويد التي كانت إنجريد تجدها مملة، حيث تكون بعيدة عن صديقاتها المصريات.

اعتادت إنجريد الذهاب إلى آنا برلين لممارسة الرياضة. كانت آنا برلين أكثر صرامة من مدرسة الرياضة الإنجليزية بالمدرسة. أرسى بير هينريك لينج قواعد الألعاب

الرياضية السويدية (1776 - 1839) إلا أن آنا برلين هي التي ابتكرت المصطلح، وقامت بتحرير كتاب حول هذا الموضوع بالعربية. وافقت الحكومة المصرية على

الكتاب، وقامت آنا بتسليم الملك فاروق نسخة منه.

قالت هيلدا، وقد ذهبت لإحضار إنجريد من صالة الألعاب: «وجهك أحمر تمامًا».

ردت إنجريد: «لقد جعلتنا نتسلق الحبال بالإضافة إلى

لعب الكرة».

قالت هيلدا: «لقد أحضرت لك بعض الحلوى بالسمسم».

كانت هذه هي جائزة إنجريد لحضور حصص الألعاب الرياضية التي كانت تُعتبر ضرورية لتعليم أي طفل.

أضافت هيلدا: «الرياضة مهمة جدًّا لصحتك».

كانت إنجريد ترى أن لعبها مع صديقاتها، ومع الحيوانات الأليفة التي تربيها أفضل كثيرًا من حضور حصص الألعاب الرياضية مع مدربة سويدية صارمة.

قطعًا، لم تحظَ المدربة السويدية بإعجاب إنجريد، ولم تستطع إنجريد أن تتفهم أسباب إصرار والديها على حضور هذه الحصص، ولكنها كانت تحب جائزة

الحلوى التي كانت تنتظرها عقب فصول الألعاب الرياضية.

أحيانًا كانت إنجريد تذهب للسباحة مع والديها في حمام سباحة النادي الإنجليزي الأنيق. اعتاد طورشتين لعب الجولف هناك في أوقات فراغه بينما كانت هيلدا

تفضل التجول في النادي، أو احتساء الشاي مع أصدقائها في الظهيرة. أحيانًا أيضًا كانت نان تأخذ إنجريد لحديقة الأسماك التي تميزت بكثرة الكهوف والمغارات.

قالت إنجريد : «كم أفضل حديقة الأسماك. قطعًا إطعام الأسماك أفضل كثيرًا من النادي الإنجليزي».

كانت إنجريد طالبة مطيعة، وكثيرًا ما حصلت على الشريط الأخضر في المدرسة كثاني أفضل طالبة في فصلها، وأحيانًا كانت تحصل على الشريط الأحمر كأفضل

طالبة على الإطلاق . كانت تشبك الشريط بدبوس على

البلوزة حتى يرى الجميع تفوقها، وكانت تقضي ساعات طويلة في عمل الواجب المدرسي.

قالت إنجريد وهي تفكر بصمت: «لقد حصلت على شريط التميز بعد مجهود شاق، حقًّا أستحقه بجدارة».

مرت الأعوام، وأصبحت إنجريد أكثر نحافة، بقامة ممشوقة. قالت إنجريد بفخر: «أنا أطول من كل صديقاتي الآن. أود أن أقص ضفائري».

قال طورشتين الذي كان صعب المراس: «محال».

قالت إنجريد التي كانت تعتقد أن أفكار والدها قديمة جدًّا: «لكنني لا أريد أن أبدو كطفلة، فأنا الآن في الثالثة عشرة من عمري».

قالت هيلدا وهي تقيس طول هيلدا كما تفعل كل عام: «يا إلهي، كم مر الوقت سريعًا».

فكر طورشتين أن يبعث إنجريد إلى مدرسة داخلية في السويد، حيث أدرك أنها كانت مدللة كثيرًا، وصعبة المراس.

قالت إنجريد: «أود أن أذهب مع نان لمشاهدة فيلم في السينما».

رد طورشتين: «أي فيلم تريدين مشاهدته؟»

قالت إنجريد: «ذهب مع الريح».

قال طورشتين على أمل أن يغير حديث المناقشة: «آسف، لا يمكنك مشاهدة هذا الفيلم فأنت ما زلت صغيرة، وهذا الفيلم للكبار فقط. سنذهب في رحلة خلوية

لزيارة الأهرام».

قالت إنجريد، وقد شعرت بالإحباط: «هذه الرحلة للأهرام ليست مثيرة بالمرة».

لم تجرؤ إنجريد على التصميم على ما تريد، لكنها تساءلت في قرارة نفسها: «ما السر الذي يحويه هذا الفيلم حتى لا يُسمح لي بمشاهدته؟! سأسأل والدتي».

ابتسمت هيلدا قائلة: «ستدركين عندما تصبحين أكبر سنًّا».

كانت تلك الإجابة مبهمة لإنجريد.

كان الطريق إلى الهرم وعرًا ورمليًّا.

قال طورشتين: «يصعب حقًّا تخيل هذا الطريق مفروشًا بالسجاد».

تردد صدى هيلدا، ونان، وإنجريد في السيارة: «ماذا؟»

أخبرهم طورشتين كيف أنه تم افتتاح قناة السويس في عام 1899 في احتفال مهيب، حيث تم تغطية الطريق بالسجاد الشرقي لإثارة إعجاب الإمبراطورة الفرنسية

أوجيني وأتباعها بعد الافتتاح مباشرة في أثناء زيارتها للقاهرة. لم يكن هناك سجاد كافٍ لتغطية الطريق بأكمله فكان المصريون يهرولون خلف العربة لأخذ السجاد

ليضعوه مرةً أخرى أمام الموكب.

قالت هيلدا: «أمر لا يُصدق».

صمت الجميع، وخاصةً إنجريد التي كانت تتخيل في أحلام اليقظة جلال وبهاء مثل هذا الاحتفال.

قالت هيلدا لتقتحم الصمت الذي خيم على الجميع:

«تخيلوا هذه الحقول، وقد غمرتها المياه في فصل الصيف بأكمله».

قال طورشتين: «نعم، فلنأمل ألا يرتفع منسوب النيل هذه المرة كما حدث في الصيف الماضي».

صاحت إنجريد من مقعدها الخلفي، وقد أفاقت من أحلام اليقظة لتنتقل إلى العالم المرئي الواقعي.

رغم رؤية إنجريد الأهرام أكثر من مرة فهي دائمًا ما تشعر أنها المرة الأولى، فيدب فيها الحماس والسعادة وهي ترى الأهرام منتصبة شامخة في الصحراء كاللآلئ

التي تعكس أشعة الشمس.

قال طورشتين: «لقد أوشكنا على الوصول».

وصل الجميع، وافترشوا الأرض أمام الأهرام، حيث وضعوا بطانية. السيدات جلسن بثيابهن وقبعاتهن الضخمة، أما طورشتين فارتدى الطاقية، والسروال

القصير المخطط البني اللون والمصنوع من الصوف. تجول طورشتين قليلًا، واستمتع الجميع بالوقت بذهن صافٍ خالٍ من الهموم والمشكلات غير مدركين ما يحدث

في بقية أنحاء العالم.

حذرت هيلدا إنجريد : «احترسي».

كانت إنجريد تتسلق هرم خوفو أكبر وأقدم هرم، حيث يعود إنشاؤه إلى عام 2560 قبل الميلاد. كان على إنجريد أن تسحب جسدها لتتسلق صخور الهرم المرتفعة

دون أن تنزلق قدماها.

كادت هيلدا تسقط مغشيًّا عليها عندما رأت إنجريد

كالعصفور الهزيل تعتلي قمة هرم خوفو.

نادت عليها هيلدا: «انزلي».

كانت إنجريد حريصة في نزولها، وهي تنتقل من صخرة إلى صخرة، وشعرت أنها تنزل أسفل درج عملاق.

قالت إنجريد ما إن لمست قدماها الأرض: «أشعر بالجوع».

ردت نان: «الطعام جاهز. اجلسي هنا».

أعد محمد سندوتشات الجبن، وفخذ الخنزير المملحة.

قالت هيلدا لإنجريد: «تناولي بعض البلح الطازج أيضًا».

قال طورشتين: «يا له من مكان رائع!».

عشق طورشتين الأهرام، ودائمًا ما كان يذهب إليها سواء بمفرده أو مع العائلة، واعتاد ترديد جملته الشهيرة كلما ذهب إلى هناك: «إنه مكان ساحر تتجلى فيه الأفكار الصامتة».

بعد الغذاء، أرادت إنجريد ركوب الجمل، قال طورشتين: «لا بأس، فلتذهبي الآن».

قفزت إنجريد أعلى الجمل، وتشبثت جيدًا حتى لا تقع.

قال صاحب الجمل لإنجريد في محاولة لتهدئة سرعتها، وهي تمتطي «سفينة الصحراء«: «شوية شوية».

قال طورشتين: «مجرد التفكير في آلاف السنين التي استُخدم فيها الجمل كسفينة للصحراء يصيبني بالدهشة».

لم تعره هيلدا انتباهًا، فلقد كانت مشغولة بالتنقيب تحت الرمال ربما تجد مزيدًا من الخرز، فلقد امتلكت هيلدا مجموعة رائعة.

قالت هيلدا: «انظر، إنها خرزة تشبه أحد الحيوانات، إنها أقرب لشكل الثعالب التي تشبه الذئاب».

علق طورشتين ضاحكًا: «ربما يجب أن تسلميها لأنوبيس، حامي المقابر».

أغمضت هيلدا عينيها من جراء أشعة الشمس القوية التي لم تستطع قبعتها الضخمة أن تحجبها، ونظرت إلى الأهرام الثلاثة، وقالت لنفسها: «إنها خالدة مثل

رع، إله الشمس».

قال طورشتين: «أبو الهول يرقبك».

ردت هيلدا: «نحن أصدقاء.. أنا وسخمت».

قالت إنجريد وهي تنزل من فوق الجمل لتسرع إلى الأهرام مرة أخرى: «ها أنا قد عدت».

تنهدت نان وقالت: «على الأقل هذا أفضل من التنقيب عن الخرز تحت الرمال في ظل وجود هذا الكم الهائل من العقارب!«

تبع طورشتين نان قائلًا: «وأفضل من الذهاب لمشاهدة الأفلام في السينما».

بعد أن أنهت إنجريد تسلق الهرم مرة أخرى، أعلن وقت الظهيرة قدومه باشتداد حرارة أشعة الشمس الملتهبة.

قال طورشتين: «فلنذهب إلى مينا هاوس لاحتساء الشاي».

انطلق الجميع إلى ميناهاوس، ذلك القصر القريب من الأهرام، والذي تم بناؤه تكريمًا للإمبراطورة الفرنسية أوجيني.

قالت هيلدا: «رائحة الزهور العطِرة تفوح».

أضافت نان: «ورائحة الياسمين أيضًا».

قال طورشتين للسيدات اللاتي جلسن في استرخاء، وخاصةً إنجريد التي أنهت لتوها جولتها الثانية في تسلق هرم خوفو: «فلنجلس هنا، ونرقب لحظة غروب الشمس أعلى الأهرام».

قالت هيلدا: «لقد تأثرت العائلة المالكة السويدية بهذا البلد الاستثنائي الرائع: مصر».

قال طورشتين وهو ينظر بطرف عينه التي لمعت بومضة براقة: «فلنقل إنها كانت بمثابة الإلهام بالنسبة لهم».

احتسى طورشتين وهيلدا الشاي بينما تجاذبا أطراف الحديث حول فضيحة الملكة فيكتوريا وزوجها جوستاف الخامس التي وقعت عند سفح الأهرام.

سألت إنجريد بفضول: «ماذا حدث؟»

قال طورشتين: «لا شيء، اذهبي لتغسلي يديك، نان، فلتأخذيها إلى الحمام من فضلك».

قالت إنجريد وقد أدركت أنهما يخفيان شيئًا ما: «أليس مقدرًا لي أن أستمع إلى شيء مرح؟!»

نشأت إنجريد في معزل تام عن كل ما يخص الجنس الآخر، ولم يكن لديها أخ أو ابن عم للتحدث إليه فانحصر عالمها في والديها والمربية نان، وكانت دائمًا تدرك أن والديها يتحدثان عن تلك الأسرار التي لا تعرف عنها شيئًا بمجرد أن تبتعد.

قال طورشتين لهيلدا: «أين توقفنا في حديثنا؟»

قالت هيلدا ضاحكة: «كنا نتحدث عن قصة الحب

الملكية».

عاش جوستاف وفيكتوريا بعض الوقت في مصر في عام 1890 قبل أن يعتليا العرش. عانت فيكتوريا من النزلة الشعبية، ونوبات الكحة العنيفة التي كانت تزيد في

شتاء السويد القارس، ولذلك مكثت لفترة قصيرة في مصر، حيث المناخ المعتدل. استقر الاثنان، فيكتوريا وجوستاف، في ميناهاوس، حيث استمتعا بالمناخ الجاف

المعتدل، ورحلات الصيد، والتنزه، وقد دونت فيكتوريا كل هذا في كتابها الذي كُتب باللغة الألمانية بعنوان . « ڤ وم نيل»، وقد دعمت فيكتوريا الكتاب بصور

خاصة بها. كان يتم نصب خيمة لفيكتوريا في رحلات الصحراء والتي اعتاد جوستاف مصاحبتها فيها. نشأت بينهما علاقة حميمية وانتهى الأمر بفضيحة.

همست هيلدا لطورشتين: «ربما وقع الأمر في تلك الخيمة التي كانت تُنصب لفيكتوريا».

حذرها طورشتين: «ش، ش، أخفضي صوتك».

سمعت إنجريد طورشتين وهي تجلس إلى المنضدة. رأت إنجريد هيلدا وطورشتين يتبادلان النظرات خلسة، ودبت الغيرة في قلبها عندما شعرت بمدى قربهما وما

يتشاركان فيه من أسرار. وضعت الكرسي الخاص بها بينهما وتلاشت كل المتعة التي شعرت بها في تلك الرحلة.

رجع الجميع إلى المدينة متعبين، وفي حاجة إلى النوم من أثر الهواء الطلق المنعش. اكتست وجناتهم باللون الأحمر رغم القبعات التي كانت تحجب عنهم أشعة

الشمس. شعر طورشتين وهيلدا بالرغبة في أن يكونا معًا، فقد كانت تلك اللحظات الحميمية لهما معًا قصيرة.

سعدت إنجريد بحياتها، ولم تكن تدرك شيئًا عن الاضطراب الذي عم أوربا، فكل ما كان يشغلها هو واجبها المدرسي، والامتحانات المقبلة، لكنها سرعان ما

استشعرت موجة معاداة السامية. كان طورشتين متابع جيد لما يجري على الساحة الأوربية، وكان يرى أن موقف اليهود في أوربا يزداد سوءًا. لم يستطع طورشتين

أن يفهم لماذا يُحمَّل اليهود مسئولية كل ما يحدث من أخطاء، ولماذا يُعامل اليهود ككبش فداء.

قالت هيلدا: «ربما يرجع ذلك إلى عدم الاستقرار الاقتصادي».

رد طورشتين: «هذا ال.. هتلر مجنون بحق. إلقاء اللوم على اليهود في كل صغيرة وكبيرة لن يجدي».

أتت إنجريد مسرعة دون أن تعبأ بإلقاء تحية السلام عليهما. وضعت دراجتها على الحشيش الأخضر، وقلبها يخفق من قيادة الدراجة المسرعة وقالت: «لقد أطلق

عليَّ أحدهم كلمة يهودية وبصق في وجهي، وأنا في طريق عودتي من المدرسة بعد الكوبري مباشرة».

ربت طورشتين كتف إنجريد التي شحب وجهها وقال: «لا تعيري انتباهًا لتلك المواقف الغبية. نحن لدينا العديد من الأصدقاء اليهود، فلتعتبري هذه الكلمة

مجاملة».

قالت هيلدا لطورشتين: «أعتقد أن مصر في أمان بعيدًا

عمَّا يحدث في أوربا، أليس كذلك؟»

قال طورشتين وقد هاجمته آلام القرحة: «أعتقد هذا عزيزتي، ولكن ربما تجر بريطانيا مصر إلى الحرب إذا اندلعت».

في الأول من شهر سبتمبر عام 1939 ، جلس طورشتين يستمع إلى المذياع: «لقد احتلت ألمانيا بولندا، وأعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا. لقد اندلعت

الحرب».

ارتجف طورشتين، وهو يفكر في غباء الناس الذي يقودهم إلى الحرب. ما الذي يجنيه الجميع من وراء ذلك؟! اعتاد طورشتين، بطبيعة عمله كقاضٍ، الغوص في

النفس البشرية، وخاصةً الرجال، وكان يدرك تمامًا كيف تقود الآراء، والأحكام المشوشة أصحابها إلى ارتكاب جرائم يدفع ثمنها أبرياء لا ذنب لهم.

جاءت إنجريد بصوتها المرح من المدرسة لتخرج طورشتين من حالته المزاجية السيئة: «ها أنا قد أتيت. لا تبدو سعيدًا يا بابا».

قال طورشتين بدون استرسال: «أخشى أن هناك أوقاتًا عصيبة في انتظارنا».

أخذ طورشتين يفكر في صمت: «لا بد من مناقشة أمور الحرب مع إنجريد، فهي فتاة راشدة الآن».

كان على إنجريد الانعطاف بدراجتها أكثر من مرة بين الخيام الخضراء في طريق عودتها للمنزل.

سألت إنجريد طورشتين: «هل رأيت الخيام؟»

رد طورشتين: «إنها خيام الضباط الإنجليز».

على الرغم من أن مصر أعلنت حيادها في أثناء الحرب إلا أنها وقعت معاهدة عام 1936 ، والتي تعطي صلاحيات للقوات العسكرية البريطانية في حالة إذا ما

شعرت بريطانيا أن قناة السويس مهددة. انتصبت الخيام حول المنطقة التي يقطنها آل طورشتين لتحولها إلى معسكر حربي.

قالت إنجريد: «إنه من المضحك حقًّا رؤية هذا الكم الهائل من الرجال بزيهم العسكري».

قالت نان: «لا تذهبي للحديث معهم».

قبل بدء إطلاق القنابل قامت هيلدا ونان بتعليق الستائر الزرقاء على النوافذ. تم فرض حظر التجول، ولم يكن مسموحًا بتسلل الضوء من النوافذ.

«طفِّي النور»، كانت تلك هي العبارة التي صاح بها الرجل، نفس الرجل الذي كان يضيء المصابيح في الشوارع هو نفس الرجل الذي يأمر الآن بإطفاء النور عندما

يجد الضوء طريقه خلسة عبر الستائر لينفذ إلى الشارع.

قالت هيلدا لأحمد: «أسمع طرقًا قويًّا على الباب، فلتذهب لرؤية مَن بالباب».

سمعت هيلدا لكنة الرجل الإنجليزي، وهمَّت لترى ما الأمر.

قال الرجل الإنجليزي: «يومك سعيد. أنا كولونيل راي نارت».

سألت هيلدا: «ما الأمر؟»

قال كولونيل راي نارت: «لقد جئت لأخبرك أنه يتوجب عليك حفر خندق في حديقة منزلك للاختباء به في حالة

وقوع القنابل».

قالت هيلدا، وقد صُعقت مما سمعته: «يا إلهي!»

رد كولونيل راي نارت: «لا ندري ما الذي سيفعله الإيطاليون. عندما تسمعين صفارة الإنذار، اذهبي للاختباء في الخندق».

أثبتت تهديدات الحرب صحتها، ففي عام 1940 أمر الديكتاتور الإيطالي موسوليني القوات الإيطالية المتواجدة في ليبيا بضرب الإنجليز في مصر.

قالت إنجريد: «لم تأتِ كارلا إلى المدرسة اليوم، وكذلك ديوليو».

قالت هيلدا: «صديقتي چوليا بائسة. لقد تم القبض على زوجها. لا أدري كيف أساعدها».

علق طورشتين: «على الإيطاليين المتواجدين بمصر الرحيل إن استطاعوا، فسوف يتم احتجازهم خصوصًا في ظل إعلان الحرب على قوات التحالف».

قالت هيلدا: «ولكنها صديقتي، وما فعله هذا الديكتاتور المجنون موسوليني ليس خطأها بالتأكيد».

قال طورشتين: «أعلم ولكنها الحرب. مَن قال إنهاعادلة؟!»

بدأت إنجريد في البكاء، وهي تفكر في أصدقائها الإيطاليين.

كانت هناك جالية إيطالية كبيرة في القاهرة قبل الحرب. بعد إعلان الحرب في يونيوعام 1940 تم القبض تقريبًا على كل الرجال الإيطاليين، كما تم الحجز على

ممتلكات الإيطاليين لتحيا النساء الإيطاليات في فقر. كانت العائلات اليهودية الكبيرة في مصر من أصحاب

المال. إحدى هذه العائلات آل كاسترو كانت تربطها صداقة وطيدة بآل طورشتين سالين. في أثناء الحرب، تزامنًا مع اقتراب الألمان، فتح طورشتين جرا چ ه الخاص لآل كاسترو لوضع متعلقاتهم الخاصة به.

صادقت العديد من العائلات اليهودية العائلة المالكة. هل كان هذا سببًا في الخصومة والعداء بينهم وبين مجموعة من المصريين؟! فكر طورشتين مليًّا في الأمر. كان

لدى الحكومة المصرية بعض المشاعر الموالية للألمان. ربما كان هذا من باب الاعتراض على الاحتلال البريطاني.

كان هناك شيء ما كامنًا، متربصًا استشعره طورشتين رغم صخب الحياة المترفة الرغدة التي دفعت الكثيرين إلى عدم التفكير فيما وراء أسوار تلك الحياة. بدأت تداعيات الحرب تظهر جليًّا حتى في القاهرة.

أعطت هيلدا تعليماتها للجنايني في صباح اليوم التالي: «فلتحفر هنا وراء تلك الزهور دون أن تمسها بسوء».

بعد عدة ساعات بدأ العرق يتصبب منه، وكان قد حفر مترًا واحدًا.

قال الجنايني: «الأرض صلبة جدًّا سيدتي».

قالت هيلدا: «فلتأتِ بأحد ليساعدك فما حفرته لا يكفينا كلنا للاختباء».

بعد أسبوع تم حفر ثلاثة أمتار، وأتت عربة يجرها حمار محملة بأكياس الرمل.

قال الرجل الذي يجر العربة بالحمار: «إنها لك سيدتي».

سألت هيلدا: «ما هذا، وما فائدة هذه الأكياس المعبأة بالرمل؟!»

قال الرجل، وهو يضع أكياس الرمل في الحديقة: «إنها مُرسلة لك من الضابط».

سرعان ما مر الكولونيل الإنجليزي ليخبرها أن تلك الأكياس من الرمل لحمايتها، وأمر الجنايني بوضع أكياس الرمل حول الخندق.

لم تمر سوى بضعة أيام حتى سمع الجميع دوي صفارة الإنذار.

أعطى طورشتين أوامره لجميع مَن بالمنزل: «فلنتوجه جميعًا إلى الخندق».

في البداية بدا الأمر لإنجريد مسليًا، لكنها سرعان ما غيرت رأيها عندما سمعت ضجيج الطائرات التي تحلق في السماء. بدأت إنجريد في الارتجاف، والتصقت بنان،

بينما كانت هيلدا تصلح من ملابسها وجونلتها الطويلة.

قالت هيلدا: «إنه حقًّا وضع غير مريح».

سألت إنجريد: «ماذا عن سلاحفي؟»

رد طورشتين: «سلاحفك بأمان في المكان المخصص الذي بُني لها».

صرخت نان: «آه».

قال طورشتين، وقد التصقت قدماه بيد نان: «آسف جدًّا».

أسرع الجميع إلى داخل المنزل بمجرد أن انطلقت صفارة الأمان. لم يستخدموا الخندق كثيرًا بعدها، حيث رفضت هيلدا استخدامه. توصل طورشتين إلى نتيجة ما

بعد تفكير طويل ألا وهي أن المساعدة التي تقدمها الخنادق مساعدة نفسية لا أكثر، وبناء على ذلك، رضخ طورشتين لمطلب هيلدا على أمل ألا يتم ضرب القاهرة بالقنابل.

تساءلت هيلدا وهي قلقة: «ماذا سنفعل إذا احتلوا قناة السويس؟ سيتوجهون إلى القاهرة حينها، أليس كذلك؟»

أجاب طورشتين وهوحائر: «أخشى ذلك. هل يجب الرجوع إلى السويد؟ ولكن معظم أوربا تعاني الآن من ويلات الحرب. هل نمكث في القاهرة على أمل أن يحدث الأفضل؟»

قالت هيلدا: «على الأقل السويد دولة محايدة في هذه الحرب».

رد طورشتين: «نعم، ولكن كم سيستمر هذا الحياد؟»

الفصل التاسع

خنادق في الحديقة

استيقظ آل طورشتين سالين على صوت صفارة الإنذار كما كان معتادًا في الشهور السابقة، إلا أن هذه المرة كان الأمر خطيرًا جدًّا.

قال طورشتين بعد أن سمع شائعات حول اقتراب قوات المحور من المدينة: «إنهم في طريقهم إلى القاهرة».

كانت قوات المحور في طريقها إلى الإسكندرية، حيث واجهت القوات البريطانية صعوبة في منعها من التقدم، تلك اللحظة التي كان يخشاها طورشتين دائمًا.

قالت هيلدا: «يا إلهي! كان يجب أن نعود إلى السويد».

رد طورشتين: «الوقت متأخر جدًّا على مثل هذا الحديث».

وصلت نان كعادتها في الأوقات الصعبة. ركعت على الأرض بجانب سريرها، وأمسكت بيديها، وبدأت في تلاوة صلواتها.

ارتدت هيلدا ثيابها بسرعة بينما دوى صوت القنابل خارج وسط المدينة. قامت إنجريد مفزوعة من نومها، وأخبرها الجميع أن اللحظة قد حانت للهروب. قام

محمد بإعداد بعض الساندوتشات للطوارئ، ثم انتظر الجميع، ولم يحدث شيء.

استمعوا إلى المذياع للوقوف على حقيقة الأمر. بعد ساعات من بث الموسيقى الكلاسيكية، وتوقف صفارات الإنذار، استقر الجميع على أن العدوان لم يكن وشيكًا

كما بدا لهم. لقد كان الأمر على وشك الحدوث بالفعل حتى استطاعت قوات التحالف ردع قوات المحور ومنعها من التقدم إلى القاهرة.

قال طورشتين: «لا أستطيع البقاء بالمنزل، سأذهب إلى المكتب».

بدأت إنجريد في أداء واجبها المدرسي بينما ذهبت نان إلى المطبخ لتوزع حصص السكر اليومية على الخدم. لقد نجت مصر نسبيًّا في أثناء الحرب العالمية الثانية من

نقص المنتجات، حيث توفر كل شيء في الأسواق على مدار سنوات الحرب.

توسل أحمد إلى نان حتى توزع السكر يوميًّا، وإلا فسينفد مرة واحدة، وأصبحت هذه إحدى مهام نان اليومية.

قالت إنجريد وقد أخذت دراجتها: «حسنًا، سأتوجه إلى المدرسة».

عندما وصلت إنجريد إلى المدرسة لم تجد السيدة مورين واقفة عند بوابة المدرسة لتحيي الطلبة كالمعتاد. صُعقت إنجريد، ودخلت المدرسة لتجد الجميع في حيرة

مثلها.

قالت ليلى: «هل تعتقدين أنها مريضة؟»

ردت إنجريد: «لا، لم تمرض السيدة مورين من قبل أبدًا. هذا مستحيل».

كان عام 1940 على وشك الانتهاء، ففي هذا الوقت من العام، كان الطلاب يستعدون للإجازة إلا أن هذا الفصل الدراسي كان مختلفًا.

قالت إنجريد: «لقد تغير الكثير منذ بدأت هذه الحرب البشعة».

وافقتها ليلى: «نعم، لقد رحل جميع أصدقائنا الإيطاليين».

أضافت إنجريد: «أتمنى ألا تغلق مدرستنا أو تصبح مدرسة ألمانية. لك أن تتخيلي هذا».

قالت ليلى: «سيتعين علينا تعلم اللغة الألمانية حينها».

ضحكت الاثنتان وهما غير مدركتين لتبعات ما يحدث.

أخيرًا ظهرت السيدة مورين، اكتست عيناها باللون الأحمر بينما بدا شعرها الذي كان دائمًا مصففًا بعناية غير مرتب.

قالت السيدة مورين وهي تنتحب: «لقد انتهى الأمر

لفرنسا. أريدكم أن تقفوا جميعًا تحت شجرة التين، وتستمعوا إلى ما سأقول».

حاول الأطفال فهم ما تقوله السيدة مورين.

بعد الهرج والمرج، تم تنظيم الطلاب بمساعدة المدرسين. جلس بعض الطلبة تحت الشجرة، بينما تشبث البعض الآخر بالفروع، الأمر الذي كان ممنوعًا إلا أنه لم

يتم توبيخ أحد من الطلبة في مثل هذا اليوم الاستثنائي.

شرحت السيدة مورين أن هناك حكومة جديدة تشكلت في فرنسا برئاسة بطل الحرب الأسبق مارشال فيليب بيتان. لم يسمع أحد من الطلبة بهذا الاسم من قبل.

طلبت الحكومة الفرنسية الجديدة من الألمان هدنة حربية لوقف القتال بعد أن احتل الألمان أكثر من ثلثي فرنسا، وتم حل الجيش الفرنسي.

قالت السيدة مورين بصوت منخفض: «هذا يعني نهاية الحرية في فرنسا، فلتتذكروا جيدًا هذا التاريخ، يوم 22 يونيو، يوم التوقيع على الهدنة الحربية».

نظر الأطفال إلى بعضهم البعض في يأس، وسأل أحدهم: «هل هذا يعني إغلاق المدرسة؟»

ابتسمت السيدة مورين بحزن وقالت: «لا، لا داعي للقلق، ستبدأ الدراسة بالمدرسة كالعادة بعد انتهاء إجازة الصيف».

تنهد الطلبة بارتياح. انتشر الأطفال للعب بعد أن أنهت السيدة مورين خطابها الطويل. نسي الأطفال لوهلة حالة الهرج والمرج التي عمَّت حياتهم بسبب الحرب.

كان استسلام الفرنسيين، وتوقيعهم على الهدنة بمثابة صدمة لغالبية المصريين.

قال طورشتين لهيلدا بعد رجوعه إلى المنزل: «كان أصدقائي الفرنسيون في حالة يُرثى لها بعد الاستسلام».

كان العديد من المترافعين والمحامين والقضاة في المحاكم المختلطة فرنسيين، ومعظم الفرنسيين المقيمين في مصر حلفاء لجنرال ديجول.

استقبل مايلز لامبسون جنرال چورچ كاترو، وهو أول جنرال يساند الجنرال ديجول وأصبحا صديقين، ولقد أتى مع زوجته إلى القاهرة في

عام 1940 .

قال طورشتين وقد تجسد الأمل أمام عينيه مرة أخرى: «لقد استمعت إلى المذياع، وعرفت أخبار جورس المذهلة».

كان چورچ جورس من أوائل الرجال الفرنسيين الذين أعلنوا مساندتهم لجنرال ديجول من أجل تحرير فرنسا، وكان يسجل بانتظام البرامج التي تم بثها من خلال

المذياع ليحاول من خلالها إقناع القوات البحرية الفرنسية للانضمام لتحرير فرنسا.

استمع طورشتين إلى كلمات شارل ديجول عبر مذياعه في فيلا الأسعف، قال المذيع: «من هنا، من لندن أعلن شارل ديجول تأسيس المنظمة الفرنسية للمقاومة: فرنسا الحرة، وجيشها الحر، والذي أُطلق عليه اسم: القوات الفرنسية الحرة».

أُعجب طورشتين كثيرًا بشجاعة شارل ديجول، وعزمه

على مواجهة الألمان.

قالت هيلدا لطورشتين: «سأذهب لأرى كيف حال فرانسواز».

قبَّلت هيلدا طورشتين على جبينه، وارتدت قبعتها، وغادرت المنزل.

اصطدمت هيلدا بضابط إنجليزي: «آسف سيدتي».

كان هناك العديد من الجنود من بريطانيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، وجنوب إفريقيا، كما كانت توجد ثكنة عسكرية خارج فيلا الأسعف. لم يكن مسموحًا للجنود بترك معسكراتهم، إلا أنهم لم يستطيعوا منع أنفسهم من الخروج لدقائق لاختلاس النظر خارج حدود معسكراتهم الضيقة.

شعرت هيلدا بالأسى لهؤلاء الجنود الذين كانوا يكبرون إنجريد ببضع سنوات فقط. أحيانًا كانت هيلدا تتساءل في قرارة نفسها عما كان سيصير إذا ما تزوجت طورشتين مبكرًا، وأنجبت أكثر من طفل. دائمًا ما كانت تتوق هيلدا لأن يكون لديها ثلاثة أطفال، لكنها الآن تشعر بارتياح لأن لديها ابنة واحدة فقط.

قال الجندي لهيلدا، وهو يرمقها بطرف عينه الزرقاء اللون: «هل تحتاجين إلى مساعدة؟ هل تريدين عربة لتقلك؟»

ردت هيلدا : «نعم، من فضلك».

مرت هيلدا بقوات بريطانية متفرقة. كان هناك خمسون ألف جندي منتشرين على شاطئ النيل. عجت شوارع القاهرة بالجنود الإنجليز أو بالأحرى الجنود الذين يتحدثون الإنجليزية وإن كانوا من أصول مختلفة. تعلم

أصحاب المحلات التجارية، والدكاكين المصريين لغة إنجليزية بدائية تساعدهم على التواصل مع الجنود.

قالت هيلدا وقد استمعت بالصدفة إلى صاحب أحد المحلات يتحدث بالإنجليزية مع ضابط بريطاني: «رغم أميتهم إلا أنهم بارعون حقًّا في تعلم اللغة».

أخذت هيلدا العربة التي يجرها الحصان لتسير بها عبر الشوارع المطلة على ضفاف النيل حتى وصلت إلى وسط المدينة، حيث توقفت العربة أمام أحد المباني.

قالت هيلدا للسائق: «فلتنتظرني هنا، لن أتأخر».

توجهت هيلدا للمبنى، وفتحت الباب الحديدي بعناء، ثم توجهت إلى المصعد مارة بردهة المبنى المرمري، وطلبت من عامل المصعد أن يقلها للطابق الثالث.

قال الخادم بعد أن تعرف على صديقة صاحبة المنزل السويدية: «سعيدة. سأبلغ السيدة فرانسواز. هل أحضر لك الشاي أم القهوة؟»

قالت هيلدا: «شاي من فضلك».

قبَّلت فرانسواز هيلدا: «كم جميل أن تأتي لزيارتي في مثل هذه الأوقات العصيبة!»

قالت هيلدا: «أردت أن أطمئن على أحوالك».

تحدث الاثنان عن الحرب، وتداعياتها، وأجمعا على أن فرصة الحلفاء قوية بلا شك.

قالت فرانسواز: «أنا قلقة بحق على چاك، فلم أسمع عنه شيئًا منذ بضعة أسابيع».

سألت هيلدا: «أين هوالآن؟»

ردت فرانسواز: «في الجزائر على حسب آخر ما توصلت

إليه من أخبار. ننجب الأولاد، ونغمرهم بحبنا وعنايتنا؛ لنفقدهم في نهاية المطاف في حرب غبية».

لم تتمالك فرانسواز نفسها، وانهمرت دموعها.

حاولت هيلدا أن تهدئ من روع فرانسواز، لكن حتى هيلدا نفسها كانت قلقة على الرغم من أنه ليس لديها ابن لتخسره في معارك الحرب. لا أحد يعلم إذا كان

الألمان سيفلحون في دخول مصر، وإذا نجحوا، ماذا سيحدث بعدها. برغم حيادية السويد في هذه الحرب، تساءلت هيلدا في أعماقها: «إلى متى ستحتفظ السويد

بحيادها؟!»

قالت هيلدا لفرانسواز: «سآتي مرة أخرى للاطمئنان عليك».

في طريق عودتها للمنزل مرت هيلدا بمبنى المحاكم المختلطة، وفاجأت طورشتين الذي كان مستغرقًا في حواره مع صديقه اليهودي دانيال كاسترو.

سأل دانيال: «ماذا سيحدث لليهود إذا احتل الألمان مصر؟»

رد طورشتين: «الجالية اليهودية كبيرة، ولا بد أن المصريين سيدافعون عنهم في حالة دخول الألمان.. لا يوجد شيء يدعو للقلق».

حاول طورشتين طمأنة صديقه دانيال إلا أنه هو نفسه لم يكن متأكدًا إن كان يصدق حقًّا ما قاله للتو لصديقه.

أخذ طورشتين هيلدا، وتوجَّها معًا إلى الفيلا. خيم القلق عليهما حتى أنهما لم يتبادلا أي حديث. شعر الاثنان بالراحة عندما وجدا إنجريد بالمنزل مرحة كعادتها.

كانت إنجريد قادرة على إزالة قلق ومخاوف الحرب بروح الدعابة التي تميزت بها.

قالت إنجريد التي كانت تعتبر إجازة الصيف بالسويد مملة جدًّا بعيدًا عن أصدقائها: «سيكون الصيف ممتعًا هذا العام بدون رحلة السويد».

قالت هيلدا: «لكنها جذورك عزيزتي، ألا تفتقدين جذورك؟!»

أجابت إنجريد والحماس يملؤها لمكوثها إجازة الصيف في مصر: «لا أفتقدها على الإطلاق، فدائمًا ما تمطر هناك، كما أن الطقس شديد البرودة».

قالت هيلدا: «قطعًا هذا الصيف مختلف، فلنأمل أن لا تستمر الحرب سنة أخرى».

لم تستطع إنجريد أن تفهم سر قلق هيلدا، فهم جميعًا بخير في الفيلا الخاصة بهم، ويذهبون لقضاء بعض الوقت على الشاطئ من حين لآخر. شعرت إنجريد

بسعادة كبيرة لقضاء شهور الصيف بمصر بعيدًا عن السويد، ومدارس السويد. بعث طورشتين وهيلدا إنجريد في إجازة الصيف الماضية إلى مدرسة فرنسية في

ستوكهولم لمدة شهر كامل. كرهت إنجريد المدرسة والآن أنقذها القدر من إعادة الكرة مرة أخرى.

قال طورشتين: «لقد قررت الآتي: سنذهب إلى بلطيم لعدة أسابيع».

قامت هيلدا ونان بتحضير كل ما يلزم العائلة، فلا توجد محلات في بلطيم.تُعد بلطيم قرية صيد صغيرة معزولة في الدلتا، تقع بين رشيد ودمياط، وتمتد

شواطئها على ساحل البحر المتوسط.

أضاف طورشتين: «لقد سمعت عنها عندما كنا في المنصورة، ولكن لم تُتح لنا الفرصة للذهاب من قبل».

قالت إنجريد: «انظر إلى الشاطئ».

أسرعت إنجريد إلى الشاطئ غير عابئة بصمت هيلدا، وعبرت عن إعجابها باختيار والدها لبلطيم التي وصفتها بالجنة. نظرت إنجريد بانبهار إلى الرمال الممتدة على

الشاطئ الذي كان أشبه ببحيرة بيضاوية الشكل مع وجود حاجز يمنع تآكل الرمال.

عبرت نان عن سرورها: «إنه مكان مثالي للسباحة الآمنة».

قال طورشتين لنان وإنجريد: «كل منا له كوخه الخاص. هذا هو كوخكم».

استأجر طورشتين أكواخًا من القش، لكل كوخ عمود خشبي يعمل بمثابة ركيزة. لم يكن للأكواخ نوافد، فلقد كان الضوء يتسلل عبر القش.

قالت إنجريد لنان وهي تساعدها على صعود الدرج الخشبي للوصول للكوخ: «سأدفعك للأمام».

ردت نان وهي تتصبب عرقًا : «يجب أن أجلس».

قالت إنجريد: «فلتجلسي هنا، ستكونين بخير».

خلعت إنجريد ملابسها وارتدت لباس العوم «المايوه«الأبيض.

قامت إنجريد بشراء «المايوه«مع والدتها، حيث اصطحبتها هيلدا على غير العادة إلى المحلات التجارية. عادةً ما كانت هيلدا تذهب للتسوق في المحلات

التجارية

وحدها إلا أنها في تلك المرة اصطحبت إنجريد معها.

توسلت إنجريد لهيلدا: «أريد المايوه المكون من قطعتين».

قالت هيلدا: «ما زلت صغيرة جدًّا على ارتداء البيكيني. سأشتري لك هذا المايوه».

خرجت إنجريد من المحل وهي تريد العالم كله أن يرى المايوه الجديد، وما إن وصلت إلى المنزل حتى ركبت دراجتها متوجهة لصديقتها ليلى.

قالت إنجريد بحماس وهي تخرج المايوه الأبيض اللامع من حقيبتها: «مرحبًا. لقد أتيت لأريك شيئًا».

صاحت ليلى: «واو».

لم تنطق ليلى بكلمة أخرى، وأخذت تنظر إلى المايوه الذي لم يكن مسموحًا لها أن ترتدي مثله.

أكدت ليلى: «والداي من الطراز القديم، ولا يسمحان لي بارتداء المايوه».

جرت إنجريد صوب الشاطئ لتجرب المايوه الجديد بينما أخذت نان ترقبها من الكوخ وهي تصيح: «احترسي».

استأجرت العديد من عائلات القضاة أكواخًا في نفس القرية؛ لذلك وجدت إنجريد العديد من الرفاق في سن المراهقة مثلها لتشاركهم أوقات الإجازة. كان الجميع يتوجهون لركوب الجمال في غير أوقات السباحة.

قالت ريتشيل: «لقد وجدت عنبًا».

أضافت إنجريد: «يوجد بعض التين هنا أيضًا».

تكون غذاؤهم أثناء الإجازة من الخبز، والأرز،

والخضراوات، ومجموعة منوعة من أطعمة البحر. كان الشاي هوالمشروب الساخن المفضل طوال اليوم. بحلول

المساء، تستسلم إنجريد سريعًا للنوم بعد قضاء يوم طويل في هواء البحر الصحو.

في السادسة صباحًا يدوي صوت الصيادين: «سمك، سمك»، حيث يطرقون الأعمدة الخشبية للأكواخ حاملين معهم ما اصطادوه من الأسماك الطازجة. يبحر

الصيادون بقواربهم ليعودوا إلى الشاطئ بما لذ وطاب، وجوههم تنطق بسمرة الشمس، وشباكهم الضخمة تستقر على الأرض بما تحمله من خيرات.

قالت هيلدا وهي تفكر في مشاهد الصيف المشابهة التي رأتها على جدران مقابر الفراعنة: «هناك شيء لم يتغير منذ عهد الفراعنة».

قال طورشتين وهو جالس أمام النار يأكل السمك الطازج المشوي: «أرأيت أن الأمر ليس بهذا السوء في بلطيم؟«

رد القاضي هانسين: «أوافقك الرأي».

لم تشعر إنجريد بمثل هذه السعادة من قبل في حياتها، فلقد كانت مقبلة على الإجازة بدون هموم، كما أنها كونت صداقات جديدة. تعرفت على سامي الذي

استحوذ على كثير من اهتمامها. شعر كل منهما بانجذاب للآخر، وقضيا أوقاتًا كثيرة في صحبة بعضهما يأكلان السمك المشوي، ويتبادلان الضحكات. كان قلب

إنجريد يخفق في كل مرة يطل عليها سامي. كان شعره أسود كلون عينيه برموش طويلة تأبى أن تنتهي.

كان سامي وإنجريد مختلفين تمامًا في الشكل، هو ببشرته الداكنة، وهي بكل ما تحمله من ملامح الفتاة الشقراء، وعلى الرغم من هذا التناقض في الملامح، ائتلفت روحاهما سريعًا.

في نهاية المطاف، رجع كل منهما إلى القاهرة لتتجدد مخاوف الحرب ثانيةً، وتتوالى تداعياتها التي لم تكن في صالح الحلفاء.

شعرت إنجريد بالراحة لبدء الدراسة في ميعادها، لكن هذه المرة بدون أصدقائها الإيطاليين. كانت متشوقة للتحدث عن إجازتها الصيفية مع أصدقائها،

وللاستماع إلى تفاصيل إجازتهم أيضًا. تم الاعتناء بالسلاحف وقت إجازتها الصيفية. كل شيء سار على ما يرام، إلا أن سامي سكن أحلامها لشهور طويلة.

ظل صدى كلمات سامي الأخيرة يؤرق نومها لليالٍ طويلة: «هل سأراك ثانية؟»

لم تقوَ إنجريد على الاعتراف لنفسها بأن انشغالها بسامي يفوق الحد. أبقت إنجريد والديها بعيدًا عن سرها إلا أن قصة حبها الصغيرة لم تفارق عينها الساهرة.

أدركت نان التي كانت بمثابة حارس أسرار إنجريد الأمين ما تكنه إنجريد لسامي من مشاعر.

لم يستمر الهدوء لفترة طويلة، فبعد بضعة أشهر وقعت البلقان في قبضة الألمان، وكنتيجة لذلك نزل العديد من اللاجئين إلى مصر في عام 1941 .

تم وضع اللاجئين في ثكنات عسكرية، وفي شقق بعض الأجانب أيضًا. تزايد عدد اللاجئين الأجانب، وخاصة بالإسكندرية التي كانت تستوعب عددًا ضخمًا من

الجاليات الأجنبية.

قال طورشتين: «على الأقل سيسعد أصحاب المطاعم بهذا الرواج».

عجت مطاعم الإسكندرية الرخيصة الثمن بالقادمين الجدد، أما اللاجئين الأكثر ثراءً فقد تمركزوا في مناطق أكثر أناقة وغلاءً مثل فندق سيسل الذي تم بناؤه عام

1929 على يد عائلة يهودية، وفي هذا الفندق أقام الكاتب والروائي الإنجليزي المعروف وليام سومرست موم، كما كان هناك أيضًا محلات الحلوى الشهيرة التي

امتلكها اليونانيون مثل بسترودس، ونادي اليخت الملكي بالإسكندرية.

سمعت إنجريد هيلدا تقول: «وجودنا في القاهرة قد أنقذنا نسبيًّا».

ردت نان: «ولكننا ما زلنا مُحاطين بالثكنات العسكرية».

قالت هيلدا: «على الأقل لا يوجد في القاهرة هذا الكم الهائل من اللاجئين».

قالت إنجريد: «لكن يوجد الكثير من الجنود».

استشعرت إنجريد وهي في عمر الزهور إعجابها بالجنود في زيهم العسكري.

رفعت هيلدا حاجبها وهي تفكر في حقيقة أن إنجريد قد كبرت، وأصبحت في سن المراهقة ما زاد همومها وقلقها.

قالت هيلدا لإنجريد: «أنا أراقبك جيدًا»، ثم قالت لنان: «العديد من المنتمين للعائلة المالكة في بعض الدول التي وقعت في قبضة الألمان قد أتوا إلى هنا».

قالت نان: «فلنأمل أن تظل مصر بعيدة عن الحرب».

كانت چويس بريتين عشيقة چورچ ملك اليونان أول مَن يصل لمصر ليعقبها الأمير بول، نائب الحاكم السابق في يوغوسلافيا، حيث وصل مع زوجته الأميرة أولجا،

وأولادهما الثلاثة، كما فر أيضًا الكاتب لورانس داريل مع زوجته وأولاده من اليونان.

قال طورشتين بحزن: «لقد سمعت بعض الإشاعات المقلقة».

سألت هيلدا : «ماذا؟»

رد طورشتين: «لقد وصل موسوليني إلى شمال إفريقيا الآن. من الواضح أنه يريد مد المستعمرة الليبية لتشمل مصر التي يحكمها الإنجليز».

قالت هيلدا: «يبدو أن الجميع يسعون وراء قناة السويس».

قرر هتلر بعد ذلك إرسال روميل لإنقاذ موسوليني في ليبيا لمنع الإنجليز من غزو شمال إفريقيا.

مع وجود كل هذا الكم من اللاجئين في الإسكندرية، قرر آل طورشتين السفر لأصدقائهم السويديين في فلسطين الصيف القادم. شعرت إنجريد بالإحباط، حيث

كانت تأمل أن ترى سامي مرةً أخرى، وهو الأمر الذي أراد والداها تجنبه.

قالت هيلدا: «إذا وقعت في حب مصري سترغب في المكوث بمصر».

رد طورشتين: «يجب أن نتجنب هذا».

أخيرًا، أعلن طورشتين قراره: «سنأخذ القطار المتجه

إلى بورسعيد، ونتحرك من ميناء بورسعيد بعد ذلك».

قالت هيلدا: «يعجبني هذا الميناء فهو ذو طبيعة كوزموبوليتانية، فلنمكث هنا يومًا أو اثنين».

قال طورشتين: «كيف لي أن أرفض لك طلبًا، وأنت ترمقينني بتلك النظرة الساحرة؟»

عند وصولهم إلى بورسعيد اكتشفت إنجريد ميناءً دوليًّا يعج بالمسافرين من مختلف الجنسيات على اختلاف بلطيم النائية. تجولت إنجريد مع نان، ورأت العديد

من التجار اليهود، وأصحاب المحلات المصرية، والمصورين اليونانيين الذين أرادوا التقاط صور لنان وإنجريد وهما تسيران معًا، بينما اصطفت المباني الأنيقة التي

صممها مصممون معماريون إيطاليون.

أخبر طورشتين عائلته كيف أن بورسعيد يوجد بها أصحاب فنادق من سويسرا، وعمال إداريون من مالطا، ومهندسون أسكتلنديون، وأصحاب مال فرنسيون،

ودبلوماسيون من جميع أنحاء العالم، جميعهم عاشوا جنبًا إلى جنب مع المجتمع المصري.

انتقل العديد من الأفراد من جنسيات، وديانات مختلفة إلى بورسعيد لتجلب كل جالية معها عاداتها الخاصة بدءًا من التقاليد، وأنواع الطعام وحتى الديانة،

والتصميم المعماري. نظرت إنجريد إلى هذا المشهد الذي يكتظ بمسافرين من شتى بقاع الأرض. جميعهم يمرون من خلال ميناء بورسعيد، من وإلى إفريقيا،

والهند، والشرق الأقصى.

قالت إنجريد، وقد أُعجبت بميناء بورسعيد الذي يحمل

في طياته رائحة تعدد الثقافات والجنسيات: «ليس من الغريب أن تطلب ماما البقاء هنا لبعض الوقت».

تذكر طورشتين كلمات راديارد كيبلينج: «إذا أردت أن تعثر على شخص تعرفه كثير السفر، فما عليك إلا أن تجلس في مكانين، وتنتظره: مرفأ لندن، وبورسعيد،

وحتمًا سيأتي آجلًا أم عاجلًا».

في صباح اليوم التالي ركب الجميع سفينة ن ف رتيتي المتجهة إلى فلسطين.

استطاعت هيلدا أن تميز آل لارسون، وهم يلوحون لها: «ها هم».

سألت السيدة لارسون بلكنتها الأمريكية: «كيف كانت رحلتكم؟»

قال السيد لارسون، القنصل السويدي: «فلتأتوا معنا».

كان أولاد آل لارسون في نفس عمر إنجريد تقريبًا إلا أنهم لم يتحدثوا أي لغة سوى اللغة الإنجليزية التي لم تكن إنجريد تجيدها على الإطلاق، لذلك اكتفت

بالتلويح لهم.

كان آل لارسون من أصول أمريكية، نشطوا في السويد في نهاية القرن التاسع عشر. عرفت إنجريد قصة أجداد آل لارسون من خلال وصف دقيق للكاتبة

الكلاسيكية الحائزة على جائزة نوبل سِيلمي لوجيرلوف في كتابها «القدس». سافرت سِيلمي لوجيرلوف إلى فلسطين بحثًا عن المادة العلمية لكتابها.

تم إغواء العائلات السويدية لترك كل شيء، والهجرة إلى القدس ليكتشفوا «الجنة المسيحية على الأرض»، لكنهم لم يجدوا سوى الفقر، والمرض، وتُوفي العديد

منهم. على أية حال، لقد نجا آل لارسون من هذا المصير.

شعرت إنجريد بالحماس، وأرادت أن تتحدث عن آل لارسون، باعتبارهم أبطال كتاب القدس الذي قرأته، إلا أن نان أشارت لها لتصمت حتى لا يسمعها آل لارسون.

سرحت هيلدا في خيالها: «سيتميز هذا الصيف بروح المغامرة».

قضى طورشتين، وهيلدا معظم الوقت في زيارة المقابر، والكنائس.

قالت إنجريد: «الطقس هنا حار جدًّا، ألا نستطيع الذهاب للسباحة في مكان ما فلقد سئمت من كل هذه الآثار».

رد طورشتين: «حسنًا، سنذهب إلى البحر الميت».

تطوع آل لارسون بتوصيل آل طورشتين سالين للبحر الميت. بمجرد وصولهم، ذهبت إنجريد للسباحة.

صاحت إنجريد: «أنا أطفو».

نبه طورشتين إنجريد: «احذري، فالمياه هنا مالحة جدًّا، فلتغلقي عينيك إذا ما قمت بالغطس».

قالت هيلدا مؤكدة على ما قاله طورشتين: «نقطة واحدة من تلك المياه المالحة كافية لإيذاء العين».

دعت إنجريد أولاد لارسون للسباحة معها، وقد أصبحت تتحدث الإنجليزية بطلاقة بعد ممارسة اللغة معهم: «فلتنضموا لي. يا له من يوم مبهج».

أصبحت وجوههم جميعًا بيضاء من أثر مياه البحر المالحة، ونسيت إنجريد كل شيء عن سامي.

قالت إنجريد بلهجة لا تخلو من العتاب بينما كانت هيلدا ترتدي قفاز اليد الحريري: «هل ستخرجين مرةً أخرى؟!»

قالت هيلدا: «نعم الحفلات هنا أنيقة جدًّا. يمكنك قضاء وقتك مع أبناء آل لارسون».

كان آل لارسون كثيري التردد على العائلات الفلسطينية ذات النفوذ مثل عائلة الحسيني. اصطحب آل لارسون طورشتين وهيلدا إلى الحفلات الراقية في القصور الفخمة.

قالت هيلدا: «يمتاز الفلسطينيون بالكرم وحسن الخُلق».

رد طورشتين: «أتفق معك تمامًا».

بعد قضاء إجازة ساحرة، توجه آل طورشتين سالين إلى القاهرة في خريف شابه القلق. قاوم الحلفاء بالكاد ماكينة الحرب الدائرة التي تتقدم نحوهم لتدمر كل ما تقابله في طريقها.

قال أحمد ومحمد مرحبين بعودة العائلة إلى فيلا الأسعف: «حمدًا لله على سلامتكم».

سألت هيلدا محمد الطباخ الذي بدا شارد الذهن: «ماذا حدث؟»

رد محمد: «لقد تُوفي ابني منذ بضعة أيام».

قالت هيلدا: «كم يؤسفني هذا».

قال محمد: «ترفض زوجتي إنجاب مزيد من الأطفال. سأضطر للزواج من امرأة صغيرة».

سألته هيلدا: «كم عدد أبنائك؟»

رد محمد: «هذا الذي مات كان الابن رقم 18 . لم يبقَ من

كل أبنائي سوى أربع بنات. ماذا عساي أن أفعل؟»

قالت هيلدا في قرارة نفسها: «ربما يكون موت الأبناء أفضل. كيف يستطيع أن يُطعم كل هذه الأفواه، فليكن الله في عونه»، ثم في محاولة للتفريج عن همومه: «ما زالت لديك بناتك».

رد محمد: «كيف سأدفع مهورهن؟»

قالت هيلدا: «بالتأكيد زواجك من أخرى لن يحل هذه المشكلة. على أية حال معظم الصبية يذهبون للحرب هذه الأيام. على الأقل بناتك معك الآن بعيدًا عن ويلات الحرب».

قال محمد: «سيتزوجن يومًا، ويتركنني. مَن ذا الذي سيرعاني عندما أتقدم في العمر؟»

لم تستطع هيلدا الرد على ما قاله.

لم يمر وقت طويل حتى تزوج محمد مرةً أخرى، ورجعت إليه بشاشته.

سألته هيلدا: «كم عمرها؟»

قال بفخر: «أربعة عشر عامًا».

قالت هيلدا بغضب: «لكنك تبلغ من العمر خمسين عامًا!»

بعد عدة شهور أخبرهم محمد أن سامية، زوجته الجديدة، حامل. لم تستطع هيلدا أن تمنع نفسها من التذمر: «مسكينة هذه الطفلة، إنها في عمر إنجريد».

جاء محمد ذات يوم ومعه سامية التي كانت مجتهدة، قوية البنيان، وفي سن المراهقة. على الأرجح ستعيش أكثر من محمد، وسترعى العائلة كلها.

قالت نان، وقد أدركت أن سامية ستتحمل عبء المسئولية طيلة حياتها وكأنها عبدة للعائلة: «فليساعدك اللّٰه طفلتي».

كان الموقف على المستوى الدولي مبهمًا. عاش أهل القاهرة في صيف وأوائل خريف عام 1942 في كرب في ظل اجتياح الألمان لأوربا.

قال الجيران في حديث مع طورشتين: «أثناء غيابكم في الإجازة، انطلقت صفارات الإنذار كل يوم تقريبًا».

بعد رجوع آل طورشتين سالين من الإجازة مباشرة، استمع طورشتين وهيلدا إلى التحذيرات الآتية عبر المذياع: «لقد هزم روميل البريطانيين في ليبيا، وسيتوجه إلى

القاهرة».

قالت هيلدا وقد تملكها الخوف: «هل نذهب لإحضار إنجريد من المدرسة؟»

رد طورشتين: «ربما. دعينا ننتظر لنرى ماذا سيحدث أولًا».

استطاع الألمان بقيادة روميل الذي كان يُطلق عليه ثعلب الصحراء التوجه مع الإيطاليين إلى الإسكندرية عبر الصحراء. عُرف روميل، أحد أهم جنرالات الحرب

العالمية الثانية، بمهاراته السيكولوجية في إشعال الحماس، وزرع الثقة في قلوب رجاله من خلال مناقشة التكتيك الحربي والإستراتيجية المتبعة إلى جانب

استغلال نقاط ضعف عدوه بحكمة ودهاء. لم يأمر روميل رجاله المتعبين بالوقوف إلا عندما أصبحوا على بعد عشرة أميال من دلتا النيل عند محطة سكة حديد

بالعلمين.

كان روميل شديد الثقة: «سنسحقهم بكل سهولة».

أما على الصعيد البريطاني، فلقد وصل برنارد مونتجمري لتولي قيادة الجيش الثامن الذي كان في حالة يرثى لها، حيث افتقر الجنود إلى الثقة بالنفس والإرادة

اللازمة لكسب المعركة، إلا أن هذا الجنرال العنيد المتعجرف المثير للجدل، كما وصفه رئيس وزراء بريطانيا وينستون تشرشل، قرر أن يغير كل هذا، ويدرب جنوده

من أجل الفوز بالمعركة.

كان الأمر الذي تلقته قوات التحالف لمواجهة الجنرال الذي هزم الإنجليز في ليبيا هو: «تمزيق العدو إربًا إربًا».

قام مونتجمري بتدريب الجيش الثامن يوميًّا تدريبًا شاقًّا، كما دربهم على قيادة المعدات العسكرية في الرمال، والأهم من ذلك أنه بث فيهم روح النصر، هذا إلى

جانب طوفان الإمدادات، والتعزيزات العسكرية ما أدى إلى زيادة حجم الجيش الثامن ليصبح ضعف حجم جيش روميل.

استطاع البريطانيون إحكام قبضتهم على آلة إنجما الألمانية التي كانت تُستخدم في التشفير وفك الشفرات، ما أدى إلى توريط الجيش الألماني. بدأ مونتجمري

هجومه في الثالث والعشرين من أكتوبر عام 1942 ، حيث كان روميل مريض ويُعالج في ألمانيا. أرسل مونتجمري قواته إلى القطاع الشمالي، أقوى معاقل روميل

بدلًا من إرسالهم إلى الجنوب الأكثر ضعفًا، وتم ذبح جنود مونتجمري.

أعطى مونتجمري أوامره بدماء باردة: «لدينا المزيد من الجنود لإرسالهم».

انطلق صوت المزمار وسط دوي القنابل، حيث اتجه عساكر المشاة الأسكتلنديون صوب المدافع الآلية، كما أسرعت مسيرة الفرق العسكرية الأسترالية

والنيوزيلاندية. كان الأمر أشبه بالجحيم. تساقط الضحايا إثر إطلاق مدافع العدو الرشاشة، والبعض كان يُمزق إربًا بسبب الألغام الشيطانية التي زُرعت بعناية.

سميت منطقة الألغام ب «جحيم الأرض». مات وجُرح ما يقرب من ثمانين بالمائة من الجنود في الموجة الأولى من الهجمات، إلا أن جنود الحلفاء لم يستسلموا

بفضل تدريبات مونتجمري الشاقة.

اعترف مونتجمري في وقت لاحق: «لن أنسى ذبح خمسة الآف جندي في هذه المعركة الدموية».

وسط هذا التشويش والاضطراب لم يكن لدى الجنود أية فكرة عن ماهية موقفهم. كان عليهم فقط الكفاح للبقاء على قيد الحياة من أجل رفقائهم وسط حالة

من فقدان الإحساس والتخدير العاطفي. قال أحد جنود التحالف بعد ذلك: «كنت أسمع صيحات المجروحين، وأشم رائحة الموت الكريهة، وأرى المدرعات المحترقة.

لو كنت فكرت فيما أشعر به حينها، وأنا أصارع المدرعات الحربية، والقوات الكاسرة، لكان جُن جنوني».

لم يتعين على الجنود الإيطاليين في العلمين ملاقاة نفس المصير الذي لاقاه جنود التحالف أو الألمان، حيث

تم أسر العديد من الكتائب، ما أدى إلى هزيمة روميل.

أدرك روميل أن قواته قد أصابها التعب والإنهاك ما جعله يتردد لما يقرب من أربعة وعشرين ساعة قبل أن يخالف أوامر هتلر بعدم الاستسلام، ولكن عندما نفد

آخر ما يملك من وقود أدرك أنه هالك.

أمر روميل جنوده الذين قل عددهم بشكل ملحوظ: «فلتتقدموا اثنين تلو اثنين كل خمسين مترًا».

التصق طورشتين وهيلدا بالمذياع حتى المعركة الأخيرة: «يسرنا أن نعلن عن مقاومة الإنجليز للألمان، ما أسفر عن منع تقدم الألمان في العلمين في معركة الصحراء

التي انتصر فيها مونتجمري على القوات الألمانية، والإيطالية. استطاعت قوات التحالف بقيادة مونتجمري أن تقهر ثعلب الصحراء، وقواته الألمانية الإيطالية على

الحدود الليبية والإسكندرية».

قال طورشتين بصوت يحدوه الأمل لأول مرة منذ اندلاع الحرب: « يبدو أن حظ هتلر قد بدأ أخيرًا في التراجع».

بفضل الانتصار استطاعت قوات التحالف أن تطرد القوات الإيطالية والألمانية من شمال إفريقيا. لو انتصر الألمان لاحتلوا قناة السويس، وحقول البترول، ولأدار

هتلر آلة الحرب ليختلف مسار العالم تمامًا.

شعرت هيلدا بالراحة بعد معاناة سنوات الحرب: «على الأقل نحن الآن في أمان».

قال طورشتين مذكرًا هيلدا: «لكن الحرب لم تنتهِ بعد».

في عام 1943 كان هناك ثلاثة ملوك في مصر: الملك

چورچ، ملك اليونان مع حاشيته، والملك بيتير من يوغسلافيا، والملك فاروق ملك مصر. كانت القاهرة نقطة

مركزية للشرق الأوسط، والبحر المتوسط، وشمال إفريقيا.

قالت هيلدا لإنجريد، وهي تتمنى سرًّا أن تُعجب ابنتها بأحد الأمراء: « سآخذك إلى حفلة حيث يوجد العديد من الشباب في مثل عمرك».

سألت إنجريد بحماس: «مَن هؤلاء؟»

ردت هيلدا: «الأمراء الروس رومانوف. ستكون الحفلة في الإسكندرية. لقد قمنا باستئجار فيلا لقضاء الصيف فيها».

سألت إنجريد: «هل هم أمراء حقًّا؟»

ابتسمت هيلدا عندما رأت نظرة إنجريد، ووجنتيها النضرتين: «نعم، أمراء حقًّا، وغاية في الوسامة».

قرر طورشتين ألا يغامر بالسفر أبعد من الإسكندرية، وسعد الجميع بهذا القرار، كما شعر الجميع بالحماس لملاقاة الأمراء الروس. كان اسم ال ڤ يلا التي

استأجرها طورشتين «كورليان». كانت ملكًا لعائلة أرمنية، تقع وسط حديقة كبيرة محاطة بأكياس الرمل كإجراء وقائي للغارات الجوية المحتملة، بينما تم طلاء

النوافذ باللون الأزرق، وسرى هذا أيضًا على نوافذ الفنادق. على الر غم من القصف والحرب الدائرة تمت دعوة آل سالين إلى أماكن عديدة، وحظيت العائلة بإقامة

سعيدة.

قالت هيلدا في إشارة إلى هذا الكم الهائل من الحفلات: «يبدو أن الحرب قد أثارت سعادة المدينة!»

سألت إنجريد: «ماذا سأرتدي في الحفلة؟»

قالت هيلدا وهي تخرج الثوب الذي اشترته من القاهرة من الحقيبة: «لقد انتقيت لك ثوبًا حريريًّا لونه أزرق فاتح، ها هو».

لمعت عينا إنجريد: «رائع».

قالت هيلدا: «فلتجربيه إذن».

أسرعت إنجريد إلى غرفتها لتبدل ثيابها، وخرجت مرتدية الثوب الجديد الذي بدت فيه فتاة ناضجة يافعة.

قالت هيلدا: «تبدين متألقة».

قال طورشتين وهو يفكر كم كبرت إنجريد ونضجت في لمحة من الزمن: «كم يتماشى هذا الثوب مع لون عينيك!»

بدت إنجريد أكبر من عمرها الفعلي في ذلك الثوب. وقفت إنجريد منتصبة القامة شامخة. كابنة وحيدة، اعتادت إنجريد أن تتواجد مع الأشخاص البالغين، فكان يسهل عليها دائمًا التواجد مع الكبار والحديث معهم.

ذهبت العائلة لحضور حفل الرقص الذي أُقيم في قصر قريب من الكورنيش. تعرفت إنجريد على كم هائل من الناس، فكانت تبتسم إليهم بأدب، بينما تبحث عيناها عن الأمراء.

اقترب من إنجريد شاب ذو شعر أسود اللون يدعى ديمتري: «هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟»

ابتسمت إنجريد: «بكل تأكيد».

قال نيكولاي، شقيق ديميتري: «والآن جاء دوري».

همست إنجريد في قرارة نفسها وقد تسارعت دقات قلبها: «إنه أكثر وسامة من أخيه».

حكت إنجريد لنان ما حدث عند استيقاظها بعد ساعات الراحة القليلة التي حظيت بها: «لقد رقصت طوال الليل مع الأمراء الروس رومانوف: نيكولاي وديميتري.

الاثنان في مثل عمري، وكلاهما وسيم».

قالت نان: «هل أحببت مرةً أخرى؟ أي منهما قد أحببته؟»

بدت إنجريد مرتبكة: «الاثنان رائعان. الخيار بينهما مستحيل».

لم يخلُ عام 1943 من المشكلات، حيث تم الطلاق الملكي لفاروق وفريدة، فقط بعد خمسة أعوام من زواجهما، كما تدهورت العلاقة بين الملك ورئيس الوزراء. تم

تأسيس جماعة الإخوان المسلمين عام 1928 بقيادة حسن البنا. استفاد الإخوان المسلمون من مشاعر المصريين المعادية لبريطانيا، وبدأوا في نشر فكرهم الأصولي

لتنتشر أفكارهم وسط الفقراء حتى وصلت للجامعات.

قالت هيلدا لإنجريد: «لا يمكن أن تمكثي في مصر للأبد».

قالت إنجريد التي لم يكن لديها أية رغبة في الرحيل للسويد: «ولكن هذا وطني».

قالت هيلدا لتعيد لإنجريد صوابها: «لا، هذا هو المكان الذي يعمل به والدك».

بدت إنجريد تعيسة، وهي تقول: «ولكني لا أعرف مكانًا غيره».

قررت هيلدا أن تترك هذا الحوار للحظة المناسبة.

تزاحمت الأفكار في رأس إنجريد: «ما زال أمامي العديد من السنوات الدراسية هنا، وبعدها سأجد مخرجًا ما».

مر العام الدراسي بهدوء، وقررت الأسرة التوجه إلى قبرص في الصيف إلا أن الإجازة لم تمر بهدوء.

قال طورشتين لإنجريد: «سنقيم مع زميلي الإنجليزي. ستستمتعين بالجبال هناك. ستبحر السفينة من بورسعيد».

ردت إنجريد: «سأذهب للتسوق مع نان. كم أعشق هذا المكان!»

صارت إنجريد فتاة ناضجة الآن.

توجه الجميع لقضاء إجازة الصيف. كانت بورسعيد هي نقطة البدء، حيث أبحروا بالسفينة من مرفأ بورسعيد.

أشار طورشتين بيده: «ها هي السفينة».

بمجرد صعودهم على متن السفينة أعلن القبطان ما هو يلي: «يؤسفني أن أقول لكم إنه سيتعين عليكم ممارسة بعض التمرينات الوقائية».

توجه الجميع إلى قوارب صغيرة للتدريب على بعض الإجراءات الوقائية للحماية.

قال قبطان السفينة: «أذكركم أن البحر مليء بالألغام العائمة».

همست هيلدا: «يا لها من بداية!»

وصلوا جميعًا إلى مقصدهم بعد أن عبروا البحر بشكل

متقطع تفاديًا لأي حوادث أو تصادم.

تساءلت إنجريد عند وصول العائلة إلى قبرص: «يوجد العديد من الإنجليز هنا. أين أهل قبرص؟»

قال طورشتين: «إنها قاعدة بحرية إنجليزية. أيًّا كان شعور أهل قبرص حيال الإنجليز فإنهم يساندون قوات التحالف».

قال إدوارد صديق طورشتين الإنجليزي: «هناك العديد من القبارصة يحاربون معنا».

استقرت العائلة في فيلا تم استئجارها في جبال طرودوس في قرية برودروماس، حيث استمتع الجميع بالتنزه وسط التلال، والهواء النقي والسكينة التي خيمت

على المكان بعيدًا عن قوات القتال، وصفارات الإنذار.

قالت إنجريد وقد شعرت بالملل والرتابة: «وبعيدًا أيضًا عن المتعة واللهو».

صرخت هيلدا من الألم: «آه».

نادرًا ما كانت تمرض هيلدا، ولذلك شعر الجميع بالانزعاج. استدعى طورشتين طبيبًا من المدينة المجاورة للقرية.

استنتج الطبيب بسرعة: «إنها حصوة في المرارة، سأعطيها مورفين».

قال الطبيب ذو الشارب الضخم لإنجريد التي بدا عليها القلق الشديد: « يجب عليك إعطاؤها الحقنة في مواعيد منتظمة حتى يذهب الألم».

ردت إنجريد: «لكني لم أمسك في حياتي سرنجة».

الطبيب: «سأريك كيفية استخدامها، إنها سهلة الاستخدام».

شرح لها الطبيب كيف تسحب السائل في السرنجة، وكيف تخرج بعض القطرات القليلة من السائل في الهواء قبل أن تضع السرنجة في جلد هيلدا لإعطائها الحقنة.

قال الطبيب: «أرأيت، الأمر ليس بصعب على الإطلاق».

في السنة الدراسية لعام 1945 بدا أن قوات التحالف تحرز تقدمًا ملحوظًا على الفاشيست ما انعكس على المناخ العام في القاهرة وفيلا الأسعف بصفة خاصة،

حيث تحسن الوضع كثيرًا. انهمكت إنجريد في الدراسة أكثر من أي وقت سابق، وأخذت تناقش مع زملائها الخطط المستقبلية.

قالت إنجريد وقد تحسنت مهارتها في التمريض أثناء رعايتها لهيلدا: «أريد أن أصبح طبيبة».

قالت ليلى التي لم تكن واثقة من وجود أية رغبة لديها لقضاء مزيد من الأعوام في الاستذكار: «إذن يجب أن تذاكري بجد. على أية حال سيرغب أهلي في زواجي بعد

انتهاء سنوات الدراسة».

قالت إنجريد بمكر وهي تدرك حب صديقتها ليلى لبطرس: «هل هناك شخص ما يستحوذ على اهتمامك؟»

ردت ليلى: «بطرس، ولكنه قبطي. لن يوافق والداي أبدًا على زواجي منه».

أدركت إنجريد حينها أن الزواج بين المسلمين والأقباط

غير مسموح به في مصر.

في صيف أواخر أعوام الحرب استأجر آل طورشتين سالين بيتًا في لبنان أعلى الجبال في قرية تُسمى عشقوت. كان البيت الذي تم استئجاره ملكًا لكاهن أرثوذكسي.

قالت إنجريد: «كم أكره هذا الرجل».

سألت هيلدا: «لماذا تقولين هذا؟»

ردت إنجريد: «لقد رأيته يضع الصمغ على أفرع الشجر لصيد العصافير الصغيرة».

رأت إنجريد بعينيها كيف تلتصق أرجل العصافير الصغيرة بالصمغ، وكيف يقوم الكاهن بذبحها بعد ذلك.

علقت هيلدا وقد بدت أكثر تفهمًا: «لا بد أنه فعل ذلك لأنه جائع. تدفع الحرب الناس لفعل أشياء غريبة».

قالت إنجريد، وهي تستعد لإنقاذ الطيور بمهاراتها في التمريض: «ربما، لكني سأبدأ مهمة إنقاذ الطيور».

قضت إنجريد الإجازة وهي تغسل الفروع من الصمغ لإنقاذ أكبر عدد ممكن من الطيور. في أحد الأيام خرج طورشتين مسرعًا من المنزل بينما كانت إنجريد منهمكة في إنقاذ الطيور.

هتف طورشتين: «لقد تم تحرير باريس. انتهت الحرب».

قررت إنجريد أن تحتفل بطريقتها الخاصة، فذهبت إلى مصفف الشعر وقد عقدت العزم على التخلص من مظهرها الطفولي: «قص لي ضفائري».

اعتذر مصفف الشعر بعد قص ضفائر إنجريد وغسيل شعرها: «معذرة، لقد انقطعت الكهرباء، ولن أستطيع

كي شعرك!»

رجعت إنجريد إلى المنزل بشعرها المبتل الذي كان يشبه فرو الخروف.

قال طورشتين عندما رأى شعر إنجريد: «ماذا فعلت بشعرك؟!»

على أية حال لم يستطع طورشتين البقاء غاضبًا لفترة طويلة في هذا اليوم السعيد الذي وضعت فيه الحرب أوزارها.

ردت إنجريد وهي تشعر بالخزي والقبح: «لم يكن هذا ما تخيلته عن انتقالي من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج».

في هذه الليلة تمت إضاءة كل أسطح المنازل بالقرية لإنارة عتمة الليل.

صاحت إنجريد: «يشبه هذا ليلة الكريسماس».

قال طورشتين وقد قرر العودة : «فلنعد إذن إلى منزلنا لنحتفل بهذا الحدث مع أصدقائنا».

كانت القاهرة مزدهرة، وصارت أكثر ثراءً بنهاية الحرب، حيث ازدهرت الصناعة المحلية في أثناء سنوات الحرب خاصةً في ظل كل القيود التي حاصرت عملية

الاستيراد، وكانت إنجلترا مدينة لمصر بثلاثة ملايين جنيه مصري، بينما تجاوزت قيمة الجنيه المصري آنذاك قيمة الجنيه الإنجليزي.

قال طورشتين: «لسوء الحظ، ستذهب كل هذه الأموال إلى العائلات الثرية فقط».

وافقته هيلدا: «نعم، لن ينتفع الفقراء بهذه الأموال».

كتبت هيلدا لاحقًا في هذا الشأن خطابًا لصديقتها لينيا التي لم تسمع عنها أي أخبار بسبب الحرب: «أصبح كل شيء شديد الغلاء في القاهرة، فلم ترتفع الأسعار فقط، بل فقد أكثر من ثلاثمائة شخص على الأقل وظائفهم بسبب الحرب وفقًا لما قرأته في

الإيجيبشان جازيت. ليس كل شيء على ما يرام. بدأت إنجريد عامها الأخير في المدرسة، حيث تعين عليها الحصول على البكالوريا الفرنسية بدرجات عالية لتصبح

طبيبة. أنا وطورشتين نرغب في عودتها إلى السويد لاستكمال دراستها، لكنها لا ترغب في ذلك على الإطلاق».

راودت إنجريد مشاعر مختلطة في عامها الدراسي الأخير، فقد أدركت أن والديها يرغبان في إرسالها إلى أبسالا، وهي مدينة صغيرة في شمال ستوكهولم؛ لتدرس في

أحد أحسن الجامعات هناك.

اقترحت ليلى: «ربما يجب أن تجربي الرسوب في الامتحانات النهائية».

قالت إنجريد التي كانت فتاة تعتز بنجاحها: «لا أستطيع فعل هذا».

قررت إنجريد استذكار دروسها على أمل أن يظهر في الأفق حل لمشكلتها.

قالت إنجريد في قرارة نفسها: «ربما يجب أن أتزوج من شاب مصري وسيم».

على الرغم مما دار في صمت في خاطر إنجريد، فإن القدر كان يرسم لها خططًا مختلفة.

الفصل العاشر

الرقص في الإسكندرية

أسرع طورشتين لإبلاغ هيلدا بالأخبار السعيدة: «سننتقل إلى الإسكندرية. لقد تم ترقيتي».

أمسك طورشتين بالخطاب الذي وجهته له محكمة الاستئناف بالإسكندرية ليقرأ بعضًا مما ذُكر به لهيلدا: «لا تنسَ أن المحاكم المختلطة بالقضاة العاملين بها تُعد من المؤسسات التي تمنح الإنسانية كلها شرفًا جنبًا إلى جنب مع الكنيسة، ولقد حظت المحاكم المختلطة

بسمعة طيبة في العالم بأسره من خلال أحكام القضاء النزيهة، وعلم، وبراعة القضاة العاملين بها»..

هتفت هيلدا : «أخيرًا الإسكندرية».

لطالما حلمت هيلدا بتلك المدينة الساحلية التي تقع على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. كانت الإسكندرية مدينة ذات أهمية خاصة، حيث امتلأت بالموسيقى،

والفنون، والأدب. كانت مدينة المنازل الجميلة التي تشبه المتاحف في أناقتها. كانت تلك المنازل الفريدة الجمال ملكًا للعائلات المتميزة، والأغنياء، وتجار القطن

الذين جنوا ثروة هائلة من تجارة القطن.

قالت هيلدا لإنجريد: «سننتقل إلى الإسكندرية».

تسمرت إنجريد عند سماعها الخبر، واسترجعت في لحظة خاطفة كل ذكرياتها مع أصدقائها، وحيواناتها الأليفة، وغرفتها، ورأت كل هذا يختفي في دوامة الأمس

ليصير شيئًا من عدم، وكأنه لم يكن. لم تكن إنجريد

مهتمة بالإسكندرية، والحياة الفاخرة بها.

قالت هيلدا في محاولة لإدخال السرور إلى قلب إنجريد التي بدت شاحبة عند سماعها الخبر: «ستقابلين ديميتري ونيكولاي مرةً أخرى».

سألت إنجريد: «ولكن، ماذا عن المدرسة؟»

ردت هيلدا: «لن ننتقل إلى الإسكندرية حتى تنتهي من امتحانات نهاية العام».

كانت إنجريد تدرك أنه ما زال أمامها بضعة شهور من العمل الشاق. كانت قلقة على مستقبلها في السويد، إلا أن طورشتين، وهيلدا لم يقررا بعد إرسالها إلى السويد عقب حصولها على البكالوريا الفرنسية.

سمعت إنجريد هيلدا، وهي تتحدث مع طورشتين: «ما زالت صغيرة على الذهاب بمفردها بعيدًا».

كانت إنجريد تعلم أن الكلمة الأخيرة في المنزل لهيلدا. شعرت إنجريد بارتياح شديد، وكأن عبئًا قد رُفع من على كاهلها، وبدأت السعادة تتسلل إليها مرةً أخرى.

انتصبت قامتها، وبدت عيناها أكثر ثباتًا وحزمًا. كانت تعلم في قرارة نفسها أن المسألة مسألة وقت لا أكثر ولا أقل، وأن المشكلة ما زالت قائمة، إلا أن إنكارها للحقيقة يتيح لها قدرًا من الاستمرارية، حتى تلاقي ما لا مفر منه.

قال طورشتين: «سآخذكم الليلة إلى نادي السيارات للاحتفال، فلتستعدوا».

صعدت إنجريد إلى غرفة هيلدا التي كانت تنتقي ثوبًا للسهرة من دولاب الملابس.

جلست هيلدا تمشط شعرها الأسود الطويل.

قالت هيلدا: «سأرتدي الثوب الذي يشبه لونه ثمار الخوخ. فلتساعديني في ارتداء الإكسسوار».

ساعدت إنجريد هيلدا في ارتداء العقد، أما القرط المصنوع من لآلئ البحر فكان قطعة هيلدا المفضلة، حيث كانت ترتديه دائمًا.

قالت إنجريد وقد أُعجبت بأناقة هيلدا : «تبدين جميلة حقًّا. الآن، ماذا سأرتدي؟»

اقترحت هيلدا: «دعينا نلقِ نظرة».

فتحت هيلدا دولاب الملابس الخشبي، وألقت نظرة فاحصة على الثياب. أمسكت هيلدا بالثوب القرمزي ذي الحزام المصنوع من القطيفة، واختارت الحذاء المناسب له وقالت: «فلترتدي هذا الثوب، طورشتين يحبه كثيرًا».

لم يكن هذا هو ثوب إنجريد المفضل، لكنها أرادت أن تسعد طورشتين في هذه المناسبة الخاصة. كانت إنجريد سعيدة بتسريحة شعرها الجديدة، حيث تدلى شعرها الأشقر على كتفيها بعناية شديدة ليعكس مهارة مصفف الشعر الخاص بهيلدا .

قالت إنجريد وهي تنظر للمِرآة: «أخيرًا وافق والدي على قصة شعري. أخيرًا تخليت عن الضفائر».

قال طورشتين بسعادة وهو يقود سيارته التي كان يركنها في جراچ ال ڤ يلا: «فلننطلق الآن».

كان لل ڤ يلا جرا چ ان، جراچ يركن فيه طورشتين سيارته، وآخر يضع فيه مقتنيات عائلة كاسترو اليهودية، وعائلة مينوست الفرنسية.

قاد طورشتين سيارته بسرعة أعلى الكوبري، ثم ركنها أمام المبنى الذي تحلى بالطراز الإسلامي: «ها قد وصلنا».

كان نادي السيارات، مثله مثل نادي الجزيرة الرياضي، ناديًا اجتماعيًّا للأثرياء والصفوة. انضم طورشتين لنادي السيارات بمجرد افتتاحه، ومنذ ذلك الحين وهو

يتردد على نادي السيارات، كما شارك في مناقشات كثيرة مع أصدقائه في النادي.

صعدت الأسرة على درج النادي المصنوع من المرمر.

قال مدير النادي: «أهلًا بك سيد طورشتين سالين. أرى أنك دعوت عائلتك أيضًا، لا بد أنها مناسبة خاصة».

طورشتين مبتسمًا: «نعم».

لم يعطِ طورشتين أية إشارة أو تلميح عن ماهية المناسبة، حيث لم يخبر أحدًا من أصدقائه بعد، وكان حريصًا على ألا يذاع الخبر. شعر طورشتين بآلام القرحة، إلا

أنه رفض أن يستسلم للألم، حتى يستمتع بهذه الأمسية الخاصة.

ذهب بعيدًا مع أفكاره: «أتردد على هذا المكان منذ خمسة عشر عامًا».

أدرك طورشتين كم سيفتقد هذا المكان، إلا أنه كان رجلًا عمليًّا، ينظر إلى الأمام دائمًا، لا إلى الخلف، وتذكر كلمات هيلدا: «من الأفضل أن نحيا في الحاضر».

نظرت إنجريد إلى المكان الذي بدا عليه الثراء والفخامة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يُسمح لها فيها بمرافقة والديها إلى هذا النادي الأنيق. اتسعت عينا

إنجريد،

وهما تحدقان في المكان، ثم صعدت الدرج المرمري متجهة إلى قاعة الطعام. كست مفارش السفرة البيضاء الأنيقة موائد الطعام، بينما ظهر الجرسون مرتديًا

الجوانتي الأبيض. قام الجرسون بصب المياه المثلجة في الأكواب، ثم أعطاها قائمة الطعام.

قال طورشتين للجرسون، وهو يعطيه مفتاح خزانته الخاصة حيث يضع زجاجة الويسكي: «من فضلك، أحضر لي زجاجة الويسكي الخاصة بي».

طلب طورشتين وهيلدا مجموعة منوعة من أطباق الطعام المصرية، وزجاجة من النبيذ الأبيض قبل بداية تناول الطعام الرئيسي.

قضى آل طورشتين السهرة يتحدثون عن الإسكندرية وماذا سيفعلون هناك. شعرت إنجريد بدقات قلبها السريعة، وتصارعت الأفكار في رأسها: «لقد وجدت عذرًا

للإقامة في مصر حتى لا يأخذوني إلى هذا المكان الذي يقع في الشمال، والذين يسمونه الوطن وأسميه أنا الجحيم. موطني هنا في مصر».

شعرت إنجريد أنها تفقد السيطرة على حياتها. هل اختارت حياتها، أم حياتها هي التي اختارتها؟ لم تعد إنجريد تلك الطفلة الصغيرة الخالية من الهموم. حاولت

إنجريد أن تبعد عن ذهنها تلك الأفكار، فهي اليوم تحتفل بترقية والدها.

لم يكن لدى إنجريد الوقت لتفكر في حياتها القادمة في الإسكندرية، حيث كانت منهمكة في التحضير لامتحانات

البكالوريا.

قالت إنجريد شاكية لنان: «لا أقوم بعمل شيء سوى الدراسة».

ردت نان: «سريعًا ما سينتهي كل هذا، وستبدأين حياة جديدة».

زادت كلمات نان من توترها، فقد أحبت إنجريد القاهرة، وأحبت أصدقاءها، والآن عليها أن تترك كل هذا وراءها، وتنتقل إلى الإسكندرية.

اجتازت امتحانات البكالوريا بجدارة. ودعت فترة من حياتها. بكت وهي تودع أصدقاء الدراسة في اليوم الأخير من شهر يوليو الذي كان شديد الحرارة، ذلك اليوم الذي سيظل محفورًا في ذاكرتها.

تبادلت إنجريد العناق والقبلات مع أصدقاء الدراسة، وبكت هي وأصدقاؤها، كما بكى المدرسون الذين امتلأت أعينهم بالدموع.

قالت السيدة مورين بصوت يحاول أن يبدو حادًّا: «هيا، هيا». لم تصدق إنجريد هذه الحدة المصطنعة، فقد أدركت خلال سنوات الدراسة الطويلة أن السيدة مورين ذات قلب طيب.

لوحت السيدة مورين بيدها مودعة تلاميذها عند بوابة المدرسة: « وداعًا».

سارت ليلى وإنجريد مع بعضهما. استدارت إنجريد لتلقي نظرة أخيرة على المدرسة مودعة اثني عشر عامًا من عمرها. الآن بدأت حياتها كامرأة بكل ما تنطوي عليه

تلك الكلمة من تساؤلات: كم من الوقت ستقضيه في

مصر؟ ماذا سيحدث لها؟ أين ستعيش؟ مَن ستتزوج؟

قالت إنجريد لليلى وقد شعرت ببعض الغيرة: «على الأقل الأمور أسهل بالنسبة لك».

قالت ليلى بحزن: «أعتقد أنهم قد اختاروا لي زوج المستقبل».

- مَن هوإذن؟

- ابن عمي عمر.

- ابن عمك؟!

- نعم، الزواج من ابن العم شائع هنا، ألا تفعلون هذا في السويد؟

- لا، لست متأكدة إن كان هذا مسموحًا به.

- مَن هو زوج المستقبل إذن؟

- لا أدري، غالبًا ما نختار أزواجنا بأنفسنا.

لم تدرك إنجريد إن كانت الثقافة السويدية أفضل من الثقافة المصرية أم لا، فلقد بدا الأمر برمته مربكًا لها.

سألتها ليلى: «أين ستلتقين برجل العمر؟»

ردت إنجريد: «ربما في العمل».

- أي عمل؟ ألن تذهبي إلى السويد للدراسة؟

لم تدرك إنجريد ماذا ينتظرها لتجيب.

- ليس بعد.

- كم أنت محظوظة حيث تملكين حق الاختيار.

- هل ترغبين بالدراسة؟

قالت ليلى وقد لمعت عيناها: «كم أحب أن أدرس الفلسفة».

قالت إنجريد وهي تفكر بالساعات التي لا حصر لها التي قضتها مع ليلى في المدرسة تتبادلان النقاش حول روسو و ڤ ولتير: «ستكونين مدرسة ممتازة بالتأكيد».

وضعت ليلى ذراعها النحيلة حول أعز صديقاتها وبكت الاثنتان.

افترقتا عند بداية الكوبري. عبرته إنجريد، بينما ذهبت ليلى من الطريق الآخر. استدارت إنجريد أكثر من مرة لتلوح لها حتى رأت جسد ليلى النحيل يختفي وراء

شجر النخيل. اتجهت إنجريد صوب منزلها، تسللت دموعها المالحة إلى فمها، وشعرت أن عالمها كله ينهار، ويتداعى. ألقت إنجريد بدراجتها جانبًا بمجرد وصولها

إلى المنزل، ولم تعبأ بتحية نان التي كانت تبتسم لها، بل صعدت مسرعة إلى غرفتها. أغلقت الباب، واستلقت على سريرها، ثم أمسكت بالمخدة، وأجهشت

بالبكاء.

جاء صوت هيلدا من وراء الباب: «إنجريد».

ردت: «اذهبي الآن، واتركيني وحدي».

هذه المرة، جاء صوت نان: «إنجريد، لقد أعددت لك كوبًا من الشاي».

فتحت نان الباب ببطء، وهي تحمل صينية الشاي، والحلوى. لم تستطع إنجريد مقاومة صوت نان العذب، وسرعان ما جلستا لتناول الشاي، والحلوى. في

البداية لم تستطع إنجريد التقاط أنفاسها من شدة البكاء، حتى بدأت نان تربت شعرها بحنوٍّ كما اعتادت أن تفعل عندما كانت إنجريد طفلة صغيرة.

انهمرت دموع إنجريد طيلة فترة الظهيرة حتى إنها

شعرت بالذهول من هذا اليأس الذي اجتاحها.

قالت هيلدا لإنجريد في محاولة لمواساتها: «عادةً ما تسير الأمور إلى الأفضل في النهاية».

استطاعت هيلدا أن تعثر على منزل في ضاحية من أرقى ضواحي الإسكندرية. أمضت هيلدا الكثير من الوقت في تغليف قطع الكريستال، والبورسلين، وتعبئة ما

يخص الأسرة.

سريعًا ما مر الوقت، وتوجه الجميع إلى محطة القطار بينما تم شحن الأمتعة قبل وصولهم. وصل آل طورشتين سالين إلى الإسكندرية في الظهيرة، واستقلوا

العربة متوجهين إلى منزلهم في زيزنيا مرورًا بالڤيلات الأنيقة والحدائق.

قالت هيلدا: «ها قد وصلنا».

لاحظت إنجريد وهي تلقي نظرة سعيدة على المنزل أن الحديقة لم تكن كبيرة. كان المنزل جميلًا: فيلا أنيقة على مقربة من البحر بشرفة واسعة مطلة على الحديقة

التي امتلأت بأشجار المانجو. وقف الجنايني في الحديقة بسرواله الواسع، وبدا منهمكًا في تقليم الأشجار. كانت غرفة الطعام كبيرة جدًّا في الدور السفلي. أحبت

إنجريد الاستماع إلى صوت الأمواج، كما اعتادت الذهاب للسباحة . على الرغم من افتقاد إنجريد للقاهرة وأصدقائها إلا أنها شعرت بفضول لاكتشاف هذا العالم

الجديد.

كان بيت آل طورشتين سالين يقع بالقرب من المكان

الذي استقر فيه الإسكندر الأكبر عام 332 قبل الميلاد. شعر الإسكندر الأكبر بالإحباط من حالة الموانئ في أثناء

رحلته عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى اكتشف منطقة ممتازة حقًّا. كانت المياه في هذه المنطقة عميقة بشكل كافٍ وبعيدة عن أعين الغزاة، كما كانت

الرياح تجدد الهواء باستمرار حتى في أيام الصيف شديد الحرارة. بعد الحلم الذي راوده قرر الإسكندر الأكبر أن يبني المدينة.

قالت إنجريد عندما أخبرها طورشتين بقصة الإسكندر الأكبر: «يا لها من فكرة ممتازة!».

- نعم، إنه مكان جميل، ألا تعتقدين ذلك أيضًا؟

- هل عاش كل اليونانيين هنا؟

- ليس اليونانيون فقط، ولكن أيضًا اليهود، والأرمن، وغيرهم. ستكتشفين ذلك بنفسك.

أخذت إنجريد بنصيحة طورشتين، وانطلقت مع نان في جولة لاكتشاف الإسكندرية. اكتشفت الاثنتان أن المسيحيين قد استقروا في المدينة.

قالت إنجريد: «قبل ظهور المسيحية في السويد».

ردت نان: «نعم، لقد أصبحت الإسكندرية العاصمة المسيحية. هل يمكنك تخيل هذا؟»

قالت إنجريد: «لكن يوجد الكثير من المسلمين الآن بالإسكندرية».

علقت نان: «تتغير الأشياء عبر الزمن».

قالت إنجريد وهي تشير إلى موقع مكتبة الإسكندرية القديمة: «انظري، لا بد أنها كانت مكتبة فخمة بحق».

وافقتها نان: «من المؤسف حقًّا أنها احترقت. لا أحد يعلم متى كان هذا الحريق بالضبط، ولكن أغلب الظن أنه وقع بعد حصار القيصر قبل ظهور السيد المسيح

بعقود قليلة. عصر بأكمله دُفن تحت رماد الحريق بكل ما يحويه من نصوص عن التاريخ، والعلوم الطبيعية، والفن، والموسيقى، والقواعد النحوية، حتى

الموسيون تم تدميره».

سألت إنجريد: «ما هذا الموسيون؟»

ردت نان: «إنه مركز للأبحاث في جميع المجالات. ألم تدرسي أرخميدس؟»

قالت إنجريد: «نعم».

أضافت نان: «إنه كان واحدًا من أعظم الرجال الذين عملوا بالمكتبة».

انتشرت الحضارة اليونانية من الإسكندرية التي كانت بمثابة مركز للثقافة للعالم بأسره. كان هناك العديد من اليونانيين: الإداريين، والجنود، والمهندسين

المعماريين، والمدرسين، والصناع، وأصحاب الحرف، والتجار. جميعهم عاشوا مع السكان المحليين إلا أنهم ظلوا غزاة، فرفضوا تعلم اللغة المصرية. شيدوا مدارس

خاصة بهم، كما كان لديهم نظام قضائي خاص بهم لا يختلف كثيرًا عن المحاكم المختلطة، حيث كان هناك نظامان للقضاء: محاكم خاصة باليونانيين بها قضاة

يونانيون، ومحاكم خاصة بالمصريين بها قضاة مصريون، كما كانت هناك محاكم خاصة لفض النزاع بين اليونانيين

والمصريين.

قالت إنجريد وهي تتجول في ركن اليونانيين، وتستمع إلى الكلمات اليونانية على ألسنة المارة: «لم يتغير الأمر كثيرًا، فما زال لليونانيين حياتهم، وعالمهم الخاص».

استكملت إنجريد بمصاحبة نان جولتهما بالعربة التي يجرها الخيل لتنطلق بهما صوب الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، والذي يقطنه اليهود. معظم اليهود

كانوا من أصحاب الحرف، والتجارة، وكانوا بارعين حقًّا لدرجة أثارت حسد البعض.

قالت نان: «لا بد أن هناك عدد كبير من اليهود يعيش هنا حتى يتم بناء مثل هذا المعبد الكبير»، ثم خاطبت السائق: «فلتقف هنا من فضلك، وانتظرنا».

قالت إنجريد وقد أبهرها المكان حيث رأت صفين من الأعمدة ذات تصميم رائع: «انظري إلى تلك الأعمدة».

ردت نان: «إنها جميلة حقًّا. هنا العهد القديم».

تعلم اليهود اليونانية، وفي عام 150 قبل الميلاد تم ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية.

رجعت نان وإنجريد إلى العربة التي كانت بانتظارهما. انطلقت العربة عبر طريق شارع البحر مرورًا بإحدى عجائب الدنيا: فنار الإسكندرية الذي دُمر تمامًا بعد

العديد من الزلازل. على الرغم من أن الفنار لم يعد موجودًا فإنه كان نموذجًا للكثير من الفنارات التي تم بناؤها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى إسبانيا.

فاروس هو الاسم اليوناني للفنار، واشتُقت منه كلمة فنار في اللغتين الفرنسية والسويدية.

قالت إنجريد لطورشتين عندما رجعت إلى المنزل: «يبدو أن اليونانيين كانوا متقدمين حقًّا».

رد طورشتين: «نعم إلا أنهم أصبحوا في النهاية أكثر فسادًا، وبدأوا في استخدام قوتهم في إساءة معاملة السكان المحليين».

سألت إنجريد: «ألهذا السبب فقدوا سيطرتهم على مصر؟»

رد طورشتين: «هذا جزء من الصورة».

فهمت إنجريد أن الموضوع أكثر تعقيدًا، ولكنها لم تكن مستعدة لسماع المزيد.

قالت إنجريد: «أنا متعبة، سأذهب للنوم».

نامت إنجريد لمدة اثنتي عشرة ساعة، وعندما استيقظت لم تدرك أين هي. لم تكن تلك هي حجرتها التي اعتادت عليها. تطلب الأمر ثواني حتى تستوعب إنجريد
أنها في غرفتها بالمنزل الجديد بالإسكندرية.

قالت هيلدا: «لقد سجلت لك في فصل كتابة الاختزال. يعتقد والدك أن هذا سيفيدك حتى لو لم تستخدميه في مجالك المهني».

شرحت نان لإنجريد عندما رأت الحيرة على وجهها: «ستتعلمين الإملاء والكتابة بسرعة».

قالت إنجريد: «أعتقد أنها فكرة ممتازة».

شعرت إنجريد بالراحة لأن والديها قد اختارا لها عملًا

تقوم به، حيث عجزت هي عن التفكير في شيء يناسبها.

سألت إنجريد: «ما مدة هذا التدريب؟»

ردت هيلدا: «سيستمر لمدة عام».

فكرت إنجريد في صمت: «هذا رائع، سيكون لديَّ بعض الوقت لتحديد ماذا سأفعل. عام كامل هنا قبل إرسالي إلى السويد».

أضافت هيلدا وقد قطعت صمت إنجريد: «سيكون التدريب باللغة الإنجليزية».

تجهم وجه إنجريد حيث أصبحت اللغة الفرنسية التي بذلت جهدًا كبيرًا من أجل اكتسابها عديمة الفائدة: «لقد نسيت أن معظم الأجانب يتحدثون الإنجليزية

هنا».

باربويجبيرج، صديقة إنجريد السويدية الوحيدة ذهبت إلى المدرسة الإنجليزية بالإسكندرية. كان والد باربو مهندسًا مدنيًّا، وهو الذي بنى المصانع الخاصة بشركة

الكبريت السويدية س ڤ ينسكا تاندستيكس بولاجين. لم يكن لعائلة باربو أصدقاء مصريون في الإسكندرية كما كان الحال مع آل طورشتين سالين. ربما كان

المصريون في الإسكندرية أقل ميلًا للطراز الغربي من ذويهم في القاهرة.

كانت كلية فيكتوريا مدرسة إنجليزية شهيرة للبنين في الإسكندرية، وكذلك المدرسة الإنجليزية للبنات، حيث درست باربو. تم افتتاح المدرسة عام 1935 في فيلا

صغيرة متواضعة، ولكن سرعان ما تطور الأمر في أعوام قليلة لتصبح للمدرسة حديقة ضخمة، وحمام سباحة

كبير. أخذت باربو صديقتها إنجريد لتريها مدرستها.

قالت إنجريد: «ليست صغيرة مثل مدرستي. لا بد أنك أحببت الذهاب إليها».

ردت باربو: «نعم، لقد كانت مدرسة ممتازة حقًّا».

سألت إنجريد: «تُرى، كيف تبدو من الداخل؟»

لمعت عينا باربو وهي تأخذ إنجريد من يدها: «فلندخل خلسة».

قالت باربو وقد وضعت يدها على فم إنجريد: «صهٍ، أعرف طريقًا يقودنا إلى الداخل».

ارتجفت إنجريد من الخوف، لكنها لم تظهر لصديقتها شعورها بالخوف. سارت الاثنتان على أطراف أصابعهما حتى وصلتا إلى ساحة مزينة بالأعمدة الزرقاء،

ومنها إلى الدرج المرمري، وأخيرًا إلى غرفة مساحتها كبيرة.

قالت باربو بفخر: «هنا كانت تُقام المسرحيات، وكان لدينا أفضل نظام صوتيات في شمال إفريقيا».

صاح الحارس: «هل من أحد هنا؟»

تجمدت إنجريد وباربو من الخوف، وخرجتا بهدوء كما دخلتا بهدوء.

قالت باربو: «كان لدينا على الأقل خمس عشرة جنسية مختلفة في المدرسة».

قالت إنجريد: «لكن توجد مدرستان فقط بالإسكندرية، أما القاهرة فيمكنك الاختيار بين المدارس الأمريكية، والإيطالية، والفرنسية».

علقت باربو: «قد تكون الإسكندرية أصغر، ولكن لدينا هنا

الكثير من الميزات. سترين هذا بنفسك».

سرعان ما اكتشفت إنجريد صحة ما قالته باربو، حيث بدأت تستقر في الإسكندرية بنمط حياتها المبهج.

قابلت إنجريد آل رومانوف مرةً أخرى، وحضرت الحفلات الفاخرة، واستمتعت بالسباحة في بحر الإسكندرية كلما سنح لها الوقت.

كان هناك العديد من الشواطئ في مدينة الإسكندرية مثل شاطئ سيدي بشر، حيث اعتادوا تأجير الكبائن، والتنزه للاستمتاع بالشواطئ النظيفة. تطلبت الدراسة الجديدة وقتًا طويلًا من إنجريد.

كتبت إنجريد لليلى التي كانت مشغولة في التحضير لزفافها في القاهرة: «يوجد في الإسكندرية نادي سبورتنج، لكنني أجد أن الجو العام هناك يسوده التعالي. أفضل نادي سموحة. أمارس لعب التنس، ووالدي يلعب الجولف. أجد

دراستي الجديدة مملة جدًّا. لست ماهرة في مثل هذا النوع من التدريب والدراسة. أذهب للسباحة، وفي الفترة من إبريل وحتى نوفمبر أمارس هوايتي المفضلة وهي

ركوب الأمواج على الألواح. هل يمكن أن تكون الحياة أفضل من هذا؟

أفتقدك، وأتمنى أن أستطيع حضور حفل زفافك. لا بد أنك تشعرين بالحماس. لم أعثر على زوج بعد، لكنني رقصت مع ضابط إنجليزي وسيم بضع مرات».

كان منزل القنصل العام ڤ ون جيربر هو ملتقى الأسكندنافيين في الإسكندرية. كان ڤ ون جيربر يتاجر

في الخشب ما جعله رجلًا غنيًّا. زين ڤ ون جيربر قصره بالألوان السويدية: الأزرق، والأصفر حتى البيانو الكبير زُين بهذه الألوان، أما الحفلات فكانت تُقام في غرفة المعيشة الضخمة، وهناك رقصت إنجريد الرومبا والسامبا مع الضباط البحريين مرات كثيرة، وهناك أيضًا قابلت الضابط الإنجليزي.

لم يكن چيمس هويل طويل القامة، كان أطول قليلًا من إنجريد، وأزرق العينين، أما شعره فكان أحمر اللون متموجًا، وعلى الرغم من محاولته الدائمة لتصفيفه فإنه دائمًا ما كانت تأبى خصلة أو خصلتان إلا أن تستقل بذاتها.

تحدث چيمس مع إنجريد عن إنشاء دولة إسرائيل، وحاول أن يشرح لها أن وجوده في المنطقة بوصفه جنديًّا شديد الأهمية. أزعجتها بشدة الفكرة، وتذكرت أصدقاءها آل لارسون في فلسطين، وفكرت فيما سيحل بهم.

قالت إنجريد لچيمس: «لقد تم نهب المحل اليهودي الذي أشتري منه جواربي».

تم هذا النهب بعد يوم واحد من إنشاء دولة إسرائيل في عام 1948 .

قال چيمس: «لست مندهشًا، فبعد تقسيم فلسطين تصاعدت موجة معاداة السامية في مصر كلها، وليس فقط في الإسكندرية».

قالت إنجريد: «لقد صرخ رجل ذو لحية في وجهي، وطلب مني أن أغطي شعري. أيمكنك تخيل هذا؟ إنه أحمق بحق».

علق چيمس: «لا بد أنه عضو في جماعة الإخوان المسلمين، فشعبيتهم تتزايد».

سألت إنجريد: «مَن هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟»

قال چيمس: «إنهم يكرهون الملك والغربيين، ويريدون لمصر أن ترجع إلى الحكم الإسلامي».

سألت إنجريد: «ولكن لماذا؟»

رد چيمس: «إنهم يعتقدون أننا نحيا حياة منحلة أخلاقيًّا. لقد تم تحذيرنا منهم، فلقد أصبح لديهم ميليشيات خاصة، ويمكن أن تزداد خطورتهم».

قالت أنجريد: «يبدو الأمر مفزعًا. لم يساندهم أحد، فالمصريون لا يميلون إلى العنف».

قال چيمس: «قد يساندونهم، فالإخوان يوزعون أدوية مجانية، وبوليصات تأمين، ويعطون قروضًا للفقراء».

قالت إنجريد: «لا يبدو ذلك سيئًا».

قال چيمس: «لكنهم لديهم أجندة خفية أكثر صرامة وعنفًا»

ارتجفت إنجريد من الفكرة: «أنا هدف سهل لهم نظرًا لكوني شقراء».

قال چيمس وقد بدا عليه القلق: «أنت كذلك فعلًا؛ لذلك أريدك أن تعديني بتوخي الحذر. لا يجب أن تبقي هنا».

قالت إنجريد بمرارة، وهي تعرف أن أيامها في مصر أصبحت معدودة: «لقد سمعت هذا الكلام من قبل».

بمجرد انتهاء الانتداب البريطاني في الخامس عشر من مايو عام 1948 اشتركت الجيوش المصرية والسورية والعراقية والأردنية في حرب لمواجهة دولة إسرائيل.

قال چيمس لإنجريد بعد عدة أيام: «لقد تم نقلي».

سألت إنجريد: «ماذا يعني ذلك؟»

أوضح چيمس: «يعني أننا لن نستطيع رؤية بعضنا البعض مرة أخرى».

سألت إنجريد بصوت واهن: «لكن، إلى متى؟!»

أقر چيمس: «لا أعرف».

تنهدت إنجريد: «قد أكون في السويد عندما تعود».

أخذها چيمس بين ذراعيه عند الفراق، وطبع على شفتيها قُبلة طويلة. كانت هذه هي قُبلة إنجريد الأولى. تسمرت إنجريد في مكانها، ونسيت حتى شعورها

بالانزعاج. بمجرد رجوعها إلى المنزل، فتحت الخطاب الذي ستبعثه إلى ليلى، وأضافت في أسفل الخطاب بخط صغير : «لقد قبلني لأول مرة. كم كانت اللحظة

رائعة». وضعت إنجريد الخطاب في الظرف، وتمنت ألا يقع الخطاب في يد والدي ليلى.

أسرعت هيلدا لتخبر نان وإنجريد بينما كانا يحتسيان الشاي في الشرفة: «سيتزوج الملك مرة ثانية من امرأة تُدعى ناريمان. هل يمكن تخيل هذا؟ زوجة جديدة!».

قالت نان: «لقد كان هو وفريدة نموذجًا رائعًا. ماذا سيحدث لفريدة؟»

ردت هيلدا: «جميع أصدقائي الذين قابلتهم عند المصفف كانوا في غاية الغضب لأنه ترك فريدة، هذه المرأة الجميلة الساحرة».

قالت نان التي تميزت بحاسة سادسة لا تخطئ أبدًا: «لا تسير مصر في الطريق الصحيح. أستطيع أن أستشعر

هذا».

علقت هيلدا: «لقد فقد الملك احترامه منذ أعلن عن فتوى انتمائه لنسل النبي».

سألت نان: «كيف يمكن أن يكون بهذا الغرور؟!»

ردت هيلدا: «مما لا شك فيه أن الناس غير راضية تمامًا عن هذا».

في تلك الليلة سمعوا في الأخبار عن فساد حزب الوفد الحاكم.

سأل خالد، الفلاح البسيط في مقابلة إذاعية: «ماذا قدموا لنا؟ أريد أحمد حسين».

كانت شعبية أحمد حسين، زعيم الحزب الاشتراكي تزداد يومًا بعد يوم بين العمال الذين شجعهم النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي».

أعلن المذيع : «لقد تم حل جماعة الإخوان المسلمين».

في هذا الوقت كان جمال عبد الناصر أحد الضباط المشاركين في حرب فلسطين. أحبطته كثيرًا هزيمة مصر في الحرب، وإخفاق الملك في إدارة البلد سياسيًّا، وتم

تشكيل حركة بقيادة جمال عبد الناصر.

قال طورشتين: «لقد أصبح الأجانب والطبقة العليا في مصر مكروهين. سيتم غلق المحاكم المختلطة قريبًا، وسيتعين علينا الرحيل».

سألت هيلدا: «لكن لن نرحل قبل عام 1949 ، أليس كذلك؟»

رد طورشتين: «بلى، ما زال لدينا عام آخر في مصر، إلا

أن إنجريد سترحل قبلنا».

أخبرت هيلدا إنجريد قائلة: «ستذهبين إلى أبسالا للدراسة».

صعدت إنجريد إلى غرفتها، وأجهشت بالبكاء. سيطرت فكرة واحدة على عقلها: «ربما لن أرجع إلى مصر مرةً أخرى».

لم تمانع إنجريد أن يوبخها رجل ذو لحية طالما ستستطيع البقاء بمصر، بلدها الذي أحبته. الشيء الوحيد الذي يشير إلى كونها سويدية هو جواز السفر السويدي، فيما عدا ذلك فهي لا تشعر أنها سويدية. كانت دائمًا تشعر أنها مصرية شقراء حتى إنها كانت ستحصل على جواز السفر المصري.

راود الأمل إنجريد أن يحصل والدها على وظيفة أخرى بمصر بعد غلق المحاكم المختلطة حتى يتسنى لها البقاء في مصر.

قال طورشتين مُذكرًا إنجريد: «حل المحاكم المختلطة تم إقراره في اتفاقية مونترو في الثلاثينيات».

سألت إنجريد: «لماذا لا تعمل مع صديقك كاسترو إذن؟»

رد طورشتين: «إنه يريدني معه، لكنني لا أشعر أن مصر تسير في الاتجاه الصحيح الذي يسعدني. لم يعد الأجانب مُرحبًا بهم في مصر. الوقت قد تغير، وتغيرت الأشياء معه».

سرعان ما أزف الرحيل. حزمت إنجريد حقائبها لترحل عن بلدها مصر. كان حزنها أكبر من أي كلام، ولم تستطع إقناع طورشتين ببقائها في مصر.

أكدت هيلدا لإنجريد: «سنذهب جميعًا إلى السويد في

إجازة الصيف كما هو معتاد».

قالت إنجريد: «لكن سرعان ما ستتركاني في أبسالا، وتبحران عائدين إلى مصر».

أكدت هيلدا: «فقط لعام واحد. ستكونين بخير».

نظرت إنجريد طويلًا إلى الشاطئ، والصمت يحيطها. لن تستطيع حضور زفاف ليلى، فالزفاف في سبتمبر، وحينذاك ستكون في السويد.

قالت إنجريد في صمت: «لماذا يتعين عليَّ الرحيل. لا أريد أن أغير حياتي. سأحصل على ليسانس الآداب في الفرنسية، والإنجليزية، الأمر الذي يتطلب مني عامين. أنا

أجيد اللغتين بالفعل منذ الآن. يجب أن يرضي هذا والدي، وأستطيع أن أعمل كسكرتيرة في أي مكان آخر. لن أمكث في السويد المظلمة الباردة».

كتبت إنجريد خطاب وداع لچيمس تخبره بما تكنه في قلبها، وكيف أنها تشعر بالحزن الشديد لأنها لن تراه مرة أخرى. ذهبت بنفسها إلى مكتب البريد لتتأكد من

إرسال الخطاب، وبكل الحب طبعت قُبلة على الخطاب قبل أن تسلمه إلى موظف مكتب البريد.

في نهاية شهر يونيو، أبحرت إنجريد إلى أوربا. وقفت على متن السفينة، عيناها لا تغادران الميناء حتى اختفى وراء الأفق. حينها فقط وافقت أن تذهب إلى كابينتها

التي تشاركها فيها نان. لم تذرف دمعًا، فلم يكن لديها المزيد من الدموع لتذرفها. شعرت أنها خاوية، يملؤها الفراغ، كما شعرت بالعجز، ولأول مرة ندمت

إنجريد على كونها امرأة، فلو كانت رجلًا لأبحرت عائدة حينما تريد.

ذهبت هيلدا وطورشتين كالعادة لقضاء الصيف في السويد. تركت هيلدا إنجريد مع عماتها في أبسالا بعد انتهاء إجازة الصيف، وأبحرت عائدة إلى الإسكندرية مع

طورشتين. أصبح القضاء في يد المصريين بشكل كامل، ونتيجة لذلك ترك آلاف الأجانب مصر. كان معظمهم من أصحاب المحال اليونانيين، والإيطاليين. معظمهم

رجعوا إلى أوطانهم الأصلية التي لم يعرفوها، حيث عاشت أجيال من اليونانيين والإيطاليين في مصر لعقود طويلة. هاجر البعض إلى كندا وأستراليا بعد مغادرة

مصر. كان اليونانيون أكبر جالية أجنبية في مصر، ونافسوا اليهود في السيطرة على التجارة المصرية. بدأت التغيرات الدولية قبل ثورة جمال عبد الناصر عام 1952 .

أعلن طورشتين فور رجوعهما إلى الإسكندرية: «لقد تم تعييني كقاضٍ في المحاكم العليا السويدية».

تلقت إنجريد خطابًا من صديقتها ليلى عام 1952 ، جاء ما يلي:

«يجب ألا تحزني على مغادرة القاهرة، فلم يعد شيء كما كان عليه. بدأ الأمر بقتل الإنجليز بعض الضباط المصريين، عدد قليل على ما أعتقد، لكني لا أعلم بحق.

على أية حال، شعر الضباط المصريون بالغضب والحنق الشديد حتى إنهم تركوا ثكناتهم. رأيناهم من شرفة منزلي يتوجهون مع طلبة من جامعة القاهرة. أذهلنا

المشهد، حيث رأينا ضباط الشرطة والطلبة يدًا في يد.

كانوا يصرخون، ويهتفون، وعلى وجوههم علامات الغضب. لم يسمح لي زوجي بالبقاء في الشرفة لخطورة

الوضع.

في يوم السبت الموافق السادس والعشرين من شهر يناير، تحوَّلت القاهرة إلى كتلة مشتعلة من اللهب، حيث حُرق أي شيء يمثل الحكومة وأعوانها.

أغلقنا الأبواب، ولم نغادر منزلنا لأيام حتى توقف إطلاق النار، ودخان النيران المتصاعد. خرجت مع والدتي لتفقد الشوارع، وذهلنا مما رأيناه. بكت أمي بينما

وقفت أنا أحدق في ذهول للسينما التي اعتدنا الذهاب إليها، فلم يتبق منها سوى رماد. سرنا دون توقف، ولم نصدق حجم الدمار الذي شاهدناه: البارات،

والمحلات، والبنوك، والفنادق، والنوادي، وحتى دار الأوبرا، جميعها كساها اللون الأسود من أثر الحريق. بدا الأمر وكأن حربًا شُنت في وسط المدينة، وكأنهم

أرادوا أن يدمروا كل شيء له علاقة بالطابع الأجنبي أوالطابع الثري.

ترفض أمي الخروج، وترتدي دائمًا اللون الأسود بدلًا من ملابسها الأنيقة. أعتقد أنها في حالة من الفزع والصدمة معًا.

فقد العديد من المصريين والإنجليز حياتهم. ميناهاوس هو المكان الوحيد الذي لم يطله الدمار، ويرجع الفضل في هذا إلى سائقي الجِمال الذين حموا مورد رزقهم

من الفوضويين.

والآن عليكِ أن تتخيلي. لن تستطيعي التعرف على

المدينة، فلم يعد شيء كما كان عليه. من الأفضل ألا تري هذه الفوضى. لا أعلم إلى أين نتجه. كلنا خائفون. كم
أفتقدك، وكم أفتقد حياتنا الهادئة».

امتلأت عينا إنجريد بالدموع، فمدينتها تحيا الدمار. افتقدت إنجريد مصر كثيرًا لدرجة تعجز الكلمات عن التعبير عنها.

عاشت إنجريد أعوامًا كثيرة في مصر دون أن تدري ما الذي يحدث بعيدًا عن حياتها الخالية من الهموم، وفجأة لاحت في الأفق لإنجريد حقيقة ما: إنها لم تعرف
مصر حق المعرفة، رغم كل السنوات التي قضتها هناك.

كانت حياتها في السويد،على عكس مصر، حياة رتيبة باردة حتى إنها تقدمت لوظيفة خارج السويد لتبتعد عنها. تم إرسال إنجريد إلى واشنطن في أول وظيفة لها.

كتبت إنجريد ردًّا على رسالة ليلى تقول:

«كم أشعر بالأسى لما سمعته من أخبار. علمت أن كل أصدقائنا الأجانب قد غادروا مصر. أستطيع أن أتخيل مدى حزنك، وحزن والدتك. أنت على حق، أنا سعيدة
لأنني لم أشهد هذا الدمار.

لدي أخبار جيدة. لقد قابلت في عملي أكثر الرجال وسامة: دبلوماسي سويدي يكبرني بسنوات قليلة. إنه ليس أشقر كوالدي. شعره أسود داكن. لقد أخبرني أن أحد
جدوده من الهند. ينتمي هذا الجزء الهندي الذي يسير في عروقه إلى والدته الإنجليزية. هل تتخيلين هذا؟ كم

هو غريب! لقد تمت خطبتنا استعدادًا للزواج. اسمه

أكسيل إيديلستام. أتمنى أن أقدمه لك قريبًا. كم أتمنى أن أعود إلى مصر.

تم نقل والدي إلى برلين رئيسًا للمحكمة العليا. وظيفته أن يعيد ما سرقه النازيون للضحايا إلى جانب مهام أخرى » .

لم يشهد آل طورشتين سالين الدمار الذي لحق بالقاهرة، ولا الثورة التي قام بها الضباط الأحرار في الثالث والعشرين من يوليو عام 1952 . تولى علي ماهر منصب

رئيس الوزراء، وبعدها بعدة أيام وجه الضباط الأحرار للملك تحذيرًا أخيرًا: أن يتنازل لابنه أحمد فؤاد عن الحكم، ويترك مصر مع عائلته في نفس الليلة. رحلت

العائلة المالكة على يخت المحروسة بعد إطلاق إحدى وعشرين طلقة لوداع الملك، وكانت تلك هي نهاية الحكم الملكي في مصر.

قالت هيلدا: «يا لها من نهاية حزينة للملك!».

رد طورشتين: «أنا سعيد أننا رحلنا قبل أن يصير كل هذا. أحيانًا كنت أتساءل إن كنت قد اتخذت القرار الصحيح، لكني الآن متيقن أنني كنت على حق، فلا أريد أن

أرى ما حل هناك من دمار».

انطوت صفحة غير عادية من تاريخ مصر لتبدأ أخرى: عهد عبد الناصر بما شهده من اشتراكية، وتأميم. في هذه المرحلة انعزلت مصر عن الغرب، وتحالفت مع

الاتحاد السوفيتي.

لم يرجع أحد من آل طورشتين سالين إلى مصر طيلة

حكم عبد الناصر. تغيرت صورة مصر التي كان يعيش بها أجانب من مختلف الأعراق والجنسيات. تم طرد

الأجانب من مصر ليواجه هؤلاء الذين أسهموا في تحديث الدولة مصيرًا قاسيًا. اختفى الأجانب واليهود من مصر، وشهد عهد عبد الناصر رقابة صارمة، حتى

أصبح السجن البيت الثاني للمثقفين، والمحامين، والصحفيين، والكُتَّاب، ورجال السياسة، كما تم سجن بعض أصدقاء آل طورشتين سالين في هذه الفترة.

قالت هيلدا، وقد تلقت العديد من الخطابات من أصدقائها المقربين في مصر: «لقد تلقيت أخبارًا سيئة من عائلة وهبة وغيرهم. لقد تم تأميم عزبتهم».

قرر الضباط الأحرار مصادرة أي مبلغ من المال يتعدَّى عشرة آلاف جنيه. يعني هذا مصادرة أي أملاك تفوق قيمتها مبلغ عشرة آلاف . على سبيل المثال: فيلًّا في

جاردن سيتي، أو أسهم في بنك، إلى آخره. أعلن أربعة آلاف شخص من الأغنياء إفلاسهم في ليلة وضحاها، أما العاملون في مجال الصناعة، فقد تم تجميد

أملاكهم، وأخذ ضباط الجيش مكاتبهم. أصبحت القاهرة الآن ملكًا لكل شخص بعد أن كانت تتميز بالأغنياء والأجانب، حيث خلقت الثورة طبقة جديدة: البرجوازية الصغيرة.

تعلم الناس الحداثة دون أن يبيعوا أنفسهم للغرب. سرعان ما أصبحت القاهرة عاصمة للعالم العربي. قام الكتاب والفنانون ومخرجو السينما بتصدير أعمالهم للدول العربية الأخرى.

تم تحرير المرأة، لا بفضل سياسات عبد الناصر، لكن

بفضل الحركة النسائية التي كانت موجودة قبل تولي عبد الناصر الحكم بفترة طويلة. أصبح من النادر أن ترى امرأة تغطي وجهها، أو شعرها، وأصبح في القاهرة العديد من طبيبات الأسنان أكثر حتى من عدد طبيبات الأسنان في المدن الأوربية. تم فرض الرقابة على الأصوليين الإسلاميين، أما المتطرفون منهم، فقد تم الزج بهم في السجن. غازلت بعض الجوامع الفكر الاشتراكي، وامتدحته كأحد أشكال الإسلام.

كتبت ليلى لإنجريد تقول:

«الحياة هنا تغيرت حقًّا. امتلأت القاهرة بأبناء القرى الذين أتوا للدراسة. وعدهم عبد الناصر بفرص عمل. على الرغم من أنهم أصبحوا من ملاك الأراضي إلا أن الشباب الصغير فضل أن يأتي إلى القاهرة. لقد تم اعتقال والدي، وبعض أصدقائه. مرت فترة طويلة على غياب والدي عن المنزل».

بعدها مباشرةً لم تستطع ليلى أن تكتب بحرية لإنجريد، حيث كانت الخطابات مراقبة، وكان يتم فتحها وقراءتها.

توسلت ليلى في أحد خطاباتها لإنجريد: «فقط اكتبي لي عن عائلتك».

فهمت إنجريد أن صديقتها ليلى لا تستطيع ذكر أي شيء عن الأوضاع في مصر.

على الرغم من افتقاد إنجريد بلدها الحبيب مصر فإنها أدركت أن مصر لم تعد مصر التي تعرفها. انتهت فترة حزن إنجريد، وبدأت تشعر بالسعادة مرة أخرى لاستقرارها في بلد غربي. لم تدرك إنجريد آنذاك أن علاقتها بمصر لم تنتهِ بعد..

الفصل الحادي عشر

موت رئيس

قال أكسيل لإنجريد، وهو لا يصدق ما يقرأ: « لقد تُوفي عبد الناصر».

جلس أكسيل في المطبخ يتصفح جريدة الصباح «س ف ينسكا داجبليديت»، الصحيفة السويدية اليومية. خطفت إنجريد الصحيفة من يده، ولم تستطع أن تمنع

نفسها من قراءة كل كلمة بصوت مرتفع:

«سيتولى الرئيس أنور السادات الحكم بعد رحيل عبد الناصر. من المعروف أن السادات له توجهات مختلفة عن عبد الناصر، حيث يريد أنور السادات أن يمنع

الرقابة، وأن يشجع المناقشات السياسية، ويفتح مصر على السوق الأوربية، كما يريد إقامة سلام مع إسرائيل».

سمعت أمي تصيح: «أخيرًا».

قال والدي أكسيل: «ربما ستعود الديمقراطية إلى مصر الآن».

كان هذا العام عامًا حافلًا لأمي إنجريد، حيث رجعنا من چنيف إلى ستوكهولم. كان والدي يعمل في نزع السلاح بمقر الأمم المتحدة. انتهى بنا الحال في شقة

أجدادي طورشتين وهيلدا بعد أن فارقا الحياة منذ بضعة أعوام دون أن يعودوا إلى مصرهم الحبيبة.

استيقظت صباحًا، وأنا لا أدري سبب الهرج والمرج الدائر حولي.

تسلل نور الصباح بهدوء ولطف إلى غرفة جدتي هيلدا،

وسريرها الخشبي الأبيض بمرتبته الزرقاء المقلمة باللون الأصفر، ومفرش السرير الكتان المطرز الذي جلبته

من مصر منذ سنوات عديدة لولعها بجودته الممتازة. أصبح هذا المفرش جزءًا من ميراث أمي إنجريد، وها أنا أنام على سرير جدتي، يحيطني هذا المفرش الذي يشبه

الحرير في نعومته. استلقيت على السرير أستمتع بمزيد من لحظات الاسترخاء بعد استيقاظي من النوم.

لمست قدماي السجادة الناعمة التي تغطي أرض غرفتي باللون القرمزي، لون غرف الفتيات الصغيرات. صرت أعشق تلك الغرفة رغم أنه لم يكن عشقًا من النظرة

الأولى. كان الانتقال إلى شقة جدتي الواسعة في ستوكهولم والمطلة على وسط المدينة المزدحم صدمة لي مقارنةً بمنزلي الجميل الذي كان يتوسط متنزهًا عامًّا خصبًا

تملؤه الأشجار والزهور بإحدى ضواحي چنيف.

قلت لأمي شاكية في أول صيف أقضيه بالسويد: «كم أكره هذا المكان».

تعلمت الفرنسية في چنيف بسويسرا. لا أتذكر الكثير من سنواتي الأولى بباريس. كنا نقيم خارج المدينة في قرية صغيرة: رقم واحد، طريق القرية. كانت الحديقة

أشبه بالمتنزه العام، بها منزل حجري رمادي اللون يعيش فيه «الجد والجدة»، حيث اعتاد الأطفال أن يطلقوا هذا اللقب على الزوجين اللذين يقطنان المنزل

الحجري، أما أولاد وأحفاد الجد والجدة، فكانوا يسكنون في منزل آخر صغير في المنطقة اليابانية، وبعدها يأتي منزلنا الأصفر اللون. كان للجد والجدة اصطبل

للخيل. اعتاد والدي ركوب الخيل هناك، كما كان يوجد حمار أمتطيه، أما الأرانب فقد كانت كثيرة العدد كفريق الكرة. هذا إلى جانب القطط، والكلاب، والأشجار

التي كنت أتسلقها، وأقضي فوقها الكثير من الأوقات، ربما أكثر من الأوقات التي كنت أقضيها على الأرض مع الحيوانات الأليفة.

تعلمت الفرنسية من الاستماع إلى الأطفال الآخرين، ومن الاستماع إلى المدرسة التي كانت تعشق أكل الشوكولاتة. بعد ستة أشهر من الصمت التام، فتحت فمي

ونطقت بالكلمات الفرنسية التي كنت أنطقها باللهجة السويسرية.

فكر والداي في إرسالي إلى مدرسة داخلية بالسويد كما هو الحال مع أبناء الدبلوماسيين.

قال والدي في محاولة لإقناعي: «ستتعرفين على الأطفال السويديين».

قلت له : «لن أستطيع المكوث هناك. سأهرب. ألا تتذكر ما حدث في المعسكر؟»

أرسلني والداي مرة مع أخي إلى معسكر صيفي في شهر يوليو في السويد. كان معسكرًا صارمًا للألعاب الرياضية التي كنت أكرهها.

قال والدي: «ستكونين مع أخيك طورشتين لتفسري له الكلام».

كان أخي الذي حمل نفس اسم جدي أصمَّ.

حاول أخي تكوين صداقات، لكن كونه أصمَّ وقف حائلًا دون ذلك، وانتهى بنا الأمر بالهروب من المعسكر بعد سرقة الآيس كريم.

قلت لوالدي بصراحة: «لم تُخلق حياة المدارس الداخلية لي».

قالت إنجريد: «فلتدعها تقم معنا، فلا يوجد غيرها في المنزل الآن».

تم إرسال أخي طورشتين إلى مدرسة خاصة بتعليم الصم في السويد، وكان يقضي إجازاته معنا.

لم يكن عندي أي مانع لتعلم لغة جديدة للحياة بعيدًا عن السويد، فلم تعجبني السنوات القليلة التي قضيتها في السويد في المدرسة السويدية. صدم أتوبيس

أخي طورشتين، وكان عليه أن يحيا بنصف سنة ذهبية في الصف الأعلى الأمامي من أسنانه. اعتدت التسلل في فصول الشتاء هربًا من المدرسة للعودة إلى المنزل.

كنت أمر بالحديقة المظلمة في طريقي إلى المنزل، ودائمًا كنت أخشى مدمني المخدرات المختبئين هناك. عندما أخبرتني أمي ونحن في طريقنا من المدرسة للمنزل

بچنيف أننا سننتقل إلى السويد، تذكرت كل تلك الذكريات البائسة في السويد، وأجهشت بالبكاء.

توسلت إلى أمي: «اتركيني هنا. سأقيم مع صديقتي كريستا، فعائلتها تحبني».

قالت إنجريد: «مستحيل، ما زلتِ صغيرة جدًّا. ستسير

الأمور بشكل جيد. سترين هذا بنفسك».

كان من الصعب أن يغويني أي شيء في السويد، كما أني رفضت الذهاب إلى المدرسة السويدية. انتهى بي الأمر بالمدرسة الفرنسية في ستوكهولم. كان هناك العديد

من الطلبة مثلي يتنقلون من بلد لبلد. عند وصولي ستوكهولم، قادتني أمي إلى شقتنا، حيث غرفة المعيشة التي تطل على الميدان، ثم غرفة الطعام التي تطل على

الفناء، ثم غرفة نومي المجاورة للحمام.

قالت أمي وعيناها تلمعان: « عندي مفاجأة لك».

حاولت أمي أن تواسيني فأرضتني بغرفة نوم مزينة كغرف نوم الأميرات.

تجلس أمي في المطبخ، ورائحة الخبز الطازج تداعب أنفي، ولكن لماذا تصرخ أمي؟! نهضت من سريري. كنت أرتدي الكيمونو، عباءة يابانية للنساء مزينة بالورد

والطيور، اشتراها لي جدي طورشتين من اليابان منذ سنوات. وقعت عيناي على الكتاب الذي يرقد إلى جانبي، وواجبي المدرسي الذي لم أؤده باتقان، وتساءلت: لماذا صممت على المدرسة الفرنسية رغم أن النظام السويدي في التعليم أيسر كثيرًا؟ لقد أحببت مدرستي الصغيرة الممتلئة بطلاب من مختلف الجنسيات. كل

الطلاب مثلي: أُقتلعوا من جذور أوطانهم، ولا يشعرون في قرارة أنفسهم بانتمائهم إلى أية جنسية.

ذهبت إلى المطبخ، وعلمت بموت جمال عبد الناصر.

استمرت أمي في ترديد جملة واحدة: «يصعب تصديق هذا».

تُوفي جمال عبد الناصر في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر من عام 1970 . شيع جثمانه ما يقرب من خمسة ملايين مواطن في الأول من أكتوبر. جلست مع

أبي، وأمي، وأخي نشاهد مراسم الجنازة التي بثتها القناة السويدية المحلية. توجهت أنظارنا صوب شاشة التلفزيون الأبيض والأسود.

قال والدي أكسيل: «خمسة ملايين مواطن! هذا أكثر من نصف تعداد سكان السويد».

ردت إنجريد: «يبدو أنه كان محبوبًا».

قال أكسيل: «أتعجب من هذا خاصةً في ظل ما آل إليه الحال في مصر».

تولى أنور السادات رئاسة مصر التي كانت ممزقة آنذاك، وتعاني من الكثير من المشاكلات الاجتماعية والاقتصادية.

أعلن مذيع القناة السويدية ما يلي:

«كان أنور السادات صديقًا مقربًا لعبد الناصر. ينتمي أنور السادات لعائلة متواضعة في قرية صغيرة في الدلتا إلا أنه درس كعبد الناصر في الأكاديمية العسكرية في

القاهرة. أصبح الاثنان ضابطين، وتم إرسالهما إلى الصعيد. تزوج السادات بدايةً بزوجة ريفية بسيطة، ثم طلقها وتزوج مرة أخرى من چيهان، وهي فتاة يجري

الدم الإنجليزي في عروقها لكون والدتها إنجليزية. لا عجب إذن أن السادات منفتح على الغرب».

علق أكسيل: «بعد عقود من تأثير الاتحاد السوفيتي

على مصر، أخيرًا وجد الغرب فرصة على ما يبدو».

قالت إنجريد بحماس حتى إنها سمعت دقات قلبها السريعة: «أخيرًا، يمكنني الرجوع إلى مصر. لم أكن أعتقد أن هذه اللحظة ستأتي أبدًا».

تذكرت إنجريد طفولتها في القاهرة، وروعة الناس في مصر، والحرية، والمحلات الأنيقة، والحدائق الخصبة، حتى رائحة الهواء استشعرتها في أنفها.

قالت إنجريد باللغة العربية: «اللّه أكبر».

قلت لأمي، وقد أثارت عادتها في ترديد بعض الكلمات العربية غضبي: «كم أتمنى أن تتوقفي عن ترديد الكلمات باللغة العربية».

تنهدت إنجريد قائلة: «ربما ستستطيعين فهمي أكثر عندما ترين مصر».

احتسيت بسرعة فنجان الشاي مع قليل من اللبن، والخبز، والجبن النرويجي المقطع في شكل رقائق رفيعة، وهي عادة اكتسبتها أمي من مربيتها النرويجية نان

عندما كانت في القاهرة.

قلت لأمي التي عنفتني لتناولي الفطور بسرعة: «لا أريد أن أتأخر».

أسرعت إلى الغرفة. تطلب مني الأمر دقيقتين لاختيار الملابس: البنطلون الچينز الممزق تماشيًا مع الموضة، والقميص، والچاكت. كان ذلك وقت انتشار الهيبيز،

وعلى الرغم من أني كنت صغيرة جدًّا لدرجة أنني لم أكن أدرك أي شيء عن حركة السلام والحب التي نشرها الهيبيز فإنني استطعت أن أرتدي الملابس

المتماشية

معها.

مشطت شعري المتشابك الطويل الذي كان يتدلى ليغطي عيني، ونظفت أسناني بالفرشاة .

قالت أمي وقد استخدمت كلمة عربية أخرى: «إن شاء اللّٰه ستصلين في موعدك».

أجبتها رغمًا عني: «إن شاء اللّٰه».

لم أحظ بكثير من التعليم المسيحي. كان يتم تدريس التربية الدينية في المدرسة الفرنسية للكاثوليك فقط، وكنت أنا، مثلي مثل معظم السويديين، أنتمي إلى

المذهب اللوثري. لم تذهب أسرتي أبدًا إلى الكنيسة إلا في حالة حضور مراسم جنازة، أو حفل زفاف، كما أننا لم نذهب إلى أي كنيسة في أثناء الأعوام التي عشنا

فيها بالخارج.

انشق مارتن لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر. انتقد مارتن لوثر ثروات الكهنة، كما انتقد العمل على نقيض رسالة المسيح التي تحث على نقاء

الإيمان، والاعتقاد بالقديسين. كان لوثر يعظ الناس للتقرب إلى اللّٰه، والدعاء له دون وسيط مثل الكاهن أو مثل الاعتراف للكهنة.

قالت لي أمي: «في هذا الشأن، يقترب لوثر من فكر النبي محمد، وفهمه للإله».

علمتني نان، مربية أمي، الصلاة. كنت أصلي كل مساء لأسرتي، وأصدقائي، وحتى لعبي التي تمثلت في دُبِّي الصغير، كما كنت أصلي لحيواناتي الصغيرة. كان

الأمر يتطلب مني بعض الوقت كل مساء.

صرح لي والدي ذات يوم قائلًا: «حان وقت تثبيت العماد. ستذهبين إلى الكنيسة كل أسبوع لتكتسبي بعضًا من المعرفة عن المذهب اللوثري».

حاولت أن أعترض: «ولكن»...

قال أبي بشكل حاسم: «بدون لكن».

يبدو أن والديَّ قد أرادا أن أعرف نُبذة عن المعتقد الديني الذي أنتمي إليه. يتم تلقي التعليم الديني في السويد مرة كل أسبوع لبضعة أشهر من خلال تدريب صيفي خاص في المدرسة. لم أستمتع بالتدريب، وتعلمت القليل حتى وصلت بمعجزة إلى المرحلة النهائية الخاصة بالاحتفال. كنت أنا وغيري من الفتيات نرتدي ثيابًا بيضاء، كنا نبدو كالملائكة الذين لا نشبههم في شيء. توجهنا إلى المذبح، وسألنا الكاهن بضعة أسئلة. أجبنا قدر المستطاع، وأخيرًا تم تثبيت العماد.

قلت لأبي: «لم يزدد إعجابي بالكنيسة، وأشعر بالأسى عند رؤية المسيح مصلوبًا».

لم تعجبني سلطنة الكهنة، ولا ثراء الكنيسة. كنت دائمًا أرى أنه يجب توزيع هذه الثروة على الفقراء، أو على الأقل يجب أن يستفيد الفقراء من هذه الثروات، كما كنت أرى أنه من المرعب حقًّا أن أصلي وأنا أنظر إلى رجل يتعذب.

قال أبي: «أتمنى أن يأتي اليوم الذي تفهمين فيه رمزية هذه الأشياء».

أجبته في عناد: «أؤمن أن الله موجود في كل مكان، كما

أنه لا يصيبني بالملل مثل الكهنة».

قررت أن أؤمن بالملائكة التي ترعاني بتوجيه من الإله. كانت الهدايا التي تلقيتها بعد تثبيت العماد مجزية حقًّا. حصلت على سوار ذهبي خاص بجدتي مكتوب عليه: «الله معك»، ومنذ حينها وأنا أرتديه.

ما زلت أذكر جدتي. أغمض عيني، وأتذكر كل تفاصيلها: شعرها الملفوف، الابتسامة التي تضيء وجهها، وقرطها الماسي الذي ما زلت أرتديه. كانت سيدة ذات جسد

صغير متناسق بحق. بكيت كثيرًا في جنازتها. اصطففنا جميعًا في الكنيسة. جلست العائلة الأقرب لهيلدا في الصف الأمامي بينما وقف الكاهن خلف النعش الأبيض

المُغطى بزهور مختلفة الألوان، وبدأنا ننشد الأغاني الجنائزية الحزينة.

قال لي والدي وأنا أبكي بشدة: «آن، حاولي أن تتمالكي نفسك».

كان والدي من جيل الرجال الذين لا يفضلون إظهار مشاعرهم على الرغم من كونه رجلًا شديد الحساسية. لازمتني جدتي وذكرياتها، ومن خلالها لازمتني مصر

طيلة حياتي دون حتى أن أدرك أو أشعر بهذا.

قالت إنجريد بعد موت عبد الناصر: «فلنأخذ الأولاد إلى مصر في إجازة الكريسماس».

قال والدي أكسيل الذي كان يضع أمان أطفاله في المقام الأول: «لكن، هل تعتقدين أن مصر أمان للأجانب؟ تعلمين كيف تم طرد الأجانب من مصر. دعيني أتحرى أولًا».

قالت إنجريد: «ومَن يدرك هذا أفضل مني؟ لقد كان هذا في بداية حكم عبد الناصر، وها هو قد رحل الآن».

كانت إنجريد تدرك أن الجاليات الإيطالية، والفرنسية، واليونانية، والإنجليزية، والأرمنية، واليهودية، جميعها رحلت من مصر بعد أن أحكم عبد الناصر قبضته

الحديدية على مصر. بدأ التأميم على أوسع نطاق على غرار الاتحاد السوفيتي، وأصبح هوس العظمة عند عبد الناصر ظاهرًا للعيان.

قالت إنجريد: «على الأقل استطاع عبد الناصر إيقاف الإسلاميين عند حدهم».

علقت أكسيل: «ولكن، ماذا كان الثمن؟ سأذهب للعمل الآن. سأتفقد الموقف وأبلغك لاحقًا».

نزل أكسيل على السلالم بقامته الممشوقة، وجسده النحيل، ومظهره الأرستقراطي، وركب دراجته.

لم يكف أكسيل عن ترديد هذه العبارة كلما تسنى له ذلك: «أملك هذه الدراجة منذ الخدمة العسكرية»، وكلما طلبت منه دراجة جديدة بعد أن أهلكت دراجتي

الصغيرة القديمة، كان يقول: «جيلي لم يكن يتلف الأشياء. لقد عشنا في أوقات الحرب كما تعلمين».

اعتدت أن أرد عليه باحتجاج: «لكن السويد لم تكن طرفًا في الحرب!»

قال أكسيل: «ما زال يتعين عليك أن تقدري ما بين يديك، بدلًا من طلب المزيد».

تربى والدي في أسرة ذات أصول طيبة، لكن كان ينقصها الإمكانيات. تعود والدي أن يدخر النقود منذ صغره. انطلق والدي، كما اعتاد كل يوم، بمعطفه

الأخضر،

وقبعته الصوفية، ودراجته مارًّا بمحطة السكة الحديد، ثم اتجه يسارًا من أمام الكوبري الذي يمر فوق المدينة القديمة، ثم أعلى التل حتى وصل إلى مكتب وزارة

الخارجية. سار أكسيل في ردهة القصر الأنيق الذي يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثامن عشر. كان والدي أكسيل سعيدًا بعودته إلى ستوكهولم.

قال أكسيل في قرارة نفسه: «لكنني أفتقد إجازة نهاية الأسبوع التي كنت أقضيها في رياضة الانزلاق على الجليد في جبال الألب. على أي حال، لا يأخذ المرء كل ما

يريد».

تذكر أكسيل أحد أسلافه: داج هامرشولد الذي حصل على جائزة نوبل، والذي كان أيضًا السكرتير العام الأسبق للأمم المتحدة. كان داج رجلًا نزيهًا، وقد كتب في

مذكراته التي نُشرت بعد موته يقول: «أما عن أبناء الرجال، فهم الخيلاء في الدنيا، فلا تترك نفسك للخيلاء الزائفة».

صعد أكسيل الدرج المرمري في طريقه إلى مكتبه، وبدأ يومه وهو مشغول البال.

قالت إنجريد لأكسيل بعد رجوعه المنزل: «آن في حاجة فعلًا إلى دراجة أكبر حجمًا. ربما نشتري لها دراجة في الكريسماس».

رد أكسيل: «لدي هدية أفضل لها ولنا جميعًا. سنذهب إلى مصر».

صاحت إنجريد: «رائع! لقد استعلمت عن الأمر إذن».

قال أكسيل: «نعم، الوضع آمن هناك، لكن يجب عليك أن تحاولي العثور على مرشد سياحي».

ردت إنجريد: « لدينا بضعة أسابيع فقط؛ لذلك يجب أن نقوم بالزيارة الكبرى للأقصر وأسوان».

لا تطيق إنجريد الانتظار، لكنها في ذات الوقت تتذكر ما قالته لها ليلى عن أن كل شيء قد تغير في مصر ما أقلقها كثيرًا.

تصارعت الأفكار في رأس إنجريد: «ماذا لو لم أستطع التعرف على المدينة؟ ماذا لو أصابني الإحباط؟ لقد مر أكثر من عشرين عامًا منذ أن غادرت».

ضربت إنجريد بقدميها على الأرض لتجذب انتباه ابنها الأصم طورشتين، ثم قامت بعمل إشارة الأهرام بيدها، وأجابها طورشتين بالإشارة معبرًا عن سروره لرؤية

الأهرام. اعتاد والدي أن يتحدث مع طورشتين بوضوح بدلًا من استخدام الإشارة على أمل أن يفهم طورشتين حركة الشفتين. كان ذلك بناء على نصيحة الطبيب،

لكن لم يجدِ هذا نفعًا، حيث لم تثبت هذه الطريقة جدواها.

قال أكسيل: «أخيرًا سنرى مدينتك. أتمنى أن يكون بيتك القديم هناك ما زال موجودًا».

ابتسمت إنجريد بمجرد تذكرها فيلا الأسعف: «وأنا أيضًا أتمنى ذلك. لن يكون هناك وقت لزيارة الإسكندرية».

كتبت إنجريد خطابًا لليلى التي ردت عليها بخطاب آخر، أرسلته عندما كانت في باريس، تقول فيه: «كم أنا متشوقة لرؤيتك، ورؤية عائلتك، لكن يجب أن تستعدي

نفسيًّا، فالقاهرة الآن تختلف تمامًا عن القاهرة التي عرفتيها يومًا. في أثناء حكم عبد الناصر لم

يتم صيانة خطوط الهاتف، والطرق، والصرف، حيث ابتلعت آلة الحرب الدائرة كل النقود. هناك نقص في السلع اليومية الضرورية. أحضري معك مناديل لدورات

المياه، ولمبة إضاءة، وصابون. منذ بدء الحرب مع إسرائيل عام 1967 ، نزح إلى القاهرة العديد من اللاجئين من القرى المحيطة بقناة السويس. ستجدين القاهرة

مزدحمة جدًّا. يرغب السادات حقًّا في انفتاح مصر مرة أخرى . لا يسعني غير تمني الأفضل، وقول إن شاء اللّه. أحلم أن تعود الديمقراطية مرة أخرى. ألن يكون

هذا رائعًا؟ أكرر مرة أخرى أنه بانتظارك صدمة كبرى عندما ترين مصر».

بعد شهرين حان ميعاد الذهاب إلى القاهرة.

قال أكسيل: «أتمنى أن تكوني مستعدة».

أجابت إنجريد بعصبية: «لست مستعدة تمامًا. كيف يتسنى لي ذلك؟»

قلت لوالديَّ : «لقد وضعت الشورت الجديد الخاص بي في حقيبة سفري».

لم ينتبه أحد إلى ما قلت. كان الشورت الجديد مصنوعًا من البليسيه، والصوف البرتقالي اللون، كما أخذت أيضًا جواربي الثقيلة، ربما احتجتها لتدفئني إذا كان

الطقس باردًا.

قال والدي: «ها نحن قد وصلنا».

هزني طورشتين لأستيقظ، وأشار إلى الأهرام من

نافذة الطائرة.

قلت بإحباط: «أستطيع رؤيتها وسط الرمال، لكن الأهرام تبدو صغيرة».

قالت إنجريد: «الأهرام ليست صغيرة. انتظري حتى تصلي إلى هناك وتريها عن كثب».

عندما فُتح باب الطائرة، أغمضت إنجريد عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا، وقالت: «ما زلت أشم رائحة شجر الكافور المحترقة كما اعتدت».

لم تجد إنجريد بعد هذه اللحظة أي تشابه بين ما كان عليه الحال سابقًا وما آل إليه الآن. كانت القطط تجري في مكان مهبط الطائرات، والكلاب الضالة تنبح،

وأوراق المخلفات تتطاير بفعل الرياح الساخنة والأتربة.

صاحت إنجريد بمجرد أن لامست قدماها أرض المطار: «يا إلهي! ماذا حدث؟ لقد كانت مصر أنيقة».

اختفى البريق من عين إنجريد، وشحب وجهها، وغادرت الابتسامة شفتيها، وظلت صامتة لوهلة.

قلت: «ماما، أنت لا تتكلمين ولو كلمة واحدة!»

حاولت إنجريد أن تبتسم لي . بحلول المساء، استعادت إنجريد مزاجها مع نسيم ليل القاهرة.

قال المرشد السياحي: «هذا القصر ذو الطراز الهندي كان ملك البارون إمبيان البلجيكي الجنسية».

قالت إنجريد: «قام رجال الصناعة الأغنياء ببناء هذه المنطقة بأكملها».

علق أكسيل: «لم تعد أنيقة».

قالت إنجريد: «كانت غاية في الأناقة، والجمال. كان

هناك العديد من الأصدقاء الفرنسيين والأقباط يعيشون هنا. تُرى، أين هم الآن؟ »

هزت إنجريد رأسها بأسى، وهي ترى الدمار الذي حل، والحزن الذي كسا المدينة.

قالت إنجريد: «كم أنا سعيدة أن والديَّ رحلا عن العالم قبل رؤية ما حل بالمدينة».

نظرت من النافذة في دهشة من كل تلك السيارات، والأتربة، والعربات الكارو التي تجرها الحمير، والناس الذين يركضون هنا وهناك عند إشارة المرور، وامرأة

تحمل طفلها الرضيع بيدٍ وباليد الأخرى تمسك طفلها الآخر، وأطفال يبيعون الزهور في الشوارع.

قالت إنجريد: «إنها رائحة الياسمين. رائحة جميلة حقًّا».

لم أرَ في حياتي شيئًا مثل هذا. الشوارع في ستوكهولم نظيفة، ومرتبة، وإشارات المرور سلسلة، حيث لا يوجد تكدس بالسيارات، وعندما تكون الإشارة حمراء

تتوقف السيارات، أما هنا فلا أحد يعير انتباهًا للإشارة إلا عندما يقوم الشرطي باستخدام صفارته.

كان أخي ينظر حوله أيضًا محركًا حاجبه لأعلى وأسفل ما يعني أنه يتحدث مع نفسه، أما وجه أبي فظل هادئًا، وغير معبر.

مررنا بمحطة قطار رمسيس، ورأيت تمثالًا ضخمًا من الجرانيت أمام المدخل.

همست والدتي إنجريد في أذني، وأشارت بيدها لطورشتين حتى يفهم ما يُقال : «لقد كان رمسيس فرعونًا عظيمًا. اعتدنا أن نأخذ القطار من هنا

للإسكندرية. لقد
كان هذا المكان جميلًا ونظيفًا آنذاك».

بمجرد أن وضعنا حقائبنا في الفندق توجهنا إلى جاردن سيتي، إلى المنزل الذي كان يقطن فيه آل سالين. صعدنا السلالم القذرة، وضغطنا على زر الجرس حتى

أتانا صوت رجل من خلف الباب: «مين؟»

حاولت إنجريد أن تجيب بقدر المستطاع بلغتها العربية الركيكة لتخبر الرجل أنها كانت تعيش هنا في طفولتها. أخيرًا فتح لنا الباب رجل غير مهندم يرتدي شبشبًا،

وبنطلون بيج قذرًا، وقميصًا أبيض مُبقعًا.

قال الرجل: «تفضلوا»، وأدخلنا إلى الشقة التي بدت في حالة لا يُرثى لها، حيث انبعثت منها رائحة الأتربة، وزيت الطعام، بينما تناثرت الملابس هنا وهناك.

تحدثت إنجريد مع الرجل باللغة العربية. أردت أن أترك المكان بأسرع ما يكون. شكرنا الرجل على سماحه لنا بالدخول، وخرجنا إلى ليل القاهرة المنعش.

قالت إنجريد في رثاء: «لا أستطيع أن أصدق أن هذا المكان هو نفس الشقة التي عشت بها».

تجولنا حول المنطقة. رأينا الحوائط، وأكياس الرمال التي وُضعت أمام المباني منذ الحرب، وأخيرًا سرنا في اتجاه النيل.

قالت إنجريد: «تلك هي الطرق والمباني التي كانت حدائق خضراء في الماضي».

قال والدي بصوت ناعم تكسوه الشفقة: «لا بد أنه حدث تغيير كبير».

ردت إنجريد: «نعم، لقد كانت تلك المدينة مليئة بالزهور والأشجار».

سألت والدي: «لماذا تم طلاء جميع النوافذ باللون الأزرق الداكن؟»

أجاب: «بسبب الحرب الأخيرة مع إسرائيل».

أُطلق على هذه الحرب حرب الستة أيام لأنها بدأت في الخامس من يونيو عام 1967 ، وانتهت بعد ستة أيام. قاد موشيه ديان الحرب التي خسرت فيها مصر سيناء

كاملة، وأعلنت مصر أن قناة السويس ستظل مغلقة ما دامت سيناء محتلة. قامت الدول العربية المنتجة للبترول بوقف تصدير البترول للدول المساندة لإسرائيل

مثل الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة.

قال والدي ليذكرنا بماهية الوضع في مصر: «لقد جئنا إلى بلد أصابه الدمار بسبب الحرب، ولم يستقبل سياحًا منذ سنوات عديدة».

قالت والدتي: «فلنذهب إلى المتحف المصري الرائع في ميدان التحرير».

صرخت والدتي: «هذا لا يُعقل. المتحف يبدو كالصحراء».

كان المتحف مليئًا بأكياس الرمال المتبقية منذ الحرب بينما ملأت الرمال أرض المتحف الذي كان يومًا ما مكانًا مُعتنى به.

بعد التجول في أنحاء القاهرة ذهبنا إلى الأقصر في طائرة صغيرة. كنت أعاني في هذا الوقت من ميكروب في معدتي، ولم أستطع رؤية الكثير. تحسنت صحتي بعد

عدة أيام، وقررت أن أرتدي الشورت . شعرت بسعادة

وأنا أحرك ساقي البيضاء في الهواء بعد شتاء السويد الطويل. سرت بفخر، وخرجت من الفندق إلى الشارع

حتى أحاطني مجموعة من الرجال المصريين ينظرون إلى ساقي بجنون.

سمعت صوتًا يصرخ فيَّ: «أسرعي إلى الفندق».

لم أرتدِ أية ملابس قصيرة في مصر منذ هذا الحين.

قالت والدتي: «أنت هنا بعيدة عن السويد، وعن مصممي الموضة الأوربية».

قلت: «لكنك قلت لي إن الأزياء هنا تتبع آخر صيحات الموضة».

قالت والدتي: «نعم، لكن هذا كان وقت إقامتي. لقد تغير كل شيء الآن على ما يبدو».

أضاف والدي: «كما أن موضة الجونلات القصيرة الميني چيب لم تكن قد ظهرت آنذاك».

اتجهنا من الأقصر إلى أسوان على متن سفينة صوب معبد أبو سمبل.

قالت والدتي: «إنه معبد ضخم، سترين الآن».

سألت: «ولكن أين سنجلس؟!»

قال المرشد السياحي بصوت ضعيف واهن:
«ستجلسين على الأرض، أو تقفين . أخشى أنه لا يوجد اختيار آخر!»

رأيت معبد أبو سمبل على ضفاف النيل بمجرد اقترابنا من الشاطئ، وكأنه ينتظرنا، حيث لم يكن هناك سائحون غيرنا.

شرح لنا المرشد السياحي: «لقد كان هذا المعبد من

المعابد التي أنقذها اليونسكو من الغرق بعد بناء السد العالي».

قال والدي: «لقد شاركت السويد في نقل المعبد لحمايته من الغرق».

تجولت، وأنا أنظر إلى المتحف الضخم، وجدرانه التي غطتها الحروف الهيروغليفية التي شرحها لنا المرشد السياحي. لم أستمع إلى ما كان يُقال، وكذلك طورشتين

الذي ذهب يتجول في أرجاء المعبد.

قلت لطورشتين باستخدام الإشارة: «توقف هنا » ، ثم التقطت له صورة بالكاميرا.

قالت والدتي: «دائمًا الكاميرا بصحبتك. لو كنت تصغين إلى ما يقوله المرشد السياحي لعرفتِ أن الشمس تتعامد على تمثال رمسيس مرتين في العام».

بدأت أمي تستخدم الإشارة لتشرح لطورشتين. استطعت أن أتبين إعجاب طورشتين من حركة حواجبه. لقد كان طورشتين مهتمًّا بالتاريخ أكثر مني.

لاحظت تمثالًا أصغر حجمًا ونحن في طريقنا خارج المعبد.

سألت: «ماما، ما هذا؟ »

ردت: «إنه تمثال نفرتيتي».

قلت لها: «يبدو أنهم لا يعاملون زوجاتهم على قدم المساواة».

قال المرشد السياحي، وقد أشار إلى التمثال: «المعبد القادم مُهدى إليها، وإلى الإلَهة هاتور».

قلت وقد جلست بجانب هاتور: «يا له من كرسي رائع!».

استمتعت برحلة العودة، حيث جلست أشاهد ملايين النجوم في السماء الصافية، وقلت لنفسي: «سأصير نجمًا عندما أموت».

قالت إنجريد: «يبدو هذا مثيرًا».

توجهنا في اليوم التالي بقوارب صغيرة صوب المعبد. كان يتعين على الرجال ذوي القامة الطويلة مثل أبي أن ينحنوا في بعض الأماكن، حيث كان سقف المعبد منخفضًا.

قال المرشد السياحي: «يُعد معبد فيلة من أحد الأماكن التي دُفن فيها أوزوريس. تمتع هذا المعبد بتبجيل من المصريين في الشمال والنوبيين في الجنوب».

سألت والدي: «مَن هم النوبيون؟»

قال والدي: «إنهم مَن كانوا يقطنون هذا المكان قبل بناء السد العالي».

سألته: «أين هم الآن؟»

رد والدي: «لقد انتقلوا إلى مكان آخر حول البحيرة في قرى أخرى».

قلت: «ذلك مؤسف حقًّا. لقد كان عليهم ترك منازلهم».

لم تصل الطائرة التي كان يجب أن تقلنا من أسوان إلى الأقصر. اعتادت والدتي أن تجادل، وأن لا تترك صغيرة أو كبيرة، وبدأت الجدال باستخدام لغتها العربية الركيكة التي أينعت في بستان طفولتها: «ليس من المعقول أن تتركونا هنا. زوجي دبلوماسي بالخارجية، وقد يتطور الأمر إلى أزمة دبلوماسية إن لم تأخذونا إلى

القاهرة في الحال».

اكتشفت في هذا اليوم جانبًا آخر من شخصية أمي. أخيرًا، وبعد مناقشات طويلة ساخنة، تم الاتفاق على أن تقلنا الحافلة. مررنا في طريقنا ببعض المناطق

العسكرية المتبقية من الحرب الأخيرة مع إسرائيل.

قال والدي: «كم أنتِ مذهلة في إقناع الآخرين!»

ردت أمي: «أشم رائحة شيء يحترق».

صرخ السائق: «أسرعوا خارج الحافلة».

انتهى بنا الأمر في الصحراء الباردة.

قالت أمي: «كم أنا سعيدة أني أحضرت معطفي الفرو».

قضينا ليلة الكريسماس كالعائلة المقدسة تحت غطاء السماء التي تضيئها النجوم في كوخ صغير وسط الصحراء، مختبئين تحت البطانية في محاولة للتدفئة.

قال المرشد السياحي في محاولة لتهدئتنا: «نبدو تمامًا كالعائلة المقدسة».

ردت أمي: «الكريسماس لا يتعلق فقط بتزيين شجرة الميلاد، والهدايا. في هذه الصحراء بدأت الحكاية».

قلت شاكية، وقد اشتقت لمزرعتنا في السويد: «ما زلت أفتقد متعة فتح صناديق الهدايا، ومشاهدة كرتون بطوط».

كانت مزرعتنا تقع على بُعد بضع ساعات من ستوكهولم. اعتدنا أن نوقد كل المواقد في بيتنا الخشبي بالمزرعة في فصل الشتاء. كان من الصعب أن نشعر بالدفء،

لذلك كنا نرتدي الصديري الصوف، والجوارب الصوفية الثقيلة. لم تتواجد أية مياه دافئة، وكنا نستحم عندما

نرجع إلى المدينة. كنا نتجه أنا وأخي مع أبي قبل الكريسماس بيومين لقطع شجرة عيد الميلاد في الغابة.

اعتدت أن أصرخ بحماس: «هذه الشجرة رائعة».

كان لوالدي الكلمة النهائية: «لا، إنها صغيرة جدًّا، سنأخذ تلك الشجرة».

كان أخي يقطع شجرة صغيرة لتزيين غرفته، حيث كانت هذه عادته منذ كان طفلًا وقت إقامتنا بباريس.

عادةً ما كانت والدتي تقول بإصرار: « هذه الشجرة طويلة جدًّا، ولا يمكن وضعها في غرفة المعيشة " ، وعادةً ما كان يجيبها والدي قائلًا: «سأقوم بقطعها».

كان الكريسماس دائمًا يبدأ بجدل حول شجرة الميلاد لننتقل بعدها إلى مرحلة تزيين الشجرة. كنا نضع المواد اللامعة لإضافة البريق على الشجرة، والأعلام

السويدية، والكرات الملونة، والتفاح، والعصافير التي كانت مفضلة لي، حيث كنت أضع عائلة بأكملها من العصافير على نفس الغصن.

قال والدي: «والآن، علينا أن نبدأ في كتابة القصائد».

وفقًا للتقاليد السويدية في الاحتفال بالكريسماس، لا بد أن يصاحب الهدية قصيدة ذات إيقاع تصف تلك الهدية. اعتاد أبي أن يقرأ القصائد المصاحبة للهدايا،

وكان علينا أن نخمن ما هي الهدية.

عادةً ما كان يستغرق فتح الهدايا ساعات لقراءة القصائد المصاحبة لها، وفي وسط هذا الاحتفال كنا نتناول المكسرات واليوسفي.

اعتادت أمي أن تطهو الطعام بمساعدة نان في السنوات التي قضتها معنا قبل رحيلها لطهي أصناف الطعام المفضلة في الكريسماس: لحم الخنزير المملح الذي كان

يتم طهيه على الموقد العتيق الذي ما زال يعمل بمعجزة، والكرنب الأحمر المغلي مع التفاح والخل الأحمر.

اعتادت أمي أن تقول: «هذا طبقي المفضل، فلتكثروا من الكمية».

الرنجة، وقطع اللحم، والخبز الجاف، والجبن، كانت دائمًا جزءًا من بوفيه الطعام. هذا إضافة إلى البيرة المخلوطة بالليمون التي كانت المشروب التقليدي في

الكريسماس بجانب المشروبات الروحية.

أعلن والدي في العاشرة صباحًا:«حان وقت الذهاب إلى الكنيسة».

تجمعنا، واتجهنا صوب الكنيسة مارين بالطرق التي كساها الثلج الأبيض. اعتاد المزارعون أن يتجمعوا لمناقشة أخبار البلد في الكنيسة بينما ارتدى طفلان زيي

يوسف وماري، وتبعهما أربعة أطفال، وقد ارتدوا زيًّا مصنوعًا من فرو الخروف.

أفقت من أفكاري لأجد نفسي في الصحراء مع والديَّ، وأخي: «يبدو الأمر تمامًا كما لو كان منذ آلاف السنين».

قمنا بفض الأمتعة فور وصولنا إلى ستوكهولم، وشعرت بسعادة كبرى لرجوعي.

قال والدي: «يا لها من رحلة رائعة!»

قالت والدتي، وهي ما زالت ترتجف من هول التغيرات التي حلت بمصر، والتي اختلفت تمامًا عن مصر التي عرفتها وقت طفولتها: «نعم، كانت رحلة مزعجة

للغاية. اختفت الفيلات الصغيرة، والحدائق الخضراء، وحلت محلها تلك المباني التي تشبه مباني الاتحاد السوفيتي».

لم أفكر كثيرًا بعد ذلك في مصر، وسرعان ما اندمجت مع أصدقائي في المدرسة، وأحلام المراهقة التي راودتني. لم أكن أدرك حينها أن مصر ستكون جزءًا من حياتنا

بشكل لم نكن نتوقعه.

في ذلك الوقت كان السادات يعمل ببطء وثقة لتغيير مصر، ولأول مرة منذ سنوات عديدة تلقت أمي رسالة تفيض بالأمل من صديقتها ليلى: «نحن حقًّا نشعر بالتفاؤل. الأمور تتحسن كثيرًا، وبالقطع الأمور أفضل مما كانت عليه وقت زيارتك. تعالي بسرعة لتري بنفسك».

في شهر أكتوبر عام 1973 فاجأ السادات إسرائيل بالحرب، حيث تحالفت مصر وسوريا. أراد السادات أن يستعيد ما فُقد، كما أراد أن يستعيد الشرف المفقود. على

الرغم من قوة عتاد الجيش الإسرائيلي، استطاع الجيش المصري استعادة قناة السويس، كما استطاع السادات من خلال مفاوضات السلام أن يستعيد الأراضي

المصرية التي فُقدت وقت الحرب. اتبع السادات أيضًا سياسة الانفتاح ما أعطى مصر دفعة للأمام، الأمر الذي كانت مصر في حاجة ماسة له منذ سنوات.

بعد بضعة أشهر، حل الخريف في ستوكهولم. توجهت إلى المترو لمقابلة زميلاتي في طريقنا إلى المدرسة التي كانت تقع في إحدى جزر ستوكهولم، لذلك اعتدت أن

أركب المترو، ثم أستقل الحافلة التي تعبر الكوبري وصولًا إلى الجزيرة الصغيرة التي تقع فيها المدرسة.

قلت لزميلتي، ونحن في الحافلة: «لا بد أن الثلج كثيف جدًّا حتى إنهم يمارسون هواية التزحلق».

عشت أنا، وعائلتي عالمنا الخاص الذي كان نصفه فرنسيًّا، ونصفه الآخر سويديًّا. قرأت أعمال فرانسواز ساجون، واستمعت إلى أغاني چورچ موستاكي، وفرانسواز

هاردي. عشقت الشعر، وكتبت القصائد التي كنت أخفيها عن الجميع. انصهرت عائلتي أيضًا في التقاليد السويدية، وثقافتها من أدب، وموسيقى. لعبت الطبيعة

دورًا في حياتنا، حيث إن الطبيعة في السويد جزء من مزاياها التي جذبت الجميع.

قلت لوالدتي: « سأذهب للتزحلق » ، وذهبت دون حتى أن أنتظر الرد. كنت أقضي الأوقات خارج المنزل كما يحلو لي. تمتعت بالحرية مع أصدقائي كحال معظم

الأطفال السويديين. كانت المدينة هادئة وتخلو من العنف.

في عام 1970 كانت السويد قد انتقلت بالفعل إلى الديمقراطية الاجتماعية التي قادها أولوف بالم رئيس الوزراء الذي أثار كثيرًا من الجدل، واستمرت السويد في

مسار الديمقراطية الاجتماعية. نشأت على أن حقوق

المرأة شيء مسلم به، ولم أشعر يومًا أنني أقل من الأولاد الذين في مثل عمري. كنا نُعامل جميعًا على قدم المساواة سواء في المدرسة أو خارجها.

تم فرض مبدأ مساواة المرأة بالرجل في الحقوق على يد السياسية ذات التوجه الديمقراطي الاجتماعي الحائزة على جائزة نوبل أل ف ا ميرداال. تم هذا من خلال تعديل قانون الضرائب، فبدلًا من أن يتم جبي الضرائب من العائلة ككل، تقرر أن يتم جبي الضرائب من كل فرد من أفراد العائلة ككيان مستقل، ما أجبر النساء على الخروج من منازلهن للعثور على فرص عمل، وتم توفير مراكز لرعاية الأطفال حتى تستطيع المرأة العمل.

شرحت لإيمانويل، الصبي الإيطالي الذي انضم لمدرستنا: «كم أكره مراكز الرعاية، والمؤسسات. هنا تتولى الدولة، لا العائلة، رعاية الأفراد. نفس الشيء يسري على كبار السن الذين يتم وضعهم في دور خاصة للرعاية».

اتسعت عينا إيمانويل من الذهول: «يبدو هذا بشعًا».

أجبته: «لا أدري، فأنا لا أعرف أيًّا من كبار السن الذين تم وضعهم في دور الرعاية».

وفقًا لهذا النظام، أصبح كل شخص مسئولًا عن ذاته دون الحاجة للاعتماد على زوج، أو زوجة، أو أولاد، أو أي فرد آخر من أفراد العائلة.

سأل إيمانويل بشك: «هل هذه حرية؟!»

أجبته، وأنا لا أدري إن كان ما أقوله صحيحًا: «نحن نسل القراصنة نتميز بالاستقلال والقوة».

سأل إيمانويل: «هل تتناولون العشاء معًا كأسرة واحدة؟»

أجبته: «نعم، على الأقل أسرتي».

كان والدي شديد الصرامة فيما يخص وقت العشاء، فكانت الساعة السادسة موعدًا مقدسًا للعشاء، وكنت أقوم بتحضير العشاء. نادرًا ما كنا نتناول العشاء

خارج المنزل، حيث كان والدي يفضل البقاء بالمنزل بعد يوم العمل الشاق. الاستثناء الوحيد هو أن يكون مدعوًّا لحضور حفل ما.

قلت عندما رأيت والدتي ترتدي ثوبها الأنيق: «هل ستخرجين مرةً ثانية؟»

قلت: «نعم عزيزتي، لن أتأخر. إنها حفلة كوكتيل».

عادةً ما كانت والدتي تحضر لنا بعض الحلويات التي كانت تضعها في حقيبة يدها.

أحيانًا كنا نقيم بعض حفلات العشاء في منزلنا، وكنت أنا وطورشتين نقوم بخدمة الضيوف. كان من الصعب العثور على خدم في السويد، ولم تستطع والدتي أن

تتخيل العشاء بدون خدم، فهذا ما قد نشأت عليه في مصر. لم يتم أبدًا دعوة أي أطفال إلى مثل هذه الحفلات. علمتني أمي كيف آخذ الأطباق التي تم

استخدامها في الجانب الأيسر، وكيف أقدم الأطباق من الجانب الأيمن.

أعطتني والدتي التعليمات الخاصة بأصول الخدمة، والضيافة: «ابدئي دائمًا بالنساء: الأكبر سنًّا أولًا، ثم الرجال، وفي النهاية والدك».

سألتها: « كيف لي أن أعرف مَن الأكبر سنًّا؟»

قالت والدتي: «إذا كنت غير متأكدة، انظري لي، وسوف أشير لك برأسي على من هي أقدم سنًّا، ويمكنك أيضًا أن تنظري إلى شعرها، فإذا كان رماديًّا، فهذا يعني أنها الأكبر سنًّا».

دائمًا ما كنت أخطئ، وفي أحيان كثيرة كنت أنسى حتى يقوم والداي باستدعائي مستخدمين الجرس النحاسي التركي القديم الذي كان دائمًا بجوار والدتي.

«كم أكره هذا الجرس. إنه يشعرني بأني مجرد بقرة».

في إحدى الحفلات شرب أخي ما تبقى من مشروبات كحولية في الكئوس من ويسكي، ومارتين، و ڤ يرموث، حتى صار ثملًا، وتعين عليَّ أن أقدم الحلوى للضيوف وحدي.

أعلن والدي بمجرد وصوله المنزل في إحدى الأيام: «سوف أدعوكم إلى العشاء خارج المنزل».

نظرت إليه بدهشة ولم تصدق ما سمعته.

قالت إنجريد بتوسل: «لا تقل لي إنه المطعم الصيني المجاور».

أجاب والدي: «لا يوجد العديد من الخيارات، فأنا لا أريد القيادة في مثل هذا الطقس».

توجهنا إلى الشارع المظلم، حيث غربت الشمس، واختبأت خلف السحب الكثيفة، بينما انهمرت الثلوج لتكسو الأرض بلونها الأبيض الناصع.

قلت لوالدي: «سأتناول الجمبري».

قالت والدتي : « يمكنك مشاركة مشروب الكوكا كولا مع أخيك».

باغتتني أمي بهذا العرض، فلم يكن مسموحًا لي إلا بتناول الماء أو الشاي.

قال والدي بصوت رزين، وصارم، الأمر الذي أثار انتباهنا: «لديَّ شيء أود أن أخبركم به: لقد تم تعييني سفيرًا للسويد في القاهرة».

فتحت إنجريد فمها في ذهول، وعجزت عن الكلام.

تلعثمت إنجريد، وهي تتحدث بعد فترة من الصمت، فترة بدت وكأنها دهر: «لكن، لماذا لم تخبرني قبل اتخاذ هذا القرار؟»

- ظننت أن هذا سيسعدك!

- ليس بعد ما رأيته بنفسي في زيارتي الأخيرة لمصر.

- سيكون الأمر ممتعًا، وسترين بنفسك.

تساءلت والدتي بصوت مرتفع: «لماذا يراودني شعور أن الأمور لن تكون على ما يرام؟»

كان لإنجريد حدس نادرًا ما يخطئ. أدركت في هذه الليلة أن حياتنا ستتغير بشكل جذري. ذهب والداي إلى القاهرة، وبقيت أنا وطورشتين وحدنا. شعرت

بالوحدة، والتعاسة.

تُرى، إلى أين سيأخذني الطريق؟ لم تكن هناك أية صلة روحية تربطني بمصر، ولم يعجبني ما رأيته في زيارتي الأخيرة. لن أستطيع حتى أن أرتدي ملابسي القصيرة

هناك، فما زلت أذكر نظرات الرجال لي، لكنني أيضًا، لم أرغب في الحياة وحدي مع شقيقي في ستوكهولم.

قال والدي: «يجب أن تبقي هنا للدراسة».

أضافت والدتي: «ستكونين بخير، لقد أحضرت لك بعض

الوصفات السهلة لإعداد الطعام».

قلت: «لكن لم أمارس الطهي يومًا في حياتي! »

قالت: «ستتعلمين».

وهكذا أصبحت بين عشية وضحاها مسئولة عن المنزل على الرغم من صغر سني.

كنت أستعد في هذا الوقت لامتحاناتي النهائية. توجهنا إلى المطار الذي غطته الثلوج لوداع إنجريد، وأكسيل. لم أغادر أنا وطورشتين المطار حتى أقلعت الطائرة التي

تأخرت عن الإقلاع لظروف الطقس.

من بين كل الأماكن، ذهب والداي إلى مصر. كيف سأتولى رعاية كل شيء بمفردي. فجأة شعرت أني نضجت رغمًا عني.

الفصل الثاني عشر

قراءة الفنجان

بدأت يومي الأول كاليتيمة. الآن، عليَّ أن أواكب ظروفي. كنت كالجندي الذي يتحمل قسوة الظروف دون شكوى، فلم أعترض. ليس لأبناء الدبلوماسيين، أو

للدبلوماسيين أنفسهم اختيار، فلقد ارتضوا العمل في هذا المجال منذ البداية بكل ما ينطوي عليه من مصاعب. هناك الجوانب الإيجابية بالطبع كالحياة في دول

كثيرة، والتعرف على ثقافات مختلفة، ومقابلة أناس من شتى بقاع العالم، إلا أن هذا لا يلغي الجوانب السلبية مثل التعرض للعنصرية. كنت أدرك كل هذا منذ

نعومة أظافري، بل ولقد عايشت هذا بالفعل.

أرسلت لي والدتي خطابًا بائسًا بعد سفرها تقول:

« إن والدك غاضب جدًّا، فالمبنى السكني للسفارة لم يجهز بعد، موقعه على الجزيرة التي قمنا بزيارتها، وهو قريب من النادي الرياضي. أقيم أنا، ووالدك في فندق

حتى يتم تجهيز مقر السفارة بالملحق السكني، ولا يروق هذا بالطبع لوالدك. سأبدأ في البحث عن شقة للإيجار. كل شيء هنا يتطلب مزيدًا من الوقت، وكثيرًا من

النقاش. يبدو أن الشخص المسئول عن عملية البناء قد أخذ كثيرًا من الأموال المخصصة للبناء لنفسه! هذه ليست بداية جيدة على الإطلاق».

تم شحن كل متعلقات والديَّ إلى القاهرة. وضعت والدتي كثيرًا من المنتجات التي ظنت أنها غير متوفرة بالقاهرة. لم تدرك والدتي أن الانفتاح الذي قاده السادات

قد بدأ يؤتي ثماره بالفعل، وأن جميع المنتجات المهمة متوفرة الآن بمصر.

سأل والدي والدتي ضاحكًا: «ماذا ستفعلين إذن بهذا الكم الهائل من المناديل الورقية، والصابون، وزجاجات الشامبو؟ ».

أخذت إنجريد جولة في المدينة، ومرت بمئات من الفنادق الجديدة التي كانت تحت الإنشاء. بدأ المصريون في إظهار الأموال التي كانوا يخبئونها، كما سافر الكثير

من المصريين إلى الدول العربية الغنية للعمل، فكانوا يبعثون بدخلهم الشهري إلى ذويهم، أو يقومون بشراء الثلاجات، وأجهزة التلفزيون، والكثير من الأجهزة

الكهربائية الأخرى.

قالت ليلى: «إنهم يمتلكون المال، ونحن نمتلك العقل. العديد من أصحاب الشهادات، والتعليم العالي هنا، يتركون مصر لعدم توافر فرص العمل . هم يمتلكون

المهارات التي لا تملكها الدول العربية. العديد من المصريين الذين سافروا مهندسون، وأساتذة جامعة، وغيرهم من أصحاب الخبرات الأكاديمية».

سألت إنجريد: «أهذا هو السبب في الحالة التي وصلت إليها مصر الآن».

ردت ليلى: «إنه الفساد، نتيجة الديكتاتورية».

قالت إنجريد: «كيف هذا؟!»

شرحت ليلى: «الموضوع بسيط. تقوم الحكومة بتعيين هؤلاء الذين يساندونها، أما الآخرون، فلا يُنظر إليهم بعين الاعتبار، وبالقطع هناك مَن يستفيد من كل

هذا، ويجني المال من ورائه».

قالت إنجريد بحزن: «إذن يفتقد المهندسون المعينون المهارة الحقيقية».

أكدت ليلى: «بالضبط، لقد غادر مصر أصحاب المهارة، والكفاءة، حيث رفضوا أن يدفعوا المال لهؤلاء الرجال الذين يسهلون الوساطة حفاظًا على كرامتهم،

وقيمتهم، وآثروا الرحيل».

ركبت إنجريد التاكسي، وتداعى إلى خاطرها العديد من الأفكار، وهي في طريقها إلى المنزل. أفكار مثل أهمية الديمقراطية، وأهمية التفاف الشعب بأكمله حول

هدف مشترك يؤدي إلى رخاء البلاد.

قالت إنجريد لأكسيل عندما رجعت إلى الفندق: « ليست السفارة فقط هي التي تعاني من مشكلات خاصة بفساد مديري البناء».

شهد أكسيل، وإنجريد زحف المباني بلا هوادة في كل مكان بدون أي تخطيط، أو تنسيق.

قالت إنجريد: «رأيت اليوم فيلا أخرى تم هدمها في جاردن سيتي».

تنهدت إنجريد، وهي تفكر في طفولتها عندما كانت تلعب في حدائق جاردن سيتي مع نان.

تذكرت إنجريد مربيتها نان، ودعت لها بالخير والسلام: «فلترقد في سلام».

لم تصمد الفيلات الجميلة، وحدائقها التي لم يتم هدمها في حقبة التأميم أمام جشع المقاولين. فتحت المحلات التجارية الأجنبية، وبدأ المواطنون في اكتشاف متع

الحياة من نوادٍ، ودور سينما، ومسارح، فضلًا عن الحشيش الذي انتشر في هذه الفترة.

سألت إنجريد، وهي تفكر في كل الليالي التي شاهدت فيها طورشتين، وهيلدا يرتدون أرقى وأجمل ثيابهم للذهاب إلى الأوبرا: «ألم يقوموا ببناء دار الأوبرا التي

احترقت؟»

رد أكسيل: «معظم المسارح هنا تقدم عروضها باللغة العربية. لقد سمعت أنها خاضعة للرقابة أيضًا».

قالت إنجريد: «يمكننا الذهاب لمشاهدة الأفلام».

قال أكسيل: «لا أعتقد أنها ستروق لك، فدور السينما هنا تعرض أفلام الأكشن، والإثارة فقط».

في تلك الأوقات كنت في ستوكهولم أستعد للامتحانات النهائية. كان هناك الكثير لأتعلمه، كما كان عليَّ أن أعتني بالمنزل، وأرسل تقارير، وخطابات أسبوعية

لوالديَّ إضافة إلى شراء الطعام، وطهيه، والاعتناء بأخي الذي كان دائمًا متوتر الأعصاب حتى صرت مثله. كنت على وشك الانهيار عندما سافرت إلى ستراسبورج

في فرنسا من أجل امتحاناتي النهائية، إلا أن ملائكتي كانت دائمًا معي تساندني حتى اجتزت الامتحانات، رسبت فقط في امتحان الفلسفة، وكان عليَّ أن أمتحن

مرة أخرى. هذه المرة اخترت دراسة ماركس بدلًا من دراسة كانط. امتحان الرياضيات كان الأسوأ. عندما تسلمت ورقة الامتحان لم يكن لديَّ أية فكرة عما تشير إليه

الأسئلة. كان الممتحن عطوفًا، وشرح لى كل شيء، واستطعت اجتياز الامتحان. ساعدني تمكني من اللغة كثيرًا في اجتياز الامتحان.

سافرت إلى القاهرة في الصيف بعد انتهاء امتحان اللغة الفرنسية مباشرةً. وجدت الطقس شديد الحرارة. لم أكن أعرف إلى أين ستقودني الحياة. كانت السفارة

السويدية ما زالت تحت التأسيس، ولذلك أقمنا في الشقة التي استأجرها والدي.

قلت لوالدتي، وأنا مرهقة: «لم أكن أتخيل أني سأجتاز الامتحان».

- لكنك اجتزت الامتحان. خذي قسطًا من الراحة، وسآخذك بعدها في جولة حول المدينة.

لم يكن هناك مكيف للهواء، لكن كانت هناك مروحة

صغيرة في غرفتي. اكتشفت على الفور أن الروتين اليومي في القاهرة مختلف تمامًا عنه في السويد.

قالت والدتي: «عادةً ما نتناول الغداء في تمام الثانية، ثم يأتي وقت القيلولة».

قلت: «قيلولة! أنا لا أنام أبدًا وقت الظهيرة».

كنت أظن أن هذا مضيعة للوقت. على أية حال، فقد اعتدت النوم لمدة ساعة أو ساعتين وقت الظهيرة.

قلت: «الطقس حار جدًّا، ولا يمكن عمل أي شيء في هذا الوقت».

قالت والدتي: «نعم، معظم الناس تعود إلى عملها في السادسة، وتستمر حتى الثامنة، أو التاسعة».

قلت: « إذن فتناول العشاء يكون في وقت متأخر».

ردت والدتي: «نعم، عندما يتحسن الطقس، ويصبح رطبًا، لكن دعينا نخرج الآن قبل أن تشتد حرارة الجو».

قلت: « حسنًا، سأستعد».

ارتديت ثوبي الصيفي القطني الذي يخلو من الأكمام، والصندل الجديد، ونظرت إلى المرآة، ثم ارتديت نظارتي البيضاء، أما شعري الطويل، فصففته في شكل ذيل الحصان.

قالت والدتي، وهي في عجالة: «سنتوجه إلى السفارة، أريد أن ألقي نظرة على المبنى».

كان السائق سعد رجلًا كبير السن. ابتسم لي بلطف، وهو يفتح باب السيارة ال ف ول ف و. أعجبني سعد حقًّا، وحاولت أن أتحدث بعض الكلمات باللغة العربية، كما حاولت أن أفهم ما قاله أيضًا.

قالت لي والدتي التي حاولت أن تحسن من لغتها العربية منذ قدومها إلى بلدها مصر: «إنها اللغة العربية الدارجة. سيتعين عليك دراستها إذا أردت أن يفهمك الآخرون، فقليلون مَن يتحدثون اللغات الأخرى هنا».

قاد سعد السيارة أعلى الكوبري حتى وصلنا إلى جزيرة الزمالك. شاهدت القوارب التي تبحر في النيل، وكأن الزمن قد توقف منذ عهد الفراعنة.

قلت، وأنا أنظر حولي لأتفقد المكان: «توجد مساحات خضراء أكثر هنا».

قالت والدتي: «نعم، كما أن المكان أقل تلوثًا».

أوقف سعد السيارة أمام مبنى السفارة الذي كان تحت الإنشاء وسط حالة من الفوضى. شعرت بالعرق يتصبب مني حتى ابتل ظهري، والتصق ثوبي بجسدي.

ابتسمت والدتي قائلة: «ستتعلمين أن تبدلي ملابسك كثيرًا هنا».

- لكن، هذا ثوبي الجديد.

- لا تقلقي. سيتم تنظيفه، وتجفيفه في الحال.

اكتشفت لاحقًا أن المصريين بارعون في محاكاة أزياء الملابس، حيث حصلت بعدها على أكثر من ثوب يشبه ثوبي، لكن بألوان مختلفة.

قام رجل مصري بتحيتنا، وقد كست الرمال حذاءه: «المبنى مُصمم على الطراز الحديث. سيكون بديعًا حقًّا. هنا موقع المكاتب، وهناك المبنى السكني، ومن الحديقة يمكنك رؤية النيل».

سألت والدتي، وقد بدا عليها الغضب: «متى سيتحول

كل ما تقول إلى واقع ملموس؟»

لم تسمح أمي للرجل بخداعها، فلقد تأخرت عملية البناء بما يكفي، وكان عليها أن توضح له مدى انزعاجها، وغضبها.

قلت لوالدتي: «يبدو أن الأمر سيتطلب بعض الوقت حتى يكون المكان جاهزًا لإقامتنا».

همست والدتي في أذني: «لقد كان هذا المكان قصرًا رائعًا، وتم هدمه. قتل أحد الخدم سيدة القصر. لقد حذرني البعض من أن روحها قد تسكن القصر».

يبدو أن مثل هذا الحديث الذي قيل لوالدتي كان به شيء من الحقيقة وفقًا لما اكتشفته لاحقًا.

قال لنا المشرف على البناء: «يتم جلب الحجر الرملي الذي يُستخدم في البناء من مكان خاص بالقرب من الأهرام».

قالت والدتي: «يبدو أننا سنقيم في شقتنا لفترة من الوقت».

استقر والداي في شقة جميلة بالقرب من وسط المدينة في منطقة الجيزة. كان تراس المنزل طويلًا، وواسعًا، مطلًّا على النيل، ومليئًا بالأبنية.

قالت والدتي، وهي تشير إلى الأبنية: «إنهم أبنائي».

كنت أعلم أن لوالدتي موهبة خاصة في التعامل مع النباتات. شعرت أني في واحة تطل على مدينة ملبدة بالغيوم، والدخان. كان الضيوف يفضلون الجلوس على

المقاعد البامبو، والأرائك، حيث تهب نسائم الهواء العليلة في ليل القاهرة. تلك النسمات التي تخفف من حرارة الطقس الشديدة قلت، وقد انتابني شعور

بالراحة

التي أشعر بها في وطني: «على الأقل لدينا شقة أنيقة».

كان والدي غاضبًا بحق: «كيف لهم أن ينقلونا إلى هنا دون حتى أن يكون هناك مكان مجهز لإقامتنا، أو مكاتب لائقة لمزاولة العمل. كيف لي أن أعمل في مثل هذه الظروف؟»

قال أحد الموظفين لوالدي: «لقد اكتشفنا أن المدير يبيع الأسمنت، ويحتفظ ببعض المال لنفسه، وهناك مشكلة أخرى أيضًا».

تنهد والدي وسأل: «ماذا هناك أيضًا؟»

قال: «تحتاج النوافذ المضادة للرصاص إلى تغيير».

تأخر انتقالنا إلى مبنى السفارة الجديد بضعة أشهر.

تجرأت، وقلت لوالدي الذي نظر إليَّ بحدة: «أعتقد أن الشقة هنا مريحة».

كان أصحاب المبنى، وجيراننا في ذات الوقت آل بطرس غالي، ومن بينهم بطرس بطرس غالي المحامي، والدبلوماسي، والسياسي.

قال والدي: «لقد تم تعيينه وزيرًا للخارجية حديثًا».

ردت والدتي: «هذا شيء إيجابي في صالح الأقباط».

سألت والدتي: «ماذا يعني ذلك؟»

شرحت لي والدتي: «إن عائلته مسيحية. لم يُعامل المسيحيون دائمًا بشكل جيد، كما أن زوجته يهودية أيضًا».

قال والدي ضاحكًا: «لا بد أن تكون هذه صفعة للمعادين

للسامية».

قالت والدتي: «أو ربما تكون خطوة للتقرب من إسرائيل».

لم أكن معتادة على مثل هذا النوع من النقاشات الخاصة بالأديان، كما لم يكن هذا أبدًا موضوعًا للنقاش مع أصدقائي البالغين. كنت أعلم أن الأطفال الفرنسيين

الذين كانوا معي في المدرسة كاثوليك على عكسي، حيث كنت أنتمي إلى المذهب اللوثري « مذهب لوثر » ، وهذا كل ما كنت أعرفه عن الأديان.

كان الأخ الأصغر لبطرس متزوجًا من فنانة أسكندنافية ساحرة تُدعى بريت. سرعان ما أصبحت بريت صديقة مقربة لوالدتي، كما أصبحت أنا صديقة لبناتها. في

أحد الأيام، كان هناك تجمع مع سيدات المجتمع المصري. جلس الجميع لاحتساء القهوة التركي.

قالت لي إحدى السيدات: «عندما تنتهين من احتساء القهوة اقلبي الفنجان هكذا، واتركيه حتى يجف».

سألتها: «لماذا؟! »

أجابت: « سترين بنفسك».

قالت لي بريت أخيرًا: «جاء دورك».

دخلت إلى حجرة أخرى بها سيدة مصرية كبيرة السن، قصيرة القامة تُدعى ماري. جلست في ركن بعيد عن الآذان التي تسترق السمع. وضعت ماري المقعد

أمامها، وجلست.

أخذت ماري الفنجان من يدي، وقلبته. تحولت بقايا القهوة إلى آثار خطوط، وملامح على جانبي الفنجان.

نظرت مارى بعناية، ودقة إلى آثار القهوة المتبقية، ثم نظرت إليَّ بعينيها حالكتي السواد.

قالت لي ماري، وهي مبتسمة: «أستطيع أن أرى بوضوح رجلًا وسيمًا يبحث عنك».

في بلد مثل مصر، تتزوج الفتاة في سن صغيرة، وفي بعض الأحيان يتم الزواج قبل بلوغ السن القانونية.

أضافت ماري: «أرى خطابًا أيضًا».

كانت ماري سيدة فقيرة. تعلمت المبادئ الأساسية لقراءة الفنجان، الأمر الذي يتطلب حدًّا أدنى من علم النفس، وبعضًا من الخيال. رجعت إلى المنزل، وأنا أسبح

في أحلام الأميرة التي تنتظر الفارس.

قالت لي ميشيل، ابنة بريت: «سنتقابل جميعًا في الطابق الأسفل».

سرعان ما تعرفت على مجموعة من المصريين الذين يقطنون نفس المبنى، والذين كانوا أصدقاء أيضًا لبنات بريت. دُهشت عندما اكتشفت أن أصدقائي المصريين

الجدد لا يختلفون عن أصدقائي بالمدرسة الفرنسية بالسويد، فهم يتحدثون الفرنسية بطلاقة، ويستمعون إلى نفس الموسيقى، ويرتدون البنطلونات الچينز،

ويحتسون البيرة.

كانت بريت ماهرة في الحرف اليدوية الصغيرة، ولقد علمت بناتها أسرار تلك الحرف.

قلت لبريت: «لديك ملابس لطيفة، لكني لم أرَ محلات تتبع الموضة هنا».

ردت بريت: «لا توجد هنا محلات تتبع الموضة بعد حقبة عبد الناصر. أنا أصنع كل شيء بنفسي».

وهكذا تعلمت أن أصنع أشياء كثيرة بنفسي. تعلمت كيف أصبغ الملابس التي أشتريها بثمن رخيص من خان الخليلي، حيث كنت أقوم بتغطيس الملابس في ألوان مختلفة، أو في الشاي. هناك أشياء لم تكن متوفرة في الأسواق المصرية مثل المايوه البكيني على سبيل المثال.

قلت: « سأقوم بصنعه إذن».

قالت كاترينا، الابنة الثانية لبريت: «سنذهب معًا إلى خان الخليلي لشراء الملابس».

كانت لكاترينا بشرة كتلك التي تميز الشماليين، وقامة ممشوقة رشيقة.

قال والدي: «جسدها مثالي كعارضات الأزياء».

ذهبنا إلى البازار في تاكسي.

قالت كاترينا لسائق التاكسي بالعربية: «توقف هنا».

تعلمت كاترينا قليلًا من اللغة العربية في أثناء إقامتها مع والدتها.

سألت كاترينا: «أليس هناك خطر على الفتيات الأجنبيات هنا؟»

قالت ضاحكة: «على الإطلاق. قد يحدق فيك المصريون بأنظارهم، لكنهم ساحرون، ولم أشعر يومًا بالخوف منهم».

أخذتني كاترينا من يدي، وقادتني إلى محل لبيع الأقمشة.

قالت كاترينا: « هذا هو المحل الذي أخبرتك عنه».

نظرت حولي، ورأيت أقمشة لا حصر لها من القطن المصري، والحرير، والقماش السادة، والمقلم، والبليسيه.

وقفت حائرة: «ماذا سأختار؟»

أنقذتني كاترينا حين أخذتني من يدي لتريني الأقمشة التي يجب أن أختار منها.

قالت كاترينا: «الأقمشة التي كنت تنظرين إليها للرجال، وليست للنساء».

اخترت قماشًا ذي لون قرمزي فاتح للمايوه البكيني، ثم قررت أن أشتري مزيدًا من الأقمشة من أجل الثياب.

قالت كاترينا: «ستبدين رائعة حقًّا في تلك الألوان».

اكتشفت بعد ذلك أن الأقمشة التي اشتريتها من أجل المايوه البكيني تفتقد إلى خاصية المرونة التي يجب أن تتوافر في أي مايوه. لقد فاتني أن أعير هذا الأمر انتباهًا.

كنا نستخدم اللؤلؤ، والأحجار الكريمة لصنع المجوهرات. كانت تلك الأحجار الكريمة متوفرة بشكل دائم في البازار، حيث كان يتم وضعها في أطباق صغيرة عميقة يكسوها التراب. كان اختيار القطعة المناسبة يتطلب دهرًا من الزمن.

قالت كاترينا: «الوقت هنا كما ترين ليس بمشكلة على الإطلاق».

وافقتها: «نعم، لا يبدو أحد في عجلة من أمره هنا».

صنعت أشياء جميلة بنفسي، وكنت دائمًا مشغولة أتعلم، وأكتشف الجديد.

قلت لوالدتي، وقد بدأت أشعر بالسعادة بالحياة في القاهرة: «بدأت أفهم سر حبك للقاهرة. أستطيع أن أحيا هنا للأبد».

قال والدي: «يجب أن تذهبي إلى ستوكهولم للحصول على شهادة الليسانس».

اعترضت على ما قاله والدي، حيث كنت قد بدأت بالفعل أستمتع بحياتي في القاهرة.

أصر والدي: «لا حياة لك هنا».

اعترضت قليلًا كالعادة، ولكني رضخت في النهاية لمطلب والدي، وسجلت في جامعة ستوكهولم لدراسة اللغة العربية. بقيت وحدي مع أخي في شقة الجدين هيلدا وطورشتين.

قال لي والدي قبل مغادرة القاهرة: «ستحتاجين إلى رخصة قيادة».

بدأت بالفعل أتلقى دروس القيادة في فصل الخريف في ستوكهولم.

قلت للمدرس، وقد قررت الانتقال إلى القاهرة دون أن أدري كيف سأقنع والدي بذلك: «يجب أن تتأكد أني سأجتاز الامتحان لأنني سأنتقل إلى مصر بعد ذلك».

انهمرت الثلوج بشدة يوم امتحان القيادة.

قال الممتحن: «قودي السيارة إلى سولنا».

كنت أدرك أن سولنا ضاحية من الضواحي، لكن أين بالتحديد تقع سولنا؟ بدأت بداية سيئة حتى إن السيارة بدأت في إحداث ضوضاء. كح الممتحن كناية عن سوء أدائي حتى أدركت الخطأ الذي ارتكبته، وانطلقت

بالسيارة.

قال لي الممتحن، وأنا أبحث عن العلامات: «فلتنظري إلى العلامات»، إلا أن الثلج كان يغطي العلامات، وكان من الصعب قراءة ما هو مكتوب، وضللت طريقي في النهاية.

قال الممتحن: «اتجهي إلى أقرب مكان مخصص لوقوف السيارات».

مرة أخرى كانت العلامات مُغطاة بالثلوج، ولم أستطع تمييز أي شيء فتوجهت إلى مكان كنت أظن أنه الرصيف إلا أن السيارة ارتطمت بشيء ما.

صرخ الممتحن: «لقد خدشتِ السيارة».

كنت واثقة أنني لن أحصل على رخصة القيادة في هذا اليوم.

قال الممتحن، وهو يناولني رخصة القيادة، ويتنهد بعد العناء: «ها هي رخصة القيادة، لكن يجب عليك ممارسة القيادة قبل سفرك إلى مصر».

قمت بشراء سيارة ڤ ول ڤ و قديمة. كنت أضع وسادة على المقعد، وأجلس عليها حتى أستطيع أن أصل إلى عجلة القيادة، وأحيانًا كنت لا أستطيع ركن السيارة بمفردي، فكنت ألجأ إلى أحد المارة لمساعدتي. أدركت في هذا الوقت، حيث كنت صغيرة السن آنذاك، أنه ليس من الضروري أن أكون مستقلة تمامًا في ظل تلك المساعدة التي أتلقاها من الآخرين. أطلقت على سيارتي الضخمة اسم الحوت. كنت أقودها كل يوم إلى الجامعة.

قلت لنفسي، وأنا أقود السيارة في طريقي إلى

الجامعة وسط الشوارع التي أغرقتها الأمطار المنهمرة: «أتمنى ألا يحدث شيء لإطار السيارة، فأنا لا أتذكر ما قاله لي

معلم القيادة عن كيفية التصرف في هذا الشأن».

توقفت أمام المبنى العقيم، وسرت عبر الميدان العاصف بالرياح. تأكدت من تغطية رأسي، وأذني بقبعتي، وغطيت أنفي المرتشحة.

استقبلني المعلم التونسي مهدي بوجهه البشوش: «أهلًا وسهلًا».

كان يومًا شتويًّا مظلمًا. نظرت إلى الطلاب الثمانية الذين يدرسون اللغة العربية معي. كانوا جميعهم من كبار السن.

قال مهدي، وهو يعطينا نسخة من « كليلة ودمنة»: «تُعد كليلة ودمنة حكاية خيالية، وقد ألهمت العديد من الكتاب الأوربيين».

كانت الترجمة صعبة جدًّا حتى إننا اضطررنا إلى استخدام لغات أوربية مختلفة للعثور على الكلمة الدقيقة الصحيحة.

قلت لمهدي: «الآن قد فهمت مدى ثراء اللغة العربية».

كان الأمر شديد التعقيد بالنسبة لي، كما أن الأمر التبس عليَّ، وشعرت بالارتباك: فهناك اللهجة المصرية الدارجة، واللغة العربية النموذجية المستخدمة في

الكتابة، والصحف اليومية، واللغة العربية الفصحى الشديدة الكلاسيكية. كان عليَّ أن أذاكر باجتهاد. شعرت بالوحدة خاصةً أن بقية الطلبة الذين يدرسون معي

كانوا أكبر مني سنًّا. سافر أصدقائي في المدرسة الفرنسية إلى أوطانهم، وسافر البعض الآخر إلى أماكن عملهم، وشعرت بالغربة في وطني.

بكيت حين كنت أحدث والدتي عبر الهاتف: «الجو مظلم هنا، كما أني أشعر بالوحدة، ولا أستطيع إدارة شئوني وحدي».

رضخت والدتي لمطالبي في نهاية الأمر: «أخيرًا، تم الانتهاء من عملية البناء. تسلمنا مقر السفارة. تستطيعين القدوم، أنت وأخوك».

برغم هذا الخبر الذي أسعدني، ما زال يتعين عليَّ الانتهاء من دراستي. كنت أشعر أني في بلد موحش، بكيت كثيرًا حتى اضطررت لارتداء نظارة سوداء لأخفي عيني

اللتين تورمتا من البكاء. أصبح الوضع مستحيلًا بالنسبة لي لدرجة جعلت مهدي يشفق عليَّ.

قال مهدي: «سأسمح لك بإتمام دراستك من خلال المراسلة. على الرغم من أن هذا النظام غير معتاد، فإني أريد أن أفعل شيئًا لمساعدتك».

احتاج مهدي إلى بعض المعلومات التي يجب الحصول عليها من مكتبة القاهرة، ووعدته أن أبعث له كل المعلومات التي يحتاجها بمجرد وصولي. قمت ببيع سيارتي

« الحوت»، وشراء تذاكر السفر لي، ولأخي. في غضون أسبوع في منتصف الشتاء، كنت قد أتممت كل شيء. أخذت أخي من يده، وذهبنا إلى المطار متوجهين إلى مصر.

تم الانتهاء من مبنى السفارة ذات الأسوار العالية ما دعا الكثيرين لانتقاد المبنى الذي صار أشبه بالقلعة.

قال والدي: «الوضع ليس آمنًا هنا».

كان والدي يخشى عليَّ، وعلى أخي من أحداث الشغب، إلا أننا قررنا القدوم. بعد أحداث الشغب التي شهدتها مصر، توقف الجميع عن انتقاد الأسوار العالية لمبنى السفارة.

بعث والدي أكسيل ببرقية إلى وزارة الخارجية في ستوكهولم يقول: «أولًا: استمرت حالة الهياج التي اجتاحت وسط المدينة طيلة الليلة الماضية رغم حظر التجول

الذي فُرض في صباح يوم الثلاثاء من الساعة الرابعة مساءً وحتى السادسة صباحًا. تُعد أحداث الشغب التي شهدتها الإسكندرية، والقاهرة هي الأعنف حدة منذ تدمير المؤسسات الإنجليزية الذي شهدته البلاد منذ خمسة وعشرين عامًا.

كان السبب الرئيسي في أحداث الشغب هو ارتفاع الأسعار ثلاثين بالمائة على الاحتياجات الأساسية، إلا أن هناك سببًا آخر أعمق ألا وهو اتساع الفجوة بين طبقات

المجتمع، وأزمة السكن، وسوء نظام النقل والمواصلات. بدأ الهياج، والغضب في مصانع حلوان الواقعة في إحدى الضواحي، وسرعان ما انتقل الاحتقان إلى

القاهرة، والإسكندرية، ونتج عنه كثير من الخسائر، والسرقات.

ثانيًا: استخدمت الشرطة القوة، والأسلحة النارية في

صباح يومٍ الأربعاء، ما أسفر عن ثلاثين قتيلًا، وخمسمائة جريح وفقًا لما ذكرته الحكومة، إلا أن الشهود

يؤكدون أن العدد يفوق ما ذُكر.

ثالثًا: أعلنت الحكومة ظهيرة يوم الأربعاء أن ارتفاع الأسعار الذي تم الإعلان عنه سابقًا غير سار. سنرى إن كان هذا الإجراء من شأنه أن يوقف أعمال الشغب، كان

كل شيء هادئًا صباح هذا اليوم. ما زال حظر التجوال ساريًا اليوم في المواعيد المقررة.

رابعًا: كان مدهشًا حقًّا كيف انتقد المتظاهرون سياسة السادات. تم تحميل السادات مسئولية المشكلات التي تعاني منها البلاد بينما هتف المتظاهرون باسم عبد

الناصر.

خامسًا: لا يوجد أي مصابين سويديين، ولم تحدث أية خسائر في المنشآت السويدية».

كان صديقنا السويدي الذي يعيش في القاهرة لارس كريستير بچورلين في جولة سياحية مع بعض السائحين الأسكندنافيين عندما بدأت أحداث الشغب.

قال لارس: «بُوغتنا بفرض حظر التجول».

سألته: «ماذا فعلت مع الفوج السياحي؟»

قال: «استطعت أن أوفر غرفًا لهم جميعًا في الفندق، إلا أنني اضطررت للمبيت في ساحة استقبال الضيوف بالفندق».

- متى عدت إلى المنزل إذن؟

- بعد ثلاثة أيام. لم أستطع حتى تغيير ملابسي.

- لا بد أنك كنت في حالة يُرثى لها. لماذا لم تقد سيارتك

إلى حيث يوجد منزلك؟!

- حاولت أن أخرج من الفندق، إلا أنني فوجئت بمجرد خروجي من الفندق بآلاف من المتظاهرين الغاضبين في الشوارع. كانوا يشعلون النار في إطارات السيارات، ويوقفون السيارات المارة أمامهم.

قرأت في الصحف أن نقد السادات كان بسبب سياسة الانفتاح التي تبناها، والتي أسفرت عن طبقة جديدة في المجتمع المصري، طبقة عُرفت باسم: « مُحدثي الثروة، أومُحدثي النعمة». تدهور حال الطبقات الفقيرة. أثار قرار زيادة أسعار السلع الأساسية مثل الخبز، والأرز، واللحوم، والسكر، والزيت، والصابون غضب الناس. كان من الممكن أن يتكرر ما حدث عام 1952 إلا أن السادات تفهم غضب الناس، وثورتهم العارمة، وعارض حكومته، وتوصيات صندوق النقد الدولي، وتم إلغاء زيادة الأسعار.

قال لارس: «هذا هو الشيء الوحيد المنطقي الذي يجب فعله. عندما ذهبت إلى الزمالك فيما بعد أوقفني ضابط بوليس، وطلب مني إظهار أوراقي».

سألته: «هل كانت معك أوراقك؟»

أجاب لارس: «نعم، كنت محظوظًا، حيث إنني عادةً ما أحمل نسخة من جواز سفري معي».

كان هناك تعزيز أمني في منطقة الزمالك حيث تقع السفارة السويدية، وغيرها من السفارات تحسبًا لأي مخاطر.

أرسل والدي تقريرًا مفصلًا إلى وزارة الخارجية بستوكهولم بعد أسبوع من أحداث الشغب: «كان

السبب المباشر في أحداث الشغب التي وقعت الأسبوع الماضي هو زيادة أسعار السلع الرئيسية. عدلت الحكومة عن زيادة أسعار السلع الأساسية مثل الخبز،

والحبوب التي تُعد من لوازم المعيشة. تم إصدار قانون ينص على زيادة مرتبات موظفي الدولة بنسبة عشرة بالمائة، إلا أن عددًا كبيرًا من الشريحة الأدنى للطبقة

المتوسطة كان يجب تعويضه، الأمر الذي جعل تلك الشريحة تشعر بالاضطهاد. زيادة الأسعار هي القشة التي قصمت ظهر البعير. كانت حياة الناس في بلد مكتظ

بالسكان يعاني من سوء التنظيم محبِطة لدرجة جعلت من زيادة الأسعار سببًا في مظاهرات عارمة، وشغب أثار عدم توقع الحكومة له دهشة الأجانب».

استمرت السفارة في إرسال تقارير عن الوضع الاقتصادي السيئ. وفقًا للمعايير الدولية، لم تكن المساعدات الأجنبية لتساعد في مثل هذا الموقف. كان الكارت الذي

يستخدمه السادات بحنكة هو جلب السلام للمنطقة بعد ثلاثين عامًا من الحروب.

اتهم السادات مثيري الشغب بأنهم شيوعيون متآمرون يريدون قلب نظام الحكم.

قال والدي: «إنه يخشى التيار اليساري».

سألته والدتي: «ماذا عن الإسلاميين؟»

قال: «إنه يفرج عن الإسلاميين المسجونين، ويضع أنصار عبد الناصر في السجن».

أحكم السادات قبضته على البلاد، حيث فرض عقوبات

قاسية على المتظاهرين، ووضع رقابة صارمة على الإعلام، كما كان يضغط على الغرب من أجل الحصول على إعانات مادية.

أضاف والدي: «السادات يلعب على وتر حساس، ألا وهو خوف الغرب من حرب أخرى مع إسرائيل » .

قالت والدتي: «ما زلت أذكر عندما ذهبت إلى فلسطين مع والديَّ. ألا يمكنهم أن يتعايشوا مع بعضهم البعض، ويتشاركوا في الأرض؟ »

تنهد والدي: «إنها السياسة! »

كانت الأمور قد رجعت إلى سابق عهدها، وساد الهدوء نسبيًّا عندما وصلت مع أخي إلى القاهرة.

قال والدي، وهو يقود السيارة عبر الأسوار العالية في طريقه إلى الجراج: " لقد تحسن الوضع».

نظرت بإعجاب شديد إلى ما آلت إليه السفارة السويدية بعد انتهاء عملية البناء.

قال والدي: «نحن في أمان هنا بعد كل ما شهدته البلاد من أحداث شغب».

رفرف العلم السويدي بلونيه الأزرق، والأصفر في منتصف الساحة التي تفصل مكتب العمل عن مقر إقامتنا. هناك حمَّامان للسباحة: حمام سباحة صغير للأطفال، وآخر للكبار، أما الجزء الأخير من المكان فبه سور عالٍ مطل على النيل. دخلنا المنزل الذي تميز بالحوائط البيضاء، والسجاد الأبيض، والأرض المرمرية.

قادنا المدخل الأنيق إلى حجرة معيشة ضخمة، وصالة طعام، ومكتب صغير على أحد الجوانب، ومطبخ كبير به ثلاجة ذات حجم ضخم لم أكن أتخيل وجوده.

كانت ردهة المنزل تطل في نهايتها على حديقة بينما تنتهي الحديقة بحلبة رقص يضيئها مصباح بجانب شجرة المانجو. هذا إلى جانب تحفة خزفية من صنع صانع

الخزف كريتز.

قلت، وأنا أفكر في إقامة حفلات ديسكو: «هل استخدمت حلبة الرقص؟»

قال والدي: «لقد نظمنا بالفعل بعض حفلات الكوكتيل».

قلت ضاحكة: «لقد تحسن المكان كثيرًا عما كان عليه قبل سفري».

قال والدي: «نعم، أتذكرين حالة الفوضى التي كان عليها المكان وهو تحت الإنشاء؟ يقع الجزء السكني في الطابق السفلي. لقد تم فرشه بالأثاث السويدي».

قلت: «الخشب السويدي الذائع الصيت».

أجابتني والدتي: «نعم ولقد أضفت لمستي الخاصة بأعلى».

صعدت السلالم المغطاة بالسجاد الأزرق الفاتح، ومنها إلى غرفة المعيشة الصغيرة، ثم غرف النوم التي اصطفت بجانب بعضها البعض.

أشرت لأخي الذي بدا عليه الذهول: «لدينا شقتنا الصغيرة الخاصة».

كان لكل منا غرفة نوم صغيرة، بينما توسط الحمام غرف النوم.

قلت: «يمكن أن أستخدم غرفتي في التصوير».

كنت قد طورت مهاراتي في التصوير الأبيض والأسود.

لم تكن هناك نوافذ بالغرفة. إذا أغلقت باب الغرفة تصبح مظلمة تمامًا.

قلت لوالديَّ، وأنا أريهما بفخر المواد المختلفة التي جلبتها معي للتصوير: « لقد اشتريت كل لوازمي».

بدأت آخذ التصوير مأخذ الجد في فترة مراهقتي. ما زلت أذكر كيف كنت أتوسل لوالديَّ وأنا في الثامنة من عمري لشراء كاميرا في عيد ميلادي. كانت أسعد ذكرياتي

عندما فتحت هدية نان لأجد الكاميرا التي طالما تمنيتها، واستطعت أخيرًا أن أطور مهاراتي في التصوير.

قلت لوالدي، وأنا أريهما العدسات: «لقد اشتريت عدسات مستعملة لأخذ الصور عن قرب».

قضيت معظم أوقات فراغي في أخذ الصور وخاصة الصور الشخصية، حيث كنت أعشق فن البورتريه. لم أكن على دراية بتقلب نظام الكهرباء في مصر.

صعدت إلى الشرفة العلوية. كانت هناك أبواب فرنسية الطراز تؤدي إلى الشرفة مباشرة من غرف النوم.

«يا له من منظر رائع!».

أطلت الشرفة على الحديقة، وعلى ضفاف النيل. استطعت أن أرى كل أبراج المدينة القابعة على الضفة الأخرى. أخذت سيجارة، واستنشقت دخانها ببطء،

ونشوة. عارض والدي الذي لم يدخن في حياته أبدًا تدخيني السجائر، إلا أنني، مثلي مثل غالبية صديقاتي، كنت أرى أن تدخين السجائر يدل على نضوجي،

وأفكاري التحررية.

كان الليل دافئًا، والسماء تموج بالنجوم. بدأت الحياة تبتسم مرة أخرى. ارتديت المايوه البكيني، وسرت

حافية القدمين حتى استشعرت أصابع قدمي ملمس عشب الحديقة، ورويدًا رويدًا تغلغل ماء حمام السباحة الفاتر في جسدي. قررت أن أفعل ما بوسعي لأظل بالقاهرة.

قلت لنفسي: «يستطيع طورشتين أن يعود إلى ستوكهولم إن أراد ذلك، أما أنا فقد بدأت مغامرتي للتو في القاهرة».

الفصل الثالث عشر

حياة مُترفة

تعرفت في اليوم التالي على فريق العمل في الجزء السكني الخاص بنا في السفارة.

« هذا هو موتشي السفرجي، أهم شخص في طاقم العمل المنزلي».

قال لي موتشي، وهو يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء: «صباح الخير آنسة آن».

أجبته: «صباح الخير».

أصبحت منذ ذلك اليوم « آنسة آن » . بدا الأمر مضحكًا لي.

قالت إنجريد، وهي تشير إلى شاب صغير ليس في أناقة موتشي، وبشرته أفتح: « هذا هو محمد».

كان لمحمد نظرة شقية تعتلي وجهه، وهو يبتسم لي.

قال موتشي: «إنه لا يطيعني».

هززت رأسي قائلة: «أستطيع أن أراهن على ذلك».

كان موتشي سودانيًّا من أصول نوبية كما قالت لي والدتي. تميز بقامته الطويلة الممشوقة في الزي الأبيض المرصع بالأزرار الذهبية المنقوش عليها شعار السويد: ثلاث

تيجان ملكية.

قلت لوالدتي بعد وهلة: «إنه أنيق جدًّا».

- انتظري لترية في حفلات الاستقبال.

- لماذا؟

- يرتدي موتشي في حفلات الاستقبال الرسمية زيًّا أزرق اللون ممزوجًا باللون الأصفر ليبدو أكثر أناقة. توجهي إليه إذا احتجت أي شيء، كما أن موتشي لديه مفاتيح المكان بأكمله.

قلت وأنا أتعجب لماذا يجب غلق جميع الأبواب: «حسنًا».

اكتشفت بعد ذلك أن مصر آمنة، ونسبة السرقات فيها أقل من السويد.

كان موتشي قلقًا على مستقبلي كزوجة، قال لي: « آنسة آن، أنت نحيفة جدًّا. مَن يرغب بالزواج من فتاة نحيفة؟! » .

قلت له: «لقد قلت لك مرارًا إنني لا أنوي الزواج الآن».

كان موتشي يحاول دائمًا دفعي لتناول المزيد من الطعام. عرفت بعد ذلك أن معايير الزواج النموذجية في مصر أن تكون الفتاة سمينة ذات بشرة بيضاء، حيث كان هذا دليلًا على الثروة، والمستوى الاجتماعي وفقًا لمعايير قطاعات معينة من المجتمع المصري.

قالت والدتي: «لن تندهشي من هذه المعايير إذا عرفتي سعر اللحوم في مصر».

- إذن فزيادة الوزن تعني القدرة المالية على شراء اللحوم!

- بالضبط، كما أن البشرة البيضاء تعني أنها لا تحتاج للعمل في الحقول.

ضحكت قائلة: «لا بد أنهم يتهمونني بالحماقة لكوني أجلس بالقرب من حمام السباحة تحت أشعة الشمس».

كان لدينا طباخ مجنون يُدعى محمد أيضًا، وهو رجل صغير الحجم.

قال موتشي: «لقد فقد فطنته عندما تعرض لحادث تصادم في المعدية التي كان على متنها، وكان هو الناجي الوحيد».

قالت والدتي:«للأسف، هناك حوداث كثيرة للقوارب والمعدية».

كان محمد كثير السرقة، حيث كان يرجع منزله كل يوم في المساء، ومعه حقيبتان كبيرتان مليئتان بالطعام لأسرته.

قالت لي والدتي، وهي تحاول أن تنظر لسرقته من منظور آخر: «إنها مساعدة، وإحسان».

شكوت لوالدتي قائلة: «لكن الثلاجات تكون خاوية دائمًا بعد رحيله!»

أحيانًا كنت أرجع من الحفلات في وقت متأخر من الليل، وعندما أشعر بالجوع، كنت أجد الثلاجات فارغة. تجاوز الأمر كل الحدود حتى قالت له والدتي، وهي

تنظر إلى عينيه: «الثلاجات دائمًا خاوية، هذا غريب جدًّا».

لم يحاول شرح الموقف، أو التفسير، بل وقف صامتًا، وقد بدا شعره الطويل غير المُصفف في حاجة ماسة للقص.

قالت والدتي في محاولة لإيجاد الأعذار له: «من الطبيعي أن يساعد الأغنياء الفقراء، حيث لا توجد رعاية اجتماعية».

كانت والدتي تعلم أنه من الصعب إيجاد طباخ جيد في مصر، حيث إن كل الطباخين الماهرين قد تركوا مصر،

وتوجهوا إلى الدول العربية، حيث يوجد البترول، والمال. كان محمد متخصصًا في المعجنات المقرمشة الهشة.

حاولت والدتي مرة أخرى أن تجد له عذرًا: «لا نستطيع أن نستغني عن طعامه الشهي».

قال موتشي: «إنه عصبي المزاج».

اضطرت والدتي في النهاية للاستغناء عنه رغم مهارته بعد أن ألقى بسكين حاد صوب موتشي في لحظة غضب.

صرخ موتشي: «لقد جُن بالتأكيد».

قالت والدتي: «نعم، لا بد أنه قد فقد عقله بعد أن ارتطم رأسه في أثناء حادثة المعدية».

شكت والدتي لوالدي: «من الصعب تنظيم حفلات هنا. كيف تتوقع مني تدبر الأمر في ظل عدم وجود طباخ ماهر؟! "

كان شيئًا غير معتاد أن تذهب امرأة أجنبية للتسوق في السوق المحلي.

اكتشفت والدتي أن حفلات العشاء في مصر تختلف تمامًا عنها في السويد. اعتادت والدتي أن ترسل دعوات العشاء في السويد قبل عدة أسابيع من موعد العشاء المحدد. كان الضيوف يرسلون الرد في خطاب. يُعد الرد المتأخر نوعًا من الوقاحة، وكأن الضيف ينتظر عرضًا أفضل للعشاء من أشخاص آخرين. عادةً ما تكون هناك إشارة للموعد المحدد، والزي في دعوة العشاء، على سبيل المثال يمكن أن تتضمن الدعوة الآتي: «مسموح بربع ساعة تأخير». كان والداي يستقبلان حوالي اثني

عشر فردًا على العشاء لا أكثر، وكانت والدتي تجعلنا نشعر بالتوتر أثناء تحضيرها المسبق لحفلات العشاء. عادةً ما كانت والدتي تفتح نوافذ المنزل في أثناء طهي

الطعام للتخلص من الرائحة حتى لوكنا في منتصف الشتاء.

كان والدي يقوم بتنظيم أماكن جلوس الضيوف وفقًا للإتيكيت، كل على حسب مركزه، وسنه. كانت أسماء الضيوف تُكتب على كروت صغيرة مُحاطة بإطار

ذهبي، أما الكتابة فكانت بالقلم الحبر، وتُوضع الكروت في النهاية على كل طبق.

كان والدي يقول بالسويدية، وهو يرفع كأسه لشرب النخب قبل أن يبدأ الضيوف في تناول الطعام وفقًا لعادات السويد: «سكال».

اعتاد الضيوف من الرجال شرب نخب مُضيفة المنزل، وهم ينظرون إليها بينما يمسكون الكأس بحيث تتوازى مع الزر الثالث من أزرار القميص مع إيماءة صغيرة

بالرأس قبل وضع الكئوس على طاولة الطعام. كان بقية الضيوف يشربون نخب بعضهم البعض في ترتيب معروف: الرجل الذي يجلس على اليمين يشرب نخب

السيدة التي تجلس على اليسار. اكتشف والداي الكثير عن العادات في مصر.

نظم والداي أول حفلة عشاء لهما في مصر وفقًا لعاداتهما، واستعدا لاستقبال اثني عشر فردًا.

قالت والدتي: «لقد قمت بتزيين طاولة الطعام بشكل جذاب، أليس كذلك؟! "

أجابها والدي: «بلى».

وُضعت الأطباق الرسمية المُطعمة بشعار التاج السويدي المذهب، وأدوات تناول الطعام، والأكواب الكريستال، وفوط السفرة الكتان المطرزة، بينما توسط طاولة

الطعام باقة من الورد الذي قُطف من الحديقة.

انتظر والداي الضيوف. مر الوقت، وشعر والداي بالتوتر. وصل معظم الضيوف في وقت متأخر عن الموعد المحدد بينما لم يأتِ البعض الآخر على الإطلاق، بل وقد

أحضر البعض أفراد عائلتهم معهم.

سأل والدي وهو في ذهول، حيث كان معتادًا على الطريقة السويدية: «ماذا سنفعل في أماكن الجلوس؟ "

قالت والدتي: «سأتدبر الأمر».

همس والدي في أذن والدتي: «ماذا عن الطعام؟»

قالت: «سأتأكد من وجود طعام كافٍ».

ذهبت والدتي إلى المطبخ دون أن يشعر بها أحد، وقالت لوالدي بعد أن تبينت الموقف: «هناك الكثير من الطعام».

كان الطباخ يطهو المزيد من الطعام، حتى يأخذ ما يتبقى معه إلى المنزل لعائلته.

تنهدت والدتي: «ما زال أمامي الكثير لأتعلمه».

قامت والدتي بوضع المزيد من المقاعد، وأعادت تنظيم الأطباق، حتى أصبح كل شيء على ما يرام.

قال موتشي: «الحمد لله».

قالت والدتي وهي تشعر بالإرهاق بعد أول حفلة عشاء دعت فيها شخصيات بارزة في المجتمع المصري:

«سأرتب حفلات العشاء بشكل مختلف في المستقبل».

قال والدي وقد شعر بالراحة: «لقد مر كل شيء بسلام».

اعتادت إنجريد بعد ذلك أن تضع عددًا من المناضد المستديرة لإضافتها عند اللزوم حسب عدد الضيوف، وموعد وصولهم.

قالت إنجريد: «سأحضر مفارش مختلفة الألوان لكل منضدة».

تم تنظيم حفلة أخرى مساء يوم الخميس، حيث إن يومي الجمعة، والسبت عطلة رسمية في مصر.

أعطت إنجريد تعليماتها للخدم: « سيتم تقديم الطعام في التراس قبل تناول الطعام».

قال موتشي لإنجريد محاولًا ثنيها عمَّا تريد: «إنها ليست بفكرة جيدة سيدتي. هناك حفل زفاف على الضفة الأخرى من النيل».

قالت إنجريد: «لا يهم طالما أن حفل الزفاف بعيد عن هنا».

قال موتشي بإصرار: «لكنهم سيطلقون الرصاص في الهواء، وقد يكون هذا خطير جدًّا».

أصرت إنجريد على تجاهل كلام موتشي: «هذا عبث!»

وصل الضيوف، وجلسوا في التراس. كانت ليلة دافئة كعادة الليالي المصرية.

قالت إنجريد: «أليس المنظر ساحرًا!»

فجأة دوى صوت طلقات الرصاص التي كان ينتهي بها الحال في الحديقة.

صرخ والدي: «أسرعوا إلى الداخل لتفادي طلقات الرصاص».

شعرت إنجريد بالخزي، وهي تنظر إلى وجه موتشي القلق، وقالت له: «سأستمع إلى نصيحتك في المرة القادمة».

أعطى أكسيل أوامره للخدم: «أغلقوا النوافذ».

شعر أكسيل بالراحة كون النوافذ مضادة للرصاص.

قالت إنجريد: «هناك مشكلة أخرى أريد مناقشتها معك».

سأل أكسيل: «ماذا في الأمر؟»

« رأيت المصريين ينظرون إلى بعضهم البعض، ويبتسمون بعد النظر إلى اللوحة المعلقة فوق الأريكة».

نظر أكسيل مليًّا إلى اللوحة الضخمة التي رسمها الفنان السويدي المعروف جوستا ويرنير.

سأل والدي صديقه المصري سامي: «ما المضحك في هذه اللوحة؟»

قال سامي: «إن الاسم المكتوب على اللوحة بيروكيه، كان اسمًا لبيت دعارة في شارع قصر النيل».

قالت إنجريد، وقد انفجرت ضاحكة: «هذا يفسر لماذا احمرَّ وجه السيدات خجلًا عندما رأين اللوحة».

اشتكت إنجريد لمكتب الخارجية السويدية: «ليس هذا هو الشيء الوحيد الخطأ في المكان، كل الأقمشة التي تغطي الأثاث مصنوعة من الصوف، وأشعر بالحرارة

الشديدة عند الجلوس عليها حتى في ظل عمل مكيف

الهواء. أضف إلى هذا التصميم الذي نفذه المهندس المعماري السويدي، والذي يسمح لأشعة الشمس بالنفاذ حتى إلى الطابق السفلي».

تعيين مهندس معماري لم يعش في مصر أبدًا، ولم يدرِ شيئًا عنها ولا عن طقسها، لم يكن فكرة جيدة.

قال أكسيل لأحد موظفيه بعدما حدث سابقًا في ليلة العشاء من إطلاق الرصاص: «ربما يجدر بنا أن نلقي نظرة على القارب الخاص بنا».

وفرت السفارة السويدية لنا قاربًا للدواعي الأمنية في حالة إذا ما اضطررنا لإخلاء المكان.

قال الموظف لوالدي: «القارب كله ثقوب، وفتحات. لقد صار موطنًا للفئران».

عُقدت حفلة العشاء التالية في يوم مختلف من أيام الأسبوع، واستطعت الحضور. اكتشفت أن اختلاف الأعمار في مصر لا يشكل أي عائق، على عكس السويد

التي كان يتم فيها فصل كل مرحلة عمرية عن الأخرى. شعرت بسعادة، حيث لم يتعين عليَّ خدمة أصدقاء أبي كما كان الحال في السويد. جلست بالقرب من

رجل مصري، وسألته عن وظيفته. تبدلت في الحال ابتسامته الدافئة، وحل محلها وجه جامد، وأجابني بلهجة جافة قائلًا: «أنا صحفي في جريدة الأهرام، وهي

أشهر جريدة في مصر » ، ثم أدار ظهره لي، وتحدث مع السيدة التي تجلس إلى جانبه. أدركت أنني ارتكبت خطأ ما، لكني لم أدرك ما هو تحديدًا، حتى أخبرني

والدي بعد العشاء.

قال أكسيل: «إنه محمد حسنين هيكل، أحد أشهر الكتاب الصحفيين بمصر».

كان هذا الصحفي اللامع مشهورًا في مصر كشهرة أم كلثوم، ولكن كيف لي أن أعرف؟! ارتكبت بعدها نفس الخطأ، حيث جلست إلى جوار كاتب، وصحفي

سويدي توازي قامته قامة محمد حسنين هيكل، وسألته نفس السؤال، فما كان من چان جييو إلا أن أدار ظهره لي. في هذا الوقت كنت قد قضيت سنوات طويلة

بمصر بعيدًا عن الصحافة، والإعلام السويدي.

قلت لنفسي: «بالتأكيد أنا لست محظوظة مع المشاهير».

ذهبت إلى التراس المطل على النيل أدخن سيجارتي هربًا من الإحراج الذي شعرت به، وإذا بي أرى امرأة تبكي، وهي تجلس أمام كوخ خشبي أمام حديقة الجزء

السكني الخاص بنا في مقر السفارة. تعجبت لوهلة من وجودها على أرض ملكنا.

قلت لها: «سعيدة».

جرت بسرعة إلى داخل الكوخ، حيث شعرت بالخوف، لكنها جاءت بعد وهلة، وسألتها عن عمرها.

قالت: «أعتقد خمسة وعشرون عامًا».

سألتها، وأنا أرى أطفالًا في ثياب قذرة يلعبون في المياه الملوثة: «كم طفلًا قد أنجبت؟ "

تنهدت قائلة: «أنا حامل في طفلي الثامن، وعلى وشك الإنجاب».

صحت: «يا إلهي، هل ترغبين في كثير من الأطفال؟»

قالت، وقد أجهشت بالبكاء: «ماذا أفعل؟ أجد نفسي دائمًا حاملًا. يأتي الأطفال واحدًا تلو الآخر».

قلت: «لا تقلقي، سأساعدك».

جريت مسرعة إلى الداخل، وقد نسيت كل شيء عن واقعة هيكل. لم يكن أحد يدري أن هناك عائلة تسكن على ضفة النيل بجوار حديقتنا.

قلت لوالدي: «تحتاج العائلة التي تسكن على ضفة النيل مساعدة».

رد أكسيل: «اذهبي لوالدتك، وأخبريها».

قلت لوالدتي: «السيدة تبكي».

ذهبت معي إنجريد إلى السيدة لتهدئتها، وعندما أدركت والدتي المشكلة توجهنا معًا إلى الصيدلية لشراء حبوب منع الحمل ثم أعطيناها للسيدة.

قالت إنجريد: «فلتأخذي حبة كل يوم لمدة ثلاثة أسابيع، وبعدها توقفي لمدة أسبوع».

أخذت الحبوب، وهزت رأسها، وهي تبتسم لأول مرة. مرت شهور عديدة، ورأيتها مرة ثانية ببطن منتفخ، قلت لها: «ماذا حدث؟ ألم تأخذي الحبوب التي

أعطيتها لك؟!»

قالت: «أخذتها، لكن الأمر كان معقدًا بالنسبة لي؛ لذلك أخذت الحبوب كلها مرة واحدة بدلًا من واحدة كل يوم».

جعلتني هذه الواقعة أفهم صعوبات تنظيم الأسرة في بلد ما زالت الأمية فيه تمثل معضلة كبيرة.

قلت في قرارة نفسي، وأنا أهز رأسي، وأشعر بجهلي، وغروري: «وأنا التي اعتقدت أني استطعت مساعدتها».

كانت هذه الواقعة بالنسبة لي أسوأ من واقعة الصحفي المشهور. شعرت بالخزي، ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي أسيء فيها فهم الأمور بمصر.

زرت بعد هذه الواقعة مركزًا لتنظيم الأسرة بضواحي القاهرة مع صديقتي الأمريكية بيكي التي كانت تدرس معي الأنثربولوجيا. أدركت بعد هذه الزيارة أنه من

الصعب تغيير العادات المتوارثة، وأدركت أن الأمان الاجتماعي للفقراء يكمن في إنجاب كثير من الأطفال الذين يتولون رعاية الأسرة فيما بعد عندما تكبر.

قالت آمي من مركز تنظيم الأسرة: «لا توجد أي دور رعاية لكبار السن، كما أن وضع العائلة الاجتماعي له صلة بعدد الأطفال في العائلات الفقيرة».

تطيع النساء الرجال في هذا المجتمع الذكوري، كما أن الانفجار السكاني أعاق أية فرصة لتحسين أوضاع الأفراد.

سافرت بيكي مرة إلى السودان، حيث كانت تتمتع بروح المغامرة أكثر مني. عندما وصلت لم تكن هناك أية وسيلة مواصلات لنقلها إلى الريف. كانت الحرب الأهلية

دائرة في هذا الوقت، ولم يكن أحد ليغامر باصطحاب فتاة شقراء نحيلة زرقاء العينين في مثل هذه الظروف.

روت لي بيكي: «لكني لم أحبط بسهولة. قررت أن أشتري حمارًا، وأتجول به. قمت بتضفير شعري على الطريقة الإفريقية بمساعدة نساء القرية. رجعت بعد ثلاثة

أسابيع، وبالقطع بعت الحمار».

وهكذا استطاعت أن تتجول من قرية لقرية. روت لي

بيكي كل التفاصيل، وكأن التحرك بحمار شيء عادي، ومألوف.

مساعدة الأطفال الذين يعانون من الجفاف كان أحد أهم المشاريع التي شاركت فيها تلك المرأة الرائعة. كان الحل سهلًا: توزيع أكياس بها مزيج من الملح والسكر، يُضاف الماء إليها وبهذا يتم تعويض ما فُقد في أثناء الجفاف.

اكتشفت سوء تغذية الأطفال المصريين عندما عملت في « الكريتاس » ، وهي منظمة كاثوليكية للبر والمحبة. كانت وظيفتي أن أقوم بوزن الأطفال، وبالطبع اكتشفت أن وزنهم أقل كثيرًا من وزن الأطفال في الغرب.

قلت لإحدى الأمهات التي كان طفلها يعاني من سوء التغذية: «ها هي صابونة، ودقيق، وأشياء أخرى مهمة لتغذية الطفل، ورعايته. لا تبيعي هذه الأشياء في السوق السوداء».

قليلًا ما كانت الأمهات تسمع لنا، وكانت هذه المشكلة صعبة حقًّا في معالجتها.

رأيت جانبًا آخر من مصر عندما ذهبت لزيارة الأميرة المتقدمة في العمر سميحة حسين، والتي كانت تسكن جوارنا. كانت الأميرة سميحة البنت الرابعة من بين ستة أطفال. حكم والدها السلطان حسين كامل مصر عندما كانت تحت الحماية البريطانية من عام 1914 . وحتى عام 1917 . كانت والدتها السلطانة ملك طوران الزوجة الثانية للسلطان حسين كامل. كان جميعهم من

السلالة العثمانية التي تتميز بالبشرة البيضاء، وملامح الوجه، والجسد المنحوتة بعناية.

قالت إنجريد: «جدتك كانت تعرف الأميرة سميحة، وكثيرًا ما حدثتني عن جمالها، وحكت لي كيف كانت تستمتع بتناول الطعام على طاولات الطعام الفضية المنخفضة التي كانت تمتلكها».

- لا بد أنها كانت شديدة الثراء.

- نعم، لكنها كانت امرأة تعيسة على الرغم من ثرائها. تزوجت من رجل شديد الوسامة، وكان يصغرها سنًّا. أُعجبت به الملكة فريدة، ووفقًا للقصة المتداولة اعتادت الملكة فريدة الذهاب إلى القصر سعيًا وراءه بعد طلاقها.

كانت الأميرة سميحة تعيش في أحد قصورها، إلا أنه تم مصادرة جميع ممتلكاتها بما فيها الأثاث، والملابس، والمجوهرات، وحتى ألبوم صور العائلة.

قالت الأميرة سميحة بحزن: «تمت مصادرة كل شيء فقط لتمتلئ جيوب الضباط الفاسدين بالمال!»

سرنا عبر القصر الفارغ شديد البرودة، أُطر اللوحات مُقشرة بفعل الزمن بينما ارتسمت آثار تقلبات الدهر على الأرض المرمرية، والدرج الذي كان يومًا ما فاخرًا.

قلت لإنجريد، ونحن نصعد للطابق العلوي، حيث غرفة الأميرة سميحة: «الحزن يسيطر على المكان».

كانت الأميرة سميحة تجلس في غرفتها للاحتماء من برد الشتاء.

حيتنا الأميرة سميحة، وتركت كتاب الشعر الذي كانت

تقرأه: «أهلًا وسهلًا، كم هو جميل أن تأتوا لزيارتي. أعيد قراءة الكتب القديمة، فهم لا يعطونني أي كتب جديدة».

قالت إنجريد، وهي تبتسم: «يعجبني حقًّا ولعك بالفن، والأدب».

ردت الأميرة سميحة: ««نعم، أنا عاشقة حقًّا للفن، والأدب، وأتمنى أن يتحول هذا المكان بعد موتي إلى مكتبة».

قالت إنجريد: «إن شاء الله».

أضافت الأميرة سميحة: «لسوء الحظ، لا يمكنني أن أقدم الكثير للترحيب بكم فأنا لا أملك إلا القليل».

ردت إنجريد بسرعة: «يسعدنا رؤيتك. نحن لا نريد أي شيء».

قالت الأميرة سميحة: «لقد أخذوا مني كل شيء كما تعلمين. معظم أفراد عائلتي إما يعيشون في المنفى، أو انتقلوا إلى الرفيق الأعلى».

تحدثنا مع الأميرة الحزينة. احتسينا الشاي الذي قُدم لنا مع بعض الحلوى في غرفة الأميرة الموحشة. كان من الصعب تخيل الذوق الرفيع الذي كان عليه هذا القصر يومًا ما.

قالت الأميرة سميحة: «كم أتمنى لو كانوا وضعوا كل تحف، وأنتيكات القصور الملكية في متحف. لو حدث هذا لكان رائعًا بحق».

لا يوجد شيء هكذا في مصر. إنه حقًّا تراث مفقود، لا يستطيع أهل مصر التمتع به. كان هناك العديد من القصور الملكية المليئة بالتحف النفيسة، والأنتيكات

الفاخرة.

حكت الأميرة سميحة: «كنت أقيم العديد من الأمسيات الموسيقية، والغنائية هنا».

سألتها: «رائع. مَن كان يغني في هذه الحفلات؟ أم كلثوم؟»

ردت الأميرة سميحة: «لا يا عزيزتي. كان هذا قبل ظهور أم كلثوم. اعتاد عبد الوهاب الغناء في هذه الأمسيات».

لم أسمع عنه من قبل. كنت في هذا الوقت أعرف القليل عن مصر.

سألتها: «ما الذي كنت تقومين به غير تلك الأمسيات؟»

قالت الأميرة سميحة وهي تبتسم لي بعد أن استشعرت فضولي: «كنت أعقد صالونًا أدبيًّا يجمع الشعراء، والأدباء».

سألتها، وأنا أشير إلى تمثال منحوت: «وما هذا؟ »

قالت: «إنه أحد الأشياء القليلة التي تبقت هنا، تمثال قمت بنحته».

تلقت الأميرة سميحة دروسًا في النحت، والفن على يد أشهر النحاتين، والفنانين الإيطاليين.

قالت الأميرة سميحة: «ربما يأخذك الحارس في جولة لرؤية القصر إذا تحدثت معه بلطف. يوجد بالقصر ألوان مختلفة من الفنون».

تركت والدتي، والأميرة يكملان نقاشهما، وتسللت إلى الطابق العلوي دون إخبار الحارس، فقد خشيت أن يرفض السماح لي بالتجول في القصر. رأيت الديكور اليوناني، كما رأيت بعض الغرف المُزينة على الطراز

الفاطمي، أما الأبواب الخشبية فكانت على الطراز العثماني.

قلت لنفسي، وأنا أتجول بالقصر: «لا بد أن القصر كان شديد الفخامة قبل أن تتم مصادرة أثاثه، وقبل أن يهلك».

أفقت من أفكاري على شعري الذي اشتبك ببيت عنكبوت، وعلى صوت إنجريد: «سآتي لزيارتك مرة أخرى».

أسرعت لمرافقة إنجريد التي أشارت إلى الأعمدة، وقالت : «إنها مُصممة على الطراز الأندلسي».

أشرت إلى الحوائط المكتوب عليها بعض الكلمات العربية بشكل هندسي، ومُزينة بالذهب منذ حقبة المماليك : «ما هذا؟ »

قالت إنجريد: «الكتابة تقول إن المسلمين يتكاتفون يدًا بيد».

قلت وأنا أفكر بحال الأميرة المسكينة: «ليس دائمًا على ما يبدو! »

توجهنا بعد ذلك إلى منزلنا.

كان يتم رفع العلم السويدي في المناسبات الخاصة. عادةً ما كانت تتصل الأميرة بوالدتي عندما ترى العلم من نافذة غرفتها لتسأل عن المناسبة، وإذا ما كانت هناك

حفلة، ومَن المدعوون. أخبرتها والدتي، ثم بعثت إليها ببعض الحلوى السويدية، فقامت الأميرة بإرسال طبق مليء بأحد أنواع الطعام المصري، ومصحوب بقطعة قماش مُزينة بالشعار الملكي المصري. أفلتت قطعة

القماش بأعجوبة من حراس القصر.

قالت والدتي إنجريد وهي تنظر إلى الطبق الذي أرسلته الأميرة: «هل تتخيلين أن هذه المرأة اعتادت أن تقدم الطعام لضيوفها في الحفلات على موائد من الفضة؟»

أضافت إنجريد: «ليست هي الوحيدة التي تعاني. هناك أيضًا العائلات اليهودية التي كانت صديقة للعائلة المالكة كعائلة كاسترو التي كانت صديقة لآل طورشتين

سالين. عندما اقترب الألمان من مصر امتلأ جراج جدك طورشتين بممتلكات السيد كاسترو، وممتلكات العائلات التي ساندت فرنسا الحرة».

تم مصادرة فيلا كاسترو بعد ثورة عبد الناصر، وأصبحت الفيلا مقرًّا لإقامة أنور السادات. لم تستطع زوجة كاسترو أن تمنع نفسها من الشكوى قائلة: «السيدة

چيهان تقدم الشاي لضيوفها مستخدمة أدواتي الفضية».

كنا حقًّا محظوظين. استطعنا إقامة العديد من الحفلات في الحديقة. قررت أن أتمسك بهذه الفرصة، وأستمتع بحياتي. لست أدري إن كنت سأحظى بهذه الحياة

المترفة مرة أخرى. في إحدى الحفلات التي قمنا بتنظيمها، كان هناك جمل في الحديقة حتى إن والدي ضحك قائلًا: «لم أكن لأتخيل وجود جمل هنا».

على الرغم من ميل والدي للطبيعة، وممارسة الرياضة، وركوب الخيل، فإنه كان يشعر بسعادة ملحوظة في استقبال الضيوف، وتنظيم الحفلات.

على أية حال، لم تكن كل الحفلات ناجحة. أحيانًا كان أصدقائي يفرطون في تناول المشروبات الكحولية. في إحدى الحفلات قررت صديقتي الأمريكية الشقراء سارة أن تجلس على المنضدة الزجاجية في الحمام. سمعت بعد ذلك مباشرة ضوضاء تأتي من الحمَّام، وصوت استغاثة. أسرعنا جميعًا إلى الحمام لنجد سارة تضحك وهي جالسة على الأرض، بينما تناثر الزجاج حولها. في حفلة أخرى أوقع أحدهم زجاجة نبيذ أحمر كاملة على السجادة الموكيت البيضاء في غرفة المعيشة.

صاح والدي في اليوم التالي: «هل تعلمين كم تبلغ تكلفة شحن سجادة أخرى مثل هذه من السويد؟!»

مُنعت بعد ذلك من إقامة أية حفلات داخل المنزل. التففت حول ذلك، وقررت أن أقيم الحفلات في الحديقة. قبل والدي بالأمر حتى رأى يومًا شابين يتسمان بالوقار يتجادلان بكامل ملابسهما في حمام السباحة بسبب فتاة.

قال والدي بحزم: «انتهى الأمر يا آن».

لم تُجدِ نفعًا تعهدات والدتي بعدم تكرار ذلك.

في أحد الأيام مر حاوي ثعابين بجوار منزلنا، قال الحاوي: «أنا متأكد أن هناك كوبرا في حديقتك. دعيني أساعدك على التخلص منها مقابل أجر بسيط».

استطاع حاوي الثعابين خداعي بالفعل.

خمنت إنجريد ما حدث: «لا بد أنه وضع الكوبرا في حديقتك عن قصد ليخلصك منها مقابل جنيه، أو اثنين».

قلت لوالدتي بإصرار معترضة على ما قالته سلفًا: «لقد

طعمني ضد سم الحية، حيث جعلني أقفز عليها ثلاث مرات».

هزت إنجريد رأسها نفيًا غير مصدقة ما أقول، كان يوجد في حديقتنا غزالة أيضًا تلقتها والدتي هدية في أثناء رحلتها إلى السودان.

قال أحدهم لإنجريد: «لقد فقدت والدتها».

أطعمتها إنجريد حتى صارت الغزالة تنام إلى جانبها في السرير معتقدة أنها والدتها.

قال والدي معترضًا: «لا يمكن أن تأخذيها إلى الطائرة بالطبع».

أطاعته والدتي، وتركت الغزالة مع البعثات السويدية التي زارتها.

قالت إنجريد وقد رأت بالفعل قردًا، وببغاء مع أحد المسافرين على الطائرة: «كان من الممكن أن آخذها معي».

أراد السفير السعودي الترحيب بنا عند وصولنا إلى مصر على طريقته الخاصة وفقًا لأعراف، وتقاليد السعودية التي تتمثل في ذبح خروف عند عتبة المنزل، والسير فوق دماء الخروف، والدخول إلى منزلنا، وقدمه ملطخة بالدماء.

قالت له زوجته الشابة التي أكملت تعليمها بالخارج: «ربما لم تثمر هذه اللفتة الكريمة منك عن نتائج طيبة».

استطاعت زوجة السفير الشابة بالفعل أن تثنيه عن الفكرة. شعرت والدتي بالامتنان، وهي تفكر في السجادة البيضاء الموجودة في غرفة المعيشة. اشترى لنا السفير

السعودي عددًا هائلًا من صناديق الحلوى يعادل ثمن الخروف. كان هذا الكم الهائل من الحلوى يكفي لعشرات من حفلات الشاي.

قال والدي ضاحكًا وهو ينظر إلى كم الحلوى الهائل: «حسنًا، على الأقل لن يتعين علىك خبز أي معجنات هذا العام».

تعرفت فور وصولي إلى مصر على طارق، طالب في الجامعة الأمريكية ذو قامة ممشوقة، وشعر أسود، وشارب . كنا لا نفترق أبدًا. عرفني طارق على العديد من

التقاليد المصرية. كان والد طارق رجلًا مسلمًا ورعًا، أما والدته فكانت امرأة متحررة أقرب للنموذج الغربي من النساء. كان كل منهما يكن الحب، والاحترام للآخر

رغم اختلافهما في الشخصية. لم يشكُ أحد منهم من كوني علمانية مسيحية أجنبية. رأيت فيهم التسامح، والقبول الذي وجدته عند غالبية المصريين.

في أثناء انتهائي من مراسلة الجامعة بالسويد للحصول على الليسانس، قمت بتسجيل اسمي في الجامعة الأمريكية للالتحاق بفصول التاريخ الإسلامي، والغربي.

كانت الجامعة الأمريكية في وسط المدينة خلف ميدان التحرير بعيدًا عن مكان إقامتي.

قلت لوالدي: «سأذهب إلى الجامعة. كيف أستطيع الذهاب؟»

قال والدي: «اركبي الحافلة، لا يمكنك قيادة سيارتي بدون الحصول على رخصة قيادة مصرية».

- لقد نجحت بصعوبة في امتحان القيادة بالسويد، وبالتأكيد ستكون الأمور أصعب هنا.

- بالتأكيد، ولكني سألت، وعرفت أن هذا غير مسموح به لك هنا، وغير قانوني.

لم يكن أمامي سوى الامتثال لأوامر والدي، وانتظار الحافلة التي ستقلني إلى الجامعة. وصلت الحافلة أخيرًا.. النوفذ بدون زجاج، والناس تقف على الأبواب.

ساعدتني الجموع الواقفة على الباب في الركوب. انتهى بي الحال في ركن قريب من النافذة. لم تكن هناك وسيلة للخروج من الأتوبيس سوى النافذة. اقتربت

محطتي، وساعدتني أيادٍ كثيرة في الوصول للباب.

لعنت في صمت والدي الاشتراكي حتى النخاع: «أول، وآخر مرة».

رفضت ركوب الحافلة بعد هذه التجربة.

قلت لوالدي: «لا يهمني ما تقول. سآخذ سيارتك».

رد أكسيل: «إذن يجب أن تنجحي في اختبار القيادة ».

قال سعد، سائق السفارة، وقد أخذته الشفقة بي: «سآتي معك يا آنسة آن».

كان يجب أن أنجح في اختبار القيادة، والاختبار النظري.

قال لي الممتحن: «يجب أن تقودي سيارتك فوق هذه الخطوط البيضاء».

كان هناك جمع غفير من الناس يحاولون مساعدتي: «شمال، توقفي، يمين، استديري».

رسبت في الامتحان. كانت السيارة كبيرة جدًّا، وثقيلة في استخدامها. كان الاختبار النظري الكتابي أسهل بكثير، فقد كانت الإجابات مكتوبة تحت العلامات باللغة

الإنجليزية.

لم أرَ أيًّا من هذه العلامات في شوارع القاهرة. بعد انتهاء الاختبار، صعدت أعلى الدرج، ثم نزلت أكثر من مرة، وكان سعد يوزرع البقشيش، والرشاوى هنا،

وهناك.

قال سعد: «لا تقلقي، سأتدبر الأمر».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أصادف فيها واقعة فساد، وإن كانت على نطاق صغير. تعلمت بعد هذه الواقعة أن أي شيء يمكنني تدبيره بحفنة من الجنيهات.

عدت إلى منزلي سعيدة، ورخصة القيادة المصرية

في جيبي.

أعلنت لوالديَّ : «الآن تبدأ حياتي كقائدة سيارة في مصر».

بدأت أستعير سيارة والدي ال ڤ ول ڤ و، والقيادة إلى مقر الجامعة رغم أنه لم يكن متقبلًا لفكرة قيادتي لسيارته.

في أحد الأيام استعرت سيارة والدي عندما كان في رحلة عمل. جلست على كرسي القيادة، ونظرت خلفي، وأنا أرجع بالسيارة إلى الوراء حتى سمعت صوتًا رهيبًا،

وإذا بي أرى باب الجرا چ الخشبي في حالة يُرثى لها. أتى سعد مسرعًا، وشحب وجهه، وهو يرى ما حل بالسيارة، والجراچ. كان على طاقم العمل أن يصلح

السيارة، والجراچ في أسبوع واحد قبل عودة والدي. تصرفت والدتي بعصبية، وهي ترى الأيام تمر دون أن

تكتمل عملية الإصلاح. أخيرًا تمت الإصلاحات اللازمة قبل يوم واحد فقط من وصول والدي.

لامتني والدتي بشدة: «لقد استطعنا تدبر الأمر هذه المرة. من الأفضل ألا يتكرر هذا».

أخيرًا، اشترت لي والدتي سيارة صغيرة صفراء اللون، وسرعان ما أطلقت عليها اسم « الكناري». كان لوالدتي طريقة ماهرة في تهدئة الأمور خاصةً، وقد ضاق

والدي ذرعًا بتصرفات ابنته المراهقة، فلم تكن حادثة السيارة هي الوحيدة من نوعها.

قال أكسيل مبتسمًا: «أخيرًا، أستطيع أن أسترد سيارتي».

كانت القيادة في مصر تجربة مختلفة تمامًا عن القيادة في ستوكهولم. أدركت أن العلامات، والإشارات الحمراء مجرد ديكور.

أخبرني سعد: «حركة السيارة، والسرعة هما الأهم. عليك أيضًا أن تنتبهي لقانون الغابة، فالسيارات الكبيرة الحجم لها اليد العليا، والسلطة على السيارات

الصغيرة مثل سيارتك».

تعلمت أن أستخدم نفير السيارة عند رؤية أي شخص يقف بجانب السيارة، أوأمامها لتفادي الحوادث.

كان يكفي أن أضع في يد شرطي المرور الذي ينظم السيارات في الشوارع الكبيرة ورقة مالية عندما أكون في عجلة من أمري حتى يفسح لي الطريق. كان مفعول المال

في مصر كمفعول السحر. « البقشيش«في مصر مؤسسة قائمة بذاتها.

كنت أعطي سيارتي ل « منادي السيارات«بدلًا من وضعها في الجراچ. لم يكن هناك مكان لركن السيارات في القاهرة.

سألت طارق: «ماذا لو أخذها؟»

قال ضاحكًا: «لا تقلقي، لن يسرقها».

كان ركن السيارة بالقرب من الجامعة الأمريكية في وقت الذروة أشبه بالكابوس.

ملء السيارة بالوقود كان مغامرة أخرى. كنت ألحظ المبلغ المُفترض دفعه بعد ملء السيارة بالوقود، وعلى الرغم من الاحتياطات التي كنت أتخذها، لم يُجدِ شيء نفعًا.

قلت بحدة، ولكن دون جدوى: «لكني رأيت الثمن بعيني، وكان أقل بكثير مما تقوله الآن».

النقاش، والمجادلة جزء من الحياة اليومية في مصر.

محاولة أن تكون إنسانًا منظمًا في مصر لا تجلب شيئًا غير الإحباط، والضغوط النفسية. قررت أن أعيش في فوضى، واستطعت مواكبة الظروف.

كانت الجامعة الأمريكية بمثابة واحة خضراء وسط المدينة الملوثة. لهثت من فرط إعجابي بعظمة المباني في أول مرة ذهبت فيها إلى الجامعة. بُني قصر خيري باشا

عام 1860 على الطراز المملوكي الجديد، وتحول القصر بعد ذلك إلى مقر الجامعة الأمريكية في عام 1920 .

فتحت الباب الأمامي لأجد طرقة كبيرة بديعة من المرمر مُزينة بالمشربيات. كان المصريون الأثرياء يستخدمون المشربيات لإخفاء نسائهم عن العالم. كان النساء

ينظرن من ثقوب المشربية لرؤية مَن بالخارج، لكن لا أحد بالخارج يستطيع رؤيتهن. بدا الأمر لي شديد الغموض.

كانت الجامعة مختلفة تمامًا عن نظيرتها بستوكهولم، حيث الممرات الطويلة العقيمة، والمباني التي تتبع الطراز الحديث. توسطت الجامعة الأمريكية نافورة

بجانب شجرة الكافور التي كانت تحمي الطلبة، والأساتذة من أشعة الشمس الحارقة بمصر.

سألني طالب، وهو يقدم لي أحد أنواع السجائر المصرية: «هل تريدين سجائر كليوباترا؟»

- شكرًا لك، سأتجه إلى قاعة المحاضرات.

- لا توجد مشكلة. الجميع هنا يدخنون في قاعة المحاضرات.

قلت بدهشة: «حقًّا » !

اكتشفت بعد ذلك أن الطلاب يدخنون داخل قاعة المحاضرات، ويحتسون أيضًا الشاي، والقهوة، وهو شيء لم يكن موجودًا في ستوكهولم.

كانت هناك ملاعب تنس مُغطاة بالرمل الأحمر على الطراز القديم. كان طعامي المفضل في الكافيتريا هو الخبز بالزيتون، ومشروب « الكركديه » .

عندما وصلت إلى الجامعة لم أكن أعرف أحدًا، سألني كثير من الطلاب المصريين: «من أي بلد أنت؟ ماذا تدرسين؟»

كان معظمهم أشبه بالطلبة الغربيين، يرتدون الملابس العملية، والچينز، وبعض الفتيات كن يفضلن الفساتين الخفيفة. لم تكن واحدة منهن ترتدي الحجاب،

بل على العكس، كانت طريقة تصفيف شعر البنات غاية في الجمال. أحاطني الطلاب المصريون بالرعاية، والاهتمام، وشعرت بالترحيب.

قلت لوالديَّ عندما رجعت المنزل: «إنهم متشابهون، وأسماؤهم معقدة».

قالت والدتي إنجريد: «ستتعلمين التمييز بينهم. لا تقلقي».

تطلب مني الأمر بعض الوقت حتى استطعت تعلم أسمائهم.

كان البعض يسألني بشيء من العتاب: «لماذا لم تحيني هذا الصباح؟ »

قررت أن أهز رأسي لأحيي الجميع تفاديًا لأي إحراج.

«لا أستطيع أن أقول لهم إنهم جميعًا متشابهون».

هزَّ والدي رأسه، ووافقني الرأي.

قلت لوالديَّ: «ربما سيقولون هم نفس الشيء إذا أتوا إلى السويد وسط هذا الكم الهائل من الشقراوات، والأعين الزرقاء».

قلت لنفسي: «عمومًا من السهل عليهم تمييزي لكوني أجنبية، أما أنا فكل شيء بالنسبة لي جديد، ومربك».

كان العثور على زوج مناسب هو هدف العديد من الفتيات، حيث كانت الجامعة بيئة مناسبة للعثور على زوج من نفس الطبقة الاجتماعية.

قالت لي فتاة شابة معتنية بنفسها حق العناية، وهي تنظر إليَّ، وإلى الچينز الذي أرتديه بشفقة: «لن تتزوجي طالما ترتدين هذه الملابس».

أجبتها: «أنا أخطط للحصول على شهادة، لا على زوج».

علمت أن بعض الفتيات كانت لهن مغامرات قبل الجامعة، وكانت إحدى العمليات الشهيرة عند أطباء النساء والتوليد هي استعادة غشاء البكارة الذي كان

بالنسبة لأطباء النساء والتوليد مجرد خرافة.

سألت طارق: «كيف تصدقون هذه الخرافات؟!»

قال طارق: «حمدًا لله أن مثل هذه العمليات متاح، فهي تحمي الفتيات من العار، وأحيانًا مما هو أسوأ».

لم أفهم ماذا كان يعني طارق ب « ما هو أسو»، وخمنت أن هذا الأسوأ قد يكون تعنيف الوالدين لهن، إلا أنني كنت ساذجة حقًّا، فقد عرفت بعد ذلك أن هناك

جرائم قتل تُرتكب للحفاظ على شرف العائلة.

معظم فتيات الجامعة كن من الطراز المحافظ الأقل تحررًا. كانت معظم الزيجات مبنية على ترتيبات عائلية أكثر من كونها مبنية على الحب. البعض كن

محظوظات، واستطعن العثور على الشريك المناسب في الجامعة، فكانت الجامعة بمثابة فترة خطوبة طويلة حتى يأتي الوقت المناسب للزواج. تمتعت الفتيات

بقسط من الحرية للخروج مع الخطيب.

كنت أجلس في حديقة الجامعة الأمريكية المزدهرة تحت ظلال النخيل. شعرت بالحيرة إزاء كل تلك المشكلات الاجتماعية في مصر. حكى لي طارق عن يوسف،

وراندا. كان الاثنان على علاقة وطيدة بالرغم من أن يوسف كان ينتمي لعائلة قبطية رديئة السمعة، بينما كانت راندا تنتمي لعائلة مسلمة.

قال طارق: «غير مسموح لراندا أن تأتي إلى القاهرة لاستكمال الفصل الدراسي المنعقد في الشتاء لأنها.»..

توقف طارق عن الكلام لوهلة، وهو ينظر إليَّ، ويدخن سيجارته في وقت بدا لي كدهر بأكمله، حتى استكمل حديثه قائلًا : «لأنها حامل».

قلت بحماس: « هذا رائع»، إلا أن وجه طارق لم ينم عن ذلك. كان واضحًا أن ثمة شيئًا ما لا أستطيع فهمه، ولم أرَ راندا بعد ذلك.

كانت هناك زيجات ناجحة بين الأجانب، والمصريين، كما كانت هناك زيجات كارثية أيضًا. تزوجت بعض النساء السويديات من مصريين بدون معرفة خلفياتهم

الثقافية. كانت صدمة حقًّا للنساء السويديات، خاصةً عندما مارسن الحياة في الريف المصري الذي يختلف كثيرًا عن المقاييس الأوربية. لا تستطيع أي زوجة

سويدية متزوجة من مصري أن تغادر البلاد دون إذن من زوجها، ويستطيع الزوج منعها من اصطحاب أطفالها إن أراد. لا تستطيع السفارة السويدية مد يد

العون في هذه الحالة، حيث إن الزوجة السويدية تخضع للقانون المصري بحكم أنها متزوجة من مصري.

أمدتني إي ڤ ا، التي عملت بالسفارة السويدية لسنوات، بمعلومات كثيرة في هذا الشأن.

قالت إي ڤ ا: «يتعلق الأمر بالطبقة الاجتماعية. الطبقات الاجتماعية المتدينة تعيش في ظروف لا يمكنك تخيلها، في حال أشبه بالريف السويدي منذ مئات

السنين».

- لا يحيا أحد من أصدقائي في هذه الظروف التي تحكين لي عنها.

- لا تنسي أن معظم أصدقائك أشبه بالنموذج الغربي.

دعاني أصدقائي المنتمون إلى النموذج الغربي في الحياة، والملبس إلى العديد من الرحلات في أثناء العطلات الأسبوعية. هناك مقولة عربية تقول إن الضيف يجب أن

يُعامل معاملة الضيوف الكريمة، حتى وإن بقي طوال فصلي الشتاء، والصيف، أما المقولة السويدية فتقول إن الصيف مثل السمكة تتعفن بعد ثلاثة أيام!

أعلن الرئيس السادات في هذا الوقت سفره إلى إسرائيل لإلقاء خطاب في الكنيست، حيث دعاه مناحيم بيجن، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق في التاسع عشر من

نوفمبر عام 1977 ليصبح السادات بذلك أول رئيس عربي يذهب إلى إسرائيل منذ تأسيسها عام 1948 .

تابعت الأخبار، وأنا مستلقية على الأريكة أمام التلفزيون الأبيض والأسود في العجمي التي كانت بمثابة منتجع قريب من الإسكندرية. كنت أقضي العطلات

الأسبوعية هناك.

قاد طارق سيارته من القاهرة مارًّا بالأهرام، ثم استدار يمينًا عبر الطريق الصحراوي الخاوي. كانت السماء صافية، ونسمة الهواء عليلة. تنفست بعمق،

والابتسامة لا تغادر وجهي.

توقف طارق بعد ساعتين من القيادة عند أول استراحة رأيناها منذ أن غادرنا القاهرة.

قال طارق: «سأحضر شيئًا لنشربه. ماذا تفضلين؟»

قلت: «بيبسي من فضلك».

كانت تلك الاستراحة هي الوحيدة في طريقنا للعجمي؛ لذلك ذهبت إلى الحمّام، إلا أنه كان شديد القذارة.

قال طارق موضحًا لي خطورة التصادم مع العربات الكارو، والعربات التي تجرها الحمير: «أفضل القيادة للعجمي في ضوء النهار».

اعتاد أصدقائي المصريون قول هذه الجملة الشائعة: «العجمي جنة الله على الأرض».

تطلب الأمر كثيرًا من الخيال حتى أتفهم كيف يمكن أن تصبح هذه البيوت المتناثرة هنا وهناك بدون أي تخطيط وسط الطرق المغطاة بالرمل، جنة الله على الأرض.

لم يكن هناك حتى مطاعم على الشاطئ.

سألت طارق: «هل تبدو كل البيوت على نفس الشاكلة؟»

قال طارق، وهو يقودني لأرى منزل والديه: «نعم، معظمها».

كان البيت مكونًا من ثلاث غرف للنوم. كل غرفة تحوي سريرين، والحوائط مطلية بالطباشير الأبيض. كان هناك دش واحد فقط للماء البارد، ومطبخ صغير،

وغرفة معيشة، والشرفة التي كنا نقضي معظم أوقاتنا بها نتأمل، ونتحدث، ونستمع إلى الموسيقى. شعرت بالسعادة لوجودي هناك.

كان الطقس شديد الحرارة. سبحنا، وأكلنا أم الخلول. ارتديت قبعتي معظم الوقت لتحميني من حرارة الشمس، وأنا أقرأ الكتب. معظم الفتيات كن يرتدين

المايوه البكيني.

لم يكن كل شيء سهلًا في مصر إلا أنه كان يمكن دائمًا التغلب على المساوئ بمجرد تذكرنا أننا نسبح في شهر نوفمبر في مياه البحر، بينما أصدقاؤنا في السويد غارقون في ظلام الشتاء الكئيب.

كان الشاطئ مكانًا رائعًا للتسوق، حيث يمر الباعة الجائلون بالسجاد اليدوي.

قلت لأسجل إعجابي بكل السجادات المعلقة على كتف الباعة الجائلين: «سأشتري واحدة للجلوس عليها على الشاطئ، وواحدة أخرى للشرفة. يصعب الاختيار، فجميع الألوان زاهية».

كنا نشتري وجبات الطعام، ونحن على الشاطئ أيضًا، أو نقوم بطهيها في المطبخ الصغير البدائي بالمنزل. كنا نضيف النبيذ الأبيض اللذيذ إلى طعامنا الذي لا يخلو من شرائح البصل، والطماطم، والعيش البلدي.

قلت وأنا أتلذذ بالحياة السهلة، وقد استلقيت باسترخاء لمشاهدة التلفزيون: «الآن أستطيع أن أفهم لماذا تحب المجئ إلى هنا».

قال طارق: «ليس الاسترخاء فقط، إننا نحيا لحظة تاريخية».

تجمع عدد من الطلبة يحتسون البيرة، ويجلسون على الأرض متكئين على الوسادة، أو يقفون ملتفين حول التلفزيون. نزل السادات من سلم الطائرة في القدس.

شعر الجميع بالتوتر والقلق من أن يُغتال السادات إلا أن وقته لم يكن قد حان بعد.

قال أحدهم: «شيء رائع. يا له من رجل شجاع!».

وافقنا جميعًا على كون السادات رجلًا شجاعًا. كان البعض من أصدقائي يبكون، والبعض الآخر يضحكون. امتلأت الغرفة بالتوتر، والانفعال عندما بدأ السادات

يلقي خطابه. زار السادات المسجد الأقصى، وهو من أكثر الأماكن الإسلامية تقديسًا، كما رأى النصب التذكاري لضحايا النازيين.

قال عمر، أحد الطلبة: «رجل فوق العادة، رجل سلام بحق».

وافقته آمال في الرأي: «يا له من رئيس!»

كنت أشعر بالفخر لوجودي هناك على الأرض المصرية، وسط أصدقائي لمشاهدة هذا الحدث التاريخي . كنت مدركة تمامًا لحقيقة أننا ننظر إلى ما فعله السادات

من وجهة نظر طلاب أثرياء حاصلين على قسط وفير من التعلم.، وقد لا ينظر الغالبية العظمى لما فعله السادات من نفس الزاوية، والمنظور.

بدا الوضع هادئًا في مصر إلا أن الحكومة لم تفعل شيئًا منذ أحداث الشغب التي وقعت في عام 1977 لتحسين الظروف المعيشية للفقراء. تلقت مصر مليونًا ونصف

المليون دولار من دول الخليج، ومليار دولار من أمريكا في عام واحد كإعانات لمشاريع إنتاج الطعام. بدأ اعتماد مصر الاقتصادي والسياسي على هذه الدول في

التزايد. ظل الجيش مخلصًا للرئيس، ونائب الرئيس حسني مبارك الذي كان داخل الدائرة السياسية الداخلية.

أخيرًا وقَّعت مصر على اتفاقية كامب ديفيد في السابع

عشر من سبتمبر عام 1978 . لم تحظَ رحلة السادات إلى إسرائيل بأي تقدير من الدول العربية، بل اتهمه

كثيرون بأنه « يهوذا العرب»، إلى جانب اتهامات أخرى عديدة. لم يسعد أحد أيضًا بزيارة مناحيم بيجن إلى القاهرة في الثاني من إبريل عام 1979 .

أرسل والدي تقريرًا مقلقًا إلى السويد يقول فيه:

« أصبح التحكم في الأسعار، والإشراف أكثر صرامة إلا أن ذلك

لا يجدي نفعًا، حيث تختفي البضائع الحكومية المُسعرة لينتهي بها الحال في متاجر البائعين لتُباع بضعف ثمنها.

يستطيع المرء ملاحظة انجذاب الطبقة الوسطى إلى الدين في ظل هذه الأوضاع المتزايدة الصعوبة. أصبح للإسلام تأثير أكبر، واستعاد المتطرفون الإسلاميون

نفوذهم بعد تحجيمهم في عهد عبد الناصر.

انتقد العديد من الدول العربية مثل العراق، وليبيا، واليمن، والسعودية، وسوريا، وفلسطين معاهدة السلام، بينما تفاوت موقف كل من الأردن، ولبنان بشكل

طفيف. شعر غالبية المصريين بالسعادة إزاء انتهاء العداوة مع إسرائيل».

ذُكر الآتي وفقًا للبيان الرسمي الذي أرسله الملحق السويدي السيد ولراث ثام بعد معاهدة كامب ديفيد: «على الرغم من الترحيب الدافئ المنظم الذي لاقاه السادات عند رجوعه في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر، والذي وصفه الإعلام بتصويت الثقة، إلا أن

انطباعنا الخاص عن مجريات الأمور بمصر يشير إلى أن المناخ العام قد أصبح فاترًا بعد إعلان نتائج كامب ديفيد.

هناك انقسام بين الآراء المؤيدة للسلام، والآراء

المؤيدة للانسحاب خاصةً في ظل عدم قدرة إسرائيل على تقديم أي تنازل، بينما قدمت مصر ما تستطيع للوصول إلى حل لأزمة الشرق الأوسط. إذا أصر السادات

على المضي قدمًا في هذا الاتجاه ستزداد عزلته داخل العالم العربي، ومن المحتمل أيضًا أن يعزز موقف الدول العربية الاتجاهات القومية المهيمنة، والتي قد تؤدي

إلى السلام، خاصةً في ظل تلك المؤازرة العالمية الكبرى للسلام. تنبع هذه الآراء من حقيقة أن السادات لم يتخلَّ عن مصالح مصر القومية في كامب ديفيد. ليس من

المصادفة في شيء أن حزب السادات الذي هو تحت الإنشاء أُطلق عليه الحزب الوطني الديمقراطي.

اعتمد السادات أكثر، وأكثر على الولايات المتحدة الأمريكية، وأوربا، واليابان، وقوى العالم الثالث المعتدلة من أجل الحصول على مزيد من الدعم لعملية السلام.

حاول السادات أن يطور مصر لتصبح عمادًا للولايات المتحدة الأمريكية، ليس فقط في الشرق الأوسط، بل في القارة الإفريقية بأكملها » .

قلت لصديقي الأمريكي ديفيد: «يتتبع البوليس السري اليساريين، فلتأخذ حذرك».

قال ديفيد: «أنا فقط أقضي بعض الوقت مع المثقفين المصريين».

قلت له: «نعم، لكن أغلبهم من العلمانيين، واليساريين».

سألني ديفيد: «وماذا في هذا؟ »

قلت له: «إن ذلك يشكل خطرًا عليهم. من السهل أن يتتبعك البوليس للوصول إلى مكانهم».

أعطيت لديفيد هذه النصيحة بعد أن تم تحذيري من التحدث بحرية عبر هاتف السفارة.

قال والدي: «هناك جاسوس يتحدث السويدية، والعربية، ويستمع إلى مكالماتنا الهاتفية».

أضافت والدتي: «أعتقد أنني أعرف مَن هو».

لم تفصح إنجريد بالمزيد.

قال أكسيل: «عندما تجرين مكالمة هاتفية في المرة القادمة ستستمعين إلى تَكة عند بداية المحادثة، وأخرى عند نهايتها».

بالطبع كان هذا صحيحًا، حيث استطعت أن أميز ما قاله لي والدي بوضوح في أول مكالمة أجريتها بعد الحديث الذي دار بيننا.

أدركت أن مصر لا تزال دولة ديكتاتورية، حتى لو تم تقليل القيود بعد عبد الناصر. أدركت أيضًا أن الأجانب هدف سهل، وقد يقود البوليس السري بسهولة إلى المصريين المُراد القبض عليهم.

جاء ديفيد لزيارتي وهو يبكي: «لقد حدث شيء بشع، لقد اختفى علي. جاء البوليس للقبض عليه».

سألت ديفيد: «هل ذهبت لزيارته في مخبئه».

قال ديفيد الذي كان من الصعب حقًّا مواساته: «نعم، إنه خطئي».

لم تحتج مصر إلى أخذ رأي الدول العربية في الاعتبار، فلقد اكتسبت مصر قوتها من موقعها الجغرافي، وحجم

سكانها، والترسانة الحربية التي تتمتع بها، وحكومتها المستقرة نسبيًّا. كان البوليس السري يفعل ما يشاء آنذاك كما كان يبدو.

كان السادات يرغب في تحسين الموارد الاقتصادية، والأحوال المعيشية للسكان. كانت المظاهرات الدينية ضد توقيع أية معاهدات سلام مع إسرائيل ما أقلق الرئيس

كثيرًا. كان على السادات أن يكسب جموع الشعب المصري في صفِّه، وقد نجح في ذلك على ما يبدو إلا أننا سرعان ما علمنا أن الأصوليين يخططون لاغتيال

السادات.

قال ديفيد: «يجدر بالسادات أن يأخذ حذره من الأصوليين بدلًا من الزج بأصدقائنا المثقفين، واليساريين في السجون».

ناقشت مع ديفيد ماهية الحياة في بلد يخلو من الديمقراطية، ولأول مرة شعرنا بفداحة، وخطورة ما يجري في مصر.

قلت لديفيد: «من الأفضل أن تظل بعيدًا عن السياسة».

كنت متفرغة لحياتي، ودراستي التي استغرقت الكثير من وقتي. كنت في حاجة أيضًا لكسب المال. للخروج، والتنزه، حيث إنني لم أعد أستطيع إقامة أية حفلات

بالمنزل، وعليه بدأت البحث عن وظيفة.

سألت طارق بسذاجة: «هل أحتاج إلى تراخيص عمل؟»

قال طارق: «لا أحد يحتاج إلى أوراق هنا، البقشيش سيعتني بكل شيء».

كانت الرشوة إذن هي السبيل. سألت نفسي: «ما نوع العمل الذي يمكنني القيام به هنا؟!»

فجأة، تذكرت لارس كريستير، ابن رئيس رابطة الأمم المتحدة الذي كان يعمل مرشدًا سياحيًّا.

الفصل الرابع عشر

الحديث إلى شجرة الجميز

قال لارس كريستير بشعره الأشقر، وعينيه الزرقاوين: «العمل في القاهرة تجربة ممتعة للخواجة».

سألته: «ماذا تعني كلمة خواجة».

قال: «أجنبي».

سألته، وأنا متأكدة أن هناك اختلافات كبيرة بيننا، على الأقل كونه رجلًا، وكوني امرأة: «الأمر هنا مختلف عنه في أي مكان آخر، أليس كذلك؟»

قال لارس: «القوانين الاجتماعية هنا تختلف كثيرًا، هل لاحظت ذلك؟ عليك أن تتعلمي الكثير عن التاريخ إذا أردت أن تكوني مرشدة سياحية».

سألته، وقد بدأت أدرك أنها ليست بفكرة جيدة، فدراستي بالجامعة الأمريكية تستغرق الكثير من وقتي: «هل يتعين عليَّ أن أدرس؟»

قال لارس: «يجب عليكِ أن تتبعيني في أثناء الجولات الإرشادية، وتكتبي بعض الملاحظات كبداية».

قلت له: «هل يعني هذا أنك وظفتني؟»

ابتسم لارس ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء المتساوية: «أحتاج إلى مرشد سياحي؛ لذلك سأعطيك فرصة أولية لمدة ثلاثة أشهر لأرى أداءك».

كان عليَّ أن أرافق السائحين الأسكندنافيين في جولاتهم الإرشادية بصحبة مرشد سياحي مصري.

قال لارس: «ليس مسموحًا لنا بالإرشاد، نستطيع فقط مرافقة السائحين».

سألته، وقد ساورني القلق حيال ما قد يقوله والدي، خاصةً أنه لم يكن راضيًا عني في تلك الفترة: «إذن ما نقوم به غير قانوني؟ »

قال لارس مفسرًا لي: «لا تأخذي الأمر بجدية آن.. المرشدون السياحيون المصريون لا يتحدثون السويدية، والسائحون السويديون لا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة».

لم تكن لديَّ خلفية جيدة عن التاريخ المصري، ولم يكن التاريخ من موضوعاتي المفضلة. كان عليَّ أن أنخرط في دراسة تاريخ الفراعنة، والفن القبطي، والإسلامي.

قلت لنفسي: «لن أستطيع أن أتدبر الأمر. يبدو أنني كنت متفائلة كعادتي عندما ظننت أن بإمكاني القيام بهذا».

كانت مُدرِّسة التاريخ في مدرستي راهبة فرنسية، وكانت تكرهني لعدم اهتمامي بمادتها على الإطلاق. الطريقة الوحيدة التي استطعت بها حفظ أسماء ملوك

فرنسا هي قراءة قصص حبهم لعشيقاتهم. عاقبتني مدرستي بشدة عندما اكتشفت أمري، لكني الآن أكبر سنًّا، وأكثر نضجًا، ويجب عليَّ أن أركز فيما أقوم به

حتى أكسب بعض المال.

بدأت بأخذ بعض الملاحظات في أثناء اتباعي المرشدين السياحيين، كما قرأت كتب ف ي ف ي التي ألهمتني كثيرًا. اكتشفت أنني أعشق حكي القصص، فبدأت

أحكي

للسائحين قصصًا استلهمتها من كتب ڤيڤي. أُعجب السائحون بالقصص التي أضفت شيئًا من الحياة على التاريخ على الرغم من عدم دقتها. ربما لو سمع مؤرخ

تاريخ ما أحكيه للسائحين لسقط مغشيًّا عليه. كنت أفعل ما بوسعي، وأقدم أفضل ما عندي، لكني كنت ما زلت أجهل نكبات العمل كمرشدة سياحية.

أخبرت والدتي عن القصص التي أحكيها للسائحين، والتي استلهمتها من كتب ڤيڤي.

سألت والدتي: «هل ما زالت ڤيڤي على قيد الحياة؟ »

- نعم، لكنها تتقدم في العمر.

- أود أن أراها. هل يمكن أن نذهب لزيارتها؟

- فكرة جيدة، فلنذهب لزيارتها.

مرت السيارة أعلى الكوبري مرورًا بحديقة الحيوان في الجيزة في طريقنا إلى شقة ڤيڤي في الجانب الآخر من المدينة.

أُسست حديقة الحيوانات في نهاية القرن التاسع عشر. كانت أكبر منطقة خضراء في القاهرة، كما كانت في الماضي جزءًا من حدائق الحريم. يوجد بالحديقة كوبري

مُعلق اعتادت والدتي الوقوف أعلاه لمشاهدة الحيوانات.

قالت والدتي وهي تشير إلى الحديقة: «كانت لڤيڤي أبحاث عن بعض النباتات هنا».

- يجب أن أذهب لزيارة الحديقة يومًا.

- لقد فقدت الحديقة الكثير من رونقها، وعظمتها. لا بد

وأن الحيوانات، خاصة الدببة تعاني من شدة الحرارة.

كانت ڤيڤي تعيش في نفس المكان الذي طالما عاشت فيه. لم تكن المنطقة التي تقطن بها ڤيڤي ذات طراز راقٍ. صعدنا السلالم المتسخة في مبنى يفتقر إلى العناية.

فتحت لنا الباب سيدة مصرية صغيرة السن، ودعتنا للدخول وهي تردد: «مرحبًا».

همست والدتي في أذني: «غالبًا ما يعيش معها بعض الطلاب الفقراء لتساعدهم».

جلست ڤيڤي، وكان يبدو عليها النعاس، لكن ما إن رفعت رأسها ورأتنا حتى أضاء وجهها بابتسامة كتلك التي أراها في صورها.

قالت ڤيڤي، وقد نسيت على ما يبدو أن والدتي قد تحدثت معها مُسبقًا عبر الهاتف: «إنجريد، كم هو جميل أن تأتي لزيارتي. أرى أنك أحضرت معك شابة صغيرة».

قالت والدتي: «إنها ابنتي».

قلت لڤيڤي، وأنا أقرأ الكثير من القصص على تجاعيد وجهها التي سجلت حياة بأسرها: «أهلًا بك. أنا مُعجبة كثيرًا بك».

قالت لي: «حدثيني عما تقومين به حاليًا».

أخبرتها عن دراستي، وعن استمتاعي بالكتب التي كتبتها عن الفراعنة: «أستخدم كتبك كثيرًا في عملي كمرشدة سياحية».

قالت ڤيڤي، وهي تبتسم، وتهز رأسها: «إنها حياتي التي قضيتها هنا بمصر».

غرقت ڤيڤي في صمتها، وحدقت بعينها بعيدًا جدًّا، في مكان ما يصعب الوصول إليه. لم نستطع أن نتواصل معها بعد ذلك، فقمنا، وسرنا على أطراف أصابعنا.

تلقت ڤيڤي ميدالية تكريم على سائر أعمالها، قدمها لها والدي في احتفال بمقر إقامتنا بالسفارة، وبعدها رحلت عن عالمنا في صمت في عام 1978 .

وصفت ڤيڤي الموت قبل ذلك في سطور لا تخلو من الشعر قائلة:

«عندما يغمض الموت أعيننا، وعندما يعيي التفكير قلوبنا المتأملة لميزان العدالة أمام القادر أوزوريس، وعندما يضع على جبيننا إكليلًا من الزيتون في ظل عزف رياح

شجرة الجميز، حينها فقط تضع الحياة أوزارها على هذه الأرض».

نعم، تتألم شجرة الجميز لموت ڤيڤي التي عشقت مصر وساندت السويد. لقد استمعت إلى كثير من مقابلاتها الإذاعية والتلفزيونية، ولم يكن غريبًا أن تلهمني

تلك المرأة الواسعة المعرفة. عاشت أعمالها كثيرًا حتى بعد رحيلها. درست ڤيڤي بصفتها عالمة نباتات الأعشاب التي استُخدمت في تحنيط الفراعنة، واستطاعت أن

تتعرف على العديد من أنواع الحبوب المختلفة التي وُجدت في مقبرة توت عنخ آمون في صندوق صغير بديع الشكل.

قلت للسائحين، وأنا أريهم قطعة خبز قديمة في

المتحف المصري: «هذا يظهر لنا كيف عاش المصريون القدماء».

قال جونار، رجل في منتصف العمر: «إنها محفوظة بعناية، وكأنها وُضعت البارحة، رغم أن عمرها آلاف السنين».

قلت: «نعم، إن هذا الخبز يُسمى هنا: العيش البلدي».

أُعجب السائحون كثيرًا بالأثاث الجميل، والصناديق، والقوارب التي صنعها الفراعنة.

شرحت لهم: «كان يتم استيراد شجر الأرز من لبنان ليُستخدم في صنع القوائم الخشبية التي كانت تُستخدم في المراسم الدينية، حيث كانت تمثل هذه الأعمدة

الآلهة، وكانت تُعلق فوقها قطعة من القماش، وهذا هو الأساس الذي استمدت منه فكرة الأعلام. هناك شيء آخر سيثير اهتمامكم.. مقبرة توت عنخ آمون».

أكملت حديثي مع السائحين، وأشرت إلى عصا توت عنخ آمون.

قالت ماريا، وهي سائحة سويدية: «يبدو أنها مصنوعة من خشب البتولا».

قلت لها، وكنت أدرك تمامًا أن السائحين يفضلون ربط ما يرونه بما يعرفونه: «إنها كذلك بالفعل، ولقد تم استيراد هذا الخشب من آسيا الصغرى، أو بلاد

الفرس، وليس من السويد».

سألت سيدة سويدية ترتدي نظارة سميكة، وبيدها كتاب ضخم عن مصر: «ماذا عن هذا الخشب؟ »

لقد حذرني لارس من هذا النوع من السائحين:

«ستجدين على الأقل سائحًا من مثل هذا النوع في كل مجموعة. إنهم يراجعون ما تقولينه من معلومات، وقد يضعونك في مأزق».

قلت، وأنا أشعر بالرعب: «ماذا أفعل حينها؟ »

رد لارس: «عليك أن ترتجلي على الفور».

تذكرت كلام لارس، وأجبت السيدة بصوت ثابت: «لا بد أنه من خشب شجر النخيل».

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن ماهية هذا الشيء، فلم ألحظ أية معلومة عنه في الكتب، أو في أثناء جولاتي.

قالت السيدة وهي تشير إلى الكتاب الذي بيدها: «لا توجد إشارة إليه في الكتاب».

ثم سألتني: «كم يبلغ عدد شجر النخيل في مصر إذن؟»

أجبت: «مليون، و 355 نخلة».

بدت السيدة في حيرة من أمرها إلا أنها لم تنطق بكلمة أخرى بعد إجابتي .

سألني جونار، وقد أنقذني من السيدة التي لاحقتني بأسئلتها: «لماذا يوجد بصل حول رقبة المومياء؟ »

- رائحة البصل لها أهمية خاصة، حيث كان يُعتقد وقتها أنها تطرد الأرواح الشريرة.

- هل تعتقدين أن الخرافة المتداولة في السويد عن رائحة البصل التي تطرد الساحرات بعيدًا من الممكن أن تكون إرثًا من الفراعنة؟

- ليس لديَّ أية فكرة، ولكن لم لا؟

لقد وُجد البصل في مصر منذ ما قبل التاريخ، وما زال يُزرع حتى الآن. إنه يُستخدم في الطعام، كما أنه

يُستخدم للأغراض الطبية. حضرت احتفال شم النسيم

بمصر في السنة الماضية. كان يومًا ربيعيًّا دافئًا. خرجت من الشقة في الجيزة لأكتشف أن الخدم قاموا بتعليق حزمة من البصل على مدخل الباب، بل ولطخوا

الباب بسائل البصل. كانت الرائحة بشعة بحق. أسرعت لأخبر والدتي التي سألت الخدم عن سبب هذا.

قال الخادم، وكان فخورًا بما بذله من مجهود: « لحمايتكم من الأعين الشريرة، ولجلب المزيد من الرخاء، والصحة».

قالت والدتي، وقد رمقتني بنظرة باسمة: «ها هو السبب».

غادرت المنزل لأجد جميع الحدائق مكتظة بالمصريين الذين وضعوا البصل كمكون أساسي في جميع الوجبات من الأرز إلى سلطة الطماطم التي رافقها البصل المُقطع

في شرائح رفيعة، وحتى الفول لم يخلُ من البصل.

سألت ماريا التي أفاقتني من شرودي: «ماذا عن هذا الدورق الزجاجي، وتلك الزجاجات؟ »

شرحت للسائحين كيف أن زراعة العنب ترجع إلى ما قبل التاريخ في مصر، وأنه كان يُستخدم في صناعة النبيذ اللذيذ، وكان امتلاك مزارع الكروم يُعد دربًا من

الرفاهية. كانت هناك أيضًا معصرة للعنب لطحن فروع، وبذور العنب فيصبح طعمه حلو المذاق.

قلت، وأنا أتنهد: «كان المصريون القدماء يسعون وراء الجودة. لقد تغير هذا حديثًا».

كانت كليوباترا مشهورة بعشقها للنبيذ الأبيض الخفيف. كان النبيذ الأبيض يُوصف أحيانًا كدواء للمرضى الذين

يعانون من الحمى، بينما كان الكرنب المغلي يُوصف لهؤلاء الذين أفرطوا في شرب الخمور.

كان يتم برشمة الزجاجات بالفخار في عهد الفراعنة .

«يمكنكم أيضًا رؤية الذرة المفقشة المعروفة حاليًا باسم الفشار هنا».

في هذه الأيام اعتاد القدماء المصريون أن يتناولوا مع النبيذ بذر البطيخ المحمص المملح.. كان تناول البط كطبق رئيسي مع النبيذ المُحلى فكرة جيدة، خاصةً بعد

تناول ورق العنب. كان يتم اصطياد البط من بحيرات الدلتا ليتم تنظيفه، وطهيه بزيت السمسم، أو زيت نبات الكتان، وأحيانًا زيت الزعفران، أ زيت الزيتون

المستورد، وزيت الأرز، كما كانت تُستخدم هذه الزيوت أيضًا للعناية بالبشرة.

أشرت بعدها إلى قطعة من الجبن عمرها آلاف السنين، هذا بالإضافة إلى البلح، والتين، والزبيب، جميعها استخدم في صنع الحلوى مع العسل، والمكسرات. تم

حفظ كل تلك الأشياء بعناية لينتهي بها المطاف في المتحف.

سألت ماريا: «ماذا عن الملابس؟»

- صُنعت الملابس في البداية من الكتان. كانت الملابس عبارة عن فساتين بسيطة يصحبها شريط، أو طوق أعلى الصدر، أو أسفله.

قالت ماريا ضاحكة: «لم أرَ هذا في الشوارع هنا قط».

- السيدات يملن إلى تغطية أجسادهن أكثر هذه الأيام.

- ما نراه في هذا المتحف يخص صفوة السيدات،

ومجوهراتهن التي صُممت على شكل آلهة، وحيوانات ذات قوة خارقة وفقًا لما كان معتقدًا آنذاك. تغيرت تسريحات الشعر بمرور الوقت. في البداية كان الشعر القصير الذي يتدلى على الكتف، ثم الشعر الطويل المُزين بالمجوهرات، أما في الإمبراطورية الجديدة فكان الشعر القصير سيد الموقف. كانت النساء يضعن مساحيق التجميل أيضًا بما فيها الكُحل.

سأل جونار: «هذه التماثيل تنطق عيونها بلغة الحياة».

قلت: «ذلك من أثر استخدام الأحجار، والكريستال. اعتقد المصريون القدماء أن الروح تنعكس من خلال العين، حيث تسافر الروح بعد الموت حتى تجد طريقها إلى التمثال فتعود إليه».

قال جونار ضاحكًا بشدة لدرجة دعت الآخرين للضحك معه: «لماذا لم أفكر في هذا؟»

أضفت: « آمن المصريون القدماء بالبعث، أي الحياة بعد الموت؛ لذلك كانوا يضعون كثيرًا من الأشياء في مقابرهم معتقدين أنهم سيحتاجون تلك الأشياء في مملكة الموت بعد رحيلهم، واعتقدوا أنه لا بد من المرور بأوزوريس أولًا».

قالت ماريا، وقد قامت بفلسفة الأمر وهي تنظر إلى ملفوف ورق البردي، عليه إلهة العدل ماعت: «يشبه الأمر الجنة إذن».

قلت: «وصفت الديانة المصرية مواجهة دائمة بين الخير والشر من خلال العديد من الآلهة».

علق جونار: «يذكرني هذا بالقراصنة القدماء».

قلت في محاولة لإبعاد الحديث عن دائرة القراصنة التي لم أكن أعرف الكثير عنها: «نجد هذا أيضًا في المسيحية».

قررت بعدها أن أبعد أيضًا عن أي حوار عن الأديان، فمثل هذا النوع من الحوارات يأخذ وقتًا طويلًا.

«لا بد أنكم تشعرون بالجوع الآن، فلنذهب لتناول الطعام».

هز الجميع رءوسهم بالإيجاب، وارتسمت على وجوههم ملامح السعادة.

«سآخذكم إلى مطعم مصري لتتذوقوا أصناف الأطعمة المصرية، التي قد رأيتم بعضها في المتحف».

سألت سيدة من الفوج السياحي: «هل يوجد سلمون هنا؟»

طلب رجل آخر نوعًا من الأطعمة الأسكندنافية، قلت لهما: «معذرةً، هذا مطعم مصري، ولا توجد هنا أية أطعمة أسكندنافية!»

كنت أحيانًا أكره السائحين، وأشعر بالحرج عندما لا يقدرون أصناف الأطعمة المحلية التي تشتهر بها الدولة المُضيفة، ويفضلون بدلًا منها أصناف الطعام المعتادة لديهم.

اعتذرت للجرسون الذي شعر بالارتباك عندما طلب البعض أصناف أطعمة إسكندنافية غير متوفرة لديه.

كان اختلاف الثقافات، وعادات الملبس مشكلة أخرى كما حدث مرة مع سيدة سويدية قلت لها: «سيدتي، يجب عليك ارتداء شيء تحت هذا القميص الأبيض الشفاف، وإلا لن أستطيع أن أضمن سلامتك».

لم يكن عليَّ فقط أن أخبر السائحين عن التاريخ، والعادات، بل كان عليَّ إخبارهم ماذا يرتدون من ملابس، الأمر الذي لم يكن سهلًا على الإطلاق. أحيانًا كنت

أواجه نكبات.

قلت للارس: «لقد اختفت سيدة من الفوج السياحي عند الأهرام. لم أتمكن من العثور عليها».

سأل لارس: «ماذا تعنين؟ لا بد أن تعثري عليها».

اضطررت للرجوع بالحافلة إلى كل الأماكن التي قمنا بزيارتها، وبدأت أسأل كل شخص أراه عنها. لم يرها أحد، لقد اختفت. كنت على وشك إبلاغ الشرطة حين

ظهرت السيدة بعد ثلاثة أيام من التوتر، والقلق، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة.

قالت السيدة: «لقد قابلت شيخًا رائعًا، ولم أستطع مقاومته. اصطحبني في جولة، وأقمت في بيته معظم الوقت».

قلت وأنا أخفي غيظي: «حسنًا، لا تكملي. لقد فهمت الأمر».

في بعض الأحيان، كنت أجد الفنادق كاملة العدد، وكنت أنتقل من فندق إلى آخر أوزع البقشيش، والرشوة حتى أعثر على غرف متاحة للسائحين. كان الأمر ينجح

في النهاية، لكنني كنت أشعر بكثير من التوتر في أثناء عملي كمرشدة سياحية.

كان المتحف المصري للبرديات من أكثر الأماكن التي يستمتع بها السائحون. كان ورق البردي شيئًا غريبًا للإسكندنافيين، حيث إن الأوراق في السويد يتم

تصنيعها

من خشب الغابات.

وقفت خارج المتحف الصغير أشرح لهم كيف أطلق عالم النبات السويدي لينايس على نبات البردي اسم « سايبريس بيبايرس».

« كان يتم استخدام نبات البردي في عهد الفراعنة في تصنيع الأوراق، وفي الطعام أيضًا، حيث كان يتم غليه، أو تحميصه، أو حتى مضغه. كان لنبات البردي فوائد

طبية، كما كان يُستخدم في الطقوس الدينية، حيث يتم وضع زهرة البردي في يد المومياء، أو فوق ظهرها كرمز للفرعون. كانت هناك حقول كاملة لنمو نبات

البردي. وُضع كل ما تبقى من أوراق البردي في متحف القاهرة القريب من فندق شيراتون على ضفاف النيل. المتحف المصري للبرديات هو المكان الوحيد الذي يمكنكم

من خلاله تتبع تطور البردي بدءًا من كونه نبتة حتى يصبح ورقًا. يتم تقشير الغصن في شرائح طويلة، ثم يتم نقعه في أحواض كبيرة. تلتصق الشرائح مع بعضها

البعض من خلال العصارة اللزجة للنباتات، ويمكن التحكم في سمك الأوراق».

سأل أندريس: «ماذا عن أوراق البردي الموجودة في المتحف المصري، هل تم تصنيعها بنفس الطريقة؟ »

كان أندريس شابًّا سويديًّا أشقر شغوفًا بمصر. أحيانًا كنت أشعر أني أتكلم مع جمع من الناس ينقصه الاهتمام بما أقول. أشخاص مثل أندريس يجعلون الأمر

مختلفًا، حيث أشعر أن هناك مَن ينصت لما أقوله.

«بالتأكيد، كل أوراق البردي المكتوب عليها باللغة الهيروغليفية في المتحف المصري تم تصنيعها بتلك الطريقة. كلمة بيبر في اللغات الأجنبية تم اشتقاقها من الكلمة

المصرية القديمة بابو » .

أضفت في محاولة لحثهم على الشراء: «هناك العديد من الأشكال، والأحجام المختلفة لورق البردي تُباع بالمتحف. يسهل حمل ورق البردي عند السفر».

بدأت أتعرف على أصحاب المحلات من خلال جولاتي السياحية. كانت السياحة قد بدأت لتوها في الانتعاش بعد تدهورها فترة حكم عبد الناصر.

كنت أيضًا أساعد صديقتي سيسيليا من وقت لآخر. كانت سيسيليا تمتلك محلًّا في شارع ذي أهمية تاريخية، حيث كان يملكه وزير في القرن التاسع عشر.

قالت سيسيليا: «هذا هو فهمي. إنه يقدم الشاي والقهوة في المحل، ورغم أنه لا يجيد القراءة والكتابة، فهو رجل أمين».

قال فهمي مبتسمًا: «مرحبًا».

جنوب أمريكا هو موطن سيسيليا التي وصلت مصر مع زوجها، وأولادها الاثنين. استمرت في الإقامة بالقاهرة حتى بعد طلاقها، حيث تعرفت على العديد من

الأشخاص في المجتمع المصري. كانت سيسيليا فنانة غريبة الأطوار.

قالت لي سيسيليا، وهي تنظر إليَّ بعينيها البنيتين اللتين بدتا كبئر عميقة لا قرار لها: «لا يوجد العديد من المحلات مثل محلي كما تعلمين».

كان يصعب التكهن بما تفكر فيه سيسيليا. احتوى محلها على بضائع مثل القطع اليدوية، ونماذج للجلابية اليدوية المطرزة.

سألتني سيسيليا: «لقد أصبحت عارضة أزياء، أليس كذلك؟»

أجبتها: «نعم، لقد قمت ببعض المهام الصغيرة في مجال عروض الأزياء، كما أني قدمت بعض الإعلانات أيضًا».

لم أنسَ اليوم الذي كنت أعرض فيه جونلة ذات مقاس أكبر بكثير من مقاسي، واضطررت أن أمسكها طوال فترة العرض حتى لا تقع. لم أخبرها عن الإعلان الذي

تنكرت فيه مرتدية زيًّا يشبه ثمار المانجو المتدلية من غصن شجرة، كما لم أخبرها عن إعلان معجون الأسنان الذي كنت أبتسم فيه ابتسامة عريضة، وأنا أقود

سيارتي حتى كدت أصدم شخصًا في طريقي.

«أريدك أن تعرضي لي الجلابية اليدوية من أجل الدعاية. سيأخذنا عادل إلى الصحراء للتصوير».

وافقت بسعادة، ولم أكن أعرف المخاطر التي ينطوي عليها الذهاب إلى الصحراء بدون تحضير، وبدون مرشد مختص.

كان عادل ثابت من أفراد العائلة المالكة، يعيش في قصر شديد الفخامة على الرغم من حالته المتهالكة في منطقة جاردن سيتي بالقرب من شقة آل طورشتين

سالين السابقة. لو باعه لأصبح من الأغنياء، لكنه لم يرغب في بيع القصر مطلقًا. حضرت في هذا القصر العديد من الحفلات الاستثنائية التي حضرها كافة أشكال

البشر بدءًا من هؤلاء المرتدين أفخم الثياب إلى هؤلاء المرتدين الچينز. كنا نأتنس بضوء الشموع عند انقطاع الكهرباء ليضيف هذا إلى القصر مسحة من الغموض،

ونتصرف وكأنه شيء طبيعي أن نحيا على ضوء الشموع، لا الكهرباء.

أخذني عادل مع سيسيليا إلى الصحراء؟ كانت هناك خطة موضوعة حتى نعود في نهاية اليوم.

قلت لعادل معترضة: «أنت تقود السيارة في الطريق الخطأ».

قال، وهو يتوغل في الصحراء حتى أصبح غير قادر على الرجوع إلى الطريق الرئيسي: « هراء».

تحدثت إلى نفسي في صمت: «يا لهم من رجال مغرورين لا يريدون الاستماع لامرأة!»، ثم قلت له: «إني أكاد أتجمد من برودة الطقس».

تنخفض درجات الحرارة بشدة في ليل الصحراء، ولم أكن مرتدية ملابس ثقيلة، ولم يكن لدينا ما يكفي من الطعام، أو المياه. عندما وجدنا طريق العودة، كانت

قوات الشرطة، والجيش تبحث عني في كل مكان.

صرخ والدي أكسيل في وجهي من الغضب، أو بالأحرى من خوفه أن يفقدني: «كيف تقومين بهذا الفعل الأحمق؟ »

قال عادل بصوت واهن: «لقد كان خطئي».

رحلت سيارة الجيش الخضراء بعد بعض المهاترات مع عادل. لم تكترث سيسيليا كثيرًا بما كان يحدث حولها، إلا أن أسنانها كانت تتخبط من شدة البرد حتى

أعطاها والدي بطانية لتضعها على كتفيها.

استدعت سيسيليا نجارًا لإجراء بعض الإصلاحات في محلها، وسرعان ما وقعت في حبه.

قالت سيسيليا في عجالة: «سأتزوجه».

قلت محتجة: «لكنكما لا تتحدثان حتى لغة واحدة، كما أنك تكبرينه بعشرين عامًا! »

لم أصدق للحظة أن هذا الزواج سيدوم، وفعلًا لم يدم طويلًا، فلقد انتهى الأمر في لحظة غيرة قام فيها أحمد بطعن سيسيليا في وجهها بسكينة كبيرة. اعتادت

سيسيليا أن تمشط شعرها بعد هذا الحين بطريقة تخفي بها آثار الندبة التي لازمتها. تزوجت سيسيليا بعد ذلك من سفير أجنبي، وقامت بغلق محلها في القلعة.

كان طارق أول مَن أخذني إلى القلعة، حيث قاد سيارته، وتوقفت هناك. أخذ طارق يدندن بعض الأغاني المصرية، وغنيت معه.

أوقف طارق سيارته: «ها نحن قد وصلنا».

سألت طارق عن صلاح الدين الذي كان اسمه يتكرر كثيرًا في دروس التاريخ التي كنت أمقتها: «إذن تنتمي هذه القلعة إلى صلاح الدين؟ »

رد: «نعم، مؤسس الخلافة الأيوبية».

تجولنا في المكان، وقد أعجبنا بالحصن المنيع. أخبرني طارق أن سلالة صلاح الدين تأتي من الأكراد، ومن خلاله انتقلت مصر من الشيعة إلى السنة.

- إذن هذه هي أصولك.

- أنا من عائلة سنية قديمة.

شجع صلاح الدين العلوم الإسلامية، وكان له عظيم

الفضل في ظهور المدارس الإسلامية.

قال طارق: «هناك مجرى لإمداد القلعة بالماء، سأريك هذا. لقد أصبح المكان سكنًا للبعض الآن بوضع اليد. حرر صلاح الدين قبل موته القدس من الصليبيين. انبهر المحاربون الغربيون باكتشافات العرب آنذاك. نقل المحاربون الغربيون ما تعلموه من معارف، وعلوم إلى الغرب للاستفادة منها. برع الأطباء، والعلماء العرب كثيرًا حتى إنهم استطاعوا علاج أمراض كان يعتقد الغرب أنها أمراض مستعصية » .

قلت بأسى: «الأمر عكس ذلك تمامًا الآن. أدرك شيئًا عما تقوله، فلقد كانت جدتي من أشد المعجبين بصلاح الدين، ومعرفته».

سأل طارق: «كيف هذا؟»

أجبته: «اعتادت جدتي أن تساعد والدها الطبيب في عيادته، حيث عملت كممرضة عنده قبل أن تتزوج، وتأتي إلى مصر».

قال طارق: «لكنها لم تدرك الكثير عن عائلتي. دعيني أريك بنفسي».

أخذني طارق من يدي، وقادني إلى حيث توجد غرفة ضخمة مليئة بصور سلاطين في أبهى ملابسهم.

أشار طارق إلى إحدى الصور التي يطل منها رجل بعينه التي لا يدرك الخوف طريقه إليها: «هذا هو جدي. لقد كان الرجل الوحيد الذي استطاع الهرب من المذبحة».

سألته: «كيف؟»

قال طارق، وهو يشير إلى الأسوار المحيطة بالقلعة: «لقد قفز بحصانه من أعلى هذا السور».

- يجب أن تكون فخورًا به، فلولاه ما كنت قد أتيت إلى هذا العالم.

- نعم، لقد كان مملوكًا شجاعًا بحق. كان المماليك في الأصل عبيدًا اشتراهم نائب السلطان من جبال القوقاز. استقر المماليك في القلعة أعلى القاهرة، وازدهرت العلوم، والفنون في عهدهم. ترجع أصول الأرستقراطية المصرية إلى الأتراك، أو العثمانيين.

- هذا يفسر لون بشرتك البيضاء.

- بشكل جزئي، فلتجلسي لأشرح لك.

قفزت لأعلى لأجلس على السور الذي كان دافئًا بفعل أشعة الشمس. أمسكت بيدي زجاجة مياه صغيرة، وأخرجت المدونة الخاصة بي لأسجل بعض المعلومات التي قد تكون مفيدة لي كمرشدة سياحية.

لاحظني رجل طويل القامة، وابتسم لي قائلًا: «من أين أنت؟ »

رد طارق: «ليس هذا من شأنك».

قلت لطارق، بعد أن أجبت الرجل: «يمكنني أن أجيب بنفسي».

قال طارق: «يجب أن أحميك، فليس لديك أية فكرة عن عاداتنا».

قلت بصوت ساخر: «عادات! مثل التحدث إلى رجل غريب!»

سرعان ما ندمت على سخريتي. كان طارق رجلًا ذا قلب طيب، إلا أنه من الشخصيات التي تحب التملك. قررت أن أغلق فمي، وأستمع إلى ما يقوله طارق.

«نظّم العثمانيون حملة إلى القاهرة بمساعدة البريطانيين لإخراج الفرنسيين. غيَّر محمد علي، الذي كان أحد الضباط حينها، مجرى التاريخ، حيث أصبح في عام

1805 نائبًا للسلطان لعقود عديدة».

رددت الاسم، وأنا أكتبه: «محمد علي».

«كان عام 1811 عامًا مصيريًّا للمماليك، حيث دعاهم محمد علي إلى احتفال في القلعة، وعندما جلسوا لتناول الطعام تم الإحاطة بهم، واغتيالهم».

- أما زلت معجبًا به على الرغم من أنه قتل أجدادك؟!

- من الصعب ألا يُعجب المرء بهذا الرجل، كما أن جدي استطاع النجاة. أسس محمد علي الأسرة العلوية التي ظلت تحكم مصر حتى عام 1952 . قام محمد علي

بتطوير مصر، فهو مؤسس تاريخ مصر الحديث، واستطاع استعادة الهوية المصرية التي فُقدت بعد الفراعنة.

- إذن لقد حكمت العائلة العلوية أثناء إقامة طورشتين، وهيلدا هنا.

كنت دائمًا أبحث عن حياة أجدادي في المجتمع المصري. كنت أنقب عن جذوري المصرية. أوشكت الشمس على المغيب، وحان وقت المغادرة. كنت أفكر إن كان

طورشتين وهيلدا قد جلسا في نفس المكان. لقد أخذت هيلدا بعض الصور هنا، لقد رأيت صورها في ألبوم العائلة. فكرت فيها، وتخيلتها جالسة في ثوبها الطويل،

والكاميرا لا تغادر يدها.

سألت طارق: «هل تظن أن أجدادنا كانوا يعرفون بعضهم البعض؟ »

أجاب: «ربما. كم سيكون هذا رائعًا! »

بعض آباء أصدقائي المصريين كانوا يعرفون والدتي، وأجدادهم كانوا يعرفون أجدادي. اقتصرت دائرة صفوة المجتمع المصري على العائلات الكبيرة فقط التي كانت

متصلة ببعضها البعض بشكل قوي، على عكس الأرستقراطية السويدية.

قال طارق: «بالتأكيد لم يذهب أجدادك إلى چاكي »

قلت: « إنه يوم الخميس. حسنًا، فلنذهب. أحتاج للذهاب إلى الرقص بعد هذا اليوم الثقافي الطويل».

يوم الخميس هو اليوم المفضل للخروج في مصر، حيث إن يوم الجمعة هو العطلة الأسبوعية في الدول المسلمة، وكنا نخرج أيضًا يوم السبت، حيث كان يوم

الأحد هو الإجازة الرسمية للجامعة الأمريكية. تأقلمت بسرعة على مواعيد العطلات الأسبوعية. كنت أخرج مع أصدقائي، ونذهب إلى الملاهي الليلية في الفنادق

الكبرى، خاصة چاكي في الهيلتون القديم .

قاد طارق سيارته عبر أزقة وشوارع مصر القديمة. قال وهو يلوح بيده: «أخيرًا وصلنا، سآمر لاصطحابك في الساعة الثامنة».

لم يكن هناك تبادل قبلات في شوارع مصر. كنت أدرك هذا، وكانت ابتسامة طارق حين ينظر لي مبعثًا للراحة. دائمًا ما يجد الحب طريقه على الرغم من كل

القوانين الأخلاقية التي وضعها مجموعة من الرجال المحبطين.

صعدت الدرج مسرعة. خلعت ملابسي، وحذائي الذي امتلأ بالرمال، ودعوت الله أن تكون هناك مياه ساخنة حتى أستطيع الاستحمام. استشعرت المياه الساخنة

وهي تنساب على ظهري، وتتسلل إلى أصابعي، وتتلون باللون الرملي من أثر جولتي في مصر القديمة، حتى أذني امتلأت بالرمال. سرعان ما اختفت المياه الساخنة

لأكمل استحمامي مُضطرة بالماء البارد.

قلت وأنا ألف نفسي بالفوطة البيضاء الكبيرة التي تشبه الزي الذي يرتديه المسلمون في أثناء الحج: «من الصعب تخيل أنهم يرتدون هذا كثوب في الحج».

ارتديت الجلابية القطنية، واستلقيت على فراشي. فتحت عيني لأجد الظلام قد حل. نظرت إلى ساعتي لأجدها قد قاربت السابعة والنصف فقفزت مهرولة إلى

دولاب ملابسي لاختيار ما سأرتديه. غالبًا ما أرتدي الملابس الغريبة عند الخروج مع أصدقائي. تسللت أصابعي إلى ثوب معلق في دولاب الملابس عندما أتى صوت

والدتي فجأة: «هل ستخرجين في المساء أيضًا؟ »

- نعم.

- ألم تتناولي العشاء على الأقل؟

- لا أستطيع، سيمر طارق بسيارته لاصطحابي.

تنهدت والدتي، وتركت الغرفة. عُدت مرة أخرى للبحث عمَّا سأرتديه حتى وقع الاختيار على ثوب قطني أزرق داكن، بلا أكمام، ومعه چاكت أبيض اللون يتداخل

معه اللون الأزرق، أما الصندل فكان أبيض اللون.الكعب

مناسب، ويمكنني الرقص به، أو يمكنني الرقص حافية القدمين. ربما يجب أن أرتدي الصندل الأزرق.

توجهت إلى والدتي: «ما رأيك فيما أرتديه؟ »

- تبدين جميلة. هل هناك اختيار آخر للصندل؟

- هناك الصندل الأزرق، ها هو.

- أفضل الأبيض.

توجهت لمقابلة طارق. قال بينما جلست على المقعد ليكشف الثوب عن فخذي اللتين لونتهما أشعة الشمس: «أليس هذا الثوب قصيرًا بعض الشيء؟ »

أجبته بحدة: «لا، إنه رائع».

قاد طارق سيارته متجهًا إلى سيلار، وهو بار قريب من مقر إقامتي بالسفارة السويدية. يقع سيلار في فندق صغير نتوجه إليه جميعًا لتناول الطعام. كان يوجد نادٍ لموسيقى الجاز بجوار سيلار يعزف فيه الأفارقة الأمريكيون عزفًا مدهشًا. كان العازف رياضيًّا، ولطيفًا حقًّا، لكنني لم أخبر طارق عن رأيي في العازف.

سرعان ما اكتظ المكان.

«أريد كأسًا من النبيذ الأحمر مع العشاء».

طلب طارق من الجرسون زجاجة نبيذ، ثم طلب زجاجة ثانية، وثالثة، حيث كان النبيذ بشع المذاق. استمر الأمر حتى يأسنا من الحصول على زجاجة نبيذ جيدة.

أخيرًا أحضر لنا الجرسون زجاجة نبيذ طيب الطعم.

قلت لطارق، وقد تذكرت كتاب ڤيڤي الذي قرأته سابقًا: «كان النبيذ أفضل في عهد الفراعنة على الأرجح».

امتلأ المكان بينما تصاعدت أدخنة السجائر بكثافة.

توجهنا بعد منتصف الليل إلى چاكي. وجدنا مائدتنا المفضلة بانتظارنا بالقرب من حلبة الرقص.

قال طارق: «فلتحضر لي زجاجة الويسكي الخاصة بي من فضلك».

كان للرجال المصريين الذين يرتادون چاكي زجاجات الويسكي الخاصة بهم، والمكتوب عليها أسماؤهم.

سألني أحمد: «هل تسمحين لي بالرقص معك؟ »

أجبت طلبه بسعادة: «بكل تأكيد».

بعد وهلة تغيرت الموسيقى فرقصنا بهدوء على الموسيقى الناعمة. أحاط أحمد ظهري بيده بينما اليد الأخرى تحركت بشكل دائري لتلتف حول عنقي. رقصنا

وضحكنا حتى اصطحبني إلى مائدتي.

قال طارق: «ما هذا؟ »

أجبته، وقد أدركت على الفور أن هناك مشكلة ما: «كنت أرقص».

تجنبت الحديث مع أي رجل آخر، إلا أنني شعرت بانزعاج لكوني لا أتصرف على طبيعتي.

قالت لي صديقتي منى: «إنه يحاول الاعتناء بك».

قلت بضيق: «ربما لا أريده أن يعتني بي».

شربنا، ورقصنا، وتحدثنا بصوت مرتفع، وتمايلنا على إيقاع الموسيقى الصاخبة حتى مطلع الفجر. شعرنا بالإرهاق، وتوجهنا لقيادة سيارتنا دون أن نفكر للحظة في

الخطر المحتمل من القيادة ونحن في مثل هذه الحالة.

قلت في حديث صامت مع نفسي: «هذا ممتع حقًّا.

نفس المتعة التي ألاقيها في ستوكهولم لولا غيرة طارق التي تفسد الأمر».

تسللت إلى المنزل بهدوء وحذر حتى لا أزعج والدي الذي كان على وشك الاستيقاظ للذهاب إلى الأهرام لامتطاء حصانه العربي في الصحراء قبل بدء العمل.

بعد ساعات أوقظني موتشي: «حان وقت الاستيقاظ آنسة آن».

تساءلت، وأنا أتثاءب: «هل حان الوقت؟ »

رد موتشي: «إنها الحادية عشرة».

شعرت بألم شديد في رأسي. ربما لم يكن عليَّ أن أثمل لهذا الحد.

قلت لموتشي: «حسنًا، سآتي الآن».

جاء موتشي مرة أخرى لإيقاظي، وأدركت أنه لا محالة من الاستيقاظ. غادرت سريري ببطء. توجهت إلى صالة الطعام التي بدت خاوية تمامًا. قمت بصب الشاي

من الإبريق الفضي، ووجدت أمامي بعضًا من الخبز المحمص الدافئ المغطى بالعسل المصري الشهي، وطبقًا من شرائح المانجو. يدرك موتشي تمامًا ما أشتهيه.

ارتديت المايوه البكيني، وتوجهت للسباحة حتى مر عليَّ طارق لاصطحابي.

قال طارق: «فلنسر قليلًا».

قلت: «فكرة رائعة».

كنت بالفعل في حاجة إلى استنشاق بعض الهواء المنعش لتنقية رئتي، وتهدئة الإيقاعات الصاخبة داخل

رأسي، والتي استمرت منذ ليلة الأمس.

قاد طارق سيارته إلى قصر المنيل. مررنا بالمنيل « مقياس النيل» الذي استُخدم منذ القدم لقياس الفيضان السنوي الضروري لري الحقول. لم يعد المنيل يُستخدم بعد بناء السد العالي. سرنا معًا تحت شجر النخيل محتمين بظله من أشعة الشمس الحارقة. تعانقت أيدينا حتى سمعنا صوت شرطي يصرخ: «ممنوع»، ثم ذهب بعيدًا.

سألت: «كيف يمكن لرجلين السير متعانقي اليدين بينما لا نستطيع نحن ذلك؟!»

قال طارق: «غير مسموح للرجل، والمرأة بالتعبير عن مشاعرهما بشكل علني».

سألته: «هل هؤلاء الرجال الذين يسيرون متعانقي اليدين مثليون؟»

أشار طارق لي لأصمت: « هُس، الجنسية المثلية ممنوعة هنا. يتم إلقاء القبض على المثليين».

أدركت أنني أخالف قواعد لا أدري عنها شيئًا. كيف تكون الجنسية المثلية ممنوعة بينما يسير الرجال متعانقي الأيدي في الشارع؟ لم أرَ في ستوكهولم رجلين متعانقي الأيدي إلا وكانا مثليين.

اقترحت على طارق أن نذهب إلى نادي ميد لاحتساء الشاي، ووافقني على الفور. لم أدرِ إن كان يجب أن أناقش طارق فيما يخص سلوكه ليلة الأمس أم لا. عبرنا بوابات قصر المنيل المبني على طراز القرن التاسع عشر. أحببت المكان، وتنفست بعمق لأستنشق الهواء النقي الذي يحمل رائحة الزهور المختلفة التي امتلأت

بها
حديقة القصر الذي كان تصميمه المعماري مزيجًا من الطرازين الإنجليزي، والفارسي.

قال طارق: «يا لها من واحة!».

قلت: «نعم، إنها كذلك بالفعل. فيما يخص ليلة البارحة..»، حاولت مناقشة الأمر، إلا أنني شعرت بالتردد.

قال: «يجب أن تعلمي أن هذه ليست أوربا، فلتفكري في سُمعتك».

ندمت على الفور على مناقشة هذا الأمر، لقد أفسدت اليوم الجميل. لم أستطع منع نفسي من رد الإهانة: «سُمعتي بخير، لا تقلق».

قال طارق بحزن، وقد تغيرت نبرة صوته: «يبدو أنك لا تفهمين. الأمر هنا مختلف».

قلت بحدة: «لا، أنا لا أفهم ذلك بالفعل، فلنتحدث عن أي شيء آخر».

كنت أعلم أن هذا الموضوع سيفرض نفسه على حديثنا مرات أخرى في المستقبل.

- هل نذهب إلى السينما لمشاهدة فيلم؟

- كما تشاء، سأتوجه بعد ذلك إلى المنزل للمذاكرة استعدادًا للغد في الجامعة.

كنت أشعر أن ما أقوم به كثير حقًّا: عملي كمرشدة سياحية، ودراستي بالجامعة، وخروجي مع طارق.
قررت أن أطرح كل هذه الأفكار جانبًا، وأستمتع باللحظة التي أعيشها. توجهنا إلى وسط المدينة، إلى السينما

التي تم بناؤها عام 1940 .

- هل تعلم أن فيلم « ذهب مع الريح» كان يُعرض هنا، ولم يكن مسموحًا لوالدتي بمشاهدته؟

- كان الوقت مختلفًا آنذاك. كان هذا هو العصر الذهبي للسينما المصرية. أفلام الخمسينيات الأبيض والأسود هي المفضلة لدي. أفلام رائعة بحق.

- ماذا عن فيلم يوسف شاهين الأخير، « إسكندرية ليه»؟

- فيلم جيد أيضًا.

قابلت يوسف شاهين، أحد أهم مخرجي الأفلام، في السفارة. كان رجلًا رائعًا بحق. دُعي يوسف شاهين إلى مقر السفارة السويدية مع المخرج السويدي الشهير بو وايدبيرج في أثناء إحدى رحلاته إلى القاهرة.

اخترنا مشاهدة فيلم حرب النجوم.

- ما رأيك في قرطاس من اللب؟

- رائع!

كالعادة، جلسنا في مقاعد البلكون، وهي أغلى ثمنًا بعض الشيء، وأقل ازدحامًا. ارتفعت أصوات القطط، وهي تتسابق، وأصوات أكواب الشاي بينما امتلأت الأرض بقشر اللب. فكرت في هيلدا، وطورشتين، وحفلات السينما التي اعتاد الاثنان حضورها بأفخم الملابس.

تم عرض بعض الصور للرئيس، وهو يفتتح بعض الأماكن قبل بدء الفيلم، كما عُرضت بعض الإعلانات، من بينها إعلان قمت بتصويره. تمنيت أن لا يلحظ طارق

وجودي في الإعلان، لكنه لاحظ، وعلق قائلًا : «إعلان لطيف». ابتسمت له ابتسامة واهنة، وانهمكت مرة أخرى في تقشير اللب الذي كان وقتها بديلًا للذرة المفقشة

(الفشار) داخل دور السينما.

علمني أصدقائي كيف أضغط على اللب بأسناني لآكل ما بداخله، وأرمي القشر. تطلب مني الأمر كثيرًا من الوقت حتى أصبحت ماهرة.

كان هناك أيضًا لب منذ أربعة آلاف عام. فكرت كيف ستكون هذه المعلومة مفيدة، وشيقة للسائحين. بالرغم من معرفتي المحدودة والمتواضعة لتاريخ مصر، فإنني

كنت أفكر دائمًا في كيفية مساعدة السائحين على قضاء أوقات طيبة بمصر.

- أشعر أني أجهل الكثير عن مصر. أريد أن أسافر إلى الكثير من الأماكن في مصر لأعرف المزيد.

- حسنًا، دعيني أخطط لبعض الرحلات.

- رائع، فأنا أتوق إلى مغامرة جديدة.

كان هناك الكثير من المغامرات في انتظاري، مغامرات يصعب التعامل معها.

الفصل الخامس عشر

حشيش على العشاء

لم تكن السياحة الداخلية متاحة للفتيات المصريات بسبب القيود الأسرية كما علمت. كان ينتهي بي الأمر وحدي في رحلة مؤلفة من الكثيرمن الرجال، إلا إذا انضمت لنا فتاة أجنبية.

شرح لي طارق: «لا تذهب الفتيات إلى رحلات في مصر».

سألته: «لماذا؟ أنا لا أجد أي حرج في هذا».

قال طارق وهو يبتسم ليبلع كلماته اللاذعة: «أنت أجنبية».

كنت أشعر بالظلم، فالجميع ينظر لي، ويتعامل معي بشكل مختلف فقط لكوني أجنبية. تركت كلماته في نفسي أثرًا سيئًا، وكأنني أقل من الفتيات المصريات. ماذا

يعتقدون؟ كيف ينظرون لي؟ أجنبية بدون مبادئ! كنت أجهل تمامًا ماهية القواعد في ثقافة مختلفة.

قلت لوالدي: «أريد أن أرى الواحات».

قالت إنجريد: «سآتي معك».

رتبت والدتي إنجريد إقامة لنا في بيت الضيوف الخاص بالمحافظ، حيث لم تكن هناك فنادق في الواحات في هذا الوقت.

امتلأت الكثير من الأماكن في مصر بالألغام من جراء الحرب العالمية الثانية. لم يهتم أحد في حكومة عبد الناصر بالتنقيب عن الألغام، ويرجع هذا لقلة السائحين آنذاك. لم يكن العثور على الألغام بمهمة سهلة، فلقد

تحركت الألغام بفعل العواصف الرملية، وبعضها طفا في البحر ما زاد الأمر صعوبة.

قلت لطارق: «سيأتي صديقي دانا معنا».

سأل: «لماذا يحضر معك دائمًا؟»

لم تكن عندي أية نية للإذعان لغيرته: «إنه صديق».

انطلقنا جميعًا.. أنا، وأمي، وطارق، ودانا، في سيارة والدي البيچو الضخمة. تبادل طارق مع والدتي القيادة. لم يكن دانا لديه رخصة قيادة دولية، أما أنا فما زلت

مبتدئة. تركنا القاهرة في يوم مشمس، واتجهنا صوب الواحات الخارجة والداخلة. كان الطريق وعرًا، ومليئًا بالحفر مثله مثل كافة الطرق خارج العاصمة. كان

يتعين علينا القيادة ببطء، فالطريق مليء بالجمال، والعربات التي تجرها الحمير بالإضافة إلى الأطفال الذين يلعبون كرة القدم في منتصف الطريق. انتهى الهرج،

والمرج بمجرد توغلنا في الصحراء.

توقف طارق عن القيادة، حيث وجدنا أنفسنا أمام كثيب رملي.

سألت: «ماذا سنفعل الآن؟»

قال طارق: «حسنًا، فلنحاول القيادة فوق التل الرملي، أو لنحفر حتى يستوي الكثيب الرملي مع الأرض».

قالت والدتي بشكل عملي: «أقترح أن نحاول القيادة تمامًا كما نقود سيارتنا أعلى الثلوج، فقط علينا أن نقود سريعًا».

وهكذا قاد طارق السيارة سريعًا فوق التل الرملي، ثم

أوقف السيارة على الجانب الآخر ليتأمل نجاحه بفخر.

قبّلت طارق على وجنته وأشدت بما فعل على الرغم من أن إنجريد هي صاحبة تلك الفكرة: «حسنًا فعلت».

قفزنا إلى السيارة بسرعة، وأكملنا طريقنا صوب الواحات على أمل أن نصل قبل الظلام. القيادة في الظلام شديدة الخطورة في مثل هذا الطريق، خاصةً أننا لا

نملك أية معدات للمبيت في الخيام.

قال دانا: «هناك بحيرة أمامنا».

قالت والدتي لطارق بهدوء: «استمر في القيادة».

السراب في الصحراء أمر عادي. أدركت والدتي هذا خلال الأعوام التي قضتها مع والديها في مصر.

سألت بعد قليل: «هل هذا سراب أيضًا».

إردت نجريد: «يبدو هذا حقيقيًّا».

لاحت الواحات الخضراء في الأفق بأشجار النخيل، وعيون المياه، والينابيع التي تواجدت بفضل المناخ الرطب الذي امتاز به المكان منذ آلاف السنين.

قالت إنجريد: « فلنحاول البحث عن بيت الضيوف».

أشار طارق إلى مبنى أسمنتي تكثر فيه الشقوق التي غزت الجدران غير المطلية: «ها نحن قد وصلنا».

قادنا الحارس إلى غرفة تنبعث منها رائحة الفئران الميتة.

قالت إنجريد: «يبدو أن هذا المكان لم يتم تنظيفه منذ عقود».

كان المكان قذرًا بشكل يصعب وصفه. كانت معنا أمتعة

النوم، ولم يكن هناك بديل آخر غير التأقلم مع ما هو متاح.

سألنا الرجل الذي كان يرتدي جلابية مقلمة متسخة: «كويس؟»

وضع طارق في جيب الرجل بعض المال.

سرنا جميعًا، ونحن سعداء بانتهاء ساعات القيادة الطويلة، والجلسة غير المريحة في السيارة حتى تسللت إلى أنفنا رائحة غريبة.

قال دانا، وقد استشعر الماء بيده: «إنها بحيرة. المياه دافئة».

ردت إنجريد: «إنها مياه كبريتية، سأستحم بها».

كنت قد وضعت المايوه البكيني في آخر لحظة في حقيبة سفري. لم يكن دانا محظوظًا، حيث لم يحضر معه المايوه واضطر إلى السباحة بملابسه الداخلية. شعرت بمتعة، وأنا أسبح، وأنفض عن جسدي، وشعري غبار السفر. قضينا ما يقرب من ساعة نتحدث، ونضحك، ونرش المياه على بعضنا البعض. لاحظت اقتراب دانا مني، لكنني لم أفكر بالأمر.

قال طارق الذي كان أول مَن يترك البحيرة الدافئة: «أشعر بالجوع، فلنذهب لتناول الطعام».

ساعدني طارق على الخروج من المياه، ثم ساعد والدتي، بينما ترك دانا بلا مساعدة.

حاول دانا أكثر من مرة الخروج من المياه إلا أنه كان ينزلق كل مرة حتى مددت له يدي لمساعدته. كان دانا نحيفًا، وشاحب الوجه. بدا لي أنه غير معتاد على قضاء

وقت طويل خارج المنزل في رحلات كتلك التي ذهبنا إليها بينما كان طارق ممشوق القامة، ذو بنية رياضية، إلا أن دانا كان يتميز عن طارق ثقافيًّا، حيث كان واسع القراءة مطلعًا، كما أنه أجنبي مثلي.

قالت إنجريد وهي لا تدري شيئًا عن التوتر الذي خيم على المكان بيني وبين طارق ودانا: «لقد أحضرت بعض الطعام لحسن الحظ».

وضعت والدتي منديلًا كبيرًا كبديل عن مفرش السفرة، ووضعت عليه البيض المسلوق، والجبنة، والطماطم، والكا ڤ يار السويدي. أحضر طارق البيرة المثلجة

التي وُضعت بعناية في صندوق يحفظ لها درجة البرودة بينما أحضر الرجل المصري الخبز الشهي المخبوز حديثًا، وثمار البرتقال.

قلت وأنا أشعر بتعاطف حقيقي مع هؤلاء البسطاء الرائعين: «فقراء لكن كرماء».

تناولنا الطعام في صمت. كنا نشعر بالجوع، والتعب. أتى بعد قليل رجل بدوي، وأخبرنا بشيء رائع: «هناك مقبرة قديمة ليست بعيدة عن هنا في غرب الصحراء.

ستجدون الحارس يقف هناك لرعايتها جانب حماره».

أشار الرجل البدوي إلى مكان المقبرة، وتركنا فجأة، كما زارنا فجأة.

قال دانا ضاحكًا: «ما هذا الرجل؟ سراب؟!»

قالت والدتي التي كانت تتوق إلى مغامرة جديدة غير عابئة بخطورة أن نضل طريقنا في الصحراء: «يجب أن نحاول العثور على المقبرة صباح الغد».

خلدنا للنوم بعد العشاء مباشرة فلقد كنا متعبين من

عناء اليوم. نمت في غرفة واحدة مع والدتي بينما تقاسم طارق ودانا الغرفة الأخرى. كان هناك حوض واحد

متسخ في الطرقة. ذهبت لأغسل أسناني، وإذا بدانا يقف أمامي محدقًا فيَّ لفترة طويلة. أتى طارق من غرفته، ورأى كيف يحدق دانا فيَّ. ذهبت على الفور لوالدتي

التي أنقذتني في هذا اليوم، وربما أنقذت دانا أيضًا من أن يتلقى لكمة في وجهه من طارق.

توجهنا في اليوم التالي إلى الغرب كما اقترح الرجل البدوي بحثًا عن المقبرة. لم يكن معنا غير بوصلة تدلنا على الطريق. توغلنا في الصحراء حتى بدا على طارق القلق، وهو يشد شاربه.

قال طارق: «ربما تجدر بنا العودة إلى حيث كنا».

صاح دانا في اللحظة التي كنا قد قررنا فيها الرجوع: «انظروا، ها هو الحمار».

لم نصدق هذا الحظ الذي أسعدنا برؤية الرجل البدوي الذي دعانا لمشاهدة المقبرة. كان هو ذاته الحارس.

سأل طارق الرجل، وأعطاه ورقة مالية: «هل يمكن أن نلقي نظرة؟»

رحب الرجل بطارق وبنا: «تفضل».

انحنينا، ودخلنا المقبرة التي لم يمسسها أحد من قبل. كم كانت باهرة في روعتها.

قالت والدتي التي وقفت تتأمل جمال المقبرة في خشوع: «يا لها من مقبرة رائعة!».

كادت والدتي أن تتعثر في مومياء، إلا أن طارق قد أمسك يدها في اللحظة الأخيرة.

قالت والدتي: «كانت هناك تجارة لبيع المومياء، والتربح من ورائها وقت أن كان جدك قاضيًا، وحكمًا في هذه القضية».

قلت وقد أثارني الفضول: «مدهش حقًّا ما قد يكتشفه المرء في الصحراء».

ذهبت والدتي مع دانا لجمع بعض الخرز المتناثر هنا وهناك في الصحراء.

قال طارق: «فلنتركهما هنا».

- ماذا في الأمر؟

- لا أستطيع تحمل الطريقة التي ينظر بها دانا إليك.

- وما دخل والدتي بهذا.

قال طارق وهو يجذبني إليه بقوة: «أريد أن أكون معك وحدي».

كنت قد سأمت من طارق، وغيرته العمياء. لقد كان يغار حتى من ارتباطي بوالدتي، وكانت هذه هي القشة الأخيرة.

«بالتأكيد أنت الذي ستبقى وحدك».

دفعته بعيدًا عني، وتوجهت صوب السيارة، تتبعني طارق في محاولة لتهدئتي: «آن، انتظري».

ظهرت والدتي في الوقت المناسب، واقترحت العودة: " فلنرجع إلى القاهرة، ما رأيكم؟»

شعرت بالسعادة للعودة إلى منزلي بعيدًا عن طارق: «فكرة ممتازة».

سألت والدتي طارق: «لماذا تقود السيارة بهذه السرعة؟»

قال: «أوشكت الشمس على المغيب. يجب أن نتجنب القيادة بالمساء، فالطرق هنا خطيرة. أحيانًا يعترض اللصوص السيارات لسرقة متعلقات راكبيها، وأحيانًا يسرقون السيارة أيضًا».

سافرت بعد بضعة أشهر إلى الأقصر مع والدي في مغامرة جديدة. قررت حينها أن أكون ابنة مطيعة، وأن لا أتسبب في أي توتر، فلقد لاحظت وجود بعض التوتر بالفعل بين والدي، ولكني لم أعرف السبب على وجه التحديد. كانت الرحلة مفيدة جدًّا لي كمرشدة سياحية، فرصة حقيقية للتعرف على المزيد من تاريخ الفراعنة.

كانت محطتنا الأولى في المنيا التي بُنيت في الستينيات. خلا طراز المباني من أية لمحة رومانسية. هبطت درجات الحرارة بشدة عندما حل المساء. كان الفندق الوحيد الموجود هناك عبارة عن مبنى أسمنتي مربع الشكل. كست طبقات الرمال أرض الفندق تاركة بصمات أرجلنا عليها. حاولت أن أستمد بعض الدفء من الچاكت الذي كنت أرتديه. ندمت لأني لم أشترِ واحدًا آخر، حيث لم يكن هناك نظام تدفئة في مصر.

لم يكن هناك أثر لمخلوق في المكان.

قالت إنجريد: «هل من أحد هنا؟ »

صاح والدي بصوت أكثر ارتفاعًا: «هل من أحد هنا؟ »

سمعنا صوت قبقاب، ثم دلف شخص ما ليأتي صوته من الداخل: «أيوه ».

قال والدي:«هل هناك غرف شاغرة في الفندق؟ »

كان الفندق خاويًا تمامًا. يبدو أنه لم يكن هناك كثير من الزوار. قمنا بحجز غرفتين. لم تكن أغطية السرير نظيفة تمامًا.

سأل والدي الرجل: «هل يمكننا الحصول على وجبة عشاء؟ »

ذهب الرجل للتشاور مع امرأة، وحصلنا في النهاية على وجبة ساخنة ما جعلنا نشعر ببعض الراحة.

قال والدي: «فلنذهب للنوم».

وافقته الرأي: «فكرة جيدة، فلا يوجد شيء يمكن القيام به في هذا المكان الخاوي».

غادرنا الفندق في الصباح الباكر. كانت الطرق ممهدة بشكل أذهلني، حيث إن معظم الطرق خارج القاهرة كانت وعرة.

قال والدي، وهو يستمتع بالقيادة في الطريق الممهد: «أين الحمير، والجمال، والبقر؟ يبدو أن هذا الطريق قد تم طلاؤه بالقطران لتمهيده».

أفقنا على بعض الجنود مصوبين بنادقهم إلينا: «توقف».

سأله والدي باللغة الإنجليزية: «ماذا في الأمر؟»

قالت والدتي: «يبدو أن هذا الطريق الممهد منطقة عسكرية».

قال والدي وهو يستدير بسيارته دون تردد: «فلنستدر ونرجع».

أضاف والدي بصوت بدا عليه الضيق: «بدأت الرحلة. نحن في سباق مع الزمن. يجب أن نصل إلى الأقصر قبل

حلول المساء».

كانت القيادة في مصر خطرًا مستمرًّا، فمعظم السائقين لا يستخدمون الفانوس الأمامي، حتى إذا رأوا شيئًا متحركًا، حينها فقط يستخدمونه بدرجة تعمي السائق الآخر وتفقده الرؤية.

ارتفع معدل الحوادث مع زيادة أعداد السيارات؛ لذلك كنت أفضل السفر بالقطار الرخيص الثمن الذي يقف في جميع المحطات، وجميع القرى. كان الأمر يتطلب أربعًا وعشرين ساعة للذهاب من القاهرة إلى الأقصر. كانت الكراسي الخشبية بالقطار غير مريحة بالمرة. تم استيراد قطارات ألمانية مريحة بعد ذلك. كنت أستقل هذه القطارات عندما تسمح لي حالتي المادية. كان يتم تقديم وجبات عشاء مصحوبة بالنبيذ المصري في هذه القطارات، وكانت عربات النوم ترقى إلى المعايير الأوربية. فيما عدا هذا الصوت المرتفع الذي يصيح دائمًا بأكثر من لغة: «نتمنى لكم نومًا هادئًا»، في الوقت الذي يكون فيه الركاب بالفعل في سبات عميق. كانت القوارب الشراعية (الفلوكة) هي أحسن طريقة للسفر داخل مصر، ولا سيما البواخر الفارهة.

قال والدي وقد خيم الليل على المكان مع بصيص من الضوء المنبثق من الإنارة بالشوارع: «ها نحن قد وصلنا».

استطعنا أن نجد بسهولة فندق وينتر بالاس.

قلت لوالدي: «هل تتذكران عندما جئنا إلى هنا للسياحة؟»

قالت إنجريد: «نعم، مَن كان يتخيل أني سآتي لأعيش هنا؟»

لم أدرك حينها إن كانت سعيدة بذلك أم حزينة. فكرت كثيرًا في سؤالها، ولكني ترددت. تركت والديَّ، وذهبت إلى غرفتي الضخمة للاستحمام. داعبني النوم بمجرد أن استلقيت على الأريكة.

في اليوم التالي قابلت صديقي أرمين بالجامعة الأمريكية. كان أرمين شابًّا أرمنيًّا ممشوق القامة أزرق العينين. خرجنا كثيرًا معًا، وتبادلنا القبلات في أروقة الجامعة، كما كان لدينا كثير من الأصدقاء المشتركين.

سألته: «ماذا تفعل هنا؟»

أجاب: «أتيت مع بعض الأصدقاء. ماذا عنك؟»

تحدثنا، وضحكنا حتى أتى والداي.

سألته والدتي: «هل تود مرافقتنا لتناول الإفطار؟»

قال أرمين وقد بدا عليه الإحراج: «نعم، أشكرك كثيرًا».

أخبرنا أرمين أنه يتضور جوعًا، وأن الفندق الذي يقيم فيه مع أصدقائه شديد القذارة.

سألت أرمين: «ما هي خطتكم إذن؟»

قال: «سنتوجه إلى البحر الأحمر. لماذا لا ترافقينا؟»

قلت، وأنا أحاول تجنب النظر إلى أعين والدي: «يا لها من فكرة!».

قالت والدتي: «كنت أظن أننا سنقضي الإجازة معًا».

توسلت إليها: «أرجوكِ ماما، أنا أريد الذهاب».

كنت أعلم أني أزعج والديَّ كثيرًا. كان هناك صوت خفي يهمس في أذني قائلًا: «كوني ابنة صالحة»، لكني كنت أتبع رغبات قلبي الذي كانت دقاته أقوى من صوت

العقل وحكمته.

أخيرًا، وافق والداي، وأعطياني مبلغًا من المال. شعرت بالحرية والسعادة، وانطلقت مع أصدقائي بعد أن قبَّلت والديَّ. انضممت لأصدقائي في الفندق الرخيص

القذر.

قال أرمين: «أعطوني المال، وسأذهب لشراء طعام كافٍ للرحلة».

أعطيته المال، أنا وثماني فتيات أجنبيات أخريات لشراء لوازم الرحلة.

كان من المفترض أن ننطلق في ثلاث سيارات، ونذهب لإقامة مخيم في البحر الأحمر. انتظرنا، وانتظرنا دون أن يأتي أحد.

سألت إحدى الفتيات الأجنبيات: «هل تعتقدين أنهم ضلوا الطريق؟»

قالت فرانتشيسكا، الفتاة الإيطالية: «لا يُعقل هذا، فالمدينة ليست كبيرة».

قال أرمين وعلى وجهه ابتسامة ساحرة: «ها نحن قد جئنا».

قبَّلني أرمين، ونسيت قلقي سريعًا.

ركبت مع أرمين سيارته، وركب الآخرون السيارات الأخرى.

قال أرمين: «لدينا خيمة، ومعدات للنوم..»

أدار أرمين شريطًا لفريق البينك فلويد، أغنية طوبة أخرى في الحائط، وبدأ يغني بصوتٍ عالٍ يخلو من الإيقاع.

كان يومًا شديد الحرارة. قاد أرمين سيارته في الصحراء، ولم نقابل أي شخص في الطريق.

سألني أرمين وهو يخرج من جيبه علبة سجائر مارلبورو: «هل يمكن أن تشعلي لي السيجارة».

شاركته التدخين، وجلست أنظر إلى الصحراء المصرية مترامية الأطراف أمام ناظري. شعرت بمتعة المغامرة، والشباب.

سألته: «متى سنصل؟»

أجاب: «فلنتوقف قليلًا لنتبين».

أوقف أرمين سيارته، وتوقفت السيارات الأخرى أيضًا. كنت أتمنى أن يكونوا على دراية جيدة بالطريق. لم أناقشهم، فلقد تعلمت ألا أجادل الرجال المصريين.

انطلقنا مرة أخرى. أخيرًا رأينا بعد غروب الشمس خيطًا أسود طويلًا.

قال أرمين: «لا بد أنه البحر».

تنفست الصعداء، وقلت: «أخيرًا».

بدا لنا البحر الأحمر بشواطئه الممتدة تحت ضوء القمر.

قال أبدول: «فلنذهب لنخيم على الشاطئ».

ذهبت للسير قليلًا بصحبة فتاتين، بينما انشغل الجميع بنصب الخيام.

قلت: «أشعر بالجوع».

قالت بيا، فتاة نمساوية شقراء: «وأنا أيضًا».

«فلنعد إليهم إذن».

قابلنا في طريقنا رجلًا كبير السن، قال بلكنة ألمانية : «مرحبًا، أنا كابتن رينهارت».

سألته: «مرحبًا، ماذا تفعل هنا؟»

قال: «لقد تجولت في إفريقيا كلها بقاربي الشراعي، وانتهى بي المطاف هنا».

سألته كاث: «وكيف هذا؟»

قال: «لقد أُنهك الموتور، وسأشتري واحدًا غيره من القاهرة».

سار الرجل معنا، وأخذ يعد لنا النجوم التي تتلألأ في السماء، ويذكر لنا أسماءها. أخبرنا أيضًا كيف تركته زوجته. يا له من رجل مسكين!

قلت بمجرد وصولي: «أنا أتضور جوعًا».

بدأ الرجال الأربعة في الضحك، واعترفوا لنا قائلين: «لقد اشترينا حشيشًا بالنقود المخصصة للطعام».

قالت كاث بارتباك: «اشتريتم حشيشًا بنقود الطعام!»

بدأ الرجال في الضحك بشكلٍ هستيري، وحينها أيقنا أنهم قد تعاطوا الحشيش أيضًا.

سألت: «ماذا سنأكل إذن؟»

قال أبدول: «لا تقلقي، سأحضر شيئًا».

جاء أبدول بعد برهة من الوقت، ومعه رغيفان. يبدو أنه أخذهما من الصيادين.

قالت فرانتشيسكا: «يجب عليكم الصيد إذن لتدبير الطعام».

أجاب الرجال وهم يغنون، حيث لم يتخلصوا من تأثير الحشيش بعد: «غدًا».

شعرت بالبرد، وتوجهت إلى خيمتي مع أرمين.

قلت لنفسي قبل أن يغلبني النوم: «ربما كان يجب أن

أبقى مع والديَّ في الفندق المريح».

سمعت صوت امرأة يدوي في منتصف الليل: «المياه تتسلل إلى الخيام».

جاء صوت رجل آخر من بعيد: «إنه المد. نحن لم نفكر في هذا الأمر».

حاولت أن أوقظ أرمين الذي راح في سبات عميق: «استيقظ».

- ماذا في الأمر؟

- يجب أن نحرك الخيمة.

أخيرًا تحرك أرمين من مكانه رغم تعبه الشديد . كل ما فعله هو تحريك الخيمة بضعة أمتار بعيدًا عن البحر، ثم خلد إلى النوم مرةً أخرى. شعرت بالخوف،

والجوع، والإرهاق، وبدأت في البكاء. كل ما كنت أفكر فيه هو الرجوع إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي، ذهب أثر الحشيش، وشعر الرجال بالجوع فقرروا الصيد. نزلت لأستحم في المياه الفاترة، وسرعان ما أحاطتني الأسماك من جميع الألوان،

ولدهشتي لم تشعر الأسماك بأي خوف مني. أمضيت ساعات منتشية بالمياه حتى سمعت صوتًا.

صاح أحدهم بصوت أعادني إلى الواقع: «انتبهي، هناك دماء!»

ذهب الإحساس بالنشوة، واستطعت أن أرى سمك القرش من على بعد. كنت قريبة من الشاطئ فسبحت بسرعة.

أتى أرمين من الصيد ومعه سمكة صغيرة، وبالطبع لم يدرِ شيئًا عن الهرج الذي ساد قبل قليل بسبب سمك القرش.

قلت له، وأنا أضحك: «رائع، إنها كافية حقًّا للغداء».

أخيرًا انتهت الرحلة، ورجعت إلى منزلي سعيدة، ونحيفة، وفي حياتي صديق جديد.

استشعرت عدم رضى والدي عن مغامرتي الأخيرة فبدأت مذاكرة دروسي بجد استعدادًا للامتحانات. كنت أصطحب السائحين في جولات سياحية في أوقات فراغي،

حيث تطلبت مذاكرتي كثيرًا من الوقت. أخبرت والدي كيف أني تعلمت الكثير خلال رحلتي معه إلى الأقصر.

كانت سامية، إحدى صديقاتي في الجامعة الأمريكية، من الصومال. كان ختان الإناث ضمن أحد المشاريع التي عملت بها في أثناء الجامعة. علمت أن سامية نفسها قد تعرضت لختان الإناث.

قالت سامية: «إنها عادة إفريقية قديمة لا علاقة لها بالإسلام».

قلت: «لكن لماذا؟ أنت فتاة متعلمة، ولا بد أنك من عائلة ثرية حتى يستطيع والداك الإنفاق على مصاريف دراستك بالجامعة الأمريكية».

قالت سامية بصوت لا يكاد يُسمع: «أكره ما فعلاه بي، ولكنها عادة قديمة».

سكتت سامية لوهلة، ثم قالت بشجاعة: «أود أن أذهب إلى قريتي، وأعلم الآخرين حتى تتوقف هذه العادة».

كانت عمليات ختان الإناث تتم بالسودان أيضًا، فلقد

درست الأنثروبولوچيا، وكنت أهتم كثيرًا بقضايا ختان الإناث، وعادات القبائل المختلفة في الجنوب.

توسلت لأبي: «أرجو أن تأخذني معك في المرة القادمة».

قال: «أعدك بهذا إذا تحسن سلوكك ».

قلت له وأنا أحاول أن أبدو بمظهر الفتاة البريئة الحالمة: «أعدك بهذا».

كنت أعلم أن سلوكي يفقد والدي أعصابه.

ذهبت مع والدي إلى الخرطوم، عاصمة السودان، في أثناء الشتاء، قلت بحماس: «أريد أن أذهب إلى البازار».

كان الأمر مُخيبًا للآمال، فلم يكن هناك سوى بضعة جمال للبيع دون أدنى أثر للأسواق الرائعة التي قرأت عنها في الكتب.

قلت شاكية: «لا يوجد شيء مثير».

قالت لي والدتي بلهجة واثقة: «أتدرين ما هو رائع حقًّا بالخرطوم؟ المكان الذي يلتقي فيه النيل الأزرق مع النيل الأبيض».

قال والدي: «فلنذهب لمقابلة صديقي چون كيل».

كان چون كيل سفير ألمانيا بالسودان، أما زوجته سيجريد فكانت صحفية سويدية. اكتشفنا أنها قد قضت صيفًا كاملًا في مزرعتنا بالسويد أثناء الحرب. أحيانًا

يكون العالم مكانًا صغيرًا بحق.

قلت لسيجريد: «لا بد أنك تشعرين بالغربة هنا».

أضافت والدتي: «لا يبدو أن هناك الكثير من وسائل الترفيه في الخرطوم».

وافقت سيجريد والدتي الرأي: " بالطبع الخرطوم ليست كوزموبوليتانية كالقاهرة».

يتميز السودانيون بالوسامة، والنظافة الشديدة، وهم دائمًا يرتدون « الجلابية» البيضاء. الشعوب المتحدثة بالعربية في الشمال تختلف كثيرًا عن مثيلاتها في

الجنوب. اكتشفت هذا عندما سافرت إلى الجنوب، حيث تعيش قبائل دينكا مع غيرها من القبائل.

كانت هذه القبائل تمثل 12 بالمائة من إجمالي السكان، وتعيش على الزراعة، ورعي المواشي. تعني كلمة « دينكا» في لغتهم: الناس الذين ينتمون لأصول نيلية .

كانوا يتميزون بالبشرة السمراء الداكنة، والجسد النحيف، والقامة الممشوقة.

قلت لوالديَّ: «فلنذهب لرؤية طقوس الرقص الخاصة بهم».

كانت هذه الطقوس تتم خارج چوبا.

قال والدي: « حسنًا، فلتصعدي لأعلى السيارة الچيب».

استطعت أن أشهد الطقوس من أعلى السيارة الچيب. جاءت سيدة متقدمة في العمر، وأعطت الرجال شيئًا ليشربوه. اكتشفت بعد ذلك أن هذا المشروب هو

مزيج من لبن، ودم البقرة حتى يعطي للراقصين طاقة. رأيت أجسادهم الطويلة العارية المنحوتة بشكل جميل مغطاة بالرماد، وشعرهم مصبوغ باللون الأحمر

المشتق من بول الأبقار.

همس السائق في أذني: «أجسادهم مغطاة بهذا الرماد لإبقاء الحشرات بعيدًا عنهم».

بدأت الموسيقى على إيقاع الطبول بينما قفز الراقصون إلى أعلى وأسفل. بدت الفتيات بأجسادهن العارية التي لا يغطيها سوى شريط من اللآلئ حول الأرداف.

رقصت كل فتاة، ومعها غصن صغير تشير به إلى أحد الرجال حتى صارت كل فتاة مع رجل بجانبها، وتعالت أصوات ضحكاتهم جميعًا.

توجهنا بعد ذلك إلى كينيا لزيارة دبلوماسي سويدي صديق لوالدي.

أعلنت بمجرد وصولنا إلى نيروبي: «سأذهب لمقابلة بعض الأصدقاء السويديين في ملهى ليلي. سأستقل سيارة أجرة».

قال والدي: «مستحيل، هذا خطر جدًّا. الأمر هنا يختلف تمامًا عن القاهرة».

منعني والدي تمامًا من الذهاب إلى أي مكان بمفردي. اصطحبني السائق إلى المطعم، ثم عاد ليأخذني مرة أخرى.

أعلن الأشخاص الذين استضافونا الآتي: «سنذهب اليوم إلى المسرح».

انطلقنا جميعًا في ليلة إفريقية دافئة.

سألت والدي بمجرد وصولنا: «لا أرى أي أفارقة هنا. أين هم؟!»

- ربما لأن وجودهم غير مقبول هنا.

- هل يرتدون دائمًا هذه الملابس الطويلة القديمة الطراز؟

- صه!

حاولت والدتي أن تفسر لي: «هذه عادة غربية».

كانت هذه أول تجربة لي مع العنصرية، والاستعمار. شعرت بصدمة حقيقية. لم أتعجب حينما لجأ الأفارقة للعنف كردة فعل لهذه التفرقة العنصرية داخل

بلادهم، إلا أنني قررت عدم البوح بأفكاري لأحد، واحتفظت بها لنفسي.

أخذنا السيارة الجيب في اليوم التالي، واتجهنا إلى الغابة لرؤية الحياة البرية. شعرت بالانبهار بالقبائل المتعددة التي مررنا بها، وخاصة قبيلة الماساي، وهي قبيلة

بدوية محاربة تعيش على الرعي، والماء. كانوا يأكلون لحم المواشي، ويشربون دمها، ولحمها. قرأت عن هذا المجتمع خلال دراستي للأنثروبولوچيا، وعرفت أنه

مجتمع ذكوري، حيث يُعد تعدد الزوجات فيه أمرًا طبيعيًّا. اكتسبت أيضًا قسطًا من المعرفة عن مجوهراتهم، حيث يشير عدد ألوان الأحجار إلى الحالة الاجتماعية

للفتاة: متزوجة، أو غير متزوجة، أو أم، وهكذا.

قلت وقد جرفني الحماس: «شيء رائع أن أرى كل هذا على أرض الواقع».

كنت أعلم أنه لا بد من الحصول على موافقة القبيلة قبل أخذ أية صور، إلا أنني التقطت صورة خاطفة لإحدى النساء. وجدت نفسي في الحال محاطة بجمع غفير

من أفراد القبيلة. من المعروف أن قبيلة الماساي لا تحب أن يأخذ الغرباء صورًا لنسائها.

صاح السائق الذي أتى لإنقاذي: «اجري في الحال، أسرعي».

هرولت مسرعة إلى السيارة، وقد تملكني الرعب، واستطعت أن أهرب قبل أن يمسك بي أفراد القبيلة.

قال والدي الذي لم يكن سعيدًا بما فعلته: «مشكلة أخرى من مشاكلك يا آن! "

كنت أعلم أنه على حق. تعلمت من هذه التجربة درسًا لن أنساه بحياتي.

رجعنا بعد ذلك إلى چوبا، حيث أراد والدي زيارة بعض الإرساليات السويدية التي تحيا في الغابات خارج چوبا. توجهنا إلى مطار نيروبي. استقر الأمر بنا جميعًا في

طائرة صغيرة تكفي لستة أشخاص فقط. حلقت الطائرة على بعد منخفض حتى نستطيع رؤية الريف. أحسست بشعور الكاتبة الدانيمركية كارين بليكسين التي

عاشت في هذا البلد الساحر. حلمت أنني أمتلك مزرعة في إفريقيا، وأنني أؤلف كتابًا أحكي فيه عن عبق السحر الذي يغلفها.

قلت: «الآن أدرك معنى التعبير القائل: أن تسكن إفريقيا جلدك.. في إشارة إلى سحر إفريقيا الذي يتملك الروح ويتدفق كالدماء تحت ثنايا الجلد».

لم أتلق أي تعلىق على ما قلت. أفقت على والدي يقول بتوتر حاد: «نحتاج إلى وقود. الأمر طارئ».

هبط الطيار وسط سا ڤ انا.

قال الطيار لوالدي: «ابقَ إلى جانب الطائرة».

ذهبت أنا، وأمي مع الطيار في محاولة لإيجاد بعض الوقود. سرنا مسافة طويلة تحت أشعة الشمس الملتهبة حتى وصلنا إلى قرية مهجورة لم نجد بها سوى صبي

صغير يبدو عليه سوء التغذية.

استطاع الطيار أخيرًا أن يعثر على بعض الوقود، ملأ منه صفيحة، ثم توجهنا إلى مقصدنا مرة أخرى.

بمجرد اقترابنا من چوبا رأينا بضعة أكواخ، وبيوتًا مصنوعة من الطوب.

قال والدي: «انظري يا آن، هذه هي العاصمة الجنوبية لإحدى أكبر البلاد الإفريقية».

بعد هبوط الطائرة أخرجنا جوازات السفر، وكروت التطعيم لنريها للموظف المسئول.

سألني الموظف: «أين التطعيم ضد الحمى سيدتي؟ »

أجبته: «لا بد أن يكون موجودًا بالكارت».

تفحص الموظف الكارت، إلا أنه لم يجد به ما يشير إلى تطعيم الحمى.

أشار الحارس لموظف عملاق ذي يد ضخمة أشبه بالمجرفة. وضع الموظف العملاق يده في حوض مليء بالمياه القذرة، ثم أخرج سرنجة، واقترب مني وقد اعتلت

وجهه ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه.

حاولت الرفض: «لا أعتقد أني أستطيع ...».

بدا أن والدي قد بدأ يفقد صبره. حينها أدركت أني لن أتلقى منه أية مساعدة، واستسلمت تمامًا. رفعت كم البلوزة، وأخذت التطعيم. توجهنا بعد ذلك إلى الغابة

بسيارة چيب. تطلب الأمر عشر ساعات من القيادة وسط طرق قذرة.

قلت لنفسي بعد مرور وقت بدا طويلًا كالدهر: «أقسم

إني سأصرخ إذا لم تتوقف هذه السيارة».

توقفت السيارة أخيرًا، وشعرت أني كمبارز خرج من حلبة المصارعة منتصرًا.

أتى رجل لتحيتنا قائلًا: «كم هو لطيف أن تحضر معك الزوجتين: الكبرى، والصغرى».

ابتسم الرجل لوالدي الذي بدا عليه الفزع.

قالت والدتي التي بدا عليها الانزعاج أيضًا: «أحيانًا يؤدي اختلاف الثقافات إلى استنتاجات تثير الدهشة».

أكملنا رحلتنا حتى وصلنا أخيرًا إلى قرية تحيا فيها عائلة سويدية : الرجل، وزوجته، واثنان من الأبناء. انبهرت حقًّا بشجاعة تلك العائلة التي تركت السويد، وأتت

إلى هنا للوعظ، بل ولبناء مدرسة، وعيادة مجانية لأهل القرية. لم يكن في هذا المكان أية لمحة عما نطلق عليه لفظ « الحضارة»، فلا يوجد صنبور للمياه الساخنة،

ولا إنارة في الشوارع، ولا طرق ممهدة مرصوفة. لا يوجد سوى الأتربة، والفقر، والثياب البالية. تغيرت بعد ذلك كل تصوراتي السابقة عن الإرساليات.

عاشت تلك الإرساليات على الأطعمة المحفوظة، والرعي في بيوت مصنوعة من الطوب، بناها أفراد الإرساليات لأنفسهم.

قالت السيدة السويدية: «سنتناول أحد أنواع الأطعمة المحلية المفضلة على العشاء، نمل مشوي».

قامت السيدة بحفر حُفرة، ثم جلست وهي تمسك بعصا ملتهبة. سرعان ما اقترب النمل، وملأ الحفرة. رمقني والدي بنظرة استطعت أن أفهم منها شيئًا واحدًا: لا تتفوهي بكلمة، وتناولي الطعام المُقدم لك.

كان النمل يحتوي على نسبة عالية من البروتين، وكان مالحًا إلى حدٍّ ما. التصقت أرجل النمل بأسناني. تناولنا النمل

بالملعقة بكمية كبيرة حتى تمتلئ معدتنا.

كان الفقر واضحًا جدًّا في جنوب السودان التي افتقدت إلى الكثير من الضروريات في أعقاب الحرب الأهلية. لولا الحرب، والفساد، والمذابح التي ارتكبت في دارفور

لكانت السودان واحدة من أكثر البلدان الإفريقية رخاءً بعيدًا عن معاناة المجاعات، والموت عطشًا، إلا أن واقع الحال كان يحوي الكثير من الفقر، والبؤس.

استيقظنا في منتصف الليل على صرخات مفزعة.

قالت جونيلا زوجة المبشر، والتي كانت « داية» أيضًا: «يجب أن أذهب لأساعد السيدة حتى تضع مولودها».

سألتها: «هل من الممكن أن آتي معك؟»

ردت: «بالطبع ممكن».

كان المولود قد وُلد بالفعل عندما وصلنا، فتاة ذات بشرة فاتحة يستطيع المرء أن يميزها في الظلام. استطعت بالكاد أن أرى الأم. تم تسمية المولودة جونيلا.

ذهبنا إلى چوبا مرة أخرى لمقابلة إرسالية سويدية أخرى. دعانا أفراد الإرسالية إلى منزلهم. بعد مرور ثلاثة أيام، بدا أنهم يتمنون رحيلنا، وكذلك نحن، فقد أردنا

الرحيل بشدة. لم تكن هناك أية طائرة لتقلنا من چوبا إلى القاهرة. كنا نذهب كل يوم إلى المطار على أمل أن نجد طائرة تقلنا إلى القاهرة.

أجابنا الموظف الذي أخبرنا سابقًا أنه قد يكون هناك صعوبة في العثور على ثلاثة أماكن في الطائرة: «إن

شاء اللّه ستكون هناك طائرة اليوم».

قال والدي لوالدتي: «يجب أن تبقي هنا في حالة عدم وجود أماكن كافية، حيث يجب عليَّ الرجوع لمباشرة عملي، وكذلك آن لاستئناف دراستها».

أخيرًا استطعنا الرجوع إلى القاهرة بعد أن تناولنا الكثير من الأطعمة المحفوظة من مخزون الإرساليات الفقيرة.

ساد التوتر أجواء المنزل، وكنت أغذي هذا التوتر بسلوكي المتمرد. بالرغم من أني قد نضجت، وبالرغم من أنني كنت أدرك أنه يجب عليَّ أن أتصرف بشكل لائق،

فقد كنت أنفس عن كل الإحباطات التي مررت بها في أثناء سنوات دراستي بالسويد، والتي كنت أشعر فيها بوحدة شديدة.

قال لي والدي بعد أن أتيت متأخرة مرة أخرى: «هذا ليس فندقًا كما تعلمين».

- لقد كبرت بما فيه الكفاية، ويمكنني أن أرجع إلى المنزل في أي وقت يحلو لي.

- إذا كنتِ قد نضجت لهذا الحد فلتظهري لنا كيف تستطيعين تدبير شئونك بمفردك.

- سأفعل هذا.

- عظيم.

أخيرًا اتفقت مع والدي أن أكون مستقلة، وأن أغادر المنزل، إلا أن هذا لم يكن شيئًا سهلًا في مصر لامرأة صغيرة السن، وقد أدركت هذا متأخرًا.

سألت أرمين: «كيف أستأجر شقة في القاهرة؟ هل هناك إعلانات للشقق في الصحف؟»

قال أرمين، وهو يرتدي الچاكت، ويحكم وضع الحزام فوق بنطلونه الچينز : «لا، عليك أن تسألي البواب، سآتي معك».

أخذنا جولة في الزمالك. سأل أرمين جميع البوابين تقريبًا. بدا الأمر مستحيلاً.

" الشقق غالية الثمن. لا يمكنني تدبير المبلغ نظرًا لدخلي المحدود».

كنت بدأت أفقد الأمل، والثقة، حتى عثرنا في النهاية على شقة بسعر معقول.

كانت الشقة في الدور الأول في مبنى قديم في إحدى الزوايا بشرفة ممتدة. امتلأ المكان بالأتربة حتى إنه كان من الصعب الجلوس. تميز المبنى بمدخله المرمري. لا بد

أنه كان جميلًا يومًا ما، أما الآن فلقد بدا متسخًا في حالة بائسة، حيث انزوت كل الألوان التي تم طلاء الحائط، والطوابق بها.

قلت فجأة، وأنا أفكر في جدَّي طورشتين، وهيلدا: «لا بد أن هذه العمارة كانت فاخرة جدًّا وقت عاشت هيلدا في مصر».

صعدنا إلى الطابق الأول، وفتحنا الباب الخشبي الذي غطته الأتربة. كانت الشقة مكونة من غرفة نوم واحدة، وغرفة مكتب، وغرفة معيشة صغيرة، توجد بها

منضدة خشبية كبيرة تصلح للمذاكرة، ومطبخ صغير، لكنه يفي بالغرض، فأنا لا أقضي كثيرًا من الوقت بالمطبخ.

قال مالك الشقة وهو ينظر إلى أرمين: «فلنجلس

لنتحدث».

قلت له: «أنا التي ستستأجر الشقة».

سأل بدهشة: «أنت؟ بمفردك؟! مستحيل!»

قلت في قرارة نفسي، وأنا على وشك البكاء بسبب تلك النعرة الذكورية: «ماذا سأفعل الآن؟!»

الفصل السادس عشر

الحياة مع العشيرة

أقر أرمين حقيقة ثابتة: «في مصر، إما أن تعيشي مع عائلتك، أو تتزوجي».

سألته، وأنا أشعر بالفخ الذي وقعت فيه: «لا يمكن لامرأة إذن أن تعيش بمفردها!»

قال: «لا يمكن، إلا إذا أردت أن يعتقد الناس أنك عاهرة».

شعرت بالحيرة بعد أن حذرني أرمين: « ماذا سأفعل؟»

قال أرمين، وقد عاش هو نفسه لفترة في لندن: «أنت لست في أوربا».

تجرأت أن أعرض عليه ما أفكر فيه: «أعتقد أن الحل الوحيد هو أن تنتقل للعيش معي، ونتظاهر أننا زوجان».

بدا لي أن أرمين يفكر في العرض حيث قال: «هذا محتمل».

كان أرمين يعيش مع والديه مثله مثل غالبية الشباب المصري، ولكنه لم يكن راغبًا في البقاء معهم على ما يبدو.

تجرأت، وأخبرته: «سأدفع إيجار الشقة».

قال أرمين بسرعة: «حسنًا».

ماذا لو كان من النوع الذي يستحيل العيش معه؟ فكرت كثيرًا، لكني لم يكن أمامي خيار آخر. قررت أن أخوض التجربة، وكنت مدركة في قرارة نفسي أن هذا

ليس سببًا وجيهًا للحياة مع رجل في مسكن جديد. كوني امرأة تعيش في مصر كان أمرًا شديد التعقيد على الرغم من أني أجنبية.

أخبرت والديَّ: «سأنتقل للعيش مع أرمين».

قالت والدتي معبرة عن قلقها: «أليس الوقت مبكرًا بعض الشيء على مثل هذه الخطوة؟ أنت بالكاد تعرفينه!»

شرحت لها الموقف، ولم تستطع أن تأتي بحل أفضل مما أتيت به.

قلت لها: «ليس هناك خيار آخر».

تنهد والدي، ولكنه لم يعترض. كانت علاقة والدي بوالدتي متوترة، وكنت أتمنى أن مغادرتي للمنزل، ووجودهما معًا بمفردهما دون أن يتسبب أحد في إثارة

القلق قد يساعدهما على حل مشكلاتهما.

قلت لوالديَّ: «هذا المنزل مسكون».

لقد سمعت عن قصة صاحبة القصر التي قتلها أحد الخدم. بُنيت السفارة على نفس الأرض التي تواجد فيها قصر هذه السيدة.

علق والدي: «أنت تعيشين في عالم الخيال».

كنت أشعر بشيء غير مريح في حوائط المنزل، وقد يكون الأمر برمته مرتبط بحساسيتي.

وهكذا انتقلت من حياتي المريحة في المقر السكني

للسفارة للحياة مع صديق بالكاد أعرفه. لم يكن قطي سعيدًا في مقر سكني الجديد، وكان دائمًا يرمقني بنظرة

تعكس بؤسه، فهو حبيس الشقة الآن بعد أن كان ينعم بالحديقة في مقر السفارة. كان يوجد بعض الأثاث في الشقة، ما سهل علينا الأمر. سرعان ما ظهرت

مشكلة جديدة، حيث وجدت ذراعي مُغطاة باللون الأحمر من أثر لدغة ما.

سألت أرمين، وأنا أريه ذراعي: «ما هذا؟»

رفع أرمين إحدى زوايا السجاد الثقيل الذي غطى الأرضية المصنوعة من الخشب، وقال: «انظري، هناك ملايين من الحشرات في هذه السجاجيد».

قلت: «يجب أن نتخلص من هذه السجاجيد في الحال».

تخلصنا من كل الأثاث الذي به أقمشة تحتوي على حشرات، وقمت بشراء كريم من الصيدلية للتخلص من الآثار التي تركتها لدغة الحشرات على جسدي.

قلت لوالدتي عندما أتت لزيارتي: «لا يوجد لدينا أي شيء لنجلس عليه».

قالت: «لا تقلقي، سأعطيك أثاث الردهة القديم، فهو من البامبو، وسيناسب المكان هنا».

بدا الأثاث الذي أعطته لي والدتي رائعًا. كان مكونًا من أربعة مقاعد، وأريكة، يغطيها جميعًا قماش السجاجيد البدوية المبهجة رخيصة الثمن.

احتفظنا بالسرير الكبير الخاص بمالك الشقة، ومنضدة الطعام، والمنضدة الصغيرة الخاصة بغرفة المعيشة. لم يكن بيتًا سيئًا. كلانا أقر بذلك.

قلت ضاحكة: «لن أستطيع أبدًا الطهي باستخدام هذا الموقد البدائي».

استطعت في النهاية شواء دجاجة في الفرن على الرغم من أن الطهي، وقضاء الوقت بالمطبخ لم يكن يتماشى معي، ومع أسلوب حياتي. كان هناك مخبز قريب منا

نشتري منه الخبز المصري. لم نكن نقضي كثيرًا من الوقت في الشقة. أرمين كان يقضي كثيرًا من الوقت في عمله، أما أنا فكان وقتي موزعًا بين دراستي بالجامعة

الأمريكية، وجولات الإرشاد السياحي.

في أحد الأوقات قمت بإعداد وجبة شهية لنا، وجلسنا لنأكل في هدوء، وإذا بجرس الباب يدق.

قال عادل، بعد أن دخل مع أربعة من أصدقاء أرمين: «مرحبًا».

سأل أحد الشباب: «أتتناولون الطعام؟»

أجبته، وأنا في حيرة من أمري: «نعم، ألديك مانع؟»

قال عادل، وقد بدأ يتناول بعضًا من الطعام بلا استئذان: «يبدو طعامًا شهيًّا، رائحته تنم عن ذلك».

ضحك أرمين كعادته. جلس الجميع في غرفة المعيشة بينما ذهب أحمد، أحد الشباب، لإحضار البيرة المثلجة.

صاح أحمد من المطبخ: «أرمين، هل تريد بيرة؟»

رد أرمين: «نعم. لمَ لا؟»

لم يسألني أحد أو يستأذنني وكأنني غير موجودة. أنا أعيش هنا، وأنا التي تقوم بدفع الإيجار. فكرت في كل

هذا، ولكنني لم أجرؤ على قول أي شيء. بدأ الجميع في لعب الطاولة بعد ذلك، وراهنوا على نقود أرمين التي اقترضها مني لأنه كان مفلسًا. بعد منتصف الليل قبلني أرمين، وانطلق مع أصحابه تاركين لي مهمة تنظيف المكان.

قلت بصوت مرتفع لحوائط المنزل: «لن أقبل هذا».

اخترت بعض الملابس الأنيقة، ووضعتها في حقيبة، وأسرعت وأنا أستشيط غضبًا إلى الطابق العلوي، حيث تسكن دچون، جارتي الأمريكية. كنت أعلم أن زوجها قد سافر هذا الأسبوع. ضغطت على جرس الباب أكثر من مرة. كنت أسمع صوت المذياع المرتفع. أخيرًا فتحت لي دچون التي كانت امرأة شقراء ممشوقة القوام.

نفذت إلى أنفي رائحة كريم المساء الذي وضعته دچون وأنا أحتضنها. كانت ترتدي فستانًا من الشيفون يكشف عن نهديها، وشبشبًا له كعب منخفض.

قلت لها: «إني آسفة. أعلم أن الوقت متأخر».

قالت دچون وهي تتفحصني بعينيها الزرقاوين كمياه البحر: «لا عليك عزيزتي. تعلمين أني لا أنام مبكرًا».

بمجرد أن دخلت، وجلست، وبدأت في احتساء الشاي انفجرت باكية. لم أستطع التحكم في بكائي. كنت أشعر بالإحباط، والغضب، والحزن.

سألتني دچون بصوتها الناعم، وقد وضعت ذراعها حولي: «أخبريني ماذا حدث؟»

أخيرًا قلت لها: «يبدو الأمر وكأنني أحيا مع قبيلة بأكملها».

قالت: «عزيزتي، هكذا تسير الأمور هنا. هذا لا يعني أنه لا يحبك».

كنت أعلم أن الزواج بمصر أشبه بالزواج من عشيرة بأكملها إلا أنني لم أجرب هذا في حياتي قط. كانت صديقاتي يشعرن بالسعادة عندما ينطلق رجالهن مع

الأصدقاء، حيث كن يمارسن حريتهن، ويتجمعن مع بعضهن البعض، تمامًا كتجمعات الشباب، والرجال. كان لصديقاتي قوة داخلية لا أتمتع بها. كنت أغبط

هذه القوة التي يتمتعن بها. لم تكن القوانين في صالح النساء رغم جهود السيدة چيهان لتحسين أوضاع النساء.

قالت دچون: «هم فقط لا يمتلكون مفهوم خصوصية أن يكونوا معًا كرجل، وامرأة مثلنا».

قلت وقد بدأت أبكي مرة أخرى: «لكن ألا يريدون أن يكونوا مع بعضهم البعض دون وجود آخرين؟ هذا شيء غير رومانسي على الإطلاق».

- ربما، لكن ألا تعتقدين أننا نطلب الكثير من شريكنا في الحياة؟

- ما الذي تعنينه؟

- نحن نريد من شريكنا في الحياة أن يكون محبًّا، وأن يكون صديقًا جيدًا، وأن يكون مستودع أسرارنا، كل ذلك في آنٍ واحد. أليس هذا بكثير؟

- لا، أليس هذا هو الحب؟ كيف يتركني هكذا، ويذهب مع أصدقائه الأغبياء؟

شعرت أن كبريائي قد جُرحت. لم أدرِ حينها ماذا أفعل. كان من الصعب أن أقاوم ثقافة بأكملِها تختلف كل

الاختلاف عن ثقافتي.

سألت دچون: «هل يمكن أن أمكث هنا بعض الوقت؟ يمكنني أن أستلقي على الأريكة إن أمكن».

رحبت: «بالطبع عزيزتي، يمكنك البقاء هنا كما تشائين».

قمت بضبط المنبه ليوقظني في الرابعة صباحًا. استيقظت ببطء. توجهت إلى الحمام الذي امتلأ برائحة عطر دچون باهظ الثمن. غسلت وجهي بالماء. كنت أبدو شاحبة جدًّا. وجدت بعض مساحيق التجميل في حمام دچون، أحمر شفاه، وغيره. حاولت أن أستجمع قواي التي خانتني هذه الليلة.

قمت بارتداء ثوبي الأنيق الذي أحضرته معي في الحقيبة، والصندل ذي الكعب المرتفع، وذهبت إلى شقتي.

سألني أرمين، وقد بدا عليه القلق: «أين كنت؟»

قلت: «كنت مع بعض الأصدقاء. ماذا عنك؟ هل استمتعت بوقتك؟»

كان أرمين مندهشًا لدرجة أنه لم ينطق بكلمة واحدة. ذهبت إلى النوم بعد أن أحرزت بعض النقاط في هذه الليلة إلا أن الأمر برمته قد انعكس على صحتي، فلقد فقدت شهيتي حتى إنه كان من الصعب عليَّ بلع الطعام.

شعرت بالضياع. مَن الذي يمكنه مساعدتي؟ كانت جولات الإرشاد السياحي تشكل عبئًا عليَّ خاصةً في ظل التوتر الذي أعاني منه. أوشك صبري على النفاد مع السائحين. بالرغم من كل هذا، كان عليَّ أن أجني بعض المال للوفاء بمسئولياتي خاصةً إيجار الشقة الذي أقوم

بسداده.

كنت أتردد بانتظام على دروس الرقص التي تديرها مدربة الرقص المصرية الإنجليزية إنچي سوهل. أحرزت تقدمًا ملحوظًا في دروس الرقص التي كنت أتلقاها

يوميًّا. كنت أفكر فقط في خطوة الرقص القادمة في أثناء التدريبات ما ساعدني على عدم التشتت، وعدم التفكير في المشكلات الأخرى. في أحد الأيام تلقيت عرضًا

مغريًا من إنچي، ولم أستطع مقاومته.

قالت إنچي: «العمل هنا في توسع دائم، ولم أعد قادرة على تدبر الأمور وحدي. فلتعملي معي».

قلت بدون تردد: «أود هذا».

كنت مستعدة لتغيير حياتي. كان العمل كمدربة للرقص مليئًا بالمغامرات، أكثر من عملي كمرشدة. كانت هناك دائمًا مفاجآت، وأحداث. كنت سعيدة أن كل يوم

يمر أتعلم فيه شيئًا جديدًا.

قابلت مديري، وصديقي لارس، وأطلعته على الموقف.

قال لارس: «لماذا؟ لقد كنت ماهرة حقًّا في عملك».

قلت: «أشكرك، لكن هناك الكثير من الأشياء التي تشغلني الآن، ولا أستطيع التركيز في عمل ذي طابع ثقافي مثل الإرشاد، كما أنه لم يعد باستطاعتي أن أكون

لطيفة مع سائحين تركوا عقولهم في موطنهم قبل زيارة مصر».

قال لارس وهو يضحك: «ولكني سأفتقدك».

قلت، وأنا أشعر بارتياح كونه قد تقبل الأمور بشكل جيد: «سنظل أصدقاء على أية حال».

كانت إنچي أول سيدة تفتتح مكانًا للرقص الحديث، والتمرينات الرياضية في مصر. كانت فنانة موهوبة، عملت بعد ذلك على صعيد دولي، كما مثلت أفلامًا

شهيرة مع المخرج السينمائي المعروف يوسف شاهين. استأجرت إنچي في البداية مكانًا به نوافذ ضخمة، إلا أن الأمر لم يفلح.

سألت إحدى السيدات في فصل الرقص: «لماذا يحدق فينا هؤلاء الرجال».

قلت لها، وأنا أغلق النوافذ في وجه الرجال الذين كانوا ينظرون إلى أجسادنا شبه العارية: «إنهم لم يعتادوا على رؤية النساء يرقصن بملابس ضيقة».

كان الطقس حارًّا، وخانقًا، وكانت مكيفات الهواء شيئًا نادرًا في القاهرة، حيث كانت تُعد دربًا من دروب الرفاهية. أصبح الطقس لا يُطاق في ظل النوافذ المغلقة.

اضطرت إنچي في النهاية لاستئجار مكان آخر في طابق علوي لا تواجهه أبنية أخرى. كنا نمارس التمرينات، والرقص والنوافذ مفتوحة.

أصبح مركز الرقص واحة بالنسبة لي، عالمًا آخر، به أصدقاء جدد، ومسئوليات جديدة، ووظيفة جديدة. كنت أستذكر دروسي، وأرقص على موسيقى الجاز

الحديثة، كما كنت أدرب النساء، والمراهقين، والأطفال على الرقص. أحببت عملي حقًّا.

سألتني والدتي: «هل يجب أن تذاكري دروسك،

وساقاك مفتوحتان هكذا؟»

قلت: «نعم، لكي أتمرن استعدادًا للعرض القادم».

كنا ننظم عروضًا في نهاية العام بمدرسة الرقص. كان العرض يحوي الكثير من المتعة، والترفيه رغم العمل الشاق الذي يسبقه.

قلت لوالدتي: «يمكنني أن أجرب كيفية تدريس الرقص لنساء في منتصف العمر من خلالك».

وهكذا أصبحت والدتي تمارس التمارين على أرض غرفة المعيشة بمقر السكن بالسفارة.

الاحتفاظ باللياقة كان أمرًا غاية في الأهمية للنساء في مصر، فالزوجة تعلم أن زوجها يستطيع تطليقها بقوله: " أنت طالق«ثلاث مرات، وهناك المصير الأكثر سوءًا،

وهو أن يتزوج الرجل من امرأة أصغر سنًّا، إلا أن هذا السيناريو لم يكن شائعًا في الأوساط الثقافية التي أعرفها.

سألت آمال، وهي امرأة في منتصف العمر: «لماذا ترتدين كل هذه الملابس؟»

- حتى أتصبب عرقًا.

- لكن الطقس هنا حار جدًّا.

أجابتني، وقد بدا عليها القلق: «أود أن أفقد وزني بسرعة».

عرفت بعد ذلك عن شكوكها في أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى.

قلت لنفسي: «إنه أمر ليس سهلًا»، إلا أني غيرت رأيي عندما عرفت أنها هي نفسها على علاقة بشخص آخر.

تلاحقت الأحداث سريعًا بعد ذلك.

قال لي أرمين ذات يوم: «لقد تلقيت عرضًا للعمل بمرتب مجزٍ حقًّا».

سألته: «أين هذه الوظيفة؟»

قال: «في فرنسا».

سألته وساقي لا تقوى على حملي: «هل ستقبل هذه الوظيفة؟»

قال لي أرمين، وهو يتحاشى النظر إليَّ: «أفكر في الأمر، فالعثور على وظيفة هنا ليس بالأمر السهل».

ذهب أرمين بعدها لمقابلة أصدقائه بينما جلست وحدي أفكر: «ماذا عني؟ هل سيوافق مالك الشقة على بقائي إذا كنت سأظل بمفردي؟»

كنت حينها في منتصف الامتحانات التحريرية، وكان عليَّ أن أعمل بجد. وضعت الآلة الكاتبة على منضدة غرفة المعيشة، والأوراق، والكربون، وبدأت الكتابة إلا

أنني لم أستطع التركيز بسبب خبر وظيفة أرمين. وجدت العديد من الأخطاء الكتابية في انتظاري أثناء مراجعتي لما أنجزته.

وضعت بعضًا من اللصق الأبيض على الأوراق لتفوح رائحته التي تشبه البنزين. تذكرت طارق، وكيف كنا نستذكر دروسنا معًا، الأمر الذي أفتقده مع أرمين، إلا أن

أرمين ليس مسيطرًا، ومحبًّا للتملك كطارق. لكل منهما خصائصه، لكن الاثنين ينتميان لثقافة تختلف كل الاختلاف عن ثقافتي. كنت أعلم أنه يجب عليَّ أنا

الأجنبية التأقلم مع هذه الثقافة.

أفقت من أفكاري على صوت يأتي من الباب الخلفي. ذهبت لأتفقد الأمر، وتبعني قطي سلام . كان سلام أكثر قط متوحش رأيته في حياتي، حتى إنه كان يعضني

بدون سبب في بعض الأحيان. أحضره طارق لي ليصالحني في أول مرة تجادلنا فيها، وانفصلنا. أتى طارق إليَّ في هذا اليوم، ومعه القط الذي خبأه في سترته. كان

سلام حينها صغير جدًّا.

قلت لطارق وقد سامحته على الفور: «يا له من قط جميل!».

دائمًا ما كان يسهل مصالحتي حتى أتت واقعة الصحراء، تجادلنا، وافترقنا بعدها.

فتحت الباب الخلفي بحرص لأرى قطًّا صغيرًا برتقالي اللون. كان القط يبدو جائعًا حقًّا. قدمت له اللبن، ولعقه في ثانية. لم يمكنني تركه حتى يموت، وهكذا

أصبح تانچيرين عضوًا دائمًا بالعائلة. لاحظت أنه يعاني من القروح.

قال لي الطبيب البيطري: «إنه مرض معد».

- هل تعني أن مرضه الجلدي قد ينتقل للإنسان أيضًا؟

- بالطبع يمكن حدوث هذا. القطان بهما قروح. يجب أن تضعي الكريم على هذه القروح، وتعطيهما الأقراص التي سأكتبها لك الآن.

قلت لنفسي: «لا أعتقد أن هذا سيروق لأرمين».

قال أرمين: «إحدى أفكارك النيرة».

قلت، وأنا أحاول أن أرسم البراءة على وجهي بقدر

المستطاع: «كيف كان لي أن أعرف؟ لم تبدُ على القط أعراض المرض».

لم تكن مشكلتي الحقيقية مع القطط، فلقد كان لديَّ الأهم، والأخطر. أراد أرمين السفر إلى فرنسا، وأصبح موقفي مبهمًا. زارني والدي على غير المتوقع في أحد الأيام. قال بمرح: «تبدو عليك الكآبة».

لم أجبه. لم أكن متأكدة من تقبل والدي لفكرة إقامتي مع أرمين، لكني كنت متأكدة من رغبته في أن أحصل على درجة الماجستير من ستوكهولم لا من القاهرة.

قال: «لديَّ خبر سيدخل السرور إلى قلبك. سآخذك معي إلى قبرص».

تم تفويض والدي للذهاب إلى قبرص والسودان ومصر.

أضاف والدي: « أعتقد أن كلًّا من لويز، ولارس كريستير سينضمان إلينا، فوالدهما بچورلين هو الملازم لمبعوث السلام للأمم المتحدة».

سألته: «عظيم. ماذا عن والدتي؟»

أجابني والدي بعد فترة صمت طويلة: «ستبقى هنا هذه المرة».

بدا الأمر غريبًا بالنسبة لي، ولكني لم أسأله، فلقد أردت أن أبدو بمظهر الابنة المطيعة، كما أني لم أرد إثارة أي خلاف. سافرنا إلى قبرص التي لم أزرها من قبل.

شعرت بنفس الإحساس الذي دائمًا يراودني وأنا مقدمة على اكتشاف مكان جديد. هبطنا في نيقوسيا العاصمة، التي كانت مقسمة إلى جزءين: جزء تركي، وجزء

يوناني: الجانب الشرقي، والجانب الغربي، ثقافتان تحيا

كل منهما بجانب الأخرى.

قلت عند وصولي للجزء اليوناني: «المكان هنا أشبه بأوربا».

قال والدي: «انتظري حتى نذهب إلى الجزء التركي».

استطعنا العثور على غرفتين في فندق نظيف مهجور.

سألت والدي حيث كنت معتادة على زحام القاهرة: «أين الجميع؟! »

قال: «هذه مدينة صغيرة، كما أن هذا ليس موسم السياح».

تناولنا وجبة سمك شهية على العشاء في مطعم نظيف. بعد العشاء، طلبت قهوة تركي كما كنت معتادة أن أفعل في مصر.

أجابني الجرسون: «لا يوجد لدينا مثل هذا الشيء. لدينا قهوة يوناني فقط».

همست لوالدي: «لا بد أني قد أخطأت ».

قال والدي: «هذا المكان مثال جيد للجيرة التي يشوبها الخلاف، والعداء».

قلت: « شيء سخيف أن يحدث هذا في نفس المدينة».

ذهبنا في اليوم التالي إلى الجزء التركي. كان هناك نقطة تفتيش لمراجعة جواز السفر. وجدت نفسي فجأة في الجانب الشرقي.

قلت: «رائع».

قال والدي: «انتظري حتى تري البازار».

شعرت أني في القاهرة مرة أخرى. أعداد كبيرة من الناس في مكان صغير، ومحلات صغيرة اصطفت بجانب

بعضها البعض تبيع كل شيء بدءًا من الأقمشة، والملابس، وحتى العطور، والمجوهرات رخيصة الثمن.

فكرت في المشاكل التي يعاني منها هذا المكان من خلاف، وتمزق، ونسيت مشاكلي الخاصة، وقلقي».

قال والدي: «فلتفكري في كل تلك العائلات المنقسمة في تلك الجزيرة الصغيرة».

أجبته: «نعم. السياسيون أبعد ما يكونون عن معاناة الناس».

انتقلنا إلى قاعدة الأمم المتحدة. أخذتنا طائرة هليكوبتر صغيرة إلى قوات الأمم المتحدة السويدية، حيث ذهب والدي للتفتيش.

سمعت صوت لويز، أخت لارس، عند هبوطنا وهي تقول: «مرحبًا».

قال لارس: «إنهم يعدون لإقامة حفلة الليلة».

لم يتسنَّ لي الترحيب برجال الأمم المتحدة، حيث أخذني لارس وأخته في الحال إلى خيمتنا.

قالت لويز وهي تتفحص حقيبتي بحماس: «فلنغير ملابسنا».

قلت: «لدي ثوب واحد فقط، ما يسهل الأمر».

جلسنا نحن الثلاثة على سريرنا نتجاذب أطراف الحديث، والنميمة. لم أذكر شيئًا عن مشكلاتي إلا أنها كانت تحيا في عقلي.

قالت لويز بثقة: «أعتقد أنني سأتزوج من سعد».

سألتها: «ماذا تقولين؟ أهذا حقيقي؟! هل ترغبين بالحياة في مصر؟ »

قالت لويز ولم تكن واثقة من الفكرة برمتها وفقًا لما بدا لي: «لا أدري، لكن سعد يريد العمل في أوربا».

فكرت كثيرًا، وأنا أسمع لويز: " إنه شاب لطيف، ومن عائلة جيدة، لكن الزواج به..»

لم أخبر لويز بمشاعري حيال زواجها، وحيال النعرة الذكورية التي استشعرتها في أرمين، وأصدقائه، الأمر الذي جعلني أفكر إن كانت مصر مكانًا جيدًا لامرأة غربية.

قالت لويز، وهي سعيدة بتركيزها على اللحظة الحالية التي تعيشها: «لكننا سنرقص اليوم مع أكثر الضباط وسامة».

ضحكت، وأنا أفكر في وجه أرمين إذا عرف. كان عدد الفتيات قليلًا. رقصنا حتى صارت أقدامنا لا تقوى على حملنا. كان هناك نظام صارم، فإذا أفرط أحد الرجال في شرب الخمور كان يُستبعد من الرقص ليحل محله شخص آخر أكثر رزانة، ووقارًا. عدت إلى سريري عند مطلع الشمس، وأنا منهكة القوى.

سمعت صوتًا يوقظني من النوم: «استيقظي،«وتوجهت إلى النافذة لأرى الصحراء مترامية الأطراف.

قال أحد الضباط برتبة عقيد: «أنت مدعوة لتجربي سيارتنا الچيب الجديدة التي يمكنها الصعود إلى أعلى، والهبوط إلى أسفل تلال الرمل».

ركبنا السيارة الچيب، وذهبنا في جولة بالصحراء. بعد فترة من المعاناة، وعدم الارتياح بسبب حرارة الجو، استطعت أن أميز منضدة موضوعة في وسط الصحراء، ومغطاة بمفرش أبيض، وكأنني أعاني من الهلوسة.

جاء جندي مرتديًا زي الجرسون، والقفاز الأبيض، وقدم لي كأسًا من الشمبانيا.

سألتهم: «ما هذا الكوخ الموجود أعلى التل؟»

- إنها الساونا. هل تريدين الذهاب؟

- ساونا؟

شرح لي أحد الجنود السويديين: «لقد بناها الفنلنديون، فقد كانوا هنا قبلنا».

الفنلنديون يقدرون الساونا أكثر من السويديين. كثيرًا ما وقع رجال الدولة بفنلندا اتفاقيات لصالحهم مع نظرائهم الروس من خلال إجبارهم على التفاوض في ظل

حرارة، ورطوبة الساونا.

تغير مسار حياتي تمامًا عند رجوعي إلى القاهرة.

قالت والدتي وهي في حالة يُرثى لها: «سيرحل والدك إلى تايلاند من أجل المنصب الجديد».

قلت لها، وأنا أفكر في نفسي فقط: «لكنني لم أكمل دراسة الماچستير بعد!»

قالت وقد امتلأت عيناها بالدموع: «لن أذهب معه».

أدركت حينها أن الموقف لم يتحسن رغم تركي المنزل، وإعطائهما فرصة ليكونا معًا بمفردهما بعيدًا عن أي توتر. كان الطلاق حتميًّا.

سألتها وأنا أفكر في صعوبة التأقلم على الحياة هنا وحدي خاصةً أن أرمين يفكر في الرحيل: «أين ستعيشين إذن؟»

- سأحصل على شقة هنا.

- لن تذهبي إلى ستوكهولم إذن.

- لا، ليس الآن.

لم يستمر شعوري بالراحة لكون والدتي ستكون معي، حيث سرعان ما بدأت التفكير في انفصال والديَّ، والمرسى الذي أبحث دائمًا عنه. أدركت حينها أنه لا يوجد

بلد بعينه أستطيع أن أطلق عليه موطني، وبيتي. شعرت بالتمزق، وعانيت من فقدان الهوية.

سألتها: «لكن ما الذي ستفعلينه الآن؟»

أجابت باقتضاب: «سأبحث عن وظيفة».

قلت: «يا إلهي، لقد مر زمن منذ آخر مرة كنت تعملين فيها!»

- نعم!

قالت والدتي، وذهبت. رأيت جسدها النحيل يختفي في أروقة مقر السكن بالسفارة لآخر مرة.

حاولت أن أركز في عملي. كنت أتناول قليلًا من الطعام، وأنام لساعات قليلة، بينما أذاكر دروسي بجد، وأرقص بضع ساعات كل يوم. أصبحت أعاني من الأمراض

السيكوسوماتية (النفس جسمية) التي لا يستطيع أي مضاد حيوي القضاء عليها.

قال لي فرانكو، صديقي الإيطالي: «تبدين في حالة متدهورة».

- ماذا تعني؟

- تبدين مثل خيال المآتة، ألا تأكلين جيدًا؟

كذبت عليه وقلت: «نعم، أتناول قسطًا جيدًا من الطعام».

دعاني فرانكو لتناول العشاء: «فلتأتي لتناول العشاء معي. ستطهو لكِ والدتي وجبة إيطالية».

كانت هذه هي المرة الأولى منذ شهور التي أنظر فيها مليًّا إلى نفسي في المرآة. رأيت وجهي النحيف، والهالات السوداء تحت عيني، وصدري الذي اختفى من شدة

النحافة.

قلت لنفسي، وقد أدركت أنه يجب أن يزيد وزني بعض الشيء، وأن أستعيد صحتي رويدًا رويدًا: «أبدو بشعة!»

قال أرمين وقد بدا متألقًا، وبراقًا: «لقد حصلت على الوظيفة».

سألته: «هل فكرت في علاقتنا؟»

بدا مرتبكًا لوهلة، ثم أخذني بين ذراعيه. لم ينطق أحد منا بكلمة. لقد مر عام واحد فقط على استئجار الشقة. لم تكن عندي أية فكرة عما سيحل بنا، وبعلاقتنا،

ولكنني كنت أدرك أن مرحلة جديدة غير محددة الملامح في حياتي العاصفة قد بدأت بالفعل.

الفصل السابع عشر

العودة إلى مربع واحد

استأجرت والدتي شقة بالدقي، بالقرب من الزمالك، حيث يقع مقر السفارة السويدية، وعلى مقربة من الشيراتون. اكتشفت بعد ذلك قرب شقة والدتي من الجامعة الأمريكية أيضًا.

قالت والدتي بحزن: «الشقة قريبًا حقًّا من بيت أجدادك».

قلت: «إذن لقد عدت إلى قواعدك».

قالت والدتي بعين حالمة: «كانت المنطقة مليئة بالأشجار في الماضي، ولم تكن هناك منازل محيطة بنا».

ثم أضافت: «لن تستطيعي تخيل ما كان الأمر عليه هنا. فلتأتِ معي، سأريك بيت أجدادك».

سرنا بالقرب من قصر عتيق مزين بالنقوش الإسلامية. كان هذا القصر ملكًا لأجداد آمال، صديقتي التي تعرفت عليها في مدرسة الرقص. استدرنا شمالًا، ومررنا

ببضعة مبانٍ حتى وصلنا إلى فيلا الأسعف. كان بيت أجدادي بحالة جيدة. توقفنا عند بوابة الفيلا، وحاولنا الوقوف على أطراف أصابعنا حتى نرى حديقة الفيلا.

قالت والدتي: «تبدو الحديقة أصغر مما كانت عليه على ما أذكر».

سألتها: «ماذا عن هذه الشجرة؟ هل كانت موجودة آنذاك؟»

قالت: «لقد زرعها جدك. تُرى ماذا سيقول أصحاب المنزل إذا رأونا الآن؟»

تنهدت والدتي، وذهبت بذكرياتها بعيدًا إلى مكان لا يدركه أحد سواها.

قلت: «ماما، هناك شيء أريد أن أسألك عنه».

استشعرت والدتي أن هناك شيئًا ما يحدث في حياتي، وعضت على شفتيها إعرابًا عن قلقها.

- لقد حصل أرمين على وظيفة في فرنسا.

- سيرحل إذن. هل سترحلين معه؟

- لا، لا بد أن أكمل دراسة الماچستير.

استشعرت إحساس والدتي بالراحة عند علمها ببقائي حتى إنها تنفست الصعداء.

أقرت والدتي كحقيقة ثابتة: «إذن ستبقين هنا».

«لن أتمكن من البقاء في شقتي أكثر من ذلك. هل يمكنني الانتقال إلى شقتك للإقامة معكِ؟»

لم أكن متأكدة من رد فعل والدتي عندما سألتها.

قالت والدتي وقد أحاطتني بذراعيها: «بالطبع يمكنك. سيسعدني بقاؤك معي».

شعرت، وكأن حجرًا ثقيلًا قد رُفع من على صدري. الآن يمكنني الإقامة مع والدتي حتى أفكر فيما سأفعله في حياتي.

«أشكرك ماما. أعدك أن أكون حسنة السلوك».

نظرت والدتي لي، ورفعت حاجبها إشارة إلى عدم تصديقها حرفًا واحدًا مما قلت.

هكذا رحل الرجال من حياتنا: أرمين، ووالدي. انتقلت إلى شقة والدتي، ووضعت الأثاث البسيط الذي أمتلكه في شرفة شقتها . بدا الأثاث مناسبًا حقًّا للشرفة

خاصة في ظل وجود الزرع، والنباتات، أما القطة، فقد أعطيتها للأميرة سميحة، حيث توجد في قصرها حديقة. كان عليَّ أنا ووالدتي أن نعمل بجد. كنا بالكاد

نتواجد بالمنزل. كنت أعلم أنه ليس من السهل على والدتي أن تنتقل من وضعها الأول كزوجة سفير إلى امرأة مطلقة في بلد يحدد فيه الرجال وضع المرأة، ومكانتها. لم يكن الطلاق شائعًا في هذا الوقت بمصر.

بدأت والدتي بالعمل في متجر أثاث راقٍ: « روشيه

بوبواه»، كانت مسئولة عن الحسابات، هذا فضلًا عن تمثيلها الجيد للمحل، فلقد كانت وجهة مشرفة حقًّا للمحل، كونها امرأة غربية أنيقة.

قال صاحب المتجر لوالدتي: «لا داعي لأن يعلم أحد شيئًا عن الماضي».

قالت والدتي، وقد فهمت أنه يجب عليها ألا تفصح لأحد من زبائنها عن حالتها الاجتماعية كامرأة مطلقة: «فهمت».

كانت والدتي تأتي المنزل في وقت متأخر من المساء بعد انتهاء عملها.

قالت لي والدتي وهي تفتح الباب: «لقد ذهبت إلى الشيراتون».

قلت: «مرة أخرى».

لم تكن والدتي محبة لطهي الطعام، فكانت تذهب إلى الشيراتون لتناول أحد الأطعمة المصرية « كشري » ، وهو مزيج من الأرز، والمكرونة، والعدس، والبصل، مُضاف إليه صلصة حمراء حارة. كانت تلك الوجبة بالنسبة لوالدتي وجبة شهية متكاملة الأركان.

استمرت دراستي، وعملي بمركز الرقص. كنت أعطي مزيدًا من دروس الرقص، وفي نفس الوقت كنت أفكر في موضوع رسالة الماچستير. أردت أن أبحث تطور موسيقى الجاز في الولايات المتحدة الأمريكية بعد التخلص من العبودية. كنت أقضي أشهر الصيف بنيويورك لدراسة كل ما هو متعلق بموضوع البحث الذي أرغب في استكماله، بالإضافة إلى تلقي دروس الرقص.

أحببت مدرسة رقص أل ڤ ين إيلي بشكل خاص، إلا أن المحاضرين لم يبدوا موافقتهم على موضوع بحثي.

قال كيرك چونسون: «يجب أن تختاري موضوعًا آخر للبحث».

اعترضت، لكن دون جدوى: «لكني أردت البحث في هذا الموضوع».

انتهى بي الأمر كباحثة في علم الاجتماع. كان موضوع البحث يدور حول دمج الصم في المجتمع المصري. لم أكن مولعة بهذا الموضوع، إلا أنه كان ذا فائدة كبيرة،

ونفع كما اتضح لي بعد ذلك.

كان هناك مجتمع كبير من الصم في مصر، بسبب نقص تطعيم الحصبة الألمانية، وبسبب عدوى الأذن المصابة التي تُترك بدون علاج.

قالت لي والدتي: «هكذا أُصيب أخوك بالصمم. لم أكن أعلم بخطورة الأمر عندما أُصبت في أثناء الحمل بالمرض الذي تسبب في أن يصبح طورشتين أصم».

- إذن يجب أن أقوم بإخبار الناس في مصر عن هذه المعلومة المهمة».

- نعم، إنها حقًّا فكرة ممتازة. يستطيع طورشتين أن يساعدك أيضًا عندما يأتي.

- متى سيصل؟

- قريبًا. يمكنك البدء الآن مع أستاذك.

تعرفت على الأستاذ ناصر قطبي، عميد كلية الطب بجامعة عين شمس. كنت أفهم لغة الإشارة السويدية للتعامل مع الصم بفضل أخي. أصبحت أتحدث

المصرية بطلاقة إلى حد ما إلا أن لغة الإشارة المصرية المُستخدمة مع الصم كانت مختلفة تمامًا. سألت نفسي، وقد أدركت حجم المهمة التي تنتظرني: «من أين أبدأ؟

»، كان يُنظر إلى الصم في العالم بأسره على أنهم ذوو الثقافة الأدنى. أدركت أن هذا البحث سيجعلني أغوص في شرائح اجتماعية مختلفة عن حياتي السطحية في

فصول الرقص، والجامعة الأمريكية. فتحت عيني لأرى مشاكل الفقراء في مصر. الإصابة بالصمم، ومعاناة الفقر في آن واحد كان بمثابة إعاقة مضاعفة.

سألت أخي: «هل يوجد نادي اجتماعي للصم في القاهرة، كما هو الحال في ستوكهولم؟ »

أشار لي أخي الذي كان يعرف كل شيء عن نادي الصم، والأماكن التي يتردد عليها أقرانه بمجرد ذهابه إلى أية مدينة جديدة: «بالطبع. هناك أيضًا مقهى للصم

وسط البلد».

قلت له مستخدمة الإشارة: «رائع، ولكن لا بد أن تلك الأماكن مخصصة للرجال فقط».

أشار أخي برأسه معلنًا موافقته على ما قلت، وضحك وهو يرى الحيرة في نظراتي.

قررت أن أبدأ بزيارة نادي الصم المصري. ذهبت إلى شارع 26 يوليو بالتاكسي. صعدت السلالم الرخامية في المبنى العتيق، ورأيت لافتة مكتوبًا عليها: « يُصرح

بالدخول للرجال فقط».

يا إلهي، حتى الرجال الصم لديهم هذه النعرة الذكورية! لم أدخل، ورجعت من حيث أتيت.

أخبرت أخي في اليوم التالي: «سأذهب مرة أخرى، ولكن هذه المرة يجب عليك اصطحابي».

لم يرفض أخي مصاحبتي، خاصةً بعد أن رأى بنفسه عنادي. كان من السهل عليه أن يجعل الآخرين يفهمونه، فلقد كان معتادًا على لغة الإشارة. في الغرب،

يستطيع الصم القراءة، والكتابة بعض الشيء، فكان من السهل دائمًا التفاهم بالورقة والقلم، إلا أنني أشك أن يكون الوضع مماثلًا هنا.

سرت خلف أخي، وقد ارتديت ملابس غير ملفتة على الإطلاق، على أمل ألا يلحظني أحد، إلا أنه سرعان ما أحاطني عدد من الرجال بمجرد دخولي، وبدأوا في

استخدام لغة الإشارة. لم يكن هناك آنذاك لغة إشارة رسمية للصم، حيث كان هناك خليط من الإشارات. في خضم هذا، جاء رجل مرتديًا ملابس على الطراز

الأوربى وأشار لي : «اذهبي».

شعرت بالراحة لاستنشاقي الهواء الطلق. على الرغم من البداية غير الموفقة التي حظيت بها فقد استطعت أن أتواصل مع الشخص الأصم أحمد إسماعيل،

وعائلته. حصل أحمد على قسط من التعلم، حيث إنه كان من عائلة ميسورة الحال.

قال أحمد: «هل تعلمين أن أغلب الناس هنا يعتقدون أن الصم بكمٌ أيضًا؟»

- الأمر لا يدهشني على الإطلاق، فالعديد من الناس في الغرب يعتقدون هذا أيضًا.

- الحصول على وظيفة أمر في غاية الصعوبة للصم، حتى إنني أجد صعوبة، رغم أني ذهبت إلى المدرسة،

وحصلت على قسط من التعلم.

شرح لي أحمد كيف أن الصم في العائلات الفقيرة يتم استغلالهم إلى أقصى حد، فهم يخدمون العائلة سواء بالقيام بأعمال التنظيف في المنزل، أو بالعمل في الحقول، والبعض يعيش في عزلة تامة عن المجتمع، فهم منبوذون من المجتمع. شعرت بالرعب من هول ما سمعت. وضح لي أحمد الحاجة الماسة إلى وجود لغة إشارة خاصة بمصر حتى يستطيع الصم الحصول على قسط جيد من التعلم.

أضاف أحمد: «كيف لنا أن نتعلم أي شيء بدون لغة؟!»

كان أحمد محقًّا. استمر عملي في البحث، وأصبحت في حاجة إلى ما هو أكثر فالاعتماد على ما قاله أحمد لا يكفي.

قال لي المشرف على البحث: «يجب أن تذهبي إلى المدارس، وتنسقي بعض المقابلات هناك للحصول على مزيد من المعلومات».

وعدت المشرف بالمحاولة: «لن يكون الأمر سهلًا، لكني أعدك بالمحاولة».

كانت معظم مدارس الصم في مصر في مناطق بعيدة في ضواحي القاهرة مترامية الأطراف.

قلت للمشرف: «لا توجد خرائط، أو أسماء شوارع لهذه المناطق. كيف سأعثر على تلك المدارس؟»

قال المشرف، وأشار لي بيده للخروج من مكتبه: «يجب عليك المحاولة، هذا جزء من عملك. يمكنك الذهاب الآن».

خرجت من المكتب، وأنا محبطة. كان العثور على هذه

المدارس بمثابة مغامرة في حد ذاته. كنت أتوقف باستمرار أثناء القيادة للسؤال عن الاتجاه الصحيح. ذهبت

إلى مناطق لم أكن حتى أعلم بوجودها. مررت بطرق غير نظيفة، ومصانع ضخمة، حيث يسير الناس وهم يرتدون ملابس بالية. أخيرًا وصلت. كان عليَّ أن أبحث

عن شخص ليحرس السيارة حتى لا يتم سرقة أي أجزاء منها.

قلت، وأنا أشير إلى أحد الأطفال: «حسنًا، ستكون أنت المسئول».

كان الطفل الذي اخترته للعناية بالسيارة قويًّا بعض الشيء، وهذا هو المطلوب لهذه المهمة. التف حولي الأطفال أملًا في الحصول على بعض المال.

قلت للصبي الذي بدا عابس الوجه: «ستحصل على البقشيش عندما أعود. أريد السيارة سليمة كما هي، وإلا فلن يكون هناك بقشيش».

ابتسم الطفل، وقد أمسك بعصا مهددًا بقية الأطفال وقال لي: «لا تقلقي».

كان هناك حوالي عشرين طفلًا، جميعهم يرتدون ملابس بالية. شعرت بالأسى لحال هؤلاء الأطفال، وتمنيت أن تكون معي أموالًا كافية لهم جميعًا، ولكني

تعلمت بالخبرة أنه سيكون هناك دائمًا المزيد من الأطفال تمامًا كالأرانب التي تخرج من جحورها.

حاولت أن أصل إلى المدرسة دون أن تتسخ ملابسي. كنت أتمنى أن أقابل المدير. لم يتسنَّ لي الحصول على رقم المدرسة للاتصال بالمدير هاتفيًّا لتحديد موعد

مسبق،

حيث لم يكن هناك دليل تليفونات في القاهرة. قدمت نفسي فور وصولي عند بوابة المدرسة. كان هدفي هو تقييم ما إذا كانت هناك وسائل مساعدة للسمع في

متناول يد التلاميذ، هذا إلى جانب معرفة لغة الإشارة المُستخدمة، أو إذا كان التلاميذ يحاولون قراءة حركة الشفاه لفهم ما يُقال. كان الهدف من البحث هو وضع

لغة إشارة محلية يتم تعميمها في كافة أرجاء مصر، وبالتالي يتم تفادي الإشارات التي يتم تأليفها في المنازل، والتي تختلف بطبيعة الحال من منزل لآخر، حيث

تقوم كل عائلة بخلق الرموز الخاصة بها. وجود لغة إشارة محلية موحدة ستساعد المدرسين على التواصل مع الطلبة.

«أنا باحثة بالجامعة الأمريكية، وأعد بحثًا عن الصم. أريد أن أرى فصل الصم بالمدرسة، كما أريد التحدث مع المدرس من فضلك».

قال رجل ذو شارب ضخم، وهو يصطحبني إلى الفصل: «بكل سرور».

خُيل إليَّ أن هذا الشخص مدرس بالمدرسة، أو شخص مهم، لكني لم أستطع تبين وظيفته، ومنصبه بالمدرسة. قمت بعدِّ التلاميذ فور وصولي إلى الفصل. كان

عددهم حوالي ثلاثين، وهو عدد مرتفع حقًّا. لم ألحظ وجود أية وسائل مساعدة على السمع. كان الأطفال يقرأون حركة شفاه المدرس.

سألت المدرس: «كم عدد الطلبة بالفصل؟»
أجابني في لمح البصر: «خمسة عشر».

يبدو أنه اعتقد أني لا أجيد الحساب مثل طلاب الفصل.

«هل توجد أية وسائل مساعدة على السمع؟»

قال لي مبتسمًا: «نعم، توجد وسائل مساعدة على السمع لكل التلاميذ».

لم ألحظ وجود أية وسائل مساعدة على السمع، لكني لم أشأ أن أكون وقحة، وأواجهه بكذبه. كانت هناك أشياء كثيرة ممنوعة في مصر. المدرسون المساكين

حصلوا على أوامر من جهات عليا لإخفاء حقيقة الوضع. تعجبت وسألت نفسي: « كيف لي أن أكتب بحثًا عن موضوع يتم التعتيم عليه، وعن واقع ظروفه

قاسية؟!»

وجدت سيارتي في حالة ممتازة، بل وتم غسلها أيضًا. أعطيت الأطفال بقشيشًا جيدًا، ومشيت.

كل الأكاذيب التي كانت تُقال للتعتيم على أوضاع الصم، وسوء أحوالهم دفعتني للابتكار، والإبداع ليفوق أدائي في مصر أدائي في المجتمع السويدي ذي البنية

التنظيمية. قررت أن أنظر إلى الجانب الإيجابي برمته، ألا وهو القدرة على الإبداع.

قال لي المشرف لتشجيعي قدر المستطاع:
«ستحرزين تقدمًا في عملك».

بعد انتهاء دروس الرقص، أخذت أوراقي، وذهبت إلى منزل صديقتي سامية لمذاكرة دروسي، وأبحاثي. كانت سامية أكثر تنظيمًا مني، متزوجة، ولديها طفلان

رائعان. اتخذت سامية كمرسى لي وسط بيئة يعصف بها الاضطراب.

قالت سامية وهي تقودني إلى غرفة المكتب التي تصاعدت منها أدخنة السجائر: «تفضلي وابدئي عملك».

جلست، ووضعت أوراقي، وبدأت في احتساء الشاي، وتدخين السجائر، الواحدة تلو الأخرى كعادة معظم الطلبة في أثناء المذاكرة. أتى زوج سامية بعد حوالي

ساعتين.

صرخ علي من المطبخ رغم علمه أننا مستغرقون في البحث، والمذاكرة: «أين أنت؟ أريد كوكاكولا».

توجهت بحزم إلى المطبخ وقلت له: «هذا الدولاب الأبيض المُسمى ثلاجة توجد به كوكاكولا. إذا سحبت المقبض هكذا ستستطيع فتحه بسهولة للحصول على ما

تريد».

قال: «أريد زوجتي».

قلت له غير عابئة بصوته المرتفع: «إنها مشغولة بمذاكرتها الآن. بعد ذلك ستحاول العثور على أداة لفتح الزجاجة، وكوب فارغ».

بعد قليل طلب علي بعض الشاي. أخبرته أن الأمر هذه المرة أكثر تعقيدًا، حيث يجب عليه غلي بعض الماء.

حصلت أنا وسامية على الدبلومة، بينما حصلت سامية على الطلاق، وتزوجت مرة أخرى من رجل سويدي يدرك أن لديها وظائف أخرى في الحياة غير خدمة

زوجها. حصل مجتمع الصم في النهاية على لغة إشارة مكتوبة. أتمنى أن تكون هذه اللغة قد عُممت في مصر

لخدمة مجتمع الصم.

كانت والدتي تواجه مشكلات في عملها في ذلك الوقت. في أحد الأيام أتى اثنان من رجال الشرطة. تم تكبيل المدير، والزج به في أحد سجون مصر المريعة. سمعت

والدتي كثيرًا عن وحشية الشرطة، والتعذيب بالسجون. ارتعشت لمجرد تخيل وجود رئيسها في العمل في إحدى هذه الزنازين البشعة.

قالت شهيرة لوالدتي: «أحضري الدفاتر بسرعة».

- أي دفتر؟

- دفتر الحسابات؟

بينما أخذت شهيرة تراجع الحسابات، أخذت والدتي الدفتر الذي كان مدونًا به كل الأسماء، وبدأت في محو اسمها بحرص. في تلك الأيام، كان القلم الرصاص

يُستخدم في الكتابة، وكان من السهل محو ما كُتب. بعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل، لم يعد هناك أثر لاسم والدتي في أي دفتر. أخذت والدتي معطفها،

ونظرت نظرة أخيرة على مكان عملها، ثم خرجت من الباب بلا عودة.

كنت أجلس بالشرفة، وأحاول جاهدة أن أقرأ صحيفة الإيجيبشن جازيت التي امتلأت بالبقع. كان بائع الجرائد يلقي كل صباح بالجريدة في الشرفة. هذا الصباح

استيقظت والدتي مبكرًا، وروت النباتات، والزهور. استقرت الجريدة فوق الزرع بعد أن ألقاها البائع من الشرفة، وامتلأت بالبقع. كان من السهل قراءة

الإيجيبشن جازت، حيث لم يكن عدد صفحاتها يتجاوز

الست صفحات بما فيها صفحة السينما، وبرامج التلفزيون. كانت هناك دائمًا صور كثيرة للرئيس، وهو يفتتح هذا المكان، أو ذاك إضافة إلى بعض الأخبار العالمية.

قلت في قرارة نفسي، وقد شعرت أني منعزلة عن بقية العالم: «لا بد أن الرقابة تضع الأخبار الدولية تحت الميكروسكوب، وتحد من ظهورها في المجلات والجرائد».

أسرعت والدتي إلى الشرفة لتحكي لي ما حدث دون حتى إلقاء التحية.

قالت والدتي، وهي تمطرني بالكلمات دون أن تتوقف لتلتقط أنفاسها: «وهكذا لم أعد أعمل. فقدت وظيفتي، وقد ينتهي بي الأمر في السجن » .

قلت لها، وقد أخذت بيدها لتجلس على الأريكة: «اهدئي، واجلسي هنا. سأحضر لك مشروبًا ينعشك » .

قلت لمحمد مستخدمة اللغة المصرية المحكية: «يا محمد، أحضر لي الصودا المثلجة من فضلك».

استخدمت « السَّبَت » المربوط بحبل، وأنزلته حتى استقر فوق رأس محمد الذي كان يبيع الأشياء المفيدة مثل الصودا، والسجائر. كنت دائمًا أشك في أن محمد يتجسس علينا. كان هناك العديد من الجواسيس في كل مكان في مصر، وقد حذرني البعض من أن الأجانب في مصر يخضعون لرقابة صارمة، حتى خطاباتي أنا ووالدتي كان يتم فتحها قبل أن تصل إلينا.

سألت مرة حارس العمارة: «هل تحسنت لغتك السويدية؟ »

رد: «ماذا تعنين؟»

قلت له: «لقد تم فتح خطابي مرة أخرى!»

قال لي مبتسمًا، وهو يستخدم الكلمة المعهودة « معلش»: «معلش

يا آنسة آن، إنها إرادة الله».

أدركت حينها أني لم أستطع أن أحصل منه على أية معلومات.

قال لي محمد بعد أن وضع الصودا: «خلاص».

قمت برفع السبت، وصب الصودا في كوب لوالدتي، ثم أشعلت لها سيجارة.

أخبرتني والدتي كيف اكتشفت تزوير مديرها في العمل للإيصالات، دون أن يدفع رشوة كافية لتبعده عن المشكلات.

قلت لها في محاولة لتهدئتها رغم قلقي الشديد: «لكنك بالتأكيد تتمتعين بحصانة دبلوماسية، ثم إنك لم ترتكبي أي خطأ».

تنهدت والدتي، وهي تخلع حذاءها، وتقوم بثني ساقها لتجلس على الأريكة: «سيتضح لنا الأمر في الأيام القادمة، لكني أحتاج الآن إلى مورد رزق».

ابتسمت والدتي، ثم قالت في محاولة لتعزية نفسها: «على أية حال، لقد سئمت بيع الأثاث لزبائن يفتقرون إلى الكياسة، والسلوك اللائق».

بدأت والدتي بعد ذلك التفكير في العمل بمجال الحلي، والمجوهرات. اعتادت والدتي صناعة الحلي باستخدام الأحجار القديمة التي كانت تقوم بشرائها من بازار

قديم، وبدأت في تكوين مجموعتها الخاصة من الحلي.

قالت والداتي، وقد أشرق وجهها فجأة: «سأذهب إلى بازار إسماعيل للتدريب على هذه الصنعة».

نظرت إلى والدتي، وأنا في حيرة من أمري: «امرأة بيضاء البشرة شقراء في البازار!»

قالت: «لم لا، أريد أن أتعلم صناعة القفل المعدني، وتثبيت الأحجار لصناعة الحلي».

لم أرد أن أفسد عليها الأمر، خاصةً في ظل هذه الإيجابية التي تمتعت بها. قمت بهز رأسي دليلًا على موافقتي حتى يتكشف لنا ما ستأتي به هذه الوظيفة الجديدة.

كان من الصعب عليَّ تخيل والدتي، المرأة الشقراء، وهي تجلس مع العاملين في البازار، لكنني كنت أعلم أنها محبوبة من الجميع، كما أن معدل الجريمة في مصر

ضئيل جدًّا، خاصةً فيما يخص الأجانب. لا داعي لقلقي إذن، فنحن حقًّا في حاجة إلى دخل مادي.

تحسنت أوضاع المرأة في مصر، حيث بدأت عائشة راتب، وزيرة الشئون الاجتماعية سلسلة من الإصلاحات منذ عام 1978 . كانت السيدة چيهان السادات هي

المحرك الدافع وراء تلك الإصلاحات. نصت هذه الإصلاحات على ضرورة إبلاغ الزوجة الأولى بنية الزوج الزواج من أخرى، ومن حق الزوجة الأولى طلب الطلاق في

غضون عام من إبلاغها، كما يحق لها الإقامة في منزل الزوجية، والاحتفاظ بالأولاد: الولد حتى سن العاشرة، والفتاة حتى سن الثانية عشرة، ومن الممكن أن يُمد

ذلك حتى يصبح الأولاد في سن الخامسة عشرة، أو حتى زواجهم، كما يحق للزوجة الأولى التعويض المالي. أصبح للمرأة أيضًا حق اللجوء للقضاء ضد ما يُعرف

ببيت الطاعة الذي يعطي الزوج الحق في إجبار زوجته على العودة للمنزل، ومعاشرته. أُطلق على هذه الإصلاحات « إصلاحات چيهان » .

استشاط الأصوليون غضبًا من تلك الإصلاحات. اندلعت المظاهرات في جامعة الأزهر، وتم اتهام السيدة چيهان السادات، وعائشة راتب بالإلحاد، وبالعمل على

تهديد بنية الأسرة. تم التصديق على القانون الذي يعزز هذه الإصلاحات في عام 1979 من قبل الرئيس أنور السادات الذي عزز أيضًا نظام الكوتة لضمان حصول

المرأة على المقاعد في البرلمان.

قالت والدتي: «لقد كانت السيدة چيهان السادات خير عون لنا نحن النساء».

اقترحت على والدتي: «يمكننا أن ننظم معرضًا صغيرًا لبيع منتجاتنا في المنزل، وندعوها للحضور».

قالت: «فكرة ممتازة. دعينا نقم بهذا قبل عيد الميلاد المجيد».

بدأنا في تنظيم معرضنا، ووضع الأسعار على السلع التي قمنا بشرائها من السويد مثل الشموع عالية الجودة، وعلب الكبريت المرسوم عليها، والكريستال

السويدي، والحلي البديعة، وبعض المنتجات المصنوعة يدويًّا، وقد اشتريت العديد من السلع في أثناء زيارتي لوالدي في تايلاند من أجل هذا الغرض.

كان معظم أصدقائنا المصريين يحتفلون بأعياد الميلاد. كان للأقباط يوم مختلف للاحتفال في ليلة السادس من يناير. شعر الأقباط أنهم معزولون عن سياسة

الحكومة، فلم تكن أيام أعيادهم إجازة رسمية. لم نكن نحتفل بعيد الميلاد في مصر على الطريقة السويدية، لكننا كنا نقوم بتزيين الشقة، ووضع أربع شموع في

الشمعدان: تُضاء الأولى يوم الأحد الأول من شهر ديسمبر، أما الثانية فتُضاء يوم الأحد الثاني من الشهر، وهكذا حتى يوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر،

حيث يتم استبدال الشموع القديمة بالشموع الجديدة التي تُضاء في آن واحد. كانت السفارة السويدية تنظم معرضًا من وقت لآخر نشتري منه الرنجة، وشجرة

عيد الميلاد.

استمر سجن مدير والدتي السابق في العمل، ولم يتم التحقيق مع والدتي. شعرنا براحة كبيرة عندما أدركنا أن الشرطة تسعى وراء المدير فقط. مضت حياتنا بسلام

حتى وقعت حادثة مريعة غير متوقعة ليتغير كل شيء بعدها.

كنت أشعر بالتعب في ذلك الصباح الذي لا يُنسى. أيقظني صوت « الزبَّال» في الفجر كالعادة. الزبال في مصر هو الرجل الذي يجمع القمامة.

قال أحد رجال جمع القمامة للآخر: «هل عثرت على أي شيء؟»

رد الآخر: «نعم، يوجد بعض الأواني الجيدة هنا».

استمعت إلى محادثتهما، وأنا في سريري. قامت سيدة يومًا باقتراح استبدال جامعي القمامة بعربات جمع

قمامة حديثة من الغرب إلا أن الأمر توقف بعد بضعة أشهر لعدم وجود قطع غيار لتلك العربات، وسرعان ما عاد جامعو القمامة بعربات القمامة التقليدية التي يجرها حمار.

كان يتم إعادة تدوير القمامة في مصر، فعلب الكريم مثلًا يتم صهرها، وتشكيلها لتصير أواني زجاجية جميلة تُباع في الأسواق. كان هناك بعض المنتجات، والسلع

التي تُطرح بالأسواق، ثم تختفي مثل كريم الوجه الذي كان يُوضع في زجاجة بيضاء، ونفس الشيء بالنسبة للسلع الغذائية مثل الجبن الذي كان متوفرًا، ثم

اختفى، والدجاج الذي اختفى من الأسواق لشهور. لم يكن لدينا غير دجاجة واحدة، كنا نقطعها لقطع صغيرة، ونقوم بسلق جزء، وتحمير الآخر، وهكذا.

كانت المنتجات الزجاجية متوفرة بجانب المقابر، حيث كان يتم هناك صهر الأواني الزجاجية، والبرطمانات ليتم تشكيلها في صورة زهرية للزهور، وآنية بسيطة،

وبديعة.

لم تكن المقابر مكانًا للأموات فقط، بل للأحياء أيضًا الذين سكنوا المقابر، حيث لا يوجد لديهم مأوى آخر. كان المكان متسخًا جدًّا إلا أنني قد رأيت أكثر من سيدة

أنيقة تتردد على المكان بحثًا عن المنتجات الزجاجية التي كان يتم صهرها، وإعادة تصنيعها بجوار المقابر.

كانت القاهرة مدينة مُشبعة بالسكان، حيث وصلت كثافتها السكانية إلى ثمانية ملايين نسمة. أصبحت الكثافة السكانية العالية عبئًا على مؤسسات الدولة التي

بدأت في الانهيار بدءًا من نظام الصرف الصحي الذي تهالك، وأدى إلى طفح المجاري، وحتى الحافلات التي صارت مكدسة، ومواسير المياه التي اشتد عليها الضغط.

قررت الاستحمام بعد تناول الفطور. كان ضغط المياه ضعيفًا، لكني تذكرت هؤلاء الأتعس حظًّا مني الذين يعانون من انقطاع المياه.

بدا يوم السادس من أكتوبر عام 1981 يومًا عاديًّا، على الرغم من كونه اليوم المخصص للعرض العسكري. كانت والدتي في السويد، وكنت وحدي بالمنزل أشاهد

التلفزيون حتى سمعت صوتًا مدويًا، وبعدها انقطع الإرسال. حاولت تحويل القنوات، ولكني لم أجد سوى الموسيقى الكلاسيكية. شعرت بالارتباك، وقررت

الاتصال بصديقي السويدي لارس كريستير.

طلبت رقم هاتف لارس ببطء، وضغطت لثوانٍ على بعض الأرقام كما اعتدت أن أفعل حتى يعمل الهاتف، ولكني لم أتمكن من الاتصال به، حيث انقطعت

الخدمة لبرهة من الوقت.

اللعنة على تلك الهواتف التي لا تعمل حين أكون في أمس الحاجة إليها. ذهبت مرةً أخرى لمشاهدة التلفزيون، وللمرة الثانية لم أجد سوى الموسيقى الكلاسيكية.

ذهبت إلى الشرفة، وناديت محمد: «محمد، ما الذي يذيعه المذياع؟ "

قال محمد الذي استبدت به الدهشة: «لا شيء، موسيقى فقط! "

في هذا اليوم كتب السفير السويدي أولوف تيرن ستورم إلى وزارة الخارجية السويدية يقول: «حدث ما هو آتٍ: في أثناء العرض العسكري.. في منتصف العرض، توقفت سيارة أمام المنصة حيث يجلس الرئيس السادات، والحكومة بأكملها، والشخصيات

الدبلوماسية، ثم ظهر شخص، وألقى بقنبلة أمام المنصة. تواصل إطلاق النيران لمدة دقيقة، أو اثنتين، وأعقب ذلك دقيقة، أو اثنتين من الصمت».

كان السفير السويدي مختبئًا مع الآخرين في أثناء إطلاق النيران. عمَّت الفوضى المشهد. تم نقل الرئيس أنور السادات. لاحظ السفير السويدي إصابة، وموت بعض

أفراد التشكيل الحكومي، وبعض الدبلوماسيين. رد الحرس بإطلاق النيران. استطاع السفير السويدي العثور على السائق الخاص به، وذهب إلى مقر السفارة بينما

تبعه السفير النرويجي بسيارته الخاصة، أما السفير البلچيكي فقد أُصيب إصابات بالغة. لم يلحظ السفير السويدي أي اضطرابات، أو شغب في طريقه إلى مقر السفارة.

أخيرًا، أعلنت وسائل الإعلام المحلية عن وقوع حادث ما نُقل على أثره الرئيس إلى المستشفى. كانت المعلومات التي تُذاع محدودة للغاية، ولم أستطع فهم ماهية

ما يحدث بالتحديد. نظرت من النافذة. كانت الشوارع خالية من المارة، وساد صمت غريب في المدينة التي عُرفت بدوي الضوضاء، وطنينها. أخذت محفظة نقودي،

وأسرعت إلى سيارتي، والأفكار تتصارع في رأسي في محاولة لإيجاد إجابة شافية لكل ما يحدث حولي: هل هناك انقلاب؟ هل صعد الإسلاميون إلى الحكم؟ هل

سيتم طرد كل الأجانب؟ ماذا آخذ معي ؟ ربما السجاجيد غالية الثمن التي ورثتها عن هيلدا وطورشتين، أو الفضة، أو أقوم بوضع كل الأشياء القيمة داخل

السجاجيد، وأشحنها خارج المدينة، لكن مَن سيساعدني في شحن تلك الأشياء؟ ربما السفير السويدي، ربما!

توجهت إلى صديقي لارس كريستير الذي كان يقيم في الزمالك. كانت شقته القريبة من مقر السفارة السويدية مزينة بالسجاجيد اليدوية. اعتدت قضاء العديد من

الأمسيات في شقته نتجاذب أطراف الحديث، لكن تلك الليلة كان الأمر مختلفًا.

قال لارس وهو يتنهد: «لا توجد أي أخبار».

أخيرًا، سمعنا عن مقتل السادات، وتولي نائبه حسني مبارك رئاسة البلاد. بلغ عدد القتلى أحد عشر قتيلًا، بينما بلغ عدد المصابين ثمانية وثلاثين. شعرت

بالصدمة مثلي مثل معظم المواطنين إزاء هذه الجريمة الغادرة التي أطاحت برجل مسالم. لم نكن معتادين على الجريمة، فالمصريون أبعد ما يكونون عن العنف،

كما أن معدل الجريمة في مصر أقل من أي مكان آخر في العالم.

قال لي لارس في مكالمة هاتفية بعد عدة أيام: «فعلها الأصوليون!»

سألته: «نفس الأشخاص الذين أفرج عنهم السادات؟»
قال: «بالضبط»

بدا لي أن شهر العسل الذي ربطنا بمصر قد أوشك على الانتهاء. لقد تنبأت قبل الحادثة أنه سيأتي اليوم الذي سأترك فيه مصر، لكن إلى أين هذه المرة. سكن هذا السؤال عقلي.

شاهدت الجنازة التي بثتها القنوات المحلية عبر التلفزيون. حضر الكثير من الرؤساء الأجانب الجنازة، وتم إخلاء الشوارع من المارة. ابتهج البعض بمقتل السادات، ففي شوارع بغداد رقص الناس، بينما حرض القذافي المصريين ضد الحكومة الجديدة، أما الخوميني في إيران فقد أراد إعلان مصر دولة إسلامية، ولم يكن الحال مختلفًا في فلسطين، حيث كره الفلسطينيون السادات بسبب معاهدة السلام التي وقعها مع إسرائيل، تلك المعاهدة التي دفع حياته ثمنًا لها.

أعلن مبارك على الفور حظر التجول الذي كان من أهم تداعياته منع المظاهرات، والتجمعات، الأمر الذي استمر طيلة فترة حكمه لمدة ثلاثين عامًا. سادت حالة من الغموض، فلم يكن أحد يعرف ما الذي سيحدث في المنطقة. في العاشر من أكتوبر، أي بعد أربعة أيام من مقتل السادات، تم إرسال التقرير الآتي من السفارة السويدية في القاهرة إلى وزارة الخارجية بستوكهولم :

«إذا لم يتمتع مبارك بنفس كاريزما السادات، وشعبيته فإن ذلك سيؤثر على استقرار الحكومة، وعلى احتمالية أن يحذو حذو السادات. من الممكن ملاحظة حقيقة أن اتباع نفس سياسة السادات سيكون من

مصلحة الحكومة الجديدة، فالانسحاب الكامل من سيناء سيشكل نصرًا لمبارك، وللشعب. أي تغير في

السياسة المتبعة من شأنه أن يشكل خطرًا على تلقي مصر للمساعدات الأمريكية. قد يتم استبدال المساعدات الأمريكية بمساعدات دول البترول الخليجية في نهاية

الأمر، إلا أنه من المؤكد أن الجيش لا يريد أن يكون تحت السيطرة الروسية.

يُعد الاحتفاظ بعلاقة جيدة مع مصر من مصلحة إسرائيل أيضًا، فمعاهدة السلام كانت تقدمًا إستراتيجيًّا حقيقيًّا لإسرائيل، حيث كان هذا بمثابة خروج أكبر،

وأقوى الجيوش العربية من المعادلة، وهذا كافٍ لجعل إسرائيل تتفادى أي عداء مع الحكومة الجديدة.

أظهرت إدراة ريجان مساندتها، وصداقتها للحكومة المصرية الجديدة. يُعد احتفاظ الولايات المتحدة الأمريكية بنفوذها، وتأثيرها داخل مصر أمرًا في غاية الأهمية،

وهذا يوضح أهمية مصر في المنطقة.

كان هناك أمل كبير لدى الدول العربية أن يقرب موت السادات مصر من العالم العربي مرة أخرى، وأن يغير ما حدث من سياسة مصر مع إسرائيل .

أخيرًا، مما لا شك فيه أن الاعتداء الأخير الذي أسفر عن مقتل السادات كان بمثابة تحذير للزعماء العرب، وخاصة المعتدلين منهم، والذين ربطتهم بالسادات

صداقة وطيدة مثل الزعيم السوداني، والحكومة العمانية».

خشي العالم من اندلاع حرب أخرى بالمنطقة إلا أن السلام قد عم، واستعادت مصر كل شبر من سيناء بحلول عام 1982 ، وتم إخلاء المستوطنات اليهودية في شمال سيناء.

امتاز المصريون بروح الدعابة، والسخرية. سرعان ما أطلق المصريون على مبارك اسم « البقرة الضاحكة»، حيث كان ضخم الوجه، ونادرًا ما يبتسم.

قام مبارك في بداية توليه الرئاسة بإصلاحات ضخمة، ولم يكن مكروهًا. أصبح المرور أكثر سيولة، ويسرًا بفضل الكباري التي أُنشئت، وتم إصلاح نظام الصرف الصحي، وخطوط الهاتف، كما تم إطلاق حملة لتشجير الشوارع عوضًا عن عشرين عامًا من المباني الخرسانية الصماء التي توغلت في شوارع المدن، وتم حل أزمة مخصصات الخبز، حيث قرر الرئيس بحكمة تقليل حجم الرغيف بدلًا من زيادة سعره.

استطاع مبارك بفضل مبادرات السلام في المنطقة الحصول على الكثير من المساعدات الأجنبية، فقامت فرنسا بتشييد خطوط المترو، بينما قامت اليابان ببناء دار الأوبرا عوضًا عن دار الأوبرا القديمة التي حُرقت عام 1970 ، بينما تبرعت الصين لمصر بمركز للمؤتمرات يرقى المعايير الدولية.

قالت والدتي: «كانت للسادات كاريزما، كما أن زوجته حاولت مساعدة النساء في مصر. تُرى هل سيستمر ذلك؟»

- ألم تكن چيهان صديقة لسوزان مبارك؟

- نعم، فكلتاهما من أم إنجليزية.

- ربما ستحذو حذو السيدة چيهان، وتقوم بتحسين القوانين الخاصة بالمرأة.

قالت والدتي بوجه عابس: «أتمنى هذا لكن يجب على مبارك أن يحتاط من الأصوليين»

- مَن هؤلاء الأصوليون؟

- الإخوان المسلمون. لقد كانوا موجودين في الفترة التي عاشها جدك هنا. هم يريدون العودة إلى ما كان عليه الحال أيام الرسول.

- العودة لقوانين الأجداد!

- نعم، لن يكون الوضع جيدًا للنساء، وللغربيين على وجه العموم، لهذا أوشكت أيامنا هنا على الانتهاء.

- لكن، يجب أن أكمل دراسة الماچستير.

- المستقبل في مكان غير مأمون ليس بالشيء الذي أتمناه لك عزيزتي.

- لكن ربما يستطيع مبارك إصلاح الأمر.

الإخوان المسلمون حركة تم إنشاؤها عام 1928 . أنشأها حسن البنا ليغير هوية مصر لتصبح دولة إسلامية، وكانت تلك هي بداية الأصولية الإسلامية في مصر.

نمت هذه الحركة في عام 1949 ، وهو نفس العام الذي رحل فيه جداك طورشتين وهيلدا عن مصر. أصبح للإخوان المسلمين ملايين الأتباع مُوزعين على ألفي خلية

مختلفة. نشط الإخوان المسلمون في المدارس، والنقابات، ومنظمات العمل الخيري. قام الرئيس عبد الناصر بحظر الإخوان المسلمين عام 1954 ، حيث تم القبض

على الكثير من أتباع الإخوان المسلمين، وتعذيبهم، وترحيلهم. تم إخراس الجماعة، ولكن بشكل غير كامل.

شجع السادات الإخوان المسلمين في السبعينيات، فقد كان يخشى أكثر من معارضيه الناصريين، وكانت هذه بداية جديدة للحركة التي عُرفت بالجماعة. لم يشك

السادات في أنه سيدفع حياته ثمنًا، ويُغتال على يد هؤلاء الذين أطلق سراحهم. كان من الصعب أن تُولد أية ديمقراطية في ظل هذه الظروف.

كنت أتمنى أن تهدأ الأوضاع، وتتحسن حتى أستطيع الإقامة في مصر، ولو لبضع سنوات أخرى. كان لديَّ الكثير من الأصدقاء في القاهرة. كنت أرتعد لمجرد التفكير

في عودتي للسويد. لقد رحل كل أصدقاء الدراسة بالسويد، ولم يبقَ لي أحد هناك، كما أني اندمجت في المجتمع المصري لدرجة جعلتني غير قادرة على تخيل

إقامتي في أوربا. آخر مرة زرت فيها باريس، شعرت بالعزلة، والانفصال عن الناس الذين يتسمون بالبرود مقارنةً بمرح المصريين، وروح الدعابة لديهم. أدركت

أيضًا أن ملابسي قديمة الطراز مقارنةً بأزياء الغرب. فكرة العودة إلى السويد التي شعرت دائمًا فيها بالوحدة كانت بمثابة سحابة سوداء تغيم على رأسي.

الفصل الثامن عشر

العصور المظلمة

قابلت خالد في حفلة بالصدفة، هذا إذا كان هناك ما يُسمى بالصدفة. علمت في هذا الوقت أن الأصوليين الإسلاميين كانوا وراء العديد من أعمال العنف. كنت

أخشاهم بنفس القدر الذي أخشى به أفكارهم المتأخرة. لم أتخيل أنهم سيخطون في حياتي يومًا ما.

كنت أحيا أنا، وأصدقائي المصريون حياة خالية من الهموم. كنا نذهب للسفر، والمعسكرات، والغطس، ونتقابل في النادي الرياضي في أوقات الفراغ حيث لا عمل،

ولا استذكار. مَن يريد التخلي عن مثل هذه الحياة التي حظيت بها فِي مصر؟! كنت أصارع من أجل البقاء في مصر. لم يحظَ غالبية المصريين بتلك الحياة الرغدة التي

نعمت بها أنا، وأصدقائي المصريون. كانت الفجوة بين الطبقات تتزايد بمرور الوقت خاصةً في ظل الانفتاح الاقتصادي، والفساد الذي كان يتفاقم يومًا بعد يوم.

قالت لي والدتي مشيرة إلى أن أيامي في مصر أصبحت معدودة: «نحن نعيش على قنبلة موقوتة».

لم أرد أن أستمع إلي مناقشات والدتي التي بدت كئيبة. كنت أغلق عيني، وأسد أذني حتى لا أرى، ولا أسمع شيئًا غير الذي أريد سماعه حتى جاء اليوم الذي

قابلت فيه خالد الذي جعلني أرى، وأسمع ما كنت أحاول تجنبه لأتعلم الدرس، وأعيه، وكان هذا هو دور خالد في حياتي. كان خالد في أوائل الثلاثينيات بأنف

مستقيم، ووجه يذكرني بوجوه الفراعنة التي كنت أراها على جدران المعابد، وابتسامة مشعة لا تفارقه تكشف

عن أسنانه البيضاء، وشعر أسود داكن يتدلى فوق عينيه الخضراوين. كنت أسمع دقات قلبي المسرعة عندما تقع عيني عليه. بدأنا الحديث، وأخبرته عن مخاوف والدتي فيما يتعلق بإقامتي في مصر، ووضع النساء

بها في ظل تهديد الأصوليين. استمع خالد إليَّ، وإذا به يخبرني بشيء يساوي وقعه عليَّ دوي القنابل.

قال خالد وهو يحتسي النبيذ في الحفلة التي أقامها إسماعيل وسط المدينة مساء يوم الخميس في يوم لا يُنسى: «لقد كنت واحدًا منهم. السجن أنقذني».

قلت له بفم مفتوح من هول المفاجأة: «ماذا تقول؟!»

قال لي ضاحكًا وهو يرى التعبير الذي ارتسم على وجهي: «إنها حقيقة، وليست مزحة».

سألته وعلى وجهي علامات الحيرة والدهشة. كيف يمكن لشخص وسيم حسن التربية مثل خالد أن يكون أصوليًّا، وأن يُزج به في السجن.

- احكِ لي القصة من فضلك. كيف تم تجنيدك؟

- في جامعة القاهرة. كنت طالبًا بالجامعة، ثم التقيت بذلك الشاب.

- شاب أصولي؟

- نعم، شاب أصولي ذو لحية. كان يرتدي الجلباب التقليدي. لم يرتدِ سيف الملابس الغربية أبدًا.

- لماذا تحدثت معه؟

- كنت أشعر بالفضول، وكنت جاهلًا.

- ماذا حدث بعدها؟

احتسى خالد رشفة أخرى من النبيذ، وأشعل سيجارة، ثم استنشق دخانها بعمق ليتسلل إلى رئته، ثم بدأ يشرح لي كيف كان سيف عطوفًا، وكيف ساعده في مذاكرة دروسه، وببطء تسلل سيف إلى حياة خالد ليعشش فيها. أخذه سيف بعد ذلك إلى المسجد، حيث بدأ واعظ أصولي في تلقينه مبادئ الأصولية ليتشربها قائلًا: «أنت من أحباب الله. لقد اصطفاك الله».

قلت له مبتسمة: «إذن لقد استطاع الوصول إليك بالمديح».

- لقد جعلني أشعر أنني شخص استثنائي، وكأن هناك عمل عظيم ينتظرني لأتمه في هذا المجتمع. استطعت أيضًا تكوين صداقات جديدة، أو على الأقل هذا ما اعتقدته آنذاك. أخبرني سيف أني سأحارب المجتمع الغربي الاستهلاكي مع إخوتي في الدين، وأني سأخلق عالمًا أفضل بالطريق الصحيح إلى الإسلام.

- ماذا قال أفراد عائلتك؟

- في البداية لم يعرفوا شيئًا، فلم أقل لهم أي شيء.

- لكن، لا بد أنهم رأوا اللحية، والثياب المختلفة التي كنت ترتديها.

- كانت أختي الصغرى تضايقني، لكني كنت أذاكر بجد، كما أني توقفت عن رؤية أصدقائي، وأقلعت عن التدخين، وشرب الكحوليات. أعتقد أن هذا لم يضايق عائلتي.

تدفقت الأفكار في رأسي كالنهر الجارف. إذا تم تجنيد خالد، إذن يمكن تجنيد أي شخص آخر حتى أنا! أدركت أنه لا يمكننا دائمًا التحكم في عقولنا كثيرًا، أم أن

القصة مرتبطة بمشاعرنا؟ لقد شرح لي خالد كل المشاعر النبيلة التي تم إقناعه بها ليحارب من أجلها مثل إنقاذ العالم، وخلق عالم أفضل.

أضاف خالد: «كانت مهمتي تجنيد طلبة الجامعة. بدا الأمر جيدًا في البداية، لكنني سئمت بعد ذلك من هذا الكم الهائل من القواعد، والممنوعات. كانت هناك

قواعد عديدة مختلفة ينبغي اتباعها، واحترامها مثل تناول الطعام بدون أدوات المائدة، واستخدام اليد اليمنى، والجلوس على الأرض. هذا إلى جانب دخول

الجامع بالقدم اليمنى، والخروج منه بالقدم اليسرى، أما الحمام فيجب دخوله بالقدم اليسرى، والخروج منه بالقدم اليمنى. هناك أيضًا قواعد أخرى مثل السير

ببطء، وغسيل الأسنان بالسواك، وعدم التفكير. توجد قواعد صارمة لكل التفاصيل الصغيرة في الأنظمة الشمولية الأصولية، والهدف طبعًا إبقاء الذهن مشغولًا

بالأمور التافهة، وبالتالي يتم التحكم في العقل، والأفكار ليتبع الأفراد أيديولوجية الجماعة باستمرار».

أكمل خالد حديثه وهو ينظر إلى عيني: «يمكن تلقين أي أحد مبادئ تلك الأصولية.. حتى أنت».

ارتعدت وأنا أسمعه، فلقد كنت أعلم أنه يقول الحقيقة: «هذا مخيف جدًّا».

قال خالد: « هذا ضد الإسلام الحقيقي».

قلت له: « إنه ضد أي دين».

أصبح عالم خالد مقسمًا إلى « هؤلاء الذين يؤمنون»، و « هؤلاء الذين لا يؤمنون». وفقًا لما تم تلقينه إياه، استطاع المحاربون الأفغان الانتصار في الحرب ضد

الأمريكيين لأنه كانت هناك ملائكة تحارب معهم، الإعصار الذي يعصف بالشواطئ هو في حقيقة الأمر غضب من الله، أما الزلازل فهي وعيد من الله. الإيدز،

والجفاف، وغيرهما من الكوارث ما هو إلا انتقام إلهي، وبهذا تشبه الجماعة الإسلامية كل الأنظمة الدينية الأصولية التي تلاعبت بعقول البشر مشبهة الكوارث

الطبيعية بالعقاب الإلهي.

تجرأت، وسألته: «ماذا عن النساء؟»

- مجرد النظر إليهن يُعد خطيئة.

- ألهذا يتم تغطيتهن بهذه الملابس السوداء البشعة؟

- نعم، حتى لا يغرين الرجال، فالنساء ينتمين إلى الشيطان.

- ماذا عن الرقص الشرقي، و « الست»؟

يُعد الرقص الشرقي في مصر إحدى مواطن الجذب. عُرفت أم كلثوم بالست. أم كلثوم هي المطربة المفضلة عند المصريين، فهي بمثابة أسطورة. يعشق المصريون

الرقص، والغناء، فهم شعب مرح بطبيعته. يقدر العالم العربي بأسره أم كلثوم. استمع العرب على مدار ثلاثين عامًا إلى أغانيها عبر المذياع مساء كل خميس،

وكان معجبوها يمطرونها بالهدايا.

بعد حرب 1967 ، جمعت أم كلثوم مبالغ هائلة للمجهود الحربي، حيث خصصت له كل أرباح حفلاتها. أُذيعت أخبار حالتها الصحية، وهي على فراش المرض

باستمرار، أما جنازتها في عام 1975 فقد فاقت جنازة عبد

الناصر في الأهمية، حيث حضرها أكثر من مليوني شخص هاموا في شوارع القاهرة لتكريمها، ووداعها.

قال خالد: «حتى أم كلثوم تم تحريمها حيث مُنع الاستماع إلى أغانيها، أما الرقص فلم نفكر فيه ولو مجرد التفكير».

قلت: «يا له من شيء فظيع. لا بد أن الأمر كان محبطًا جدًّا لك».

قال خالد بتحفظ: «لقد كان الأمر أسوأ من ذلك بكثير. لقد قمنا بفصل الطلبة عن الطالبات حتى نتأكد من عدم الاختلاط، وكنا نصوم كثيرًا لنتحكم في إحباطاتنا الجنسية».

- يا إلهي! ليس من الغريب إذن أن والدتي تريدني أن أترك مصر.

- لكني عدت إلى الوضع الطبيعي كما ترين.

بدا لي أن خالد قد عاد إلى الوضع الطبيعي بالفعل، لكني لم أستطع منع نفسي من رؤيته بعين جديدة، وتساءلت: كم شخصًا ضُلل مثل خالد دون أن يستطيع الرجوع، كم شخصًا ضُلل يسير حولي الآن مثل القنابل الموقوتة في انتظار التعليمات للصعود إلى السماء.

على الرغم من أن هذه الليلة الحزينة سكنت عقلي في مكان ما لتذكرني دائمًا بواقع الحال، إلا أني سرعان ما استعدت عاداتي القديمة، وحياتي. كانت هناك مقابلة أخرى في انتظاري جعلتني أعيد تقييم الموقف.

أحببت حياتي في مصر، كما أني في نهاية الأمر لم أقابل كثيرًا من الأصوليين، وهكذا خاطبت الأنا، ونفسي العنيدة. كنت أعتقد أن الأصوليين لن يصلوا إلى الحكم

أبدًا، ومَن كان يظن غير ذلك؟

قابلت في إحدى إجازات الصيف بالسويد نوال السعداوي، إحدى ناشطات الحركة النسوية في مصر، وإحدى المدافعات عن حقوق المرأة. تم دعوتها إلى السويد في

مناسبات عديدة للتحدث عن وضع النساء في مصر. كنت سعيدة بمقابلة هذه السيدة المشهورة، وشعرت بالتميز عند دعوتي لسماعها، وكان هذا بالطبع بفضل

والديَّ. كان بقية المدعوين من جيل والديَّ، لكنني لم أكترث بذلك، فلقد تعودت في مصر على التعامل مع مزيج من الأجيال المختلفة في آن واحد.

كانت نوال السعداوي طبيبة نفسية لها شعر رمادي اللون، وعين ثاقبة بندقية اللون. واجهت نوال السعداوي من خلال عملها كطبيبة نفسية الكثير من مشكلات

النساء في مصر.

شرحت نوال السعداوي للجمهور الذي أنصت إليها باهتمام بالغ: «لقد تعلمت الكثير من المرضى، وحياتهم المليئة بالقصص. كان الكثير منهم من طبقات اجتماعية

بسيطة، حيث معاناة الفقر، وختان الإناث، والأمية، وهكذا صرت أدافع عن المرأة بقوة. كنت أكثر مَن هاجم تعدد الزوجات، وختان الإناث».

تعرضت نوال السعداوي في العديد من الكتب التي ألفتها لتلك القضايا. قرأت بعض هذه الكتب التي تُرجمت إلى اللغة السويدية، كما استخدمت أفكارها في أثناء

أبحاثي عن ختان الإناث. لم أكن أعلم بوجود تلك الأشياء المرعبة قبل قدومي لمصر.

صحت باستياء: «بطر أعضاء تناسل الأنثى!»

قالت لي صديقتي الصومالية: «يجب أن تكوني سعيدة كونك وُلدت في السويد».

كنت كلما اشتكيت من شيء بعد هذا اليوم تذكرت كم أني سعيدة الحظ كوني وُلدت في أسرة متفتحة الذهن، واسعة الأفق في بلد حر، وتمنيت لو كان الحال

هكذا للجميع.

أخبرتني نوال السعداوي عن معارضتها لسياسة العائلة المتبعة في مصر التي من شأنها أن تقهر النساء.
وافقتها الرأي تمامًا، فالرجل المصري له الحق في أن يطلق

المرأة دون أدنى مسئولية قانونية تجاه زوجته، وأطفاله، فهو يستطيع أن يترك عائلته دون أية مساعدة مالية، كما يمكنه أن يتزوج من أخرى، ويهمل زوجته

الأولى إضافة إلى استطاعته منع زوجته من العمل، والسفر، بل ومن ترك المنزل أيضًا. تفشى هذا النظام الذكوري في بيوت مصر، وشوارعها، ومدارسها،

ومساجدها، ومقرات العمل، وحتى برامج التلفزيون، والمذياع، والأفلام، والمسرحيات، والصحف.

قالت لي نوال السعداوي بصوت ناعم: «إذا أقمت في القاهرة، وتزوجت من رجل مصري ستفقدين كل الحقوق التي اكتسبتيها في الغرب».

- لكني أجنبية!

- نعم، لكنك ستتبعين في هذه الحالة القانون المصري. يجدر بك الاستماع إلى والدتك الحكيمة، والرجوع إلى أوربا.

كانت هناك مشكلة أخرى تواجه النساء في مصر من وجهة نظر نوال السعداوي، ألا وهي القوانين الخاصة بالميراث، فالنساء يرثن نصف ما يرثه الرجال. كان هذا القانون في الأساس يهدف إلى مساعدة الأمهات، والأخوات، والأطفال الذين يُتموا، حيث كان على الرجال رعايتهن، ولكن المجتمع قد تغير، ولم تواكب القوانين هذا التغير.

أضافت نوال السعداوي: «أنا لا أرى أن مشكلات المرأة تنفصل عن مشكلات الدولة في الوقت الذي ينفصل فيه المفهوم الغربي لمشكلات المرأة عن السياق المحيط».

قلت لها مقترحة المساعدة: «ربما أستطيع أن أقدم المساعدة».

ابتسمت نوال السعداوي دون أن تقول كلمة واحدة، ولكني فهمت أنها ترى أن هذا الشأن خاص بالمصريين، وعليهم حل مشاكلهم بأنفسهم. شعرت أن الباب قد أُغلق أمامي، وأني مُجبرة على رؤية الموقف كما هو. نظرت والدتي إليَّ، وقد استشعرت في يأسي يأسها، وفي شخصي شخصها، ورأت في ظلي ظلها، نفس الفتاة،

إنجريد التي كان عليها أن تغادر مصر منذ أكثر من ثلاثين عامًا لأسباب لا تختلف كثيرًا عما أواجهه الآن.

كنت أعشق الحركة، والحرية، والاستقلال. كان من الصعب أن أتخلى عن كل هذا، وأتزوج في ذلك المجتمع. ماذا لو أردت الطلاق؟ سيأخذ مني الأطفال. لن أستطيع تحمل هذا، سأشعر أني سجينة. دارت كل هذه الأفكار برأسي، وأخيرًا قررت أنه يجب عليَّ ترك موطني

بالتبني مصر. أين سأذهب؟ هل سأسافر، وأحيا في مكان جديد وحدي؟ إلى أين أنتمي؟ مجرد التفكير في كل هذه الأسئلة يصيبني بالصداع. لم يكن هناك بلد واحد أستطيع أن أشعر أنه بيتي، ووطني. كنت أحيانًا أحن إلى الجذور كسائر البشر. أدركت أنه يجب أن أبحث عن هذه الجذور داخلي.

بعد مرور سنوات على مناقشتنا، تم رفع دعوة ببطلان زواج نوال السعداوي عقابًا لها على تصريح اعتبر معاديًا للإسلام. لحسن الحظ، تم رفض الدعوة، وظل زواج نوال السعداوي قائمًا. لم يكن هناك أحد في مصر في مأمن إلا إذا اتبع كل القواعد الموضوعة من قبل الحكومة الشمولية، والأصوليين.

قررت أن أكمل دراستي، وتمنيت أن تحدث معجزة لأستدل بها على طريقي الذي بدا غامضًا. استمرت حياتي معٍ والدتي في العاصمة المصرية التي كانت تزداد تلوثًا

يومًا بعد يوم. كان هناك حوالي مليون سيارة ما تسبب في إرباك الحياة في مصر. كان العثور على مكان لركن السيارة أمرًا بالغ الصعوبة. كان « المنادي»، الرجل الذي يساعد في ركن السيارات يقوم بركن السيارات في صفوف متعددة، وكان الأمر يتطلب كثيرًا من الوقت لإدخال، وإخراج السيارات الخاصة بطلبة الجامعة، وأساتذتها. بدأت أشعر بالضجر، والضيق. كانت الضوضاء تصيبني بالصمم، وتضعني طول الوقت تحت وطأة الضغط العصبي، وفي المقابل كنت أنعم بالسكون عندما أعود إلى السويد في الإجازات.

جاءت اللحظة الفارقة بشكل غيرمتوقع في أواخر الصيف أثناء حضوري تدريب بالأمم المتحدة بنيويورك. قابلته في مطعم على العشاء. رفع نظارته، وتتطلع إليَّ،

ومنذ تلك اللحظة فقدت طريقي في أروقة متاهات قلبه. قضينا أسبوعًا كاملًا نتقابل فيه معظم الوقت، وتبع ذلك خطابات عديدة، وبعد بضعة أشهر جاء إلى

القاهرة، وتقدم للزواج. أدركت حينها أن حياتي ستتغير بالقطع، ولم أشك في لحظة أن علاقتي بمصر لم تنتهِ، وهذا ما ستكشف عنه الأحداث.

كنت منهمكة في ذلك الوقت في دراستي ومقابلة خطيبي في أوربا بين حين وآخر. بعد شهرين، طفت إلى السطح كل المشاعر المتضاربة قرب رحيلي عن مصر: حياتي

التي استمرت بها قرابة ثمانية أعوام، وأصدقائي المقربين، وشعوري بالاستقلال. تصارعت المشاعر داخلي في لحظة الرحيل.

ودعت مصر في منتصف الثمانينيات . كنت متحمسة لحياتي الجديدة مع زوجي في باريس. استطعت الحصول على وظيفة هناك في قسم العلوم الاجتماعية

باليونسكو، بينما مكثت والدتي بالقاهرة حتى أرادت صاحبة الشقة التي تقيم بها والدتي استرداد شقتها.

كنت أزور مصر باستمرار، وبشكل منتظم حتى أتى أولادي إلى هذا العالم في عام 1989 ، و 1990 . كان من الصعب زيارة مصر في ظل وجود الأطفال، وعدم وجود

الشقة التي استأجرتها والدتي. فقدت التواصل مع

معظم أصدقائي، ومع نبض الحياة في القاهرة لمدة عشر سنوات حتى جاء هذا اليوم المشئوم، يوم الحادي عشر

من سبتمبر 2001 . كان الطقس جميلًا ومشمسًا. كنت أتمشى في شوارع باريس لأتفقد المحلات حتى سمعت صيحات عبر المذياع. لم أستطع تبين ما يُقال، لكني

لم أعر الأمر انتباهًا. تصاعدت الأصوات بشكل هستيري، وتجمع العاملون بالمحل للإنصات باهتمام. قلت لنفسي: «لا بد أنه عرض جديد»، وانزعجت لعدم اهتمام

العاملين بالمحل بي. انصرفت من المحل لأجد العاملين بمحل آخر التفوا حول المذياع، وفي النهاية توجهت إلى أحد المقاهي حيث يوجد تلفزيون لأتفقد ما يحدث

حولي.

سألت أحدهم: «ما الذي يحدث؟ »

قال لي الجرسون: «لقد اخترقت طائرة مركز التجارة العالمي بنيويورك».

قلت بصدمة: «هذا مستحيل».

سمعت صوت رنين هاتفي. صاحت ابنة زوجي التي اتصلت بي من السويد لتحذيري: «أين أنت؟ خذي حذرك. يُقال إن هناك قنبلة ستنفجر وسط المدينة في

باريس».

بدا لي أن العالم قد جُن جنونه. اقتنعت في النهاية أن ثمة شيئًا مروعًا يحدث. توجهت إلى شقة والدتي وسط المدينة، وبدأت أتابع التلفزيون، وأنا في حيرة من

أمري. اخترقت طائرتان مركز التجارة العالمي، وبدأ

الناس في الهروب بحثًا عن ملاذ.

كانت الصحافة الغربية قد بدأت بالفعل في الحديث عن الأصولية الإسلامية منذ الفتوى الخاصة بموت الكاتب الشهير سلمان رشدي. كان هذا قبل أحداث

الحادي عشر من سبتمبر، وما تبعها من أحداث في إسبانيا، ولندن، ومصر. قبل الحادي عشر من سبتمبر كان يُنظر لجرائم الإرهاب على أنها أحداث منفردة، أما

بعد الحادي عشر من سبتمبر، تغيرت أبعاد المعادلة تمامًا، وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية حربها.

ما الذي حدث في مصر بعد رحيلي؟ تضاعف عدد السكان، كما تضاعفت إحباطات المصريين. تم تبني قوانين أسفرت عن تقييد حريات المواطنين، ومحاكمتهم أمام

المحاكم العسكرية.

كوَّن الإسلاميون ميليشيات.. تلك الميليشيات التي بدأت منذ اغتيال السادات، وتصاعدت في صمت خادع. حاول الإسلاميون حكم إحدى ضواحي القاهرة في

التسعينيات، وبدأوا في جمع الضرائب. تم اغتيال كثير من الأقباط في الصعيد، ووصل الأمر إلى محاولة اغتيال الكاتب الكبير الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ

عام 1995 ، الأمر الذي نتج عنه عدم استطاعة نجيب محفوظ، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك 82 عامًا، استخدام يده اليمنى في الكتابة. بعد حوالي عام اُتهم

المخرج العالمي يوسف شاهين بالإلحاد، وهو اتهام شديد الخطورة في مصر.

كانت هذه بعض حقوق المواطنين التي تم امتهانها.

قال سعد إبراهيم، أحد المدافعين عن حقوق الإنسان، ودارس في علم الاجتماع في إحدى المقابلات: «كان يجب على مبارك أن يبدأ بالإصلاح الاقتصادي، والبنيوي

منذ بداية توليه الحكم، لكنه انتظر طويلًا حتى زادت أحوال غالبية المواطنين سوءًا، وهكذا تُولد الأصولية».

لقد صُدمت حقًّا من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أدركت أن ما حدث جزء من حركة كبرى مُوجهة ضد القيم الغربية، وأن ما يحدث لا يُعد حوادث فردية

منفصلة. ما الخطأ الذي اقترفناه في الغرب؟ هل هو غرورنا؟ هل هو عدم تكاتفنا؟ أم انعدام الحس الروحاني لدينا؟ أم أن السبب هوالمباهاة بما لدينا؟! كنت دائمًا

مدافعة غيورة عن الإسلام الوسطي، والعالم العربي. حاولت أن أبحث لأصل إلى عمق الأصولية. ردود فعل أولادي كانت سببًا مباشرًا وراء بحثي المضني.

سألني ابني الأصغر بعد مشاهدة ما حل بمركز التجارة العالمي عبر التلفزيون: «ماما، هل صديقي أحمد إرهابي؟ هل سيقوم بتفجير مدرستنا؟ "

أما ابني الأكبر فلقد قال لي، وهو مختبئ تحت غطاء سريره: «أشعر بالخوف يا ماما».

قلت له: «لا تخشَ شيئًا، لقد عشت في بلد مسلم لسنوات عديدة. المسلمون في غاية اللطف، والنعومة».

أدركت حينها أن عدم المعرفة الجيدة بالإسلام هي التي جعلتهم يربطون الإسلام بالإرهاب.

اقترحت على ماريا، وهي أم مهتمة مثلي بما يحدث حولها: «فلنأخذهم إلى أحد المساجد».

وافقتني ماريا: «فكرة عظيمة. سيقوم الإمام بطمأنتهم».

انطلقنا مع مجموعة مكونة من خمسة عشر طفلًا من المدرسة الفرنسية بستوكهولم، نفس المدرسة التي يدرس فيها أطفالي، ونفس المدرسة التي كنت أدرس بها.

كان المسجد على ربوة تل من التلال في مكان يتردد عليه الفنانون، والليبراليون. كان المبنى ضخمًا، وله مُخصص مالي جيد. وافق الإمام على إعطاء الأطفال فكرة،

ومقدمة قصيرة عن الإسلام. كان يبدو هادئًا، وهو يرتدي الملابس الغربية: قميص بنصف كُم، وبنطلون چينز. اتفقنا على موعد لقدوم الأطفال. اصطحبنا

الأطفال، وذهبنا في الموعد المحدد لنجد الابتسامة التي على وجهه قد اختفت تمامًا، وحل محلها العبوس.

قال الإمام لي، ولماريا، وللفتيات: «ارتدوا هذه الملابس».

لم يجرؤ أحد على قول شيء، وارتدى الجميع الملابس الطويلة التي غطتهم من الرأس حتى القدم.

لم أرتدِ الملابس التي أعطاها لي، وقلت باعتراض: «لن أرتدي هذه الملابس. لقد عشت في مصر سنوات طويلة، ولم يطلب مني أحد شيئًا كهذا. إذا لم أفعل هذا في

مصر فبالتأكيد لن أفعله في مدينتي».

حدق الإمام فيَّ غير مصدق لما أقول، لكنه لم يقل شيئًا عندما شاهدني أضع فوق رأسي غطاء الرأس الملون.

قلت لنفسي: «هذه ليست بداية جيدة».

أخذ الإمام الأطفال في جولة بالجامع، وعرض عليهم مقدمة قصيرة عن الإسلام، وكيف يصلي المسلمون، ثم أخذنا إلى غرفة صغيرة حيث جلس الأطفال

يستمعون إليه:

« في السويد تضع النساء العطور، ويركبن المترو؛ لذلك نحن نعتقد أنهن فاسدات الخلق، ولهذا ترتفع معدلات الجريمة في مثل هذا المجتمع المتدهور أخلاقيًّا.

نحن لا نسمح بهذا السلوك في بلادنا ».

لم أصدق ما سمعته. كان من الصعب الجدال معه أمام الأطفال؛ لذلك حاولت إبعاد الأطفال بأسرع ما يمكن.

سألتني فتاة من أصل جزائري، ونحن في طريقنا خارج المنزل: «هل الفتيات السويديات عاهرات؟»

أجبتها: «بالطبع لا، لا بد أنه فهم بشكل خاطئ، فلننسَ ما قاله».

قالت ماريا، وهي تنظر لي غير مصدقة لما حدث: «حسنًا، كان هذا إنجازًا».

حاولت أن أشرح لها: «لم يكن الأمر هكذا في مصر. كان الجميع في حالة تسامح مع الآخر».

دار حديث صامت داخلي: «ربما يجب أن أتحقق إذا ما كانت الأحوال في مصر كما كانت عليه في السابق. ربما يكون هذا الإمام مجرد إمام غبي. سأسأل صديقتي سامية».

تزوجت سامية، صديقتي المصرية من شخص سويدي يُدعى بير. شعرت بالحيرة عندما اتصلت بي سامية منذ

سنوات لتخبرني أنها في السويد، حيث تمت خطبتها إلى شخص سويدي. لم أصدق هذا. كانت عائلة سامية إحدى أكثر العائلات ثقافة، ولم أستطع تخيل هذه المرأة الأنيقة تعيش في الريف السويدي القاسي.

وصلت سامية إلى مزرعتي في أحد شهور الشتاء المظلمة. كان الوصول إلى مزرعتي أمرًا في غاية الصعوبة نظرًا لكثافة الجليد الذي غطى الطرق. كان شعرها الذي

دائمًا ما اعتنت به مُغطى بقبعة، بينما عجز الفرو الثمين الذي ارتدته عن بعث الدفء في ظل هذا الصقيع، أما حذاؤها فكان يناسب طرق المدينة الممهدة. جاء بير

السويدي الأشقر في صحبتها.

قالت سامية: «كم أعشق هذا الريف! أود أن أمتلك منزلًا ريفيًّا ذات يوم».

قلت لها لأثنيها عمَّا هي مقدمة عليه: «أعلم أنك تخشين الحشرات، والفئران. كما أنه لا يوجد لديك أدنى معرفة بأعمال النظافة، وزراعة الحدائق».

صارت سامية زوجة لبير منذ سنوات. أحيانًا تلوح فكرتها القديمة في الأفق، فلطالما أرادت سامية شراء منزل ريفي، لكنني دائمًا أحاول جاهدة مع زوجها لإقناعها

بالعدول عن الفكرة. استطاعت سامية، وعائلتها التأقلم بشكل ملحوظ في السويد، بينما أحب زوجها بير مصر، وجعل الجميع يرى مصر من منظور مختلف

كأجنبي.

قلت لبير، زوج سامية: «ليس من السهل التأقلم في بلد مختلف كمصر».

سألني بير: «هل ارتكبت الكثير من الأخطاء مثلي في البداية؟»

ضحكت وأنا أخبره بقصة قطع اللحم المطهية: «نعم، طيلة الوقت».

أخبرته عن فترة إقامتي مع أرمين، وكيف شعرت بالانزعاج حين وضعني الجميع على الهامش، وكأني لا أستطيع عمل أي شيء فقط لكوني أجنبية. كان المطبخ

مكانًا غريبًا بالنسبة لي. كان الطهي في مصر يعني أن يكون المرء جزارًا يستطيع تقطيع اللحم، واستخراج الحصى من الأرز، وغيرها من المهام التي لم أكن أجيدها.

في هذا اليوم بالتحديد أردت أن أطهو شيئًا ما بنفسي، وعقدت العزم على ذلك. أحضرت اللحم المفروم، والبيض. كنت مشغولة كالنحلة. لماذا لا يستمع أحد إلى

ما أقوله؟ ألأنني فتاة؟! وضعت البيض في طبق عميق، ثم قمت بخفقه، وأضفت الملح، والفلفل، والتوابل الأخرى. بدأت بتشكيل اللحم المفروم على شكل كرة

صغيرة في يدي، ثم قمت بتحمير عدد لا نهائي من كرات اللحم الصغيرة. أتى أرمين إلى المطبخ، ودُهش عندما رآني أطهو الطعام.

سألني: «ما الذي تفعلينه؟»

قالت: «سترى الآن».

اكتست وجنتاي باللون الأحمر من حرارة المطبخ، وتحميركرات اللحم. شعرت بالسعادة بعد الانتهاء من طهي الطعام. ذهبت للاستحمام. كان ضغط المياه

ضعيفًا

كالعادة. ارتديت الثوب القطني الأنيق، وتوجهت إلى أرمين، و « عصابته» كما اعتدت أن أطلق على أصدقائه، ومعي الطعام الشهي.

قلت وأنا أضع الطبق بعنف على المنضدة: «أترون؟ يمكنني أن أستذكر دروسي، وأطهو الطعام».

أكملت حديثي وأنا أرتجف بصوت مختنق، وشفاه مرتعشة: «حسنًا، أردت فقط أن أشرح لكم شيئًا: كوني أجنبية لا يعني أني لا أستطيع القيام بشيء. يجب

عليكم احترامي. لا يوجد أي فرق بيني وبينكم».

هزوا رؤوسهم، ثم صمتوا لوهلة، وانفجروا ضاحكين.

قلت لبير: «كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أخذت فيها على عاتقي أن أكون جسرًا يربط بين الثقافتين. جعلت من نفسي أضحوكة أمام أرمين الذي استشاط غضبًا

بعد ذلك. كانت تلك قصة واحدة بين عشرات من القصص التي أسأت فيها التصرف. كنت فقط أريدهم أن يفهموني أكثر، كما أردت أن أكون أكثر اندماجًا معهم

بدلًا من العزلة التي كنت أشعر بها».

قال بير: «كيف انتهى الأمر إذن؟»

قلت لبير الذي ارتفع صوت ضحكاته: «أنقذني الطعام الذي أعددته: قطع اللحم السويدي الشهي».

تنهدت سامية قائلة: «أخشى أن الأمر يتطلب أكثر من قطع اللحم لتغيير البشر، وطريقة تفكيرهم».

قلت: «كنت محبطة، وساذجة، ومفعمة بالأمل في آنٍ

واحد. في الواقع، كنت أنا الشخص الذي يجب عليه التأقلم مع الثقافة المصرية، لا أن يتأقلموا هم مع فتاة

متحررة مثلي».

علقت سامية: «كانت مصر أقرب للغرب وقت إقامتنا هناك، أما الآن فلقد تطورت أوضاع المرأة، لكن في الاتجاه المعاكس».

عندما تركت مصر في عام 1984 كان ما زال هناك أمل للنساء. في عام 1985 نجحت المعارضة في منع ما كان يُعرف « بقوانين چيهان» التي أنصفت المرأة. أُعتبرت

هذه القوانين قوانين غربية معادية للإسلام. ازداد الأصوليون قوة، وأذعنت الحكومة لمطالبهم ما زاد الأمر سوءًا. بدأ الأصوليون في تلقين الناس مبادئهم رويدًا

رويدًا. تُعد الحياة اليومية للمرأة العاملة مثالًا جيدًا للتغيير الذي أصاب المجتمع المصري. على الرغم من زيادة نسبة المرأة العاملة إلا أن الرجال لم يساعدوا أبدًا في

الأعمال المنزلية. تعود الزوجة إلى المنزل بعد يوم من العمل الشاق متعبة لتجد مهام التنظيف، والطهي، ورعاية الأطفال في انتظارها. تم إغواء الرجال، والنساء

من قبل الأصوليين الذين أقنعوا الكثير من الناس أن المرأة مكانها المنزل.

أصبحت المرأة المصرية في وضع لا تُحسد عليه، فهي تخرج للعمل في الصباح الباكر لتواجه ازدحام المرور اللعين، ثم ترجع إلى المنزل مُنهكة لتبدأ الأعمال المنزلية

الشاقة بدون أي أدوات حديثة تساعدها على أداء

مهامها. قد تشتكي المرأة الأوربية العاملة من عدم مساعدة الرجل لها في الأعمال المنزلية، لكن المرأة الأوربية

تمتلك الأدوات المنزلية الحديثة مثل المكنسة الكهربائية، وغسالة الأطباق، إلى آخره. كانت مهمة المرأة المصرية في غاية الصعوبة، كما أنها لا تستطيع شراء الوجبات

الجاهزة.

عجز الرجال المصريون عن تعيين خادمة لمساعدة زوجاتهم في الأعمال المنزلية نظرًا لضيق الحال. بدأ الأصوليون في تجنيد العديد من أفراد تلك العائلات. من

السهل تفهم انجذاب الناس لحديث هذا الإمام، أو ذلك الشيخ عن الحياة السعيدة، والزوجة المطيعة في ظل هذه الظروف القاسية التي يحيا فيها غالبية

المواطنين. استطاع الأصوليون أيضًا تجنيد أتباع من الفقراء من خلال العمل الخيري، حيث يذهب الأصوليون لمساعدة الناس وقت حدوث أية كارثة مثل انهيار

عقار، أو غيرها من الكوارث. يسهل إغواء الناس، والتلاعب بهم وقت الضعف، والحاجة.

تدهورت أوضاع غالبية المصريين رغم التحسينات التي تمت في عهد مبارك مثل توافر الكهرباء، والمياه في العديد من البيوت التي كانت محرومة من هذه الخدمات،

إضافة إلى توافر الأجهزة الكهربائية التي أصبحت متاحة لمعظم السكان، وارتفاع معدل الأعمار إلى اثنين وسبعين بدلًا من اثنين وخمسين. زاد الأمر سوءًا لطلبة

الجامعة الذين وعدتهم الحكومة بفرص عمل في مجتمع

يعاني الأمرين من البطالة. لم تنجُ القاهرة من أزمة السكن، حيث يعيش أربعة أشخاص من إجمالي

نسبة خمسة أشخاص في بيوت ضيقة، وأحيانًا يشتركون في سرير واحد، بينما ارتفعت نسبة العشوائيات بشكل ملحوظ.

أصبح الزواج أمرًا باهظ التكلفة بسبب أزمة السكن. وجد معظم الشباب أنفسهم بدون زواج رغم أنفهم. انحصرت أحلام الشباب في السفر للخليج بعيدًا عن

المجال السياسي، والأكاديمي، فكان الشباب يسافر إلى الخليج بحثًا عن المال، ويعود بزوجته مرتدية الحجاب. يستحيل أن تخرج المرأة في السعودية دون تغطية

نفسها من الرأس إلى القدم، حتى لو كانت أجنبية، كما تُمنع المرأة هناك من قيادة سيارتها. تأثر العاملون المصريون بهذه الأفكار الشديدة المحافظة في هذا البلد

الذي حباه الله بالبترول في الوقت الذي كانت تعاني فيه مصر من تردي الأحوال الاقتصادية.

خاب أمل الشباب في القومية، والاشتراكية، وأصبح الإسلام بمثابة الإجابة التي حصل عليها الشباب في ظل تساؤلات مبهمة لا إجابة لها، وإحباطات لا حصر لها.

غرقت مصر في المعتقدات الدينية، فلا يمكن التعبير عن أية أمنية دون أن يعقبها إن شاء الله، تلك العادة التي اكتسبتها والدتي خلال إقامتها بمصر، إلا أن هذه

المعتقدات الدينية هي أيضًا التي جعلت المصريين أشخاصًا متسامحين مسالمين رغم هذا الكم الهائل من

المشكلات المحيطة بهم.

أصبح ارتداء الحجاب كعلامة على الانتماء للإسلام موضة منتشرة بين الفتيات المصريات.

قالت سامية وهي جالسة في شرفة مزرعتي: «في السويد تتحدثون عن طول الجونلة، وفي مصر نتحدث عن ألوان أغطية الرأس ».

قلت لسامية: «حكت لي جدتي عن هدى شعراوي، أول امرأة تخلع غطاء الرأس. يبدو أن الأمور في مصر تسير للخلف، لا للأمام!».

ردت: «نعم، كم هو مؤسف ما يحدث! »

يبدو أن مصر لا تسير في الطريق الصحيح، على الأقل فيما يخص النساء. شرد ذهني بعيدًا، وتذكرت ذلك الولع الذي ساد في السويد بكل ما هو شرقي. كنت

أحلم بالعربات التي يجرها الحصان، والثياب الطويلة، والمظلات الكبيرة التي تسير بها النساء أوقات الظهيرة، كما حلمت بالسفر إلى مصر، حيث الطقس

المشمس الذي تمتع به أجدادي يومًا ما.

قلت لسامية: «أعتقد أن الأمور اختلفت كثيرًا عما كانت عليه وقت الأجداد».

ردت: «نعم، حتى العلاقات بين أوطاننا اختلفت».

سألتها: «بدأت حالة من الهلع من الإسلام تعم الغرب. هل الأمر بهذا السوء؟ »

ردت قائلة: «لم لا تذهبين لتكتشفي بنفسك؟ »

قلت: «ربما أفعل ذلك».

بدأت التفكير بجدية في الذهاب إلى مصر، ولكني لم

أكن واثقة مما سأجده بعد سنوات البعد الطويلة. فكرت في الصدمة التي أُصيبت بها والدتي بعد عقود من

الغياب، والفرق الشاسع الذي وجدته بين أيام الطفولة، والمراهقة الوردية، وبين ما آلت إليه الأمور. هل سأستطيع التعرف على القاهرة بعد سنوات الفراق؟ ماذا

عن أصدقائي؟ بدأت أبحث في مفكرة أرقام الهواتف القديمة. ماذا لو تغيرت أرقام الهواتف؟ ماذا لوذهب أصدقائي بعيدًا؟ ماذا لو أصابني الإحباط؟ أليس من

الأجدر بي أن أحتفظ بالذكريات السعيدة دون العودة مرة أخرى؟ انتصر فضولي في نهاية الأمر على كل هذه الأفكار، وقررت السفر إلى مصر.

قلت لوالدتي التي سافرت أكثر من مرة إلى مصر بعد رحيلنا. كنت أدرك أنها ستكون مرشدًا جيدًا لي إذا ما خانتني ذاكرتي: «لماذا لا نسافر معًا؟ "

- هل تعتقدين أنها فكرة جيدة؟

- أريد أن أرى بنفسي. لا أستطيع تخيل أن الأمر قد اختلف تمامًا بمصر عمَّا كان عليه وقت إقامتي.

- حسنًا، فلنذهب إذن.

كنت أخشى مما سأراه، لكني لم أستطع أن أضفر ذكرياتي القديمة مع ما أشاهده عبر التلفزيون، وما سمعته من إمام المسجد في ستوكهولم.

تركت الأطفال مع زوجي في ستوكهولم، وسافرت إلى القاهرة. ركبت الطائرة عائدة إلى مصر، إلى سنوات شبابي. كنت أسمع دقات قلبي السريعة، وأستشعر

جفاف حلقي، وأنا أحاول أن أتخيل ما سأجده بمصر بعد

الفصل التاسع عشر

ما بعد الحادي عشر من سبتمبر

بمجرد أن فُتحت أبواب الطائرة تسللت إلى أنفي رائحة مميزة، رائحة أعرفها جيدًا، وأذكرها، رائحة القاهرة التي باغتتني كصفعة على الوجه لتعيدني على الفور

إلى الماضي. كانت الرائحة مزيجًا من حريق القمامة، وشجر الكافور. كانت القطط تجري حولنا كالعادة. قلت لنفسي، وقد عرفت الابتسامة طريقها إلى شفتي: « لم

يتغير شيء».

لم أجد بعد ذلك أي شيء شبيه بما كان عليه الوضع سابقًا. تم تحديث المطار كثيرًا» .

سألني رجل: «هل تريدين تاكسي؟»

قلت: «نعم، بالتأكيد».

شعرت بالراحة لوجود تاكسي يقلني في الحال بدلًا من السير في الشارع للبحث عن تاكسي ليبدأ الجدال حول الأجرة. نسيت اللغة العربية بعد أن كنت أتحدثها

بطلاقة. حاولت أن أستعيد الكلمات، والحروف، وقواعد اللغة.

لم يعد تغيير العملة الصعبة إلى عملة مصرية مشكلة كما كان سابقًا. كان الدولار الأمريكي هو أكثر العملات جذبًا في مصر. كنت أذهب في الماضي إلى بائع تبغ

شهير لتغيير العملة. كان أغنى رجل في المدينة، وكان يعطيني دائمًا أفضل الأسعار، وأحيانًا كان التعامل معه آمن عن البنك.

سألتني والدتي: «هل تذكرين عندما أخذت النقود من البنك لرحلة لندن؟ »

أجبت: «نعم، وعندما حاولتِ تغييرها بعد ذلك تم القبض عليك بتهمة التزوير».

اتضح أن النقود مزورة. أنقذ جواز السفر الدبلوماسي والدتي من قضاء الإجازة وراء القضبان.

خرجنا من المطار، ومعي الجنيهات المصرية. كان الجو حارًّا فضلًا عن الرطوبة، والفوضى المعهودة في الشارع. ركبت التاكسي. التصقت ملابسي بالكراسي المغطاة

بالبلاستيك. شعرت بظهري مبللًا من أثر الحرارة، والرطوبة.

سألت والدتي بانزعاج: «لماذا يحتفظ بهذا البلاستيك على الكراسي؟ »

قالت: «لتبدو السيارة جديدة دائمًا».

قلت: « أعتقد أنها تحمي السيارة أيضًا».

يقع المطار في إحدى ضواحي القاهرة. استمتعت برؤية المدينة بينما يقودنا السائق عبر شوارع القاهرة، وأزقتها. كانت الأشجار على وشك الازدهار.

قلت لوالدتي: «ما أجمل هذه الزهور الحمراء، إنه موسم ازدهارها».

بدا المشهد مألوفًا لي بعد ذلك باستثناء النسبة الزائدة في كل شيء: أعداد الناس، والسيارات، والحفر بالشوارع، والتلوث. مررنا على قصر البارون إمبان، تلك

التحفة المعمارية الرائعة. القصر عبارة عن متحف يضم تحفًا، وتماثيل من الذهب، والبلاتين. صُنعت أرضيات

القصر من الرخام، والمرمر الأصلي، بينما صُمم

القصر بطريقة تجعل الشمس لا تغيب أبدًا عن حجراته، وردهاته.

قلت لوالدتي: «كان هذا القصر أول شيء أصطحب السائحين لرؤيته عند وصولهم القاهرة».

قالت: « إنه قطعًا قصر ذو تصميم معماري فريد».

مررنا بعد ذلك بمقر السفارة الإيرانية، قلت: «ماما، هل تذكرين الكا ڤ يار الذي تناولناه هنا؟ »

ردت: «وكيف لي أن أنسى؟ »

تلقت عائلتي دعوة إلى حفل استقبال بمقر السفارة الإيرانية قبل تنحية شاه إيران. من الصعب نسيان الكاڤيار الإيراني. استقرت عائلة الشاه في القاهرة بعد سقوط

عرشه. اعتاد ابنه أن يأتي للرقص معنا في ديسكو الهيلتون. كان دائمًا في حماية حرسه الخاص.، لكنه بدا مثله مثل أي شاب آخر في مجموعتنا إذا ما نسينا الحرس

الذي يحيطه. واجهت عائلة الشاه ظروفًا قاسية بعد نفيهم من إيران إلا أن الرئيس أنور السادات أحاط العائلة بكرمه، وحمايته. كتبت السيدة چيهان السادات في

سيرتها الذاتية عن وصول شاه إيران، وحاشيته إلى مصر، كما وصفت زوجة الشاه الفاتنة فرح وصفًا ينبض بالحياة. وصلت عائلة الشاه إلى مصر في شهر يناير عام

1979 . كان الأمل يحدو العائلة التي ظنت أنها في رحلة قصيرة حتى يأتي موعد العودة إلى إيران مرة أخرى. تقلد الخوميني حكم إيران، ونجح الأصوليون في غلق

باب الحداثة في وجه إيران منذ ذلك الحين وحتى الآن.

قالت والدتي بحزن: «اضطرت ليلى لغلق مسرحها في نفس العام الذي وصل فيه الشاه بسبب عرض مسرحية ساخرة عن تعدد الزوجات».

قلت: «يبدو أن المصريين يتم قهرهم من قبل الدولة، والدين».

أقمت مع والدتي في حورس هاوس. لم أستطع التعرف على ضاحية الزمالك، حيث تم هدم الكثير من ال ف يلل، وإبادة الحدائق المحيطة بها لتحل محلها

ناطحات السحاب. الشيء الوحيد الذي ظل على حاله مشعًّا بالجمال وسط هذا القبح هو مكتبة الجامعة الأمريكية التي زُينت بالمشربيات على الطراز العربي.

بمجرد خروجي من التاكسي، راودتني مشاعر مختلطة، مزيج من الحنين، والراحة أني قد رحلت قبل غزو هذا الانحدار. مشينا عبر المبنى القديم، ودخلنا المصعد

الخشبي الذي أُغلق بابه بصعوبة، وصعدنا إلى الطابق الرابع. استطعت التعرف على عين حورس المرسومة باللون الأحمر على باب المصعد.

قلت في إشارة إلى ابني الأصغر: «يستطيع مايكل رسم هذه اللوحة بشكل أفضل».

استطاع حمال الحقائب التعرف بسرعة على والدتي التي كانت كثيرة التردد على المكان.

«أهلًا وسهلًا».

استقبلنا الجميع بابتسامة كان لها وقع السحر علينا، حيث زالت كل متاعبنا الجسدية من جراء الرحلة

الطويلة. كان الجميع يتبادل التحية في القاهرة على عكس
ما هو سائد في المجتمع الغربي.

اصطحبنا عامل الفندق إلى غرفتنا التي كانت بسيطة، لكن نظيفة، وتتوافر فيها المياه الباردة، والساخنة.

قال حامل الحقائب بعد أن أعطيته البقشيش: «أنت هنا محمية من العين الحاسدة الشريرة».

فهمت بعد ذلك رمزية عين حورس. يؤمن المصريون بالعين الشريرة والحسد. قد يكون هناك بعض الحكمة في هذه الخرافة إذا ما أخذنا في الاعتبار قوى الغيرة

المدمرة.

«أنا أتضور جوعًا».

قالت والدتي بحكم معرفتها بالمكان لترددها الدائم عليه: «سنتناول الغذاء حالًا. عادةً ما يكون الغذاء جيدًا هنا».

جاء محمد الطباخ لتحيتنا، ومعه الغذاء.. الأرز المصري مصحوبًا بشرائح البصل، واللحم، والبيرة المثلجة.

«كنت قد نسيت حلاوة مذاق الطعام المصري».

«انتظري حتى يأتي محمد ببقية الطعام».

تم تقديم فاكهة المشمش، والفستق قبل القهوة التركي الممزوجة بالحبهان. كنت أستعد للقيلولة كعادتي دائمًا في مصر عندما أتت آمال صديقتي لزيارتي. لم تتغير

آمال كثيرًا. بدت كما أتذكرها تمامًا فيما عدا شعرها الأسود القصير. ارتدت آمال ثوبًا قطنيًّا أنيقًا يتناسب مع

جسدها الصغير، وصندلًا لونه بيچ بكعب مرتفع.

تعانقنا، وتبادلنا التحية.

قلت لآمال: «تبدين كما كنت دائمًا».

قالت: «أنتِ أيضًا كما أنتِ باستثناء شعرك الذي صار أقصر مثلي تمامًا. استعدي بسرعة، سأكون بانتظارك في سيارتي، ومعي السائق».

كان معظم أصدقائي المصريين لديهم سائق كنوع من الرفاهية تمامًا كمكيف الهواء في سيارة آمال. شعرت بالراحة في ظل برودة السيارة بعيدًا عن حرارة الطقس، وازدحام المرور المحيط بنا.

قالت آمال مبتسمة وقد رأت الدهشة على وجهي: «أصبح لدى العديد من الناس أدوات حديثة الآن ».

رجع الكثير من المصريين المتعلمين بالخارج إلى مصر بفضل الاقتصاد العالمي، الأمر الذي سمح لهم بالاستثمار في شركات خاصة.

أضافت آمال: «حتى الچاجوار والرولس رويس أصبح لديهم منافذ بيع لأول مرة منذ ثورة 1952 ».

- هل ما زلت تمتلكين مطعمًا للدجاج؟

- نعم، العمل بالمطعم يسير بشكل جيد، كما أني أملك فرعًا آخر للمطعم بالقرب من الإسكندرية. يجب أن تأتي لزيارته.

- كيف يستطيع الناس الوفاء بالالتزامات المالية لمواكبة هذه الحياة المرفهة؟

- التجارة، والسياحة في نمو دائم، والأمور تسير بشكل جيد بالنسبة لنا.

أخذتني آمال إلى نادي الجزيرة الرياضي. كان نادي الجزيرة في عهد جدودي يقتصر على المهندسين، وعدد محدود من المصريين. اعتاد طورشتين وهيلدا الذهاب إلى

النادي للعب التنس، والجولف، ولممارسة السباحة. زاد عدد أعضاء النادي بعد ذلك ليصل إلى بضعة آلاف، أما الآن فلقد وصل إلى ثلاثين ألف عضو يتحركون في

مساحة ضئيلة خاصةً بعد أن تم تحويل ملاعب الجولف إلى ملعب لكرة القدم. رويت لآمال كيف اعتاد جدودي حضور مسابقات الجياد، ومباريات البولو، كما

رويت لها عن الجياد العربية التي يتميز بها هذا الركن من أركان العالم.

قالت آمال: «ما زالت هناك عروض لسباق الجياد. لقد حضرت إحدى العروض حديثًا».

قابلت بعض الأصدقاء القدامى في النادي، حيث كان النادي مكان تجمعهم، ومقابلاتهم. دُهشت كثيرًا عندما عرفت أن معظم أصدقائي لديهم طفل واحد فقط

على عكس ما عرفت عنهم من حبهم للعائلات الكبيرة العدد.

قالت آمال: «أصبحت نفقات الحياة باهظة الثمن، ومن الصعب تربية الأطفال في القاهرة، فالتعلم الخاص أصبح شديد الغلاء، كما ارتفعت أسعار الشقق،

وكما ترين نحن نقطن منازل والدينا».

أدهشني أيضًا تربية الكلاب في المنازل على عكس ما هو سائد في الدول المأهولة بأعداد كبيرة من المسلمين، حيث تُعد الكلاب نجاسة، إلا أن تربية الكلاب

في القاهرة
أصبحت شائعة عند علية القوم.

قلت لصديقي طارق الذي كان عنده كلبان: «هل تربون الكلاب الآن في المنازل».

أجاب: «نعم، الكلاب بدلًا من الأطفال».

قلت لنفسي، وأنا أفكر في الكلاب التي أربيها، وأصطحبها كل صباح للتنزه في حدائق ستوكهولم: «لم أفكر يومًا في تربية الكلاب في مدينة مزدحمة خالية من المساحات الخضراء، ومليئة بالحشرات».

حاولت المرأة الحفاظ على جاذبيتها من أجل زوجها في خضم ذلك المشهد العبثي للحياة في القاهرة. ارتفعت معدلات الطلاق لتضاهي مثيلاتها في ستوكهولم، لكن الحال ما زال مختلفًا إذا ما قُورن بوضع المرأة في السويد التي أصبحت مستقلة ماديًّا، وقادرة على اتخاذ خطوة الطلاق، والمبادرة بها، حيث عادةً ما كان يبادر الرجل بخطوة الطلاق في مصر.

قالت آمال: «تحاول المرأة المصرية ممارسة الرياضة للحفاظ على قوامها».

قلت: «كما اعتدنا أن نفعل سابقًا في مركز الرقص، والتمرينات الرياضية».

قالت: «نعم، لكن أثناء إقامتك لم يكن هناك سوى مدرسة الرقص، والتمارين الخاصة بنا، أما الآن فهناك العشرات من تلك المدارس، والمراكز الرياضية، حيث أصبحت المرأة المصرية شغوفة بتنسيق قوامها كالغربيات، كما انتشرت جراحات تجميل الوجه الآن».

قالت عمة آمال صديقة والدتي، وواحدة من أكثر النساء أناقة: «يأتي جراحون من سويسرا لإجراء تلك العمليات الجراحية».

أصبح الجميع على دراية بجراحات التجميل. عدد أثرياء المجتمع المصري قليل، وجميعهم متابع جيد لما يحدث في عالم التجميل، وفي هذا الشأن تشبه القاهرة ستوكهولم كثيرًا.

قلت لعمة آمال وأنا أفكر في هذا الجمال الطبيعي الذي تتمتع به، والأناقة التي تتميز بها: «بالتأكيد أنتِ لا تحتاجين إلى أية عمليات تجميل. تبدين متألقة كعادتك. أنت تذكرينني بأودري هيبورن».

التحولات التي حدثت في مصر كانت بالطبع في صالح الشريحة الأدنى من الطبقة المتوسطة التي عادت من دول الخليج محملة بالأموال لتجني ثمار تعبها، فكانت تلك هي الطبقة التي تتسوق في المراكز التجارية المكيفة، وتتردد على المطاعم، وتسافر إلى البحر الأحمر لقضاء إجازتها.

قالت آمال: «لم تعد هذه الشريحة من المجتمع أمية، لكنها ليست مثقفة أيضًا».

- إذن فهذه الشريحة من المجتمع لا تثق بالليبراليين.

- بالضبط، كما أنها لا تثق بالمثقفين، أو بأي أحد يختلف معها في الرأي.

- هذا يفسر كساد، وركود المجتمع.

قالت آمال وكأنها تحدث نفسها: «كلما أفكر كيف كانت الحضارة الإسلامية مهيمنة، وكيف اعتاد الغربيون القدوم إلى هنا للتعلم منا..».

حالت العديد من العوامل دون تقدم وتطور المجتمع المصري مثل الافتقار إلى حرية الصحافة، وحرية المرأة، والافتقار إلى الانتخابات الحرة أيضًا.

قلت لوالدتي: «القنبلة الموقوتة ما زالت على وشك الانفجار».

- ماذا تعنين؟

- يبدو أن الفجوة بين الأغنياء، والفقراء في اتساع دائم منذ رحيلي.

تذكرت حديث والدتي عن صعود الأصوليين، وازدياد الفقراء فقرًا.

قالت والدتي: «هل رأيتِ أية علامات تشير إلى الغضب؟ »

قلت وأنا أشعر بالارتباك، فهناك ثمة تناقض بين ما رأيته، وما أستشعره تحت السطح: «لا، يتسم الجميع بالمرح كالعادة. لم ألحظ أي شعور بالاستياء، على

الأقل تجاهي».

علقت والدتي: «حسنًا، فلنذهب إلى الفسطاط إذن لأريكِ بعض الأشياء هناك».

كانت تلك المنطقة العتيقة ذات الطابع المسيحي سابقًا شديدة الفقر إلا أنها شهدت نوعًا من الإحياء لصناعة ملابس الكتان، والسجاد اليدوي. سرت مع والدتي

نتفقد بعض المحلات الصغيرة ذات الطراز الإسلامي.

قلت بانبهار: «لقد تحسنت الأمور هنا بالفعل».

قالت والدتي: «نعم، انظري إلى تلك المحلات التجارية التي تحوي كل ما هو مصنوع يدويًّا».

قلت لوالدتي وأنا في حيرة من أمري: «لا بد أن هناك شيئًا ما مفقودًا. أين المتطرفون الذين نسمع عنهم في أوربا؟! »

أجابتني والدتي بحكمة: «ليسوا هنا على الأرجح».

شهدت مجالات الخدمات المالية، والتصميم تطورًا كبيرًا في المدينة، كما ارتفعت بعض المرتبات أيضًا إلا أن أوضاع الفقراء لم تتحسن سوى من خلال بعض جهود

المتطوعين المتفرقة لمساعدة هؤلاء الفقراء. لا يوجد أحد يتضور جوعًا رغم الفقر. يعيش الكثير من الناس في العشوائيات في أطراف القاهرة المترامية .أعداد المشردين

بلا مأوى في القاهرة أقل منها في باريس، وستوكهولم.

قالت والدتي: «يساعد الناس هنا بعضهم البعض. الأمر مختلف عما هو عليه في الغرب».

تمد المساجد هؤلاء المشردين بالماء. دخلنا أحد المساجد في الفسطاط لنرى بعض الرجال يغتسلون في نافورة المياه هناك.

قالت والدتي، وهي تشير إلى الرجال الذين يغتسلون: «أرأيت؟ هكذا يحتفظ هؤلاء بنظافتهم».

كانت نسبة العنف في مصر ضئيلة . يرجع هذا إلى دوريات الشرطة التي تجوب الشوارع، وإلى طبيعة الشعب المصري المسالمة. ظلت فكرة واحدة تهيمن عليَّ: هناك

شيء مفقود، شيء لا أستطيع الوصول إليه.

قلت لوالدتي: «يبدو أن هذا الهوس بالإسلاميين في أوربا لا أساس له من الصحة».

قالت والدتي، وقد وافقتني الرأي: «يميل الناس إلى التعميم أحيانًا. لقد تحسنت أشياء كثيرة هنا كما أرى».

شعرت بالراحة للتواصل مع ذكرياتي، ولكون مصر ما زالت مصر التي أعرفها حتى لو كان هناك الكثير مما يتوجب تحسينه، وإنجازه.

قلت لوالدتي: «فلنذهب إلى ماريوت لتناول البيرة».

كان الليل ينسج شباكه على القاهرة. قررت أن أطرد بعيدًا كل الأفكار التي تتصارع في رأسي. رجعنا إلى الزمالك، تلك المنطقة الآمنة القريبة إلى نفسي.

لم يتبق في مصر سوى بضعة ڤ لل، وقصور تحول معظمها إلى سفارات. كان ماريوت نفسه قصرًا قديمًا يعود بناؤه إلى القرن التاسع عشر. تمت صيانته،

وإعادته إلى حالته ليتحول بعد ذلك إلى فندق فاخر.

قالت والدتي، وقد استدعت ذكريات الماضي البعيد، وسافرت عيناها الزرقاوان عبر المسافات لتستقر في ركن سحيق من أركان الماضي الذي لا يعرفه أحد سواها: «كان هذا القصر ملكًا في شبابي لعائلة لطف الله. اعتادت هذه العائلة تنظيم حفلات رقص فارهة، واعتاد والداي الرقص حتى الفجر».

بنى الخديوِ إسماعيل هذا القصر للترحيب بالملكة أو ﭼ يني للترويح عنها في أثناء إقامتها في القاهرة.

قالت والدتي وهي ترينى اللوحة المعلقة على جدران القصر: «انظري إلى هذه اللوحة البديعة لوجه الإمبراطورة».

كان مكيف الهواء كارثة كعادة جميع الفنادق الفارهة، حيث البرودة الشديدة التي حتمًا تصيب المرء بنزلات

البرد.

قلت وأنا أنظر إلى الفندق الذي ما زال يحتفظ بأناقته، وحديقته المزدهرة: «الطقس هنا شديد البرودة، فلنخرج من الفندق الآن».

احتسينا البيرة المصرية « ستيلا»، وأكلنا « المَزة»، وطلبنا من الجرسون تشكيلة من أطباق الطعام المصرية مثل « بابا غنوج»، وورق العنب، والحمص، وشرائح

البصل، والعيش البلدي.

قال الجرسون بفخر وهو يشير إلى الفرن المصنوع من الطوب: «الخبز طازج، من الفرن إلى المائدة».

تحتوي معظم هذه الأطباق على الفول مما يصيبني بعسر الهضم. كنت أحاول تجنب أي شيء من شأنه أن يصيبني بالدوسنتاريا الأميبية.

اقترحت على والدتي أن نرجع إلى الفندق سيرًا على الأقدام لنتأمل الشوارع، ونرى ما تغير منذ رحيلنا.

قالت والدتي ضاحكة مشيرة إلى الكم الهائل من السيارات الذي اجتاح شوارع القاهرة: «هذا إذا استطعنا عبور الشارع».

يُعد شعار البقاء للأقوى أهم قوانين المرور في مصر. كان عبور الشارع يتطلب ثلاثة أشياء: النظر إلى عين السائق لاكتشاف ما إذا كان سيقف ويسمح لنا بالعبور أم

لا، واستخدام اليد للإشارة والابتسام، وأخيرًا الجري بسرعة لعبور الشارع. هكذا وصلنا إلى الرصيف المقابل. لم يكن هناك متسع للمشاة حيث احتلت السيارات

الرصيف.

- كم أنا سعيدة لرحيلي عن مصر قبل إنجاب الأطفال، ففكرة السير بعربة الأطفال هنا تبدو كحلم مزعج. هذا إلى جانب استحالة ركوب الدراجة.

- نعم، ما زلت أذكر عبور الشوارع، والكباري بدراجتي عندما كنت أذهب إلى المدرسة. كان اليوم الدراسي ينتهي قبل الغداء، وكنت أسرع للعودة إلى منزلي لعبور

الكوبري قبل أن يتم فتحه لمرور « الفلوكة». أحيانًا كنت أعبر الكوبري الآخر، والأبعد في حالة تأخري. كان كل شيء مختلفًا عندما كنت صغيرة. كان يتم تمرير كل

أنواع البضائع من حجارة وفاكهة عبر النيل، لا من خلال عربات نقل البضائع كما هو الحال الآن.

مررنا أثناء السير بسيدتين تستندان على شيء ما تبين بعد ذلك أنه غسالة.

سألت والدتي السيدتين: «ما الذي تفعلانه؟»

قالت السيدة التي ارتدت فستانًا مليئًا بالورد، وغطاء رأس ملونًا محكمًا حول رأسها وعلى وجهها ابتسامة تكشف عن غياب أسنانها: «اشترينا غسالة جديدة

لغسيل الملابس».

اعتادت السيدات ذوات الدخل الضعيف التكاتف من أجل توفير مستلزمات المنزل من خلال ما يُطلق عليه « الجمعية » حيث تدفع كل سيدة مبلغًا بسيطًا من

المال كل شهر، وبهذا تستطيع كل سيدة شراء ما ترغب فيه. كانت تلك الطريقة أكثر فعالية من البنك. كان المصريون خبراء في تجنب دفع الضرائب، واتخاذ

القرارات الإدارية، كما كانوا خبراء في استخدام كهرباء

الشارع بشكل غير قانوني من أجل توفير النفقات.

صاح أحد الباعة الجائلين: «بطيخ طازج».

تخطى عدد الباعة الجائلين في مصر العشرين ألف بائع.

قلت لوالدتي: «يبدو هذا البائع صغير السن نسبيًّا».

قالت والدتي: «عمالة الأطفال محظورة بحكم القانون، إلا أن هناك العديد من الأطفال يعملون في كافة أرجاء مصر».

قررت في اليوم التالي أن أتفقد الموقف لمعرفة المزيد. أرادت والدتي التواصل مع أصدقائها القدامى، ووجدت أن فكرة إجراء مقابلة معهم فكرة جيدة. أوقفنا

التاكسي، وطلبنا منه التوجه إلى 54 شارع ثروت.

وصلنا، ووقفت أحدق في المبنى الأنيق العتيق الذي في حاجة ماسة إلى تجديد، ومع ذلك استطعت أن ألمح بقايا من عبق الماضي الجليل في إطلالة المبنى. صعدنا إلى

محل ليلى، وعثمان رشاد. كان المحل في الطابق الخامس. دخلنا المصعد القديم، وساعدنا حارس العمارة في الضغط على رقم خمسة، حيث كان المصعد يعمل

بصعوبة نظرًا لقدمه.

تناولنا الشاي بعد إلقاء التحية على ليلى ورشاد. كانت ليلى، مثلها مثل غالبية جيلها، أنيقة المظهر، وتفضل الموت على عدم صبغة الشعر، أو عدم طلاء الأظافر.

بدت ليلى وقورة الملبس، وهي مرتدية الجونلة البنية اللون ذات الطول الموازي لركبتها، والبلوزة المقلمة، والشال الذي يتدلى على كتفيها رغم حرارة الجو.

جلست على المقعد أحتسي الشاي، ونظرت حولي أتفقد المحل الذي كان في الأساس شقة. امتلأ المحل بالقطع الفنية مثل المشربية، والمجوهرات الفضية، والقماش

المزركش المرسوم عليه بديع الصور، والفخار، و « الجلابية»، واللوحات التي قام برسمها فنانون مصريون. تم جلب القطع المصرية المصنوعة من الفخار من عائلة

ويصة واصف، العائلة التي كانت على علاقة وطيدة بآل طورشتين سالين.

قالت ليلي: «كانت العزبة الخاصة بنا مجاورة لمصنع الفخار إلا أننا اضطررنا لبيعها بسبب مشكلات السرقات المتزايدة».

سألت ليلى: «هل كان أجدادي يأتون لزيارتك في العزبة؟»

ردت: «نعم، كان جدك يعشق قيادة سيارته بأقصى سرعة، وكان يتردد على العزبة كثيرًا، بينما كانت هيلدا تعشق قضاء الوقت بحديقتنا.. كم كانت سيدة

رائعة!».

- هل تعتقدين أن مصر الآن تختلف تمامًا عما كانت عليه في السابق؟

- بالتأكيد. الانفجار السكاني، ونزوح العديد من المواطنين إلى العاصمة، والفقر، كل هذه العوامل جعلت مصر أقل أمانًا مما كانت عليه في السابق.

ودعنا ليلى، وزوجها، ونحن لا ندري إن كنا سنراهم مرة أخرى أم لا.

- إنهم جزء من ماضيك، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لكن هناك مكان آخر اعتاد جدودك التردد عليه. دعيني أصطحبك إلى هناك.

المكتبة الفرنسية إي ڤ ت فارازيلي الواقعة في شارع قصر النيل الذي كان يُعد من الأماكن الشيك. المكان يستحق منا جولة لاسترجاع ما مضى.

قالت والدتي: «اعتادت جدتك هيلدا شراء الكتب، والمجلات من هنا، لي، ولها».

كانت المكتبة مكتظة بالكتب. تخيلت هيلدا، وهي تتفحص الكتب، وتقلب صفحاتها حتى تستقر على الكتاب المناسب. تملكني شعور غريب، وأنا أقف في نفس المكان

الذي وقفت فيه هيلدا، ولكن في زمن غير الزمن. هل كانت القاهرة أكثر أمانًا حينها؟ سؤال ألح على ذهني بقوة. يبدو هذا وفقًا لما قرأت، وسمعت، لكني أعلم

أيضًا أن حركة الإخوان المسلمين بدأت في عام 1928 ، أي مع بداية إقامة جدودي في مصر.

قلت لوالدتي: «لا بد أنه كان هناك بعض القلق حينها».

- لا بد من هذا. كانت هناك حركات سياسية مختلفة، ومتعددة في مصر التي كانت تخطو نحو الديمقراطية.

- ازداد الأمر سوءًا إذن.

- نعم، هكذا هي الديكتاتورية . الديكتاتور لا يرغب أبدًا في وجود منافسين، لكن دعينا نكمل السير، والتجول في المكان الذي اعتادت جدتك التجول فيه.

مررنا على جروبي. كنا في شدة التعب. أثرت حرارة الطقس على مظهرنا، فلم نبدُ في كامل أناقتنا ونحن نخطو إلى داخل جروبي، ونصعد الدرج الرخامي.

قالت والدتي: «اعتادت جدتك هيلدا أن تشتري لي مشروب الشوكولاتة الساخن، وقطعًا من الكعك من هنا، كما اعتادت سيدات المجتمع الراقي التجمع هنا».

قلت، وأنا أنظر إلى تشكيلة المخبوزات التي تبدو فقيرة إذا ما قُورنت بالمخبوزات الباريسية: «لم يعد الكعك، والمخبوزات على نفس المستوى، والجودة».

قالت والدتي، وهي تنظر إلى المصابيح الحديدية التي تتدلى من سقف المكان كعناقيد العنب: «لكن ديكور المكان لم يتغير».

جلسنا لنستريح، وطلبنا كوبًا مثلجًا من الكركديه. لم يكن لدينا متسع من الوقت في القاهرة، وكانت والدتي حريصة على أن تزور معارفها، وأصدقاءها.

قالت والدتي: «فلنرجع إلى الزمالك لرؤية فايد».

- مَن هوفايد؟

- فايد فريد.. كان يعمل دبلوماسيًّا، إلا أنه تقاعد عند تولي عبد الناصر مقاليد الحكم.

- لماذا؟

- ربما بسبب الإشاعة التي تقول إنه ابن الملك فؤاد. اعتادت زوجته تنظيم حفلات الاستقبال الفارهة، وكانت تجوب شوارع القاهرة بسيارتها البنتلي، لكنها عانت الأمرين في عهد عبد الناصر كسائر أفراد الطبقة الأرستقراطية.

لم يكن فايد موجودًا عندما ذهبنا لزيارته، لكننا قابلنا بالصدفة الأميرة نعمت عمرو التي جُردت من جميع ممتلكاتها . نشأت الأميرة نعمت في قصر ساحر تمت مصادرته بعد الثورة. ما زال القصر موجودًا كمتحف إلا أن

العديد من كنوزه قد نُهبت بعد الثورة ليضيع جزء من تراث مصر للأبد. شعرت أني أسافر عبر الزمن،

وأنا أقابل هذه الشخصيات الفريدة، وكأنني رجعت للعصر الذهبي عندما كانت القاهرة مدينة أنيقة على الطراز الأوربي تتألق بحفلاتها المضيئة في القصور

الفخمة، حيث ملابس النساء التي تتبع أحدث صيحات الموضة.

كانت الأوبرا التي اعتاد أجدادي التردد عليها جزءًا من ذاكرة الماضي. تعرضت الأوبرا لحريق مدمر رغم وجود مقر المطافئ إلى جوارها. قام اليابانيون ببناء دار الأوبرا

الجديدة على الطراز الإسلامي، إلا أن مقاعدها كانت تناسب الأجسام اليابانية النحيفة. ألحق اليابانيون حديقة رائعة بالأوبرا التي استقبلت العروض المسرحية

الأجنبية، وفرق الباليه.

قالت والدتي: «يتم توزيع معظم التذاكر للشخصيات الشهيرة التي لا تعبأ بالذهاب إلى الأوبرا».

قلت وأنا أتخيل نفسي أستمع إلى الموسيقى في ليلة من ليالي القاهرة الدافئة المرصعة بالنجوم: «كم أود أن أحضر حفلة من حفلات الچاز هنا».

استكملنا جولتنا في حي الزمالك، واكتشفت وجود العديد من صالات عرض الفنون الجديدة إلى جانب إصدار مجلة فنية شهيرة.

- يبدو لي أن المشهد الفني في مصر قد ازدهر ليشهد حراكًا لم يكن موجودًا وقت إقامتي.

- نعم، أوافقك الرأي. يبدو أيضًا أن الرقابة قد تركت هذه الفنون دون فرض أية قيود عليها.

قمنا بعد ذلك بزيارة قصر محمود خليل. أعجبت بمجموعة الزجاج، والسيراميك المعروضة. درس محمود خليل في باريس، وهناك تعرف على زوجته الفرنسية

إيميلي هيكتور. كانت تتم دعوة آل سالين دائمًا لحضور الحفلات الشديدة الرفاهية في أروقة القصر. كتبت هيلدا في إحدى خطاباتها في مارس عام 1936 تقول: « جاء القاضي الدانيماركي، وزوجته آل بيكمان لاصطحابي إلى حفلة استقبال بقصر محمود خليل. كان القصر فاتن السحر يعج ببديع اللوحات».

قلت بسعادة لوالدتي: «حتى الآن لم أرَ رجلًا ذا لحية».

ذكرتني والدتي بحقيقة أن حي الزمالك مأهول بالطبقات الأرستقراطية التي استطاعت أن تنجو من التأميم، ومصادرة الأملاك، ففي حي الزمالك تجد أكثر الفئات

ثقافة، وتعلمًا، حيث يتحدث معظم قاطني الزمالك أكثر من لغة بطلاقة، كما يسافر معظمهم إلى العديد من بلدان العالم. لا يعكس حي الزمالك القاعدة

العريضة من المجتمع المصري. كانت الفروق بين الطبقات في مصر تزداد اتساعًا خاصةً فيما يخص التعلم.

قلت لوالدتي بإصرار: «لكني لم ألحظ أي رجل ذي لحية في الفسطاط أيضًا».

قالت: «معك حق».

بعد فترة طويلة من السير شعرنا بالتعب، وذهبنا لمقابلة نازلي على العشاء في إحدى المراكب النيلية القابعة على ضفاف النيل، بالتحديد مركبة نيلية يُطلق

عليها

اسم « باشا»، تلك الكلمة التي كانت تُستخدم كلقب وقت أن كانت مصر ملكية للإشارة إلى علية القوم. صارت الكلمة تُستخدم لمجاملة الأشخاص. اندثرت الألقاب، كما اندثر « الطربوش» الذي كان يرتديه البعض في حفلات التنكر. نظرت إلى النيل، ولم أستطع منع نفسي من التفكير في المراكب النيلية في سياق آخر مختلف. أطلت الذكريات عليَّ من نافذة الماضي، وتذكرت صديقي فؤاد، وحديثه معي.

همس فؤاد في أذني ذات يوم قائلًا: «تمت مداهمة المثليين على هذه المركبة النيلية».

كان فؤاد رجلًا مصريًّا أنيقًا يرتدي الملابس الأوربية الطراز، وكان واسع الثقافة، ويتحدث لغات كثيرة بطلاقة. درس فؤاد الأدب في جامعة أكسفورد، لكنه قرر الرجوع إلى مصر ليعتني بوالديه المسنين.

سألته: «ماذا تقول؟ »

قال فؤاد: «الجنسية المثلية ممنوعة في مصر، ألا تعرفين هذا؟»

قلت له: «إذن فأنتم تتقابلون في الخفاء! »

رد: «نعم، ولقد تم اكتشاف هذا. لقد كنت بالمصادفة مريضًا في هذا اليوم، ومكثت بالمنزل، لكنهم ألقوا القبض على صديقي عزيز».

اختنقت الكلمات في حلق فؤاد، وهو يروي لي ما حدث.

سألته: «ماذا حدث له؟ »

- أُلقي به في السجن، ولم أره منذ ذلك الحين. لقد

سمعت شائعات كثيرة عن التعذيب، والاغتصاب في السجن.

- هذا شيء بشع، لكني سمعت أن الجنسية المثلية شديدة الانتشار في الوطن العربي.

- نعم، وتزداد النسبة يومًا بعد يوم خاصةً في ظل الثقافة السائدة التي تجعل من المرأة منطقة محرمة، لكن انتشار الجنسية المثلية في الوطن العربي لا يعني تقبلها.

أفقت من ذكرياتي على صوت نازلي، وهي ترحب بنا، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة تعكس سعادتها بزيارتنا.

قالت والدتي وهي تقبّل نازلي على وجنتيها اليمنى واليسرى على غرار الطريقة الفرنسية في التحية: «كم أنا سعيدة برؤيتك».

قالت نازلي لي: «مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة».

بدأت كل منهما الحديث عن الأصدقاء المشتركين، وتبادلتا آخر الأخبار، والمستجدات، ولكني كنت شغوفة بالماضي.

سألتها: «كيف تعرف أجدادي على والديك؟»

أجابت: «كان والداي يمتلكان محلًا لبيع السجاجيد في شارع قصر النيل».

قالت والدتي: «اشترى جدك معظم السجاجيد الشرقية التي ورثتها من هذا المحل».

قالت نازلي وقد تملكها الحنين: «يجدر بكما الاعتناء بتلك السجاجيد، فهي تُقدر بثروة الآن. اعتدنا التسوق وسط المدينة للبحث عن الجديد في صيحات الموضة

الباريسية، والإيطالية. كان والدي يستمتع بقيادة سيارته الكرايسلر في شوارع القاهرة».

امتلكت عائلة نازلي مساحات شاسعة من الأراضي التي تمت مصادرتها في عهد عبد الناصر. لم يكن مسموحًا لهم سوى بامتلاك خمسين فدانًا على حد قول نازلي

التي فتحت فيما بعد محلًّا للأثاث أطلقت عليه اسم ميتريهان.

انهمكت الاثنتان في الحديث، بينما جلست باسترخاء بعد عناء يوم طويل أستمتع بنسيم الهواء. لاحظت أن موعد العشاء أصبح في العاشرة مساءً بعد أن كان في

منتصف الليل، بعض التغيرات المستمدة من الغرب.

قلت لنازلي: «يبدو أن رياح التغيير قد هبَّت».

قالت نازلي: «نعم، وبعض الأشياء تتطور في الاتجاه الصحيح».

قلت: «أرى أن المشهد الفني في مصر قد تغير للأفضل».

ردت: «إذا كنت من محبي الفنون، فلتذهبي إلى تحت الربع لإلقاء نظرة على المنازل الخشبية هناك».

قررت الذهاب بصحبة والدتي إلى تلك المنطقة العتيقة. كنت أبحث عن إجابات شافية لأسئلتي. أضناني البحث في محاولة مستميتة لفهم السبب وراء خوف الغرب

من الإسلام. كل ما رأيته حتى الآن كان يعكس تغيرًا إيجابيًّا، الأمر الذي تركني أكثر حيرة مما كنت عليه في السابق.

كان كل شيء مختلف في تحت الربع، حيث تجد الرجال،

والنساء بالجلباب القطني بدلًا من الملابس الغربية الطراز التي يرتديها الناس في المدينة، كما تجد المشربية بطرازها الساحر.

قلت وأنا مفتونة بالمكان: «هذا المكان أشبه بالحلم».

بعد بضع ساعات كنا قد تسوقنا، فقمنا بشراء القبقاب، والحقائب، والمنسوجات، ثم ذهبنا إلى خان الخليلي، وأكملنا التسوق بعد ذلك لنجد أنفسنا بجانب أفضل محلات الأقمشة.

قابلت العديد من أصحاب المحلات الذين تعرفت عليهم وقت عملي كمرشدة سياحية. كان هناك ثلاثة أسعار للبضائع في مصر: سعر للسائحين، وسعر للأجانب المقيمين في مصر، وسعر للمصريين أنفسهم.

قلت لوالدتي: «كم أشتاق إلى كوب من الشاي بالنعناع في مقهى الفيشاوي».

كان مقهى الفيشاوي مقهى قديمًا مُزينًا بكل ما هو عتيق. يذهب الرجال عادةً إلى المقاهي لتدخين « الشيشة » . يعشق المصريون المقاهي. هناك حوالي ثلاثين ألف مقهى في القاهرة وحدها. معظم الذين يترددون على المقاهي من الرجال. بعض المقاهي لها زبائن من فئات بعينها، فهناك مقهى للممثلين، ومقهى للموسيقيين، وآخر للمثقفين.

قلت لوالدتي: «العديد من الرجال يعانون من داء الكسل كما أرى. لا عجب إذن من عدم التقدم، والتطور في مصر».

قالت والدتي: «أشعر بالجوع، فلنتناول بعض الفطائر».

كانت الفطائر التي تُقدم بمصر رائعة حقًّا. طلبت والدتي فطيرة بالجبن المصري المالح أشبه بالفطائر اليونانية، بينما طلبت أنا فطيرة بالعسل المصري الحلو المذاق.

قلت وأنا أتذكر تلك المحلات التي كنت أتردد عليها دائمًا في الليل عندما كنت طالبة: «الخدمة هنا رائعة».

قالت والدتي: «حتى الآن يبدو كل شيء رائعًا. أوافقك الرأي، لا أثر للأصولية».

مرت امرأة محجبة من أمامنا. قلت، وما زال شبح الأصولية يهيمن عليَّ: «زادت نسبة الحجاب بمصر».

ارتعدت بمجرد التفكير في احتمالية وجود ملايين من المتطرفين يتآمرون ضد كل ما هو غربي في الخفاء.

سألتني والدتي فجأة بجدية: «هل تعتقدين أن المصريين سيصوتون لليبراليين إذا ما أُتيحت لهم الفرصة؟ »

- لست واثقة من ذلك، كما أنه لن يتسنى للمصريين أي انتخابات حرة في ظل نظام مبارك، ولا أعتقد أن الأمور ستتغير.

- لكن، هل تعتقدين أن الأصوليين قد يفوزون بعدد كبير من الأصوات إذا ما توافرت لهم انتخابات حرة عادلة؟

- لن أتفاجأ إذا حدث ذلك؟

- لماذا؟ لقد تحسنت الكثير من الأشياء كما نرى.

- نعم، تحسنت الأمور، لكن لمَن؟ هذا هو السؤال الأهم. ما زال الأغلبية يقطنون الأحياء الفقيرة في الريف، أو في مدن أخرى.

- أتمنى ألا أعيش، وأرى اليوم الذي يقع فيه بلدي الحبيب فريسة في يد الأصوليين.

قمت بزيارة شهيرة محرز في محاولة لمزيد من الفهم، والإيضاح.

قالت لي شهيرة وقد اصطحبتني في جولة داخل المحل الخاص بها: «أحاول مساعدة السيدات البدويات، والفلسطينيات. أطلب منهن منتجاتهن البدوية المزركشة.

هذه هي طريقتي للحفاظ على هذه الحرف اليدوية من الاندثار، ولمساعدة هؤلاء السيدات على الحياة، كما أني أبيع العسل، والزيوت الطبيعية مثل زيت الزيتون

».

كانت شهيرة امرأة موهوبة، وطموحة، وفنانة، إضافة إلى كونها محبة دائمًا لمساعدة الغير. عرفت الكثير من السيدات المصريات. جميعهن تمتعن بالاستقلال رغم

أن القوانين لم تكن في صالحهن. المرأة المصرية قوية. هناك دائمًا نوع من التآزر، والتكاتف بين السيدات المصريات بشكل رائع خاصةً إذا ما قُورن هذا بموقف

السيدات في الغرب. تحسن وضع المرأة قليلًا بفضل القوانين الأخيرة وفقًا لما سمعت.

قالت شهيرة: «يُعد هذا التحسن جيدًا، لكنه غير كافٍ».

قلت: «ماذا عن الأصولية الإسلامية؟ هل ما زالت في ازدياد؟ »

قالت: «عليك سؤال منى في هذا الشأن».

قابلت منى كراشي منذ سنوات بالصدفة حين ذهبت لزيارة شقة طورشتين، وهيلدا القديمة في جاردن سيتي. تجرأت، وقرعت جرس الباب.

قلت: «آسفة لتطفلي. اعتاد أجدادي العيش هنا في هذه الشقة منذ زمن بعيد. هل تمانعين أن ألقي نظرة على الشقة التي سكنها أجدادي ذات يوم؟ »

أجابتني السيدة التي كانت في منتصف العمر، وقد اعتلت الحيرة وجهها: «بكل تأكيد، تفضلي.. دعيني أقدم لك واجب الضيافة».

كان ذلك هو الكرم المصري المعهود الذي لا نسمع عنه في الغرب. تبادلت معها أطراف الحديث، وتبين أنها خريجة الجامعة الأمريكية مثلي، ودرست العلوم

الاجتماعية أيضًا. هكذا تعرفت على منى بالصدفة منذ عدة سنوات. شعرت بالسعادة للتواصل معها مرة أخرى. تبادلنا التحية، ثم بدأت أسألها عن الأصولية

الإسلامية، وأخبرتها عن اهتمامي بوضع المرأة في مصر. ذهبت منى في الحال، وأحضرت من مكتبتها الرسالة التي أعددتها لتناول هذه القضية. كسا التراب الرسالة

التي حملت عنوان: «الأصولية، والإسلام، والمرأة».

قالت منى: «فلتقرئي هذه الرسالة، وستجدين بعض الإجابات التي تبحثين عنها».

توجهت بمجرد رجوعي للفندق إلى الشرفة. أمسكت فنجان القهوة المصري بيد، ورسالة منى باليد الأخرى، ومضيت أقرأ بعض سطورها: «لا تشير الأصولية إلى الفكر المتطرف في تناول الإسلام والمنتشر في

السعودية، ولكنها تشير أيضًا إلى العنف ضد الغرب، وضد قيم الديمقراطية الغربية، وضد

المسلمين المعتدلين. تعود جذور كلمة الأصولية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أُطلقت هذه الكلمة على مجموعة من المسيحيين أرادوا اعتزال المجتمع ليحيوا

حياة كتلك التي كانت سائدة في عهد المسيح. تحولت الكلمة بعد ذلك، وصارت تُستخدم في اللغة العربية لتشير إلى المجموعة التي أرادت الحياة على نفس نهج

المسلمين الأوائل.

رفض الأصوليون التفسيرات الحديثة المعاصرة للقرآن، فهم يخلطون الدين بالعادات القديمة بالسياسة. لا يتردد الأصوليون في اللجوء إلى العنف للوصول إلى

أهدافهم التي تتمحور حول الحكم وفقًا للقوانين الإسلامية. يعارض الأصوليون بشدة مجتمعنا الحديث بما ينطوي عليه من مفاهيم خاصة بتحرر المرأة».

عرفت أن هناك حركات عديدة للأصولية الإسلامية، بعضها أشد عنفًا من البعض الآخر، إلا أن جميع تلك الحركات تتفق على معارضة أي تفسيرات معاصرة

حديثة للقرآن، فهم يريدون مجتمعًا بلا حراك، وبلا تقدم.

سألت منى: « هل يستخدمون الجِمال أو الخيل بدلًا من السيارات كما هو حال الآميش في أمريكا؟»

الآميش هم طائفة نشأت في العصور الوسطى، لا تؤمن بالتغيير، بل تؤمن بالالتزام بالعيش كما جاء بالإنجيل الذي بيدهم بحذافيره، كما أن لهم الزي الخاص

بهم.

قالت: «لا، فهم يعشقون استخدام المعدات الحديثة مثل السيارات، وأجهزة الحاسوب الآلي، والهاتف الجوال، إلى آخره».

قلت: «يا له من تناقض فج!»

اقتربت إقامتنا في القاهرة من نهايتها. على الرغم من كل شيء، شعرت بالسعادة للتواصل مع المدينة التي أحببتها كثيرًا.

قالت لي والدتي ونحن في طريقنا إلى المطار: «أترين؟ الأمر ليس سيئًا على الإطلاق».

شعرت أنا ووالدتي بسعادة غامرة غير مدركتين لما يعتمل من براكين تحت السطح الهادئ. نادرًا ما كانت الصحافة الغربية تذكر شيئًا عن وحشية الشرطة، كما أن

موضوعات مثل الرقابة، والفساد لم تكن جزءًا من المناقشات المصرية التي ارتكزت، وتمحورت حول المشكلات اليومية مثل أزمة المرور، ونظام الصرف الصحي

المتهالك.

ربما لم يجرؤ أحد على مناقشة تلك الأمور بحرية معي. ربما فاتني شيء ما. تصارعت الأفكار في رأسي، وأنا في طريقي إلى أوربا، حيث حرية التعبير التي كنت دائمًا

أعتبرها شيئًا مسلمًا به.

الفصل العشرون

اجتياح أم عهد جديد؟!

تملكني الحماس، وأنا أخبر أولادي فور عودتي من مصر عن كل تفاصيل رحلتي.

«لم تتغير كثيرًا».

سألني ابني الأكبر: «ما هذا الحديث الدائر إذن عن الأصولية الإسلامية؟»

أجبت ابني بثقة: «لا بد أنه مجرد كلام من بعض العقول الفارغة».

كانت مصر أشبه بالزوجة التي يتم استنزاف كل قوتها، ومواردها إلا أن غالبية المصريين لايزال يحدوهم الأمل في أن تسير الأمور بشكل أفضل يومًا ما، حتى أتى

اليوم الذي فاض فيه الكيل بمصر بعد أن فقد المصريون الكرامة، والأمل. انتفضت مصر لتتحدث عن نفسها من جديد.

اصطحبت أنا ووالدتي أبنائي في الكريسماس عام 2005 ليروا الأرض التي عاش فيها أجدادهم.

سألني ابني الأصغر ونحن في التاكسي: «أين الجِمال؟»

قلت: «سنرى الجِمال في وقت لاحق».

اصطحبته إلى الأهرام، وشعرت بخيبة الأمل، فلطالما ذهبت إلى الأهرام دون أن أحتاج إلى هذا التواجد الأمني الطاغي الذي أراه جليًّا الآن.

قلت بأسى: «لم يعد أحد يتسلق الأهرام».

إذا كان هناك شيء قد تغير، فهو حتمًا هذا التواجد المستمر لنقاط التفتيش أينما ذهبنا، الأمر الذي يدل على عدم استقرار البلد، حيث هاجمت بعض الجماعات

الإرهابية السائحين لتترك بصماتها اللعينة.

قلت لوالدتي، وقد ضقت ذرعًا بنقاط التفتيش الكثيرة ونحن في طريقنا إلى أسوان: «هذا جنون».

ردت والدتي: «دعيني أهتم بالأمر».

استطاعت والدتي أن تنقذنا من الوقوف لساعات طويلة في نقاط التفتيش، تمامًا كما فعلت منذ سنوات، بدفع بعض المال.

قالت والدتي، وقد وافقتني الرأي: «معك حق، لم يعد التجول، والسفر بين مدن مصر كما كان عليه في السابق بسبب نقاط التفتيش».

قلت لوالدتي: «يبدو الأمر كقتال مرير. هذا الانتظار الطويل في ظل أعداد السائحين الغفيرة».

قالت والدتي: «هل نسيت أننا أيضًا سياح؟ »

فقدت الأقصر، مدينتي المفضلة، الكثير من سحرها بعد بناء هذا السور الأسمنتي على كورنيش النيل، الأمر الذي جعل القرية الصغيرة أشبه بمدينة فخمة.

وصلنا إلى أسوان، تلك المدينة الإفريقية النائمة التي يكسوها السحر. كان المتحف النوبي الحديث البناء بمثابة جوهرة، وكذلك الفرعون الأسود المحاط بالحدائق

المزدهرة. مكثنا في فيلا تم تحويلها إلى فندق.

قالت والدتي بهذه النظرة الحالمة في عينيها، والتي أعرفها جيدًا: «الأمر أشبه بالرجوع إلى زمن الملوك».

قلت لوالدتي: «لقد تحسنت بعض الأشياء».

ردت: «لكن ما زال هناك نقص في المدارس لتعلم

الفقراء».

أحضرت والدتي شيشة لأبنائي، ومعها التبغ ذو المذاق الحلو. لم تتخيل والدتي للحظة أنهم سيستخدمون الشيشة في الغرف. جلست أنا ووالدتي في الشرفة نتناول

الويسكي الممنوع في أكواب المياه حتى سمعت جرس الباب.

سألني مدير الفندق: «هل هؤلاء الأولاد أبناؤك؟ "

أجبت بتحفظ وأنا أتساءل في قرارة نفسي عمَّا فعلوه هذه المرة، ونظرت إلى والدتي التي أشاحت بنظرها بعيدًا متظاهرة بعدم سماعها أي شيء مما يحدث حولها: «نعم».

قال المدير: «إنهم يدخنون الشيشة، والتدخين ممنوع بالغرف».

قلت وقد احمرت وجنتاي من الخجل: «سنتبع التعلمات بكل تأكيد. أعتذر لك».

استمتعت كثيرًا بالمكان خاصة لحظات جلوسي في الشرفة، وأنا أرقب، وأرسم الصخر الملون الذي تتسلل إليه وعبره مياه النيل بعذوبة. لاحظت اختفاء السائحين.

ربما توجهوا إلى فنادق أكثر سعرًا، ورفاهية. كانت أسوان بكل ما فيها من مناظر طبيعية خلابة أشبه بالحلم. مر الوقت سريعًا، وكان علينا الرجوع إلى القاهرة

لنتوجه بعدها إلى المطار استعدادًا لعودتنا إلى أوربا.

قلت وأنا لا أدري ما يحدث وراء الصورة البراقة: «لا يوجد أي أثر للأصوليين، أو أي لمحة تعصب في هذه البيئة

الساكنة».

قال ابني الأكبر، وتبعه ابني الأصغر: «ساكنة! أتطلقين على هذا الازدحام، وتلك الأتربة، والحفر في الشوارع، والمرور الكارثي.. بيئة ساكنة؟! »

عدت إلى أوربا لأنخرط في زحام الحياة. لم أستطع الرجوع إلى مصر بعدها بوقت قريب كما كنت أتمنى، لكني استطعت التواصل مع أصدقائي عبر شبكات

التواصل الاجتماعي. شعرت كأني قد رجعت إلى وطني مرة أخرى. انقطعت عن مصر، وأصدقائي، وحياتي بعد إتمام دراستي بالجامعة الأمريكية بمصر في

منتصف الثمانينيات ما آلمني كثيرًا. ها أنا الآن أستطيع أن أتواصل مع كل ما فقدته مرة ثانية.

لم أكن أعلم أن طبول الثورة تدق الأبواب لتجتاح العالم العربي بأسره. كنت مسافرة عندما اندلعت الثورة في مصر في الخامس والعشرين من يناير عام 2011 في

ميدان التحرير، ذلك الميدان الذي كنت أرتاده بشكل دائم، عندما كنت طالبة بالجامعة الأمريكية.

اندلع ما يُطلق عليه إعلاميًّا « الربيع العربي » في تونس عندما قام بائع خضراوات بائس بإضرام النار في جسده بعد مصادرة العربة التي يبيع عليها، والتي كانت

مصدر دخله الوحيد؛ من قبل الشرطة. احتشد الناس في الشوارع لمحاربة الديكتاتورية، والظلم. استطاعت الأعداد الغفيرة أن تفعل ما لا يُصدق، وتم تنحية زين

العابدين بن علي، الرئيس المكروه. انتقلت هذه الحالة من عدم الرضى، والمظاهرات لتشمل الشرق الأوسط تمامًا كما تشتعل النار في الهشيم.

كانت الحركة العمالية في مصر قوية بالفعل. يُعد إضراب عمال المحلة في السادس من إبريل عام 2008 من أشهر الإضرابات. تم قمع العمال من قبل الشرطة،

ولكن تم أيضًا إرساء دعائم فكرة التظاهر من خلال هذا الإضراب. بدأ مجيدو استخدام الحاسوب من الشباب، وطلاب الطبقة المتوسطة، ومساندوهم إنشاء

صفحة على شبكة التواصل الاجتماعي « الفيس بوك» للمضربين عن العمل، وكان ذلك بمثابة البذرة التي نبتت منها ما يعرف بحركة « 6 إبريل»، التي تكونت من

الشباب، والعمال، والناشطين لتصبح بعد ذلك من أهم القوى التي دعت إلى إسقاط مبارك في الخامس والعشرين من يناير عام 2011 .

ألهم النجاح الذي حققته تونس أحد الشباب المصري الذي دعا من خلال « الفيس بوك» إلى مظاهرة مليونية في ميدان التحرير. لم يصدق أحد أن الكثيرين من

الناس سيستجيبون لهذه الدعوة. بدأت المظاهرة بعدة آلاف، وتوالى ازدياد الأعداد. سرعان ما انتقلت عدوى المظاهرات إلى الإسكندرية، العاصمة الثانية لمصر. بدأ

نصب الخيام، وتوزيع الطعام على المتظاهرين، وتنظيف الميادين، والشوارع التي امتلأت بالمدنيين الحريصين على نظافة بلادهم.

عدت من السفر إلى منزلي بعد يومين من اندلاع الثورة لأشاهد عبر التلفزيون هذا التجمع الغفير في ميدان التحرير بمزيج من المشاعر المختلطة من الخوف،

والدهشة. التصق جسدي بجانب التلفزيون منذ ذلك الحين، وحتى تنحي مبارك.

نشر أصدقائي على صفحات شبكة التواصل الاجتماعي « الفيس بوك » صورًا تجمع المتظاهرين المسالمين، المرأة جنبًا إلى جنب مع الرجل. الجميع يناقشون الأمور

السياسية بحرية، وهو الأمر الذي لم يحدث منذ حركة الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر عام 1952 . أذهلني ما يحدث في مصر مثلما أذهل العالم بأسره.

لم تأتِ هذه الصحوة بالطبع فجأة، فلقد حدث ما حدث ببطء، وبشكل تدريجي حتى آلت الأمور إلى نقطة اللا عودة. « كفاية » ، نطق المصريون بتلك الكلمة التي

أصبحت اسمًا لإحدى أهم الحركات السياسية. كان الأمر أشبه بسقوط حائط برلين. تطلب الأمر كثيرًا من الوقت حتى انفجر الناس غضبًا، وتلاشى الخوف أخيرًا.

كان الأمل يحدو المصريين في الانتخابات التي عُقدت في السنوات الأخيرة التي سبقت الثورة أن تسير الأمور بشكل ديمقراطي، إلا أن هذا لم يحدث، وأسفرت

الانتخابات عن نفس النتائج: فوز مبارك، وحزبه بنسبة تسعين بالمائة.

سألت نفسي: «هل يمكن أن تسير الأمور بشكل مختلف هذه المرة؟ »

تلقيت بريدًا إلكترونيًّا من صديقي المصري أحمد يقول فيه: «سيتم قطع خدمات شبكة الإنترنت، وبالطبع شبكات التواصل الاجتماعي».

في اليوم التالي انقطعت كل سبل الاتصال عبر الإنترنت. بحثت عن مفكرتي القديمة حتى وجدت بعض أرقام هواتف أصدقائي، وبدأت الاتصال بهم.

قالت لي آمال التي بدا الذعر على صوتها: «لا توجد

شرطة في الشوارع التي امتلأت بالبلطجية، والمجرمين. يقوم أولادنا بحراسة المباني، والمحلات ممسكين بعصي

كبيرة».

سألتها بشكل هستيري: «هل لديك ما يكفي من الطعام؟ ابقي بالمنزل».

قالت: «نحن بخير حتى هذه اللحظة».

هتفت الجموع الغفيرة: «يسقط حسني مبارك».

كنت أتابع التلفزيون على مدار الأربع والعشرين ساعة. لم أستطع النوم.

شعرت وكأني في الميدان. كنت أخشى أن ينتهي الأمر بمذبحة كما حدث في ميدان تيانانمن بالصين، حيث فقدت العديد من أصدقائي في معركة دامية. شعرت

براحة كبرى عندما رفض الجيش إطلاق النار على المتظاهرين لينتهي الأمر بتنحية مبارك. لقد نجح الإصلاحيون.

لكن، هل نجح الإصلاحيون فعلًا، أم أن الأمر مجرد تلاقٍ لرغبة الجيش مع رغبة الشعب في تنحيةٍ مبارك الذيَ أراد فرض ابنه على الجيش، والشعب معًا؟! لم

يحظَ ابن مبارك بأية شعبية، أو احترام حتى أصبح عبئًا يريد الجميع التخلص منه.

عادت خدمات الإنترنت مرة أخرى، واستطعت التواصل مع أصدقائي من جديد. شعر البعض بالقلق على مستقبل مصر، وأمنها، واقتصادها. بدأ الأصوليون

الإسلاميون في الظهور في الميدان. لم يثق الليبراليون بالإسلاميين الذين لم يشاركوا في الثورة، وإذا بهم الآن

يحاولون سرقتها من الشباب. لم يكن هناك قائد لحركة

الشباب على عكس الإخوان المسلمين الذين كانوا حزبًا منظمًا بالفعل بتاريخ من المعارضة يبلغ من العمر ثمانين عامًا. كان معظم أصدقائي سعداء بالتخلص من

الديكتاتور الذي استمر حكمه ثلاثين عامًا، ولم يفكر أحد بخطر الإخوان المسلمين.

قلت لنفسي: «أليس مستخدمو شبكات التواصل الاجتماعي بأقلية في نهاية الأمر؟!»، لكنني لم أجرؤ على البوح بما في نفسي لأصدقائي حتى لا أفسد أجواء

الاحتفالات.

شرح لي صديقي أحمد المزيد عن حركة الشباب .

قال أحمد: «إنها جزء من الحركة الليبرالية. نحن نؤمن بحقوق الإنسان، وتحرر المرأة، كما نؤمن بأن الديانة شأن خاص بين الإنسان وربه».

قلت: «إذن فأنتم معارضون للأصولية».

قال: « نعم. أين كان الأصوليون وقت ثورتنا؟ الإصلاحيون أمثالي يرغبون في إرساء دعائم المجتمع الحديث، كما أننا لا نجد أي تعارض بين الإسلام، والديمقراطية.

يعتقد معظم الإصلاحيون أن أول شيء يجب الإقدام عليه لتحديث الإسلام هو تغيير الشريعة، حيث يؤمن الإصلاحيون أن الشريعة هي سلوك المسلم أكثر من

كونها قانونًا إسلاميًّا. لقد جعلها العديد من أصحاب النظريات الدينية جزءًا مكملًا للإسلام، لكن القرآن لم يفرضها في حقيقة الأمر، فهي خاصة بالأجداد، أي

إنها قانون إنساني يجب تغييره. انبثقت من الشريعة

العديد من المظالم مثل النظرة السلبية للمرأة، وقوانين الوراثة، والإكراه في الزواج، والاقتصاد، والعقاب

الجسدي مثل قطع يد السارق، ورجم الزاني، والزانية وهي حدود غير مُطبقة في مصر، هذا إلى جانب سوء معاملة الأجانب غير المسلمين في بعض البلدان. يجب

منع هذه القوانين التي عفى عليها الزمن ليتم استبدالها بنظام قضائي حديث، كما يجب الفصل بين الإسلام، والسياسة. يمكن أن تتواجد قوة دينية مستقلة جنبًا

إلى جنب مع السلطة القضائية، والتنفيذية، والتشريعية».

قلت لأحمد: «يبدو هذا جيدًا بحق، لكن يصعب تنفيذه».

يُعد عبدو فيلالي أنصاري أحد المؤسسين الإصلاحيين، ومدير معهد دراسات الحضارة الإسلامية الحديثة الذي أسسه أغا خان. نقض عبدو كسابقيه فكرة أن

القرآن وحي إلهي، كما زعم أن الشريعة ظاهرة تاريخية. القرآن بالنسبة لعبدو هو مجموعة من النصائح، والأهداف، ولذلك يجب ألا يعجز القرآن عن تطوير

مفاهيم الديمقراطية، وتحديث النظام القضائي، والنظام المصرفي بما يشمله ذلك من قروض البنوك، وغيرها من تلك الأمور. يرى عبدو أن أضعف نقطة في القرآن

هي تلك النقطة الخاصة بالقضاء، ولذلك تلجأ الدول العربية إلى العادات القديمة البالية فيما يخص ذلك الشأن.

قال أحمد: «ربما يستيقظ شيوخ الأزهر، وينتفضوا ضد

الوهابية التي غزت مصر».

تُعد الوهابية أكثر الفروع محافظة في الإسلام، وهي نابعة من السلفية، والحركة الأصولية التي ترغب في العودة إلى المصادر الإسلامية. حرض على تلك الحركة

محمد بن عبد الوهاب (1703 - 1792) في السعودية، حيث قام بتطهير بعض الممارسات الشائعة باعتبارها بدعًا في الإسلام. يُطلق على أتباع محمد بن عبد الوهاب

« السلفيين»، إلا أن الوهابية، والسلفية، وأهل الحديث، جميعها مصطلحات تُستخدم للإشارة إلى تيارات يعتبرها البعض شديدة المحافظة، والضلالة في آنٍ

واحد.

يُعد الأزهر الكائن في القاهرة أعرق جامعات العالم، حيث يقوم المعلمون الأكاديميون بشرح القرآن وتدريسه لأئمة المستقبل، وللمسلمين. يوجد بالأزهر عدة

تيارات، حيث يختلف الأمر من معلم لآخر، فالبعض أكثر محافظة من البعض الآخر. يبدو أن التيار الأكثر حداثة قد فقد زمام قوته، حيث أصبحت الغلبة للتيار

الأكثر تطرفًا في الفكر، ذلك الفكر المستمد من الوهابية. قد تكون الثورة فرصة للتيار الأكثر حداثة، واعتدالًا بالأزهر لاستعادة ما فقده من تأثير، ومصداقية.

قلت لأحمد في محاولة لإعادته إلى الأشياء الإيجابية: " ستدلي بصوتك في انتخابات حرة لأول مرة».

رد: «نعم، أنا متحمس حقًا».

قالت لي والدتي وهي تتحدث عن صديقتها القبطية:

«هدى قلقة جدًّا على عائلتها».

- بسبب الإخوان المسلمين؟

- نعم، يبدو أنهم يحكمون قبضتهم يومًا بعد يوم.

قلت لوالدتي: «أتمنى ألا يحققوا أي نجاح في الانتخابات البرلمانية».

بعد مرور وقت على حديثي مع والدتي، اتصلت بي. أتى صوتها ضعيفًا واهنًا عبر الهاتف: «إنها مصيبة حقًّا، لقد فازوا بأغلبية المقاعد في البرلمان، كما أصبح السلفيون مُمثلون بنسبة كبيرة في البرلمان».

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن السلفيين. سألت والدتي: «مَن هؤلاء؟ لم أسمع عنهم من قبل! »

قالت: «إنهم الأسوأ، فهم قلب الأصولية الإسلامية، وأساسها».

قلت وأنا في حالة من عدم التصديق لما يحدث: «لا أستطيع أن أصدق هذا. لا بد أنك مخطئة. أنت تعلمين أن المصريين مرحون عاشقون للفن، والرقص الشرقي. لا يُعقل أن يرغب المصريون في تقلد هؤلاء الحكم».

لم أسمع قط عن السلفيين عندما كنت مقيمة في مصر. تُعد السلفية أسرع حركة إسلامية في النمو، والتطور في العالم وفقًا لتقرير سري أصدرته المخابرات الألمانية في عام 2010 . ارتبطت هذه الحركة في الغرب بالسلفيين الجهاديين الذين يشجعون الجهاد ضد المدنيين باسم الإسلام.

أضافت والدتي: «إنهم وراء مشاعر كراهية الغرب التي

سادت مؤخرًا في مصر، والتي لم تكن موجودة سابقًا».

يختلف بالطبع أتباع تلك الحركة في درجة تعصبهم، لكن الحركة في مجملها أشبه بأي نظام ديني صارم ساد الغرب يومًا ما، حيث تُوضع مجموعة من المعتقدات

الصارمة التي يجب اتباعها باعتبارها حقيقة مطلقة، ويُعد كل مَن يخرج عن هذه المنظومة ويعارضها عدوًّا. الالتزام بزي معين وسيلة فعالة للقمع وفقًا لما رأيت في

بعض الأنظمة الدينية الصارمة في الغرب حتى إن بعض الأشخاص قد قاموا بتغيير أسمائهم للتخلص من كل ما يخص الماضي. يُنظر للمرأة، والمثليين على أنهم

أقل شأنًا، ويُمنع تمامًا أي لون من ألوان الفنون، وأي أدب من شأنه أن ينتقد المعتقد، أو يشكك فيه. عدم التفكير، والطاعة العمياء هما دعائم تلك الحركات

الأصولية، وبهذا يتوقف العقل تمامًا عن ممارسة التفكير، والتحليل.

صاحت مشيرة خطاب، وزيرة الإسكان في إشارة إلى القانون الجديد الذي تم تمريره، والموافقة عليه من أجل حماية الأطفال: «هذا القانون بمثابة ابني».

العديد من الإنجازات فرضت نفسها على الساحة، حيث ارتفع السن الأدنى لتطبيق العقوبة على الأطفال من سبعة أعوام إلى اثني عشر عامًا، كما ارتفع سن

الزواج إلى ثمانية عشر عامًا للولد والبنت على حد سواء، كما تم تحريم ختان الإناث لتصل عقوبته إلى السجن أو دفع غرامة.

قالت مشيرة خطاب في شهر يوليو عام 2010 : «تطلب

الأمر سبع سنوات لإحداث، وتطبيق تلك التغييرات. كان هدفي هو إيجاد نوع من التناغم بين القوانين،

واتفاقية الطفل. نجحنا بنسبة ثمانين بالمائة، لكن هذا ليس نهاية المطاف».

سألت بصوت مرتفع دون أن أتوقع أية إجابة، فالمستقبل لم يُكتب بعد: «هل سيتم إلغاء كل هذه القوانين؟»

ردت والدتي: " الأوضاع غير مستقرة، خاصة في ظل غياب الشرطة . لقد اشترت ليلى صديقتي بندقية».

قلت: « امرأة في سنها تسير ببندقية! لا بد أنها لا تشعر بالأمان على الإطلاق!»

لم أتمالك نفسي من الضحك رغم مأساوية ما يحدث، فمجرد تخيل صديقة والدتي الأنيقة وهي تضع البندقية في حقيبتها الباريسية أمر يثير الضحك.

رغم متابعة الأحداث عبر وسائل الإعلام، وشبكة الإنترنت، ورغم الانضمام لمظاهرات المصريين في باريس، شعرت بحاجة ملحة للعودة إلى مصر، والوقوف على

حقيقة ما يحدث هناك بنفسي. أفزعتني القصص الدائرة عن حبس الصحفيين، واغتصاب النساء. أخيرًا، توجهت إلى المطار للسفر إلى القاهرة.

وجدت صديقي منير بانتظاري مرتديًا البنطلون البيج، والچاكت الشتوي الثقيل. عانقني منير بينما اتسمت ملامحه بالجدية. كان المطار أكثر حداثة مما كان عليه

في آخر زيارة لي.

قال منير وقد رأى الدهشة التي ارتسمت على وجهي:

«إنه جناح جديد».

بمجرد خروجنا لاحظت النساء المرتديات الزي الوهابي.

سألته: «هل هناك طائرة متجهة إلى السعودية؟»

قال منير الذي بدا أنه ليس صديقًا للثوار:«لا،
ستندهشين عندما ترين أن هناك العديد من هؤلاء في شوارع القاهرة بعد الثورة. لا يوجد شيء يسير على ما يرام.

نحن جميعًا خائفون من البلطجية في ظل اختفاء الشرطة».

كان الطقس شديد البرودة رغم كوننا على مشارف الصيف. أضعفت برودة الطقس عزيمتي خاصةً في ظل الأجواء المحبطة المليئة بالخوف، واليأس. قلت لنفسي،

وأنا أرتجف من البرد: «كان يجب أن أحضر معي بعض الملابس الثقيلة».

لم تكن شقة منير أكثر دفئًا من الطقس بالخارج. قادني منير إلى حجرة شديدة البرودة. تذكرت في لمح البصر كيف كنت أجلس مع والدتي أمام المدفأة الكيروسين في

شقة الدقي. يبدو أن نظام التدفئة داخل المنازل لم يتحسن كثيرًا. احتميت بالبطانية من البرد الشديد. الآن أستطيع أن أفهم لماذا ينام المصريون، ورؤوسهم مغطاة

بطاقية للتدفئة. ليتني أحضرت واحدة معي.

توجهت في اليوم التالي إلى محطة المترو. كنت سأقابل مجموعة من الأصدقاء القدامى، وقررت أن

أركب المترو. كانت العربة مزدحمة جدًّا. ركبت العربة المسموح

فيها بركوب الرجال، والنساء. لاحظت فور ركوبي أن هناك عربة مخصصة للنساء فقط، لكني لاحظت أيضًا وجود بعض النساء في العربة المختلطة، وتيقنت أنني

لم أخطئ. بعد وهلة شعرت بنفس دافئ حول عنقي، واحتكاك شديد بين فخذي. شعرت بالرعب. لم أستطع الحركة، ولم أجرؤ على الصراخ. التقت عيني المليئة

بالدموع بعين رجل شاب في مقتبل العمر.

سألني الرجل: «هل تحتاجين إلى مساعدة؟»

أشرت له بالإيجاب.

اقتربٍ مني رغم الزحام الشديد، ويبدو أنه قد تصرف تصرفًا ما مع الرجل الذي كان يقف خلفي. لم أرَ شيئًا، لكني سمعت صراخ الرجل الذي كان يقف ورائي.

توقف المترو، وأخذني الرجل الشاب خارج المترو.

سألني: «هل أنت بخير؟»

قلت له وقد انهمرت دموعي: «نعم، شكرًا لك».

قال: «سأصحبك حتى تركبي التاكسي».

سرت خلفه حتى خرجنا من محطة المترو، ثم أوقف لي التاكسي، وسار بعيدًا. لم يسمح لي الوقت لأسأله عن اسمه، وأشكره مرة أخرى.

لم يتوقف عقلي عن التفكير لحظة وأنا في طريقي لإي ف ا: «مسكينة المرأة التي تضطر أن تواجه مثل هذه المواقف كل يوم في أثناء ذهابها من المنزل إلى العمل ثم

إلى المنزل مرة ثانية في طريق العودة. لا بد أن المرأة تلجأ لتغطية نفسها حتى تبدو أقل جاذبية سعيًا لتحاشي تلك المواقف».

توقفت عند البوابة، حيث استقبلني نباح الكلاب الشديد.

قلت في نفسي: «أين الحارس ليبعد عني الكلاب، ويقودني إلى الداخل؟»

أتت إي ڤ ا لتحيتي.

قلت: «أرى أنك أحضرت بعض الكلاب لحمايتك».

إيڤا فنانة إسكندنافية تحيا على مركب نيلي مُحاطة بلوحاتها الفنية.

قالت لي إيڤا بعد أن رويت لها ما حدث لي: «يحدث هذا دائمًا في الأماكن المزدحمة. كان يجب أن أحذرك. كم أنا آسفة لما حدث لك. تعالي معي، سأجعلك تفكرين

في شيء أكثر مرحًا».

حاولت إيڤا أن تشتت انتباهي بعيدًا عمَّا حدث في المترو. كانت الغرفة مليئة بالأشخاص الذين انهمكوا في الحديث. جلسنا جميعًا نناقش أمور السياسة المصرية.

كل شخص يراهن على نجاح أحد المرشحين للرئاسة بمعنويات مرتفعة.

قال منير: «أيًّا كان الفائز، نحن نكتب تاريخًا جديدًا».

رد أحمد: «نعم، لأول مرة نجرؤ على الحديث، ومشاركة الرأي بعد تكميم الأفواه الذي ساد طويلًا. لقد فُتح صندوق باندورا، ولن يستطيع أحد إغلاقه مرة

أخرى».

لم يتغير أحمد كثيرًا عن آخر مرة رأيته فيها منذ عشرين عامًا، فها هو بابتسامته المعهودة. أصبح شعره رماديًّا، وانتشرت بعض التجاعيد حول عينه، ولكنه ما زال أحمد الذي عرفته، تمامًا كما أذكره.

ابتسمت له رغم صعوبة مجاراة الجو الحماسي الذي ساد، فالمناخ السياسي، وانتشار النساء المغطاة من الرأس للقدم، والرجال الملتحين، كل هذا جعلني أشعر بغصة. تذكرت ما حدث بالمترو، وشعرت أني أذهب إلى الجحيم، إلى مكان يسوده كره النساء، حيث لا يتحكم الرجال في غرائزهم، وبدلًا من تكريم النساء يتم ممارسة الطغيان، والاستبداد عليهن، على نصف مجتمع بأكمله. هل من الممكن أن يكون الرجال أنفسهم ضحايا؟ ربما يكونون ضحايا للإيديولوجية الفكرية القمعية التي ترتكز على دعائم الخوف. كنا نشعر جميعًا في قرارة أنفسنا أنه لا بد من وضع حد للعنف، والقهر، كفاية.

ودعت أصدقائي، وتوجهت مع منير إلى سيارته.

قلت وأنا أنظر إلى مشهد النساء المغطاة الذي ساد الشارع المصري: «كم أنا سعيدة أني لم أحضر معي أية ثياب».

حل مشهد النساء المغطاة في الشارع المصري محل المرأة الأنيقة المرتدية أبهى ثيابها، والمعتنية بشعرها. اختفى أيضًا مشهد النساء الريفيات بثيابهن ذات الألوان المزدهرة، وقاماتهن الممشوقة، وقد وضعن سلة البضائع فوق رؤوسهن.

تنهد منير قائلًا: «لا تجرؤ أية امرأة على ارتداء أي شيء

سوى البنطلون. الشيوخ الصارمون هم الذين يحددون خطوط الموضة في القاهرة».

صحت بتعجب: «يا إلهي! ما الذي حدث لهذا البلد؟!»

ربما كان يجدر بي أن أصمت، فهذا بلد منير الذي أتحدث عنه، بلد أجداده، وعائلته، وأصدقائه، لكنه بلدي أيضًا، البلد الذي عاش فيه جدودي، ويعيش فيه أصدقائي.

قال منير: «لقد خرج الأصوليون من كهوفهم. هذا ما حدث. ربما يكون هذا من الأفضل حتى يكشفوا عما يؤمنون به».

سألته: «ماذا تعني؟»

قال: «أعني الفقراء الذين أُحبطوا كثيرًا، واستقطبهم الأصوليون إلى جانب هؤلاء الذين تم تلقينهم مبادئ الأصولية حتى أصبحت نظرتهم للعالم قاصرة على مَن يؤمن، ومَن لا يؤمن».

تذكرت الفاشيين، والشيوعيين، وما جلبوه إلى هذا العالم من بؤس، وشقاء. كلنا نسعى ونتوق إلى الحب، والحياة الكريمة، والعدالة. لماذا يكون من الصعب أن نتفهم اختلافاتنا بتسامح حتى نحيا دون أن نقهر بعضنا البعض؟ أعرف أن الأصولية، مثلها مثل أي نظام ديني صارم، تسعى دائمًا إلى جذب أعضاء جدد حتى يبقى الفكر حيًّا. أتمنى أن يضيق المصريون ذرعًا بهؤلاء المتزمتين ليعودوا إلى ما كانوا عليه، ويستعيدوا حياتهم مرة أخرى.

جلست في السيارة التي توقفت نظرًا لازدحام المرور، وأخذت أتأمل شارع قصر النيل.

قلت بمرارة: «لو كانت جدتي هيلدا على قيد الحياة لصُعقت مما آل إليه شارع قصر النيل الذي كان مليئًا بواجهات المحلات الإيطالية، والفرنسية، والإنجليزية الأنيقة قبل غزو الملابس الوهابية السوداء. انظر، هناك واحدة أخرى مرتدية الزي الوهابي، وأخرى، وأخرى. يا إلهي! إنهن يتكاثرن!»

قال منير: «الأمور تغيرت كثيرًا عما كانت عليه وقت إقامتك هنا. لقد أصبح نقص فيتامين دال مشكلة حقيقية عند النساء بسبب عدم تعرضهن للشمس».

قلت بدهشة: «نقص فيتامين دال في مصر؟!»

أصبح ألأطباء في السويد أكثر قلقًا فيما يخص عدم تعرض المهاجرين للشمس، فعدم التعرض الكافي للشمس يمنع إنتاج الكالسيوم في الجسم، ويؤثر بالسلب

على العظام، خاصة عند الأطفال، والفتيات المحجبات. كنت دائمًا حريصة على تناول أطفالي طعامًا يحتوي على فيتامين « د» أثناء شتاء السويد القارس، ويُعد هذا أحد أسباب منع ارتداء البرقع في الدول الأوربية.

قال منير: «بعض الفتيات الأقل تزمتًا يفضلن اتباع الحجاب الذي يشبه نموذج الراهبات في تغطية الرأس. هناك أيضًا موضة تنسيق ألوان الحجاب مع الملابس بما في ذلك الزي المدرسي. معظم أغطية الرأس مصنوعة من البوليستر، والنايلون. لا يوجد اختيار أمام النساء، فالمرأة التي ترفض ارتداء الحجاب تتعرض للسخرية، أو سوء المعاملة مثلما حدث مع سميحة، حيث التف حولها مجموعة من المراهقين، وبدأوا في الصياح:

غطيه، غطيه، في إشارة إلى شعرها رغم كونها مسيحية».

قلت لمنير: «دُهشت عندما علمت بحجاب منى. لقد سألتها إن كانت قد أصبحت أكثر تدينًا فقالت لي إنها ارتدت الحجاب لأنها سئمت من السخرية منها لعدم

ارتدائه، وقررت أن ترتديه حتى تخبو بدعة الأصوليين».

قاد منير السيارة في صمت حتى فوجئنا بوجود نقطة تفتيش. كان الطريق مسدودًا في ظل وجود الرجال المسلحين بالدروع الشفافة.

قال منير: «خبئي الكاميرا، يجب أن نخرج من هنا فورًا».

شعرت بالخوف يتسلل إليَّ، وتخبطت ركبتاي من الرعب. ورثت حب التصوير عن جدتي. حصلت على أول كاميرا في حياتي، وأنا في الثامنة من عمري. كانت الكاميرا

الكانون الديچيتال لا تفارقني أبدًا بما تحمله من صور كثيرة بحكم عملي كصحفية.

كان الحديث عن الحجاب رفاهية في ظل توتر الأجواء السياسية في مصر. كنت أعلم أن الإعلام الأجنبي مكروه. شعر منير بالمسئولية الشديدة تجاهي، حتى إنه كان

أكثر توترًا مني. كنت أرغب في الذهاب إلى وسط المدينة لأرى ما رُسم على الحوائط « الجرافيتي».

قال منير في محاولة لتشتيت انتباهي بعيدًا عن القلق والتوتر: «لقد انتعش هذا الفن في الشارع المصري لأول مرة».

قلت، وأنا أحاول جاهدة الاستمرار في الحديث: «نعم،

كما ازدهرت أيضًا الأفلام التي تم تصويرها لتناول أحداث الثورة، ووضع النساء في مصر، وما يتعرض له

من تحرش جنسي».

كان المرور مزدحمًا، وقفت السيارة بلا حراك في طابور طويل.

قال منير: «المتظاهرون هم المسئولون عن هذا الازدحام».

قلت: «أستطيع أن أتفهم موقفهم، فهم يحاولون التعبير عن غضبهم بعد صمت طويل».

توقفت عن الحديث حين لاحظت غضب منير.

قال: «انظري إلى الدخان المتصاعد، إنهم يحرقون إطارات السيارات».

شعرت بالدخان المتصاعد، وخشيت أن يكون هذا الدخان غازًا مسيلًا للدموع، وللحظة، فكرت في أن يكون هذا الغاز المسيل للدموع من النوع الذي يسبب عمى

الإبصار.

قلت لمنير الذي كان يحاول الهروب من هذا الزحام دون جدوى: «من الأفضل أن نغلق نوافذ السيارة».

قال: «المتظاهرون يقتربون».

سألته: «هل تعتقد أن يتولى الجيش حكم مصر؟ »

أجاب: «الجميع يلوم الجيش، لكن الجيش هو الذي يحافظ على النظام في ظل هذه الفوضى».

استطاع منير أن يجد مخرجًا، وبسرعة نفذ بسيارته بعيدًا عن المشهد المحتقن. رأيت رجل بوليس يضرب متظاهرًا بعصا، وآخر يركل متظاهرًا بحذائه الأسود.

قلت لمنير: «يشبه الأمر القصص التي قرأتها عن الكوكلوكس كلان».

ال«كوكلوكس كلان» هي بعض الحركات التي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية، منها القديم، ومنها الحديث. تؤمن هذه الحركات بتفوق الجنس الأبيض على سائر البشر.

قال منير: «ألم أقل لك إن الفوضى تعم المشهد!»

انتصبت الخيام، وتناثرت القمامة هنا وهناك. مررنا بالمتحف المصري، حيث اعتدت أن آخذ السياح في جولاتي السياحية. كان المتحف مغلقًا، وبجانبه أشلاء المقر

القديم للحزب الوطني شاهد عيان على حقبة ولت.

عبرنا الكوبري في اتجاه الزمالك، حيث كنت أقيم، وحيث ما زال يقيم الكثير من أصدقائي، على الأقل هؤلاء الذين لم يبنوا فيلات فارهة في المدن الجديدة التي

امتازت بالمساحات الخضراء، وملاعب الجولف، وحمامات السباحة. تلك المدن أشبه بفلوريدا فيما عدا أنها انتصبت جنبًا إلى جنب مع الأحياء الفقيرة. لطالما تواجد

أغنياء مصر، وفقراؤها جنبًا إلى جنب، حيث تجد الأحياء الغنية ملتصقة بنظيرتها الفقيرة.

شعرت بالراحة عند وصولي إلى الزمالك لأجد النادي الرياضي الذي كنت أذهب إليه كما هو بدون منتقبات، أو رجال ملتحين.

قال منير: «لا توجد منتقبات، أو ملتحون في الزمالك على وجه العموم».

مررنا بالعديد من معارض الفنون، والمحلات الصغيرة، والمقاهي، والمكتبات. كان الأمر أشبه بالواحة بعد كل ما رأيته من شغب. مررت بمقر السفارة السويدية،

حيث يرفرف العلم السويدي، وحيث يوجد قصر الأميرة سميحة الذي تم تجديده على ما يبدو.

قلت وأنا أتطلع إلى قصر الأميرة سميحة، وإلى نافذة غرفة نومها وأنا أتخيل الحفلات الفارهة التي اعتادت تنظيمها وقت إقامة طورشتين وهيلدا: «لن يعود الزمان

للوراء!»

لم أذهب إلى أي بازار خارج الزمالك لعدم شعوري بالأمان . كنت أتوق إلى رحلة الصحراء القادمة. لم يكن التوقيت مناسبًا نظرًا لرياح الخماسين التي تهب في ذلك

الوقت من العام، لكننا قد رتبنا كل شيء للرحلة، ولا وقت للتراجع.

قال أحمد: «هيا، أسرعي حتى لا نتأخر. الجميع في انتظارنا. لقد أحضرت التصاريح اللازمة».

قلت له: «لكني الأجنبية الوحيدة في المجموعة. أي تصاريح تلك التي تتحدث عنها؟»

أجاب: «نعم، أنت الأجنبية الوحيدة، لكننا جميعًا في حاجة إلى تصاريح، فهذا الطريق يُستخدم في التهريب؛ لذلك يجب أن يحصل الجميع على تصاريح مرور».

سألته وقد شعرت بتوتر: «هل الأمر يشكل خطورة؟»

أجاب: «دائمًا ما تنطوي الصحراء على شيء من الخطورة، لكن الرحلة مثيرة، ولن تشعري بالإحباط، أو خيبة الأمل. الأمر يستحق التجربة».

قلت له: «أحتاج فعلًا إلى رفع معنوياتي بعد ما رأيته في القاهرة».

بعد السير في طريق طويل ممهد خلف الواحات البحرية، استدار أحمد بالسيارة إلى الصحراء. كان من الصعب مرور السيارة الچيب بسبب الصخور الوعرة، ولكن

بعد فترة استطاعت السيارة المرور.

كانت الساعة تقارب الخامسة بعد الظهر، وكان علينا الوصول إلى المعسكر قبل حلول الظلام.

قلت وقد بدأ القلق يتملكني: «يجدر بنا أن نسرع».

ما الذي أقحمت نفسي فيه. دائمًا ما تدفعني روح المغامرة إلى الخطر، لكني كنت أحتاج إلى بعض الصفاء الذهني بعد عام من التوتر، والقلق.

قال أحمد: «أتسمعين صوت السكون بعيدًا عن ضوضاء المدينة؟»

قلت: «نعم، بدأت أفهم ما يشعر به الناسك في هذه الخلوة».

أتى الناسكون في القرن الرابع بعد الميلاد من أماكن متفرقة إلى الصحراء في سوريا، وفلسطين، ومصر، وتحملوا الكثير من الصعاب التي لا يمكن للمرء أن يتخيلها

من أجل هذه الخلوة الروحية.

قاد أحمد سيارته الچيب بحذر لصعود الكثبان الرملية، ثم هبط إلى الجانب الآخر، حيث المكان المقرر لخيام المعسكر.

قلت لأحمد وقد بهرني بقيادته الرائعة رغم وعورة طريق

الصحراء: «قيادة ماهرة».

لم تعمل هواتفنا الجوالة لعدم وجود شبكة. كنا نحاول البقاء بالقرب من بعضنا البعض حتى لا نضل الطريق.

قال مراد، المرشد البدوي الذي اصطحبنا في الرحلة، وبدونه نضل الطريق: «فلننصب الخيام بسرعة قبل حلول الظلام. ارتدوا الملابس الثقيلة، فالطقس شديد البرودة في الصحراء».

قام البدو بإشعال النار للتدفئة.

سألت بتحفظ: «ماذا عن دورات المياه؟ "

قال مراد ضاحكًا: «اختاري أي كثيب رملي».

تجولت بمفردي لبعض الوقت، ثم قررت الرجوع إلى المكان الذي يتواجد فيه أصدقائي قبل أن يشتد الظلام، كما أني كنت أخشى العقارب.

لاحظت امتلاك معظم أصدقائي المصريين سيارات فارهة، كما كان هناك بعض الأدوات الخاصة بمعسكرات التخييم للمساعدة على الاستحمام. استطاع عثمان أن يجلب لي بعض الماء الساخن من البدو للاستحمام. لم أستخدم سوى لترين فقط من المياه لغسيل الشعر، والاستحمام. ما جعلني أشعر بالفخر لهذا الإنجاز.

تذكرت وأنا أستحم هيلدا وحياتها في ساندس ڤال.

قلت: «ما زال هناك المزيد من الماء إذا رغب أحد في الاستحمام».

قام البدو بحفر حفرة في الرمال، وإشعال النار لشواء ديك رومي .

قال مراد: «سترين كيف سيكون شهيًّا».

تم وضع منضدة عليها الشاي، والقهوة، وبعض المشروبات الكحولية. قررت احتساء بعض النبيذ بعد هذه الرحلة الشاقة.

قلت لنفسي وأنا أرى مراد يصب لي بعض النبيذ الفرنسي: «الأمر هنا أبعد ما يكون عن الأصوليين».

قال سمير، أحد رجال الأعمال الناجحين: «دعيني أتحمل نفقات النبيذ».

«شكرًا لك، هذا من دواعي سروري».

بحلول الليل جلسنا حول النيران التي أشعلها البدو للتدفئة. قام كل شخص بتقديم نفسه للآخرين،، فلقد كان هناك أشخاص جدد لا أعرفهم. كانوا يتحدثون

إليَّ بالإنجليزية، ويستخدمون العربية عند حديثهم مع بعضهم البعض.

قال عثمان: «فلتستمعي إلى هذه القصيدة».

بدأ عثمان إلقاء قصيدة من التراث العربي القديم، كليلة ودمنة. أغلقت عيني، وتركت الكلمات تتسلل إلى أذني كالموسيقى. بدأ البدو بعد انتهاء القصيدة في

الغناء. نظرت إلى السماء المرصعة بالنجوم، ونغمات الموسيقى تنساب في هدوء الصحراء، وقلت لنفسي: «هذه هي مصر، بلد الوجوه المتعددة».

اكتشفت أن معظم زملاء الرحلة يعانون من أوقات الفراغ الطويلة بعد الثورة.

تنهد سمير: «لا يوجد عمل منذ بداية الثورة».

أضافت چيهان: «وأنا أعمل مرشدة سياحية، لكن أين هم السياح؟!»

سألتهم: «أتندمون على حدوث الثورة إذن؟»

اتفقوا في الرأي: «لا، على الإطلاق. سننتصر جميعًا هذه المرة. سننتخب بحرية، وإذا لم يحدث هذا سنستمر في التظاهر».

أكد لي الجميع ما قالته ﭼيهان، فيما عدا الرجل الذي كان ضد الثورة.

قال الرجل: «سينتهي الحال بتولي الإخوان المسلمين زمام الأمور».

سألتهم: «أي مرشح ستنتخبون إذن؟»

أجابت ﭼيهان: «البرادعي بالتأكيد».

البرادعي رجل مصري مثقف ودبلوماسي حاصل على جائزة نوبل للسلام، كما أنه عمل مديرًا للوكالة الدولية للطاقة الذرية. أتى إلى مصر قبل عدة سنوات من

اندلاع الثورة. اتُّهم البرادعي بأنه غير مواكب لما يحدث في مصر نظرًا للسنوات الطويلة التي قضاها في الخارج. كان البرادعي الشخص المفضل لليبراليين، والمثقفين.

- لن يمكنك التصويت للبرادعي. لقد انسحب من السباق الرئاسي بعد الانتخابات البرلمانية.

- لا بد أن يكون هناك مرشح ليبرالي آخر.

- أتمنى لو كان هناك شخص يستطيع توحيدنا.

- ربما أبو الفتوح.

- أليس أبو الفتوح من الإسلاميين أيضًا.

جلست أستمع إلى الحوار الدائر بين زملاء الرحلة. خرج أبو الفتوح من رحم الإخوان المسلمين، وكان يحاول لم

شمل الجميع تحت جناحه.

قال عثمان: «سأعطي صوتي لعمرو موسى، على الأقل سيمكنه إعادة النظام بعد هذه الفوضى التي عمَّت».

كان عمرو موسى أحد المرشحين للرئاسة، في السبعينيات من عمره. كان جزءًا من المشهد في أثناء حكم مبارك. تم تنحيته ليصبح أمينًا عامًّا لجامعة الدول العربية.

لم يتم اتهامه بالفساد كما حدث مع العديد من وزراء مبارك، لكنه أيضًا أحد وجوه النظام القديم.

قالت ڇيهان وقد ارتسم الرعب على وجهها: «يوجد انقسام في عائلتي. يريد ابني انتخاب الشيوعي، هل تتخيلين هذا؟»

ابتسم سمير: «أتعنين شعبان؟ إنه أحد الاشتراكيين، والمفضل لدى الكثيرين من الشباب».

كان شعبان أحد أعضاء حركة كفاية البارزين، ولقد أوضح أحد أعضاء حركة كفاية في تعلق له على الأحداث أن ثورة الخامس والعشرين من يناير ما هي إلا

بداية في تيار ثوري جديد طويل الأمد.

هبَّت الرياح العاصفة الباردة لتعلن نهاية المناقشة السياسية. تسللت الرمال إلى أجسادنا، وانعدمت الرؤية.

قال أحدهم: «فلنخلد إلى النوم الآن، وغدًا نكمل حديثنا».

ذهبت إلى الخيمة وقد ساورني القلق، فإذا هبت الرياح غدًا سيكون من الصعب الرجوع إلى القاهرة، وستكون

الإقامة في الصحراء مستحيلة أيضًا. كانت الخيمة

تهتز بفعل الرياح. تلوت بعض الصلوات حتى غرقت في سبات عميق، نوم بلا أحلام.

حدثت المعجزة في اليوم التالي، حيث كان الطقس جميلًا، ولا أثر للرياح العاصفة. خرجت من الخيمة ليغتالني جمال الطبيعة، وهدوؤها.

قال لي أحد البدو مبتسمًا: «يوم بصل، ويوم عسل».

اللغة العربية مليئة بمثل هذه الأقوال، والأمثلة. حقًّا هذه هي الحياة. بالأمس كان يومًا عاصفًا، واليوم تشرق الشمس ليسود الهدوء بعد العاصفة.

قلت لهم: «سأذهب للتأمل، وممارسة اليوجا».

بدأت في تسلق أحد التلال. لاحظت تموجات لون الرمال تحت أشعة الشمس، وبصمات الغزلان على رمال الصحراء، وبدأت أتلو صلواتي مرة أخرى: «إلهي،

فلتمد يد العون للمصريين، ولتضئ طريقهم صوب ما يحلمون به من تغيير للأفضل».

نظرت إلى الصحراء الشاسعة، وبدأت الأفكار تتدفق في رأسي. ربما يكون البدو والنساك هم الأقرب للوصول للحقيقة، فلقد عاشوا في هذه الصحراء تقودهم

الجِمال، ونجوم السماء.

شهدت صحراء مصر بزوغ الفراعنة، ومهد المسيحية التي انتشرت في العالم أجمع، كما شهدت تقدم العلماء، والمؤرخين المسلمين الذين ألهموا الغرب ليخطو

خطواته صوب الحداثة. ألم نستطع جميعنا التواصل مع بعضنا البعض عبر الحواجز، تمامًا كما يفعل البدو؟

تداعت الأفكار إلى رأسي في حوار طويل مع النفس التي انطوت تحت أجنحة الخلود الذي أسر صحراء مصر. مَن يدري بما تحمله السنوات القادمة في جعبتها لأرض الفراعنة؟ تلك الأرض الطيبة التي طالما استطاعت أن تحيا رغم كل ما كابدته من سنوات الشقاء، والعناء.

جدول المحتويات

مكتبة الكندل العربية

همسة للقارئ/القارئة

تنويه

بقلم: بطرس بطرس غالي

الفصل الأول

أسيل الذهب السويدي

الفصل الثاني

الحب والفقد

الفصل الثالث

من المنحدرات الشمالية إلى صحراء الشرق

الفصل الرابع

عضوجديد في العائلة

الفصل الخامس

جاردن سيتي

الفصل السادس

من الفراعنة إلى أناقة وسط المدينة

الفصل السابع

إلى الشارع

الفصل الثامن
الحرباء وسلحفاة البر
الفصل التاسع
خنادق في الحديقة
الفصل العاشر
الرقص في الإسكندرية
الفصل الحادي عشر
موت رئيس
الفصل الثاني عشر
قراءة الفنجان
الفصل الثالث عشر
حياة مُترفة
الفصل الرابع عشر
الحديث إلى شجرة الجميز
الفصل الخامس عشر
حشيش على العشاء
الفصل السادس عشر
الحياة مع العشيرة
الفصل السابع عشر
العودة إلى مربع واحد
الفصل الثامن عشر
العصور المظلمة
الفصل التاسع عشر
ما بعد الحادي عشر من سبتمبر
الفصل العشرون

[اجتياح أم عهد جديد؟!]